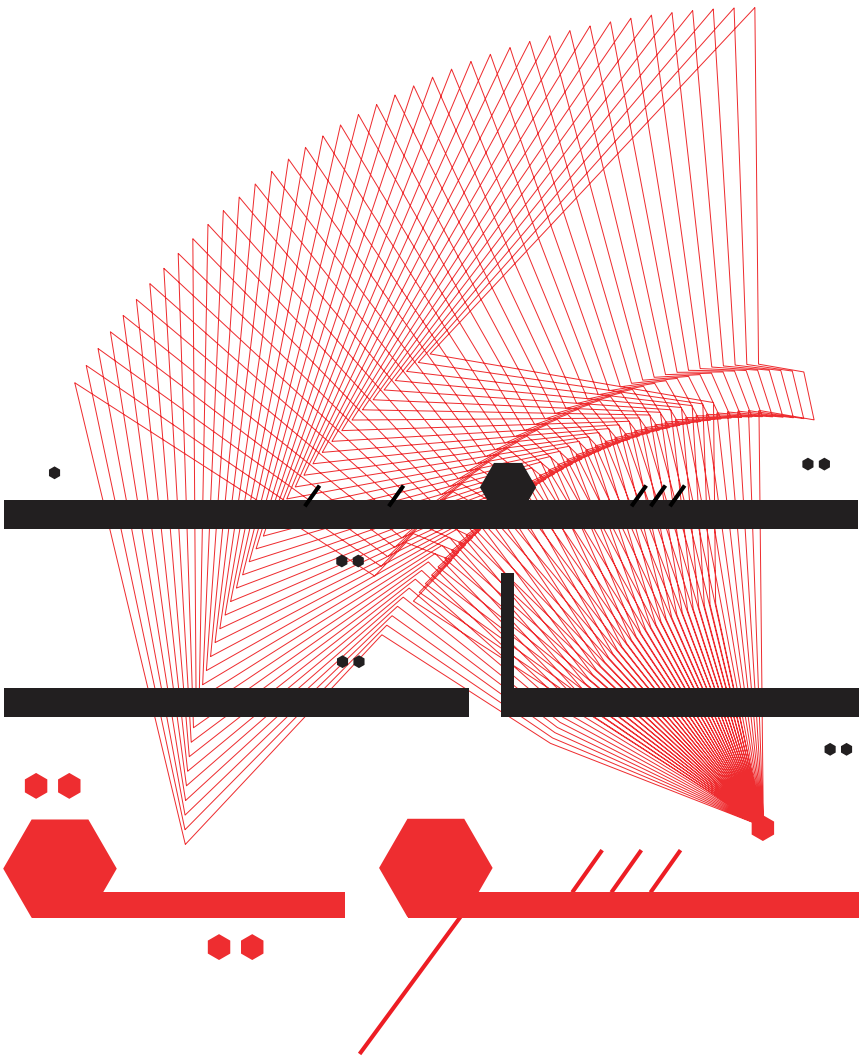

١٩٩٠ — ١٩٩٩

ورشـــة المعارف

فهرس

المقدمة _____ **١**

١) رسالة حب إلى فرح _____ **١١**

نجوى صبرا

٢) تجربة ث. _____ **١٥**

٣) إعطاء المعنى وفقدانه - قصّة امرأة في بيروت بعد العام ١٩٩٠ _____ **٢١**

- ميرا طفيلي

٤) عن المدن والنسـاء والأجسـاد: حوار بين إيتيل عدنان وهوغيت كالان _____ **٣١**

- ريم جودي

٥) إسهامات غاليري جانين ربيز في دعم التجارب النسائية في الفن بين العامين ١٩٩٠ و٢٠٠٠ _____ **٣٩**

- رشا ملحم

٦) الفنُّ في سياق أسطورة الأبديّة: مغنّيات ومؤدِّيات في لبنان، في التسعينيات _____ **٥١**

- أريج أبو حرب

٧) النسوية والتعبير عن الذات في المسرح اللبناني في مرحلة التسعينيات _____ **٥٧**

- وطفاء حمادي

٨) واقع النساء الاقتصاديّ في مدينة صور، في تسعينيات القرن العشرين _____ **٦٩**

- نانسي غزيل

٩) مواقع المقاوَمة: نشاط النساء في ظلّ الإصلاح النيوليبرالي في لبنان خلال التسعينيات _____ **٧٩**

- لونا دايخ

١٠) تجربة وداد حلواني ولجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان _____ **٨٩**

- فريق التحرير

١١) مقابلة مع ليلى العلي، ناشطة نسوية فلسطينية _____ **٩٣**

- ليلى العلي

١٢) أن نروي تسعينيّات لبنان بلسان النِسويات _____ **١٠١**

- فاطمة الموسوي

١٣) سـيرورات التهميش في التسـعينيات: الإنتاج الثقافي والتجارب المعاشـة قبـل الحـركات الكويرية في لبنان _____ **١١٥**

- ماريـان غطاس

١٤) التنظيم من أجل البقاء: ثلاث عاملات مهاجِرات يتذكَّرن التسعينيات _____ **١٢٥**

- سينتيا عيسى

١٥) تجربة: ميريام صفير _____ **١٣٩**

١٦) الوعي النسوي خلال التسعينيات في لبنان: رحلة اكتشاف وأمل وتحوّلات _____ **١٤٥**

- لينا أبو حبيب

١٧) من عزلة الحروب إلى رحاب بيجِنغ _____ **١٥٥**

- عزّة شرارة بيضون

١٨) بعد الحرب الأهلية: الناشطات والنسويات في التسعينيات _____ **١٦١**

- جين سعيد المقدسي

فريق التحرير:
ديمة قائدبيه
صفاء ط.
زينب ديراني

ترجمة:
فيفيان عقيقي

تدقيق لغوي:
رامي قطار

تدقيق المراجع:
كارلا عقيل

تصميم:
نانسي ناصرالدين

فريق المراجعة:
باسكال غزالي
تالة حسن
ريان أبو جوده
سحر عسّاف
سلوى جرادات
ماريان غطّاس

حقوق النشر محفوظة - ورشة المعارف ٢٠٢١

https://www.alwarsha.org
تمت الطباعة في مطبعة فغالي

إن الفكر والآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعكس بالضرورة نظرة وآراء ورشة المعارف.

هذه الإصدارة مموّلة من المساعدات الشعبيّة النروجية وماما كاش.

إن محتوى هذه الإصدارة يعبّر عن آراء المؤلفات ولا يمثّل بالضرورة آراء المساعدات الشعبية النروجية أو ماما كاش

The content of the publication is the responsibility of the authors and does not necessarily reflect the positions of the Norwegian People's Aid or of Mama Cash.

Norwegian People's Aid
Lebanon

ISBN 978-9953-0-5459-9

تسعينيّات نسوية: إطار، ومسار، وحوار

في الإطار، بقلم ديمة قائدبيه

في العام ٢٠١٧، في مقابَلة أجرتها «ورشة المعارف» مع الكاتبة جين سعيد مقدسي، دعتنا جين، نحن، «النسويات العربيّات» إلى «القيام بواجبنا» والالتفات نحو تاريخنا كطريقة لاستكشاف حاضرنا ومستقبَلنا.[١] وضمن هذا الكتاب أيضًا، تكتب جين عن الناشطات والنسويات في التسعينيات، مُوجِّهَةً الرسالة نفسها: «لدينا الكثير من الفروض لإنجازها حول ماضينا.» إذًا، هناك الكثير لنتعلّمه، والكثير لنتفاجأ به، وهناك مواجَهاتٌ ينبغي لنا خوضها، وأسئلة صعبة يجب علينا طرحها، ومعظمها مع أنفسنا. لكن في النهاية، يبقى هذا الماضي هو الأساس الحيوي للعمل والتوسّع. كنّا، طوال الوقت، على دراية بضرورة اتباع نهج لِماضٍ مُتحرك ومُتعدِّد الطبقات، واعتماد إطار عمل يحتفي بالمُستقبَل وبالعديد من القصص.

كان اهتمامنا أيضًا مُتعدّد الجوانب في هذه الإصدارة، إذْ إنّنا أدركنا أهمّية التعرّف إلى الحركات النسوية والنسائية خلال ذلك العقد، في مساراتها، واهتماماتها، واستراتيجيّاتها المتنوّعة. سوف يميّز أكثر من مقال في هذه الإصدارة بين الحركة النسوية والحركة النسائية، حيث حاول بعض النسويات خلق سلالة لننتسب إليها اليوم، كما لاحظت فاطمة الموسوي في استكشافها المثير عن الحركة النسوية في لبنان خلال التسعينيات. في الوقت نفسه، أردنا التعرّف إلى السياق العام والنظر إلى الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال التسعينيات، بعيون نسوية تعطّل الافتراضات الجندرية القمعية والمُبسّطة.

ومع تحوُّل انتباهنا إلى الحركة النسوية في التسعينيات، كنّا ندرك حاجتنا إلى طرح أسئلة مُرتبطة بنا اليوم، والتي ربّما لم تكن مهمّة في ذلك الوقت.

لذلك، منذ بدء التفكير في هذه الإصدارة، كنّا متحمّساتٍ لإمكانيّات التواصل عبر الأجيال والمجتمَعات، وعبر أطر مختلفة من المراجع، للحديث عن القضايا النسوية؛ أردنا أن تتوقّف هذه الإصدارة عند النضالات الطويلة والصعبة للنسويات والمنظّمات النسائية في التسعينيات وأن تقدّرها، وكذلك دفعنا الأسئلة الناقدة الموجّهة إلى المُنظَّمات والأفراد حول تلك الفترة. شئنا أيضًا معرفة كيفيّة نموّ الحركة وتغيُّرها، وكيف تُهمّش القضايا خلال فترة ما، وكيف تكتسب الزخم بعد أعوام طويلة من التهميش والعمل عكس التيّار، وكيفيّة البناء على عمل بعضنا. سعينا أيضًا إلى فهم كيفية بروز المشهد الذي وصلنا إليه في بداية القرن الحادي والعشرين، وأسباب شعور كثيرات منّا بأنّهنَّ يبتكِرنَ القضايا ويتحدَّثنَ عنها للمرّة الأولى. هذه التّساؤلات نطرحها على أنفسنا الأصغر سنًّا، وعلى النسويات الشابات والمخضرَمات.

لماذا اخترنا التسعينيات من بين الفترات كلّها في لبنان؟ نشأت فكرة الكتاب للمرّة الأولى من خلال تصوُّر عبقري لمؤسِّسة «ورشة المعارف» (ومديرتها المشارِكة حتى العام ٢٠٢٠)، سارة أبو غزال، في قرابة نهاية العام ٢٠١٩ وأوائل الـ٢٠٢٠. أدركت سارة أننا سنعجزُ عَنِ التنظيم خلال العام ٢٠٢٠ كما كنّا نفعل دائمًا (وكان ذلك قبل أن نسمع عن جائحة كوفيد-١٩)، وبالتالي يجب علينا أن نوجّه جهودنا نحو إصدارة تغوص في صميم مهمّة «ورشة المعارف» ورسالتها، بُغيةَ التذكّر، والتواصل، وإنتاج محتوى وتاريخ نسويَّين.

١. جين سعيد مقدسي، ورشة المعارف، https://www.alwarsha.org/?p=304.

ومع مرور الأسابيع والأشهر الأولى من العام ٢٠٢٠، نضجت الفكرة لتستقرّ على فترة التسعينيات.

كانت تسعينيات القرن الماضي عقدًا قد بدأت النسويات تتذكّره منذ مدّة، خصوصًا أنَّ العام ٢٠٢٠ تزامَنَ مع الذكرى الخامسة والعشرين للمؤتمَر العالمي الرابع للمرأة، أو مؤتمَر بكين، الذي سوف تقرأن عن أهمّيته بالنسبة إلى النسويات في لبنان في العديد من فصول هذه الإصدارة؛ فقد تبع هذا التجمّع الضخم إنشاء منظَّمات نسوية ونسائية من أجل العمل على قضايا وجدت حياة وطاقة جديدتَين بعده، ما دَفَعَ قدمًا عصر طُغيان العمل ضمن المؤسسات غير الحكومية على الحركة النسوية، وتأطير نضالات الحركة ضمن هذه المنظَّمات. كان هذا التحوّل مهمًّا بالنسبة إلينا لإعادة النظر فيه، مع مراعاة التغيّرات الاجتماعية والاقتصادية الأكبر. فهل ساهمت هذه التغيّرات في تجسيد حدود جديدة للحركة، وربما عزلها أحيانًا عن الحركات الاجتماعية والسياسية الأخرى؟ بالإضافة إلى ذلك، وخلال الفترة الأخيرة، استحضر العديد من الناشطات والناشطين عقد التسعينيات في لبنان، لا سيّما في أثناء انتفاضة ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٩ وبعدها، بعدِّهِ العقد الذي أطلق الحريرية الاقتصادية والسياسية التي أدّت إلى الانهيار الذي ما يزال يتكشّف فصولًا في العام ٢٠٢١، مُدمِّرًا حياة الناس وسبل عيشهم. كما شهدت التسعينيات النهاية الرسمية للحرب الأهلية، لكنَّ جنوب لبنان بقي تحت الاحتلال الإسرائيلي، أمّا المناطق الأخرى فكانت تحت سيطرة البعثيين السوريين. فكيف كان الوضع بالنسبة إلى النساء والنسويات؟ لم يمضِ وقت طويل على عقد التسعينيات، لذلك فإنَّ كثيراتٍ منا يتذكّرنه، فضلًا عن أنَّ الكثيرات من النسويات والناشطات حولنا كنَّ فاعلاتٍ خلال تلك الفترة، لكنه في الوقت نفسه بعيدٌ في الزمن بالنسبة إلى النسويات الشابّات اللواتي لا يعرفن شيئًا عنه.[٢]

«آفة حارتنا النسيان»: استعانت سارة أبو غزال بكلمات نجيب محفوظ في «أولاد حارتنا»، في مقالها في صوت النسوة، في العام ٢٠١٥، لوصف نمط النسيان المُتكرِّر بين النسويات في لبنان، والوقوع في «فخّ التجديد» القائم على النسيان والتقوقع بدلًا من التجسير والبناء.[٣] في الواقع، على الرّغم من أنّ فترة التسعينيات ليست بعيدة زمنيًّا، لكن كان من المُذهِل إدراك ما نسيناه كلّه عن ذلك العقد في «حارتنا النسوية» وعنها. نحن نعرف القليل جدًّا عن قصص جيل ما يزال حولنا، ولكن لم تُتَح لنا الفرص الكافية لطرحها وسردها، والاستماع إليها بشكل جماعي. ومن المُحزن أننا لا نتذكّر أسماء مجموعة كبيرة من النسويات والناشطات اللواتي قمن بأعمال هامّة، على الرّغم من أننا نبني على نضالهنَّ من أجل التأسيس للحاضر والمستقبَل. لكن في الوقت نفسه نتنبّه لعدم إلقاء هالة الكمال على عمليّة تذكُّر النسويات المُخضرَمات والأسلاف والتعرّف إليهنَّ، إذ يمكننا أن نقدّر النضالات وأن نرى في آنٍ (وفي بعض الأحيان، أن نتفهّم) الإخفاقات والأخطاء التي حصلت.

٢. للاطلاع على منشور يستكشف النساء والنسويات في عقد سابق، يمكن العودة إلى عدد "باحثات" عن "النساء العربيّات في عشرينيات القرن الماضي: تغيير أنماط الحياة والهُوية" (٢٠٠٣).

٣. سارة أبو غزال، "سبع عبر من العمل النسوي في بيروت"، صوت النسوة ٢٠١٥، https://sawtalniswa.org/article/471.

تسعى هذه الإصدارة إلى التحرّك بضع خطوات نحو معالَجة آفة النسيان والشفاء منها؛ ففي سياق التسعينيات، ومع نهاية الحرب نعرف أنّ الكثيرات من النساء والنسويات حاولن عدم التذكُّر، ليتمكّنّ من المضي قدمًا في حياتهنّ وعملهنّ الذي توقّف قسرًا لمدّة خمس عشرة سنة.[٤] من ناحية أخرى، على الرّغم من كلّ الحديث عن النسيان الجماعي في لبنان، تذكّرنا هذه الإصدارة بأنّ بعض المجموعات والمجتمَعات يعجز عن النسيان والمضي قدمًا (إسوة بتجربتَي وداد حلواني وليلى العلي في الفصلين ١٠ و١١ على التوالي). في الواقع، غالبًا ما تتعرّض هذه المجموعات للهجوم لأنها تتحدّث علانية، ولأنها لم تنسَ. نقرّ أيضًا بوجود الكثيرات من النساء اللواتي سيبقين بلا أسماء ولن يُسلَّط الضوء على مساهمتهنّ، وهو ما تشير إليه سينتيا عيسى (الفصل ١٤) ولينا أبو حبيب (الفصل ١٦) في مقالتيهما في هذه الإصدارة. قد يكون هذا «النسيان» بسبب الخوف أو الإهمال أو عدم القدرة على التوثيق، أو ربّما لأننا في بعض الأحيان نتذكّر بسهولة من هنّ/ كنّ في المركز وفي دائرة الضوء، أو لأنّ بعضهنّ لا يريد الظهور إلى العلن أو في مواقع القيادة، فيؤدّي عمله ويَمضي. عمومًا مهما كان السبب، فإنّ هذه الإصدارة تشكر هؤلاء النساء وتقدّرهنّ، كما تقدّر مساهماتهنّ أيضًا.

لطالما شعرتُ بأنّ التذكّر، والتأريض، والتواصل، ورواية القصص، وإنتاج المعارف، هي أعمالٌ روحية-فكرية، وبأنّها أعمالٌ سياسية أيضًا، كونها تهدف إلى إحداث تحوُّلات في حياتنا وفي القصص التي نرويها. وهذا أمرٌ لا أتخلى عنه، ولكنني ما زلت أجد نفسي أعود إليه مرّة بعد الأُخرى.

أعود إلى الإطار التالي في هذا الكتاب: أنّ أيّ لحظة من النشاط النسوي تحمل ماضيًا مُتعدِّدًا، وترتبط بالعديد من القضايا والأحداث المعاصرة الأخرى، وتنطوي على العديد من الاحتمالات التي تتجه نحونا ونتجه نحوها.[٥] بالطبع، قد لا نكون واعين أبعاد هذا الماضي والحاضر كلّها (أو «المواضي» و«الحواضر» المتعدّدة)، أو ربّما نحاول عمدًا استبعادها أو إبعاد أنفسنا منها. مع ذلك، أسعى من خلال هذا الإطار إلى الانفتاح على قصص من فترات ووجهات نظر مُختلفة، حيث أقترح هذا الإطار كبديل لتصوُّر تاريخ النسوية من خلال الموجات المجزأة، والتي عادةً ما تتّبع خطًا مستقيمًا chronology في علاقتها مع الوقت.

٤. هذه الفكرة حول حاجة النسويات إلى ترك الحرب والمضي قدمًا، وضّحتها لي فاطمة الموسوي خلال نقاشنا حول مقابَلاتها البحثية أو ما شاركته النسويات معها خلال هذه المقابَلات. تأملات من النسويات أنفسهنّ. للمزيد، بالإمكان الاطّلاع على بحث فاطمة في الفصل ١٢.

٥. في العام ٢٠١٤، أنهيت العمل على أطروحة الدكتوراه الخاصّة بي، إذ أمضيت بضع سنوات في محاوَلة تجميع تاريخ للنسوية في لبنان لتأريض الفكر النسوي الكويري ونشاطه، ولتوسيعهما. في ذلك الوقت، بدأت البحث عن طرائق لسرد تفكّك الافتراضات حول التسلسل الزمني وتعطُّلها، وتعطي النسوية عمومًا، والنسوية الكويرية خصوصًا، ماضيًا نشعر بأننا جزء منه، ويضعنا أيضًا في اتصال مع بعض القضايا التي يتعيّن علينا مواجَهتها. أمّا أكثر ما علّمني في هذا الصدد، فكانت كتابات النسويات السود، والسكّان الأصليين، والنسويات من أصول مكسيكيّة (وغالبهنّ مثليات/كويريات)، وتنظيراتهنّ، وانتقاداتهنّ للموجات، وتنظيرهنّ للعلاقات مع الزمن التي لا تتّبع فكرة خط مستقيم من التسلسل الزمني. قرأت لكاتبات وناشطات ومعلّمات مثل غلوريا أنزالدوا Gloria Anzaldua، وم. جاكي ألكساندر M. Jacqui Alexander، ومايلي بلاكويل Maylei Blackwell، وأليكسيس بولين غامبس Alexis Pauline Gumbs، وأوكي سيمين فورست Ohki Simine Forest وغيرهنّ. نظرت أيضًا إلى طرائق سرد القصص وهيكليّاتها في الإنتاجات الأدبيّة في منطقتنا (مثل ألف ليلة وليلة). ولطالما حشدت القصص ورواتها، القدامى والمعاصرون، حركة غير متسلسلة للأحداث، حيث تفسح قصّة واحدة الطريق أمام قصص أخرى، لتعود إلى نقاط البداية أو الإطار الأساسي للقصة. لمعرفة المزيد عن هذه الأطر والتواريخ، راجع "حركات الظلّ النسوية في لبنان"، Shadow Feminism in Lebanon, Sawt al Niswa, 2015 https://sawtalniswa.org/article/460.
وبالإمكان النظر إلى الجزء الثاني من هذا التاريخ في موقع "صوت النسوة" أيضًا: https://sawtalniswa.org/article/481.

على الرّغم من فائدتها، إلّا أنّ سرد قصّة أيّ حركة وفقًا لموجات، لا يعكس التاريخ المعقّد، وتشابُك الروايات، ووجهات النظر، والعلاقة مع الوقت.[٦] في الواقع، إذا استخدمنا الموجات كطريقة لتحديد الفترات التي تزدهر فيها الحركة وتكتسب زخمًا، فقد لا ننتبه إلى الفترات الأقل زخمًا، على الرّغم من حدوث تحرُّكات وإنجاز أعمال مهمّة. وإذا استخدمنا الموجات للتحدّث عن التحوّلات في الخطاب والاستراتيجيّات، أعتقد أنّه سوف يكون لدينا أكثر من أربع موجات يجب أخذها بعين الاعتبار، وقد نلاحظ أنّ بعض التغييرات المرئية ربما تحصل كلّ ١٥ أو ٢٠ عامًا، بالتزامن، ربّما، مع تغيرات في الوضع السياسي-الاجتماعي، وظهور جيل جديد من الناشطات. لكنّ ذلك لا يعني أنّ أشكال التنظيم والخطاب الأخرى والأقدم ليست موجودة إلى جانب الآليات الجديدة، حتى لو لم تحظَ بالقدر نفسه من الاهتمام.[٧]

لكن بمعزل عن الإطار المُستخدَم لرواية تاريخنا، أنا أؤمن بالنية النسوية الجماعية لنا لرواية القصص بمزيد من التعمّق والنظر في الأبعاد المتشعِّبة، ولإيجاد المزيد من نقاط التلاقي، فضلًا عن استكشاف الظلال أو الأسئلة والقضايا التي يصعب علينا، لسبب أو لآخَر، مواجَهتها كمجموعة أو كأفراد أحيانًا. وربّما يكون توقيت سرد هذه القصص عن التسعينيات مهمًّا أيضًا، فنحن نسبر في هذا الماضي فيما نشهد تغيّرات هائلة، وهجرات كبيرة، وعمليات استقطاب وتحريض. في الواقع، نعيش حاليًا في أوقات عزلة وانفصالات عديدة، ولكنّها أيضًا أوقات لترابط عالمي غير مألوف. من الواضح، إذًا، أنّ هذه الفترة سوف تشهد المزيد من الإفقار، ليس فقط اقتصاديًا، إنّما أيضًا تعليميًا وثقافيًا، وهذا هو الوقت الذي تكون فيه الحركة النسوية ضرورية للغاية لأنها تولي جميع طبقات وجودنا المختلفة اهتمامًا كبيرًا: الداخلية، والشخصية، والمحليّة، والعالمية، وتربط بين أشكال العنف المُختلفة والأساليب العديدة التي يقاوم بها الأفراد والمجتمَعات؛ فالنسوية التي نحبّها ونريدها تهتمّ أيضًا بكيفية وبأسباب وصولنا إلى هنا، وبوجهتنا المستقبليّة. ومن أكثر ما يثير اهتمامنا هو التلاقي مع حركات وقصص ونظريات وأطر نجهلها، لنستمر في التعلّم.

في الوقت نفسه، وبالنهج الذي نتبناه، أي النهج مُتعدّد الجوانب الذي يقبل التناقضات، ندرك أيضًا منفعة تحديد الأطر الزمنية والجغرافية أحيانًا،[٨] ولذلك كان تركيزنا على التسعينيات بشكل خاص، وعلى لبنان. مع ذلك، فسنوات الحرب الأهلية متجذِّرة في ذاكرة التسعينيات، بقدر ما يرتبط العام ٢٠٢٠ بتذكُّر عقد مضى. وكذلك، وعلى الرّغم من تركيزنا على قصص النساء والنسويات في لبنان، يستحيل سرد بعض القصص أحيانًا، من دون النظر إلى العوامل والعلاقات العابرة للحدود.

نُدركُ دائمًا وجود كثيرٍ من القضايا الّتي تحتاجُ إلى تغطيةٍ، لذلك، نأمل أن تجدن ما تبحثن عنه في الصفحات الآتية من هذا الكتاب. في أحد اجتماعاتنا، فيما كنا نتحسّر على عدم تغطية موضوعات ووجهات نظر مُعيَّنة في هذه الإصدارة، ذكّرتنا صفاء من فريق التحرير أننا «لن ننتهي أبدًا إذا قمنا بتغطية كلّ شيء»، وهو ما جعلنا نفكّر بأنه على الرّغم من مرور أشهر عديدة على الانغماس في هذا المشروع، بَيدَ أنّه ما يزال لدينا الكثير لنتعلّمه، إذْ إنّنا ما زلنا فضوليّات لمعرفة المزيد، ومتحمسات للمزيد من التعمّق، ولكن أيضًا للنظر نحو أطر وقصص أكثر إبداعًا.

نريد من هذا الكتاب إيقاظ شوقنا الجماعي إلى الاستماع المتبادَل، والتواصل مع بعضنا بشكل حميمي. وكان فريق التحرير كلّما يتحدّث مع الكاتبات والباحثات والعاملات على هذا الكتاب، يتشجّعنَ على إظهارِ قصص النّساء وأصواتهنّ أكثر فأكثر. في الواقع، يُعَدُّ سرد القصص مِنْ صميم عمل «ورشة المعارف»، وهي القلب النابض لهذه الإصدارة. وكما ستقرأن في القسم التالي، كان التعلّم، والتذكُّر، والتواصل مِنْ صلب عمليّة إعداد هذه الإصدارة.

٦. للحصول على أمثلة أخرى لاستخدام العلاقة الدورية ومُتعددة الاتجاهات للزمن، يمكن الاطلاع على "دراسات الذاكرة والأنتروبوسين: طاولة مستديرة"، نشر في Memory Studies (٢٠١٧) (شكرًا إسلام الخطيب على تعريفي إلى هذا المرجع).

٧. أتطرق إلى هذه الفكرة بإيجاز أيضًا، في مقالة تصدر قريبًا في تقرير العلوم الإنسانيّة العالميّ، الذي يعدّه المجلس العربي للعلوم الاجتماعية:
Kaedbey, Deema. "On Feminist Platforms in the MENA: Experiments with New Terms and New Terms of Engagements." World Humanities Report (forthcoming in 2021).

٨. أشكر هنا سليمان التي لفتت انتباهي إلى هذه المَلحوظة حول التركيب الزمني، عندما كانت تعلّق على المسوّدة الأوّلية لدعوة تقديم أوراق هذه الإصدارة. أشكر أيضًا لميا مغنيّة، وآية هشام، وميرا عسّاف كافانتاريس، وسارة أبو غزال، على تعليقاتهنّ على الدعوات المختلِفة لهذه الإصدارة.

عن المسار، بقلم صفاء ط.

عندما كنّا نفكر من أين نبدأ، بدا أنّ هناك الكثير لنقوم به. انطلقنا في تجميع كلّ ما استطعنا إيجاده من معلومات وكتابات وفنون أُنتِجت في تلك الفترة أو عنها، وقرأنا كلّ ما استطعنا الحصول عليه من أوراق بحثية تتحدّث عن الحركة النسوية في لبنان في التسعينيات. علاوةً على ذَلِكَ، شاهدنا الأفلام التي قاربت مَوضُوعَاتٍ جندرية، ووضعنا لائحة الجمعيات النسوية والنسائية التي نشطتْ في تلك الفترة. نسمع أحيانًا عن الممثّلين أو الممثّلات الذين/اللواتي يحاولونَ/يُحاوِلنَ عَيشَ أدوارهم/هنّ قبل تصويرها، لذلكَ أدركنا ضرورة محاوَلة استعادة الكثير من تلك الفترة قبل أن نبدأ بإنتاج شيء جديد عنها، فاستعدنا موسيقى التسعينيات وبعضًا من جمالياتها الفنّية، وقرأنا عن العمارة في بيروت في تلك الفترة، وعن إعادة الإعمار المشوَّهة، كما عن الأدب والروايات والمسرح. بالإضافةِ إلى ذَلِكَ، بحثنا في الاقتصاد والنيوليبرالية، وفي العمالة المهاجِرة وشكل نظام الكفالة في تلك الفترة، وفي الحقوق الاقتصادية للنساء حينها. إذًا، هناك الكثير مما بدأ حينها وما زلنا نعيشه حتّى اليوم، والقليل الذي تغيّر وأردنا البحثَ أكثر عن كيفية وصولنا إليه، بغيةَ التّطرُّق إليه والبحث فيه.

ولكنَّ هذه الأبعاد المختلفة التي طمحنا في استكشافها كانت في حاجة إلى عملية متعدّدة، ومتوازية، ومتعاقِبة.
بدايةً، فتحنا باب التقديم لمشاريع بحثية ذات صلة بموضوعنا، نواكبها وندعمها خلال فترة البحث والكتابة، فاخترنا المشروع البحثي للونا دايخ لما يحمله من النظر في البعدين الاقتصاديّ والاجتماعيّ في نقل سرديات لنساء ناشطات. ثمّ فتحنا دعوة أكثر شُمُولًا لتقديم مقترَحات للكتابات والأبحاث. كما شجّعنا الكتابات غير الأكاديمية والتأملية، تارِكاتٍ للكاتبات/الكتّاب حُرّيّة اختيار المَوضوعات التي أردن/وا الكتابة عنها، في ظلّ إطارٍ وحيدٍ، وَهُوَ أن تكون «التسعينيات من منظور نسوي». فضلًا عَنْ ذَلِكَ، بحثنا عن كتابات نقدية تحلّل القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعن قصص وسرديات بأساليب تجريبية وأكثر حميميّة.

كان ذلك في تموز وآب من العام ٢٠٢٠، وفي ظل انهيارين سياسيّ واقتصاديّ في البلد، ومع انتشار فيروس كورونا، ثم مع تفجير المرفإ وبيروت. لا نُخفي أننا تساءلنا عن مدى جهوزية الناس للتفكير المعمّق والكتابة في هذه الظروف القاسية؛ لكننا بالطبع كنا نُدرِكُ أنَّ الكثير مما نعيشه اليوم هو تداعيات العقود السابقة خصوصًا التسعينيات، وكنّا نعرف كذلك أنّ الكثيرين/ات من الأفراد والمجموعات قد بدأوا/نَ بالتفكير أيضًا في هذه الصلات الزمانية، بخاصّة بعد الانتفاضة الشعبية في العام ٢٠١٩. لذلك كان جميلًا ومؤثّرًا أن نتلقّى كمية ونوعية مُمتازَتَينِ من المقترَحات لمقالات عن المسرح والغناء والرسم، بالتوازي مع مقترَحات للبحث في الحركة النسوية في التسعينيات والواقع الاقتصادي للنساء، ومقالات أكثر شخصية عن تجارب عاشتها نسويات في تلك الفترة. وما كان فعلًا مثيرًا للاهتمام هو رؤية كيفيّة تقاطُع النصوص مع بعضها، وكيفية استحضار الأحداث نفسها من تلكَ الفترة، من قِبَلِ بَعضِ الكاتباتِ، كُلٌّ منهنّ بمنظورها المختلف، وبطريقة معايَشتها الأمور.

وعندما قرأنا للمرة الأولى رسالة عزة شرارة بيضون من أرشيفها الخاص، التي تقدّمت بها لننشرها في الإصدارة، شعرنا بحماسة لا توصف مع كلّ فقرة؛ ذلك فعلًا ما كنّا نبحث عنه، أي أن نقرأ عمّا كانت تفكر به النسويات حينها، ونستكشف كيفيّة تفاعلهنّ مع الأحداث، وما الذي لم يصل إلينا مما كنَّ يتناقشن فيه حينها.

كذلك استعملنا التاريخ الشفوي كأداة للتواصل والتذكّر، حَيثُ أجرت زينب مقابَلة تاريخ شفوي على مرحلتين مع ث.، العاملة المهاجِرة التي تعيش في صيدا. جاءت ث. من سريلانكا إلى لبنان في فترة التسعينيات وما زالت هنا حتّى اليوم، وقد تكون قصتها شخصية ولكنها تتشارك في تفاصيل حياتها وصراعاتها مع مئات الآلاف من العاملات المهاجِرات في لبنان. ولأننا نقدِّرُ أهمية مجلة «الرائدة» ودورها في الإنتاج المعرفي النسوي في مختلف المراحل منذ إنشائها، تواصَلنا مع ميريام صفير، مديرة تحرير «الرائدة» حاليًّا والعاملة فيها منذ التسعينيات. وقَدْ خَرَجَتْ مقابَلة التاريخ الشفوي التي أجريناها مع ميريام بكثيرٍ من التفاصيل عن أحداث تلك الفترة، وعن بيروت التسعينيات، وعن نسويات عملت معهنَّ. كذلك، أجرينا أنا وزينب مقابَلة تاريخ شفوي مع وداد حلواني؛ وداد الّتي تمثّل في مخيلتنا قضية أردنا منذ البداية أن نسمع عنها ونتكلم عليها. ولطالما أدركنا أنَّ انتهاء الحرب رسميًّا لم يكن حقيقيًّا، لأنَّ منطق العنف بقي لسنوات بعدها، ولأنَّ العفو العام عن جرائم الحرب والاستعجال للنسيان والعودة إلى الحياة «الطبيعية» جاءت لتُلغي أيّ احتمال لفترة عدالة انتقالية.

فَرَّغَتْ زينب مقابَلات التاريخ الشفوي كاملة، ثم اخترنا المقاطع واقتطعناها من التفريغ، أي تلكَ المتّصلة بالتسعينيات، وحوّلناها إلى نصوص نثرية شخصية. وقد حرّرنا النصوص، كفريق تحرير، بطريقة نعتقد أنها تُقيم توازُنًا بين كونها سهلة القراءة، مع الحِفاظ على قدر كبير من شفاهيتها ولغتها. ولكِنَّ الكتابة بلغة قريبة من العامية لم تَكُنْ أمرًا سهلًا، بسبب عدم وجود قواعد وأطر نعتمد عليها، لذلك، حاولنا قدر المستطاع المزج بين أصل الكلمات في الفصحى وطريقة لفظها بالعامية، واعتمدنا أساليب كتابة متنوعة بين النصوص الشفهية. أما في مقابَلة وداد حلواني، فقد استرجَعْنا أهم ما جاء في لقائنا، وكتبنا عنه في نصّ يتضمّن أيضًا بعض التأملات حول التفكير في قضية المفقودين، في لحظة يطالب فيها أهالي ضحايا تفجير المرفإ بالعدالة وبمحاسَبة المسؤولين.

وإلى جانب الأبحاث والكتابات ومقابَلات التاريخ الشفوي، كان هناك مَوضوعات وأصوات في صلب اهتمامنا ونظرتنا إلى هذا الكتاب وهدفه، ومن أهمّها: أن نبحث عن دروس لنا من تلك الفترة في أساليب التنظيم وأدواته مع نسويات وناشطات فلسطينيات ولبنانيات في المناطق شتّى في لبنان، وأن نسأل أكثر عن مشهد «الحياة الكويرية» قبل بداية تنظيمها حقوقيًّا وسياسيًّا، وأن نستكشف أكثر أوائل الأصوات المناهِضة للعنف ضد العاملات المهاجِرات، خصوصًا من العاملات أنفسهنّ. لذلك، جمعنا فريقًا متناغمًا من ثلاث باحثات لامعات، هُنَّ: فاطمة الموسوي، وماريان غطاس، وسينيتا عيسى، تشاركن في المَوضُوعات، بهدف التعمّق في فترة التسعينيات.

ومن أكثر ما استمتعنا به واستفدنا منه في العمل على هذا الكتاب، هو التواصل مع عدد كبير من الأفراد، والاستعانة بخبراتهنّ/هم في كلّ خطوة؛ فعملية مراجَعة المقالات والأبحاث، على سبيل المِثال، كانت مسارًا تعليميًّا جميلًا لنا كما للكاتبات المشارِكات، خصوصًا في تواصلنا مع أفراد من خلفيات أكاديمية وفنيّة ونشاطية مختلفة، ليُراجعوا/نَ الأقران للأبحاث، وقد شكّلوا/نَ فريقًا ملهمًا، تطرّقنا مَعَهُ إلى نقاشات جماعية حول الأوراق البحثية.

كما كنّا مُدرِكاتٍ كفريق تحرير أنّ بعض القضايا التي نبحث فيها هي قضايا الحركة النسوية المُعاصِرة، كذلك كنّا منتبهاتٍ إلى أنَّ اللغة وسياسة التحرير اللّتين نسلكهما أيضًا تعكسان هذه الحركة اليوم. لِذَلِكَ، اعتمدنا في سياساتنا التحريرية استعمال كلمة «النساء» بدلًا مِنَ «امرأة» لنشمل بها النساء على اختلاف هُويّاتهنّ. إلى جانِبِ ذَلِكَ، ناقشنا مع الكاتبات والباحثات في كثيرٍ من الأحيان مصطلَح «المرأة اللبنانية» الذي يُستعمل تلقائيًّا في غالبيّة الأوقات. كما سعينا إلى توسيع لغتنا، سائِلاتٍ عن كيفيّة مُساهَمة النساء الفلسطينيات والسوريات والأثيوبيات والسريلانكيات وغيرهنَّ في تعميق وعينا النسوي، وباحثاتٍ في كيفيّة مُشاركتهنّ في تشكيل التاريخ النسوي لهذه البلاد بما فيه التسعينيات. ونرى في فصول هذه الإصدارة أنَّ بعض النسويات خاضَ هذه النقاشات ذاتها في التسعينيات، وحاول كسر خطاب النساء وتعدّد قضاياهنّ بـ«المرأة اللبنانيّة». ويظهر بعد فصول هذا الكتاب وجود عنصرية بنيوية تتعارض مع بعض محاوَلات الحركة النسوية في التطرّق إلى القضايا بطرائق أكثر شُمُولًا.

عرفنا منذ بداية الطريق أننا نريد أن تكون الإصدارة بالعربية، إذ تجلّت في صلب عملنا الرغبة في إنتاج هذه المعرفة عن التسعينيات وإتاحتها بالعربية، لافتقارنا إلى مصادر نكتبها عن أنفسنا وتاريخنا بلغتنا. ولكن، كما كنّا نتوقّع، وصلنا بعض الأوراق البحثية بالإنكليزية، فعملنا على ترجمته وتحريره بمقارَبة نسوية، مُحافِظاتٍ على مفاهيم النصوص الأصليّة وروحها. لكننا أيضًا سعدنا بالنصوص والأبحاث التي وصلتنا بالعربية، إِذْ إنّها ذكّرتنا بوجود باحثات ونسويات قادراتٍ على إنتاج كتابات رائعة بلغتنا.

وهكذا كان مسار العمل على هذا الكتاب خلال سنة من الأحداث المتلاحِقة: جائحة كورونا في العالَم، والانهيار الاقتصادي والسياسيّ في لبنان، والتّظاهُرات والاعتصامات الّتي قُمِعَتْ بالعنف، وانفجار المرفإ في بيروت، والمزيد من قمع الاحتجاجات، وتفقير الناس، والهجرات الجماعية، والفضائح الّتي تتابَعَتْ في المشهد السياسيّ-الاقتصاديّ، والاغتيال السياسيّ. تبدو الأحداث كثيرة كأنه لا يمكن حصرها، ولكنَّ المفارَقة كانت دائمًا أننا كلما بحثنا أكثر في التسعينيات، فهمنا أهمية تعمُّقنا في هذه الحقبة، لنعرف عن واقعنا اليوم. في الواقِع، إنّ إدراك أهمّيّة هذه التراكمات من المعرفة عن تاريخنا بمنظور نسوي، هو ما أبقانا قادراتٍ على مواصَلة الكتابة والمُراجَعة. وندرك الآن بعد هذا المسار أهمية النظر إلى الماضي مع هذه المسافة الزمنية، ومع معرفتنا بتداعياته التي أوصلتنا إلى واقع البلاد اليوم وواقعنا كنسويات بإخفاقاتنا وإنجازاتنا.

في الحوار، بقلم زينب الديراني

أوّل مرة سمعت فيها عن النسوية وتاريخها، وعن أسماء شخصيات شاركت في النضال النسوي عبر التاريخ، كانت من خلال الإنترنت. لم ترِوِ لي جدتي، ولا أمي، حكايات عن حياة نساء محليّات، على الرّغم من مشاركتهما القصص عن حياتهنّ وتاريخهنّ بشكل مستمر، واكتشافي أبعادًا نسوية في بعض تفاصيلها. أشارتْ لي صفحات البحث على النت إلى أنَّ النسوية «بدأت» في بلدان بعيدة لم أعش فيها. كان المحتوى مكتوبًا بلغات غير لغتي، وعن سياقات لا تشبهني. كنت في أوائل مراهَقتي حين حاولتُ، على قدر استطاعتي، تحليل الرابط بين تلك السياقات البعيدة وبين أيّ وجود نسويّ في لبنان، وتخيُّله. لكنَّ القصة التي كنت أحاول أن أشكّلها لم تسندها معلوماتي عن تاريخ هذا البلد وواقعه، ولا عن قصص النسوية وتاريخها وأشكالها، التي عرفتها من خلال الموجات النسوية العالميّة؛ فآنذاك، كُنتُ أجهَلُ وجود تواريخ وقصص نسوية أخرى لم تصلني بعد، وأطر أخرى للحديث عن التاريخ النسوي.
أردت أن أفهم: ماذا تعني النسوية بالنسبة إليّ؟ وكيف أناقش مع أمي أو رفيقاتي في المدرسة المصطلَحات النسوية التي أقرأ عنها إن لم تكن بلغتنا، وإن لم تنطبق أجزاءٌ منها مع واقعنا الجغرافي والطبقي والمحلي، مِنْ دون أن نشتبك نحن وتتشابك المفاهيم؟

كان هناك تاريخ محلّي ونسوي في هذه المنطقة لم أعرف عنه، إذ إنَّ هناك نسوياتٍ في البلد نفسه، وفي المدينتينِ اللّتَين أعيش فيهما (صيدا وبيروت) نَفسَيهما، ناضلن في سياقات عنيفة، ومع هيمنة واحتلالات متوازية ومتشابكة، أي عملن في أغلب الأحيان في ظلّ ظروفٍ غير حاضنة للعمل النسوي، لمساعي التغيير الاجتماعي، وللتكلّم على قضايا مهمَّشة.
لو عرفتُ حينها بوجودِ تاريخٍ نسويٍّ يجمع بيني وبين أمي، بين نضالات الأجيال التي سبقتنا، وبين صراعاتنا اليوم، وبين نساء من بلدان ودوائر أكثر بُعدًا واتّساعًا، لكان في وسعي استخدام هذا التاريخ للتّحدُّث مع أمي ومع رفيقاتي، ومع نساء أخريات، ومع نفسي، بطريقة أفضل وبنَّاءة أكثر، بلغة نفهمها. إذًا، كان في وسعنا أن نستمدَّ الدعم من تجارب وسياقات مشابِهة اختبَرنها ونختبرها نحن اليوم، وأن توضّح لنا أنماطًا متكرّرة، لندرس كيفيّة التعامل معها في السابق، وما يعنيه ذلك لنا في الحاضر عن أساليب عملنا وتنظيمنا.

ولهذا كان مسار العمل كلّه على هذا الكتاب، والحوارات والنقاشات الّتي حصلت حوله ومن خلاله، مرحلة تعليمية مهمّة بالنّسبةِ إليَّ، وهذا ما مثّله اللقاء النسوي العابر للأجيال الذي نظّمته ورشة المعارف في تشرين الثاني من العام ٢٠٢٠؛ كان هذا اللقاء— بالنسبة إليَّ، وبالنسبة إلى فريق التحرير، وربّما من جهة الّذين/اللّواتي حضروا /حضرنَ كلّهم/هنّ أيضًا— مساحة نادرة لتبادل القصص عبر الأجيال.

اخترنا أن يكون اللقاء الأوّل (إذْ أردناهُ أن يكون بداية لقاءات متعدّدة وأكثر شُمُولًا) مغلَقًا، للحفاظ على درجة من الحميميّة. وقدْ تألّفَ من لائحة طويلة من النسويات اللواتي نعرفهنَّ أو نسمع عنهنَّ، حَيثُ توجّهنا بثلاث عشرة دعوة شملت أفرادًا في بدايات تعرّفهنَّ/هم إلى النظريات والمجموعات النسوية، وأشخاصًا انخرطوا/نَ في العمل النسوي منذ ثلاث سنوات، ومنذ عشر سنوات، ومنذ أكثر من ثلاثين سنة، أتوا/نَ من داخل دوائرنا المقرّبة ومن خارِجها. ونخصّ بالذكر هنا الناشطة النسوية لينا أبو حبيب التي توجّهنا إليها مع فكرة هذا اللقاء، فاقترحت أسماء لنسويات في مختلف طور رحلتهنّ النسوية، وبالطبع كانت معنا خلال اللقاء نفسه، وهي التي شجعتنا على إقامة لقاءات أخرى مشابِهة.

كان اللقاء أيضًا فرصة لنا لنشارك بعض القصص التي سمعناها من خلال عملنا على تسعينيات نسوية، ولنستمع إلى أسئلة النّسويّات الشّابّات وآرائهِنَّ.

وفي هاتين الساعتين اللتين التقينا فيهما، استمعنا إلى قصص ومَوضوعات كثيرة من التسعينيات، وسألْنا عَنهَا، سوف تتردّد بشكل موسَّع ومن منظور مختلف في هذا الكتاب، من بكين، إلى شبكة عايشة، ومحكمة النساء، والاستراتيجيات المختلِفة التي ابتكرتها النسويات لمُواجَهة تحديات ذلك الزمن. تحدّثتِ النسويات اللّواتي حَضَرْنَ مؤتمَر بكين عن كيفيّة تعرّفهنّ إلى مفاهيم وأطر جديدة للعمل النسوي، وعن تحديات إدراج هذه المفاهيم والمصطلَحات في أعمالهنّ. والجدير ذكرُهُ أنَّ هذه المفاهيم أصبحت أساسية في الخطاب النسوي في القرن الواحد والعشرين.

سمعنا بعضًا من الواقع الخاص بالحركة النسوية الفلسطينية في لبنان، التي تتعمّق فيها «ليلى العلي» في مقابلة أجرتها معها فاطمة الموسوي وسينتيا عيسى. في الواقع، استُخدِمَتْ عبارة «الحركة النسائية» بشكل يفرّق بينها وبين «الحركة النسوية»، وكان ذلك أوّل سؤال من أسئلة النسويات الأصغر سنًا. وكان هناك أسئلة أيضًا عن أشكال تطوّر الخطاب النسوي منذ التسعينيّات حتى الآن، حَيثُ فتح اللقاء تساؤلاتٍ حول كيفية ضمان استمرارية العلاقات بين الأجيال، وكيفيّة تواصُلنا بشكل مستمرّ، من دون أن يشكّل التواصل عبئًا إضافيًّا على جدول أعمال مُزدحِم دومًا بالواجبات والأعمال التي تبدو طارئة وأكثر إلحاحًا، وعن أساليب حِفاظنا مَعًا على روحية العمل الجماعي التي نجدها عند التنظيم مَعًا لفعّالية مُعيّنة، وعن كيفيّة استمدادنا القوة والدعم من هذه الصلات لفترات أطول بعد انتهاء هذه الفعّالية.

ناقشنا قبل اللقاء وخلاله، سبل توسيع روحية اللقاء النسوي العابر للأجيال وتعميمه. نعرف أنه من غير الممكن لكتاب واحد أو لمجموعة واحدة أن يغطيا الأسئلة والجوانب كافّة التي تحيط بالنسوية خلال عقد كامل، وأنَّ اللقاء والتعارف وتشارُك التجارب والدروس هِيَ ممارَسات مهمة لتعزيز عملنا جميعًا، وأن /الكثيرات/ين من الفاعلات/ين في العمل النسوي أوالمهتمّات/ين به، لَسنَ/ ليسوا /كاتباتٍ/كتّابًا أو باحثاتٍ/باحِثينَ، لِذَلِكَ قد لا يكتبن/ون شهاداتهنّ/هم وفِكَرهنّ/هم. في الأخير، يبقى هدفنا في ورشة المعارف، من خلال هذا الكتاب، والمشاريع المختلِفة التي نعمل عليها، هو التشجيع على تذكّر تاريخنا وقصصنا وإعادة استكشافهما. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه القصص قد تتناغم مع السرديات الّتي يضمُّها هذا الكتاب، وقد تتناقضُ معها.

تقسيم الكتاب

في الفصل الأوّل، تكتب نجوى صبرا رسالة حبّ إلى أختها، وتتذكّر الأغاني التي نشأتا عليها في التسعينيات. يعرض الفصل الثاني تجربة ث.، التي أتت من سريلانكا كمراهِقة للعمل في لبنان في فترة التسعينيات، حيث تلتقط تجربتها الأمور الحياتية اليومية ومواجَهتها العنصريّة والظلم. وفي الفصل الثالث، تستكشف ميرا طفيلي ذكريات امرأة عاشت في بيروت خلال التسعينيات لدراسة ما تعنيه مدينة ما بعد الصراع بالنسبة إليها، وكيفيّة تطابُق ذلك مع افتراضات الباحثة حول تلكَ الحقبة.

يبدأ الفصل الرابع من اللحظة الراهنة، حيث تحمل ريم جودي حزن العام ٢٠٢٠ وغضبه، لتتأمّل في كتابات إيتيل عدنان وهوغيت كالان وفنّيهما؛ ففي مقالها بعنوان «عن المدن والنساء والأجساد»، تضع جودي كلتا الفنانتين في محادَثة مع بعضهما، وتتحدّث معهما من خلال عملها للتفكير في الانتماء، ومدن ما بعد الحرب، والنفي والتحوّل. استدعت الباحثة رشا ملحم أيضًا كالان في الفصل الذي كتبته عن غاليري جانين ربيز، إذ عاينت كيفية دعم المعرض للفنانين، خصوصًا الفنانات خلال التسعينيات. وفي الفصل السادس، تتعمّق أريج أبو حرب في تاريخ الموسيقى في المنطقة العربية، لتضع سياقًا لكيفية ظهور المغنّيات والفنانات في لبنان ولرؤاهنّ، في عصر الفيديو كليبات في التسعينيات. إلى ذلك، تستخدم الباحثة وطفاء حمادي ثلاث مسرحيّات من التسعينيات، لإظهار التحوُّل في الخطاب المركّز حول النساء وأجسادهنّ وجنسانيتهنّ، والذي عكس غالبًا تغييرًا في الخطاب النسوي في لبنان.

يركّز الفصلان الثامن والتاسع على الجوانب الاجتماعية-الاقتصادية لحياة النساء في لبنان؛ إذْ تستكشف نانسي غزيّل الظروف الاقتصادية لأربع نساء في صور خلال التسعينيات، وتبحث في القمع والعنف المنهجيَّين، مُبرِزةً كيف أدّت الهجمات الإسرائيلية على جنوب لبنان إلى تصعيد هذا العنف. إلى ذلك، تركّز لونا دايخ في الفصل التاسع على «مَواقع المقاوَمة» من خلال نشاط ثلاث نساء في بيروت، فتسرد قصة التسعينيات من وجهة نظرهنّ، وتعرض كيف اختَبَرنَ إعادة الإعمار النيوليبرالية لحقبة ما بعد الحرب، وكيف قاومن المعايير الجندرية، واختبرن تخريب الحركات التي سعت إلى إيجاد بدائل لهذا النظام الاقتصاديّ والاجتماعيّ.

في الفصل العاشر، يكتب فريق التحرير معًا عن تجربة وداد حلواني شهادة في لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان. وفي الفصل الحادي عشر، تُجري الباحثتان فاطمة الموسوي وسينتيا عيسى مقابَلة مع الناشطة النسوية الفلسطينية ليلى العلي التي تروي قصّة جمعية «النجدة الاجتماعيّة» وأعمال النسويات الفلسطينيات واللبنانيات في التسعينيات.

وفي الفصل التالي، تلتقط فاطمة الموسوي الجوانب والأصوات العديدة للنضال النسوي في التسعينيات في لبنان، وتنتهي بالإشارة إلى القضايا التي همّشتها النسويات خلال ذلك العقد. تتبعها ماريان غطّاس ثم سينتيا عيسى لمُحاوَلة ملء هذا الصمت؛ ففي الفصل الثالث عشر، تكتب غطّاس عن السياق الذي أدّى إلى عزل تمثيل النساء المثليّات والمُتحوِّلات جنسيًا ومَحوه، مُوضِحَةً ظهور أصوات ومساحات مُبكِّرة في نهاية التسعينيات، أوصَلَتْ في النهاية إلى نمو النشاط الكويري في القرن الحادي والعشرين. أمّا في الفصل الرابع عشر، فتروي سينتيا عيسى قصص ثلاث عاملات مُهاجِرات، لتظهر من خلالها ثلاث قصص عن نشاط بدأ في الثمانينيات، في زمن الصمت النسوي اللبناني حول هذه القضية، إلى حين خلْق المزيد من المساحات وأسس الإدماج والتضامن في الخطاب و/أو المُمارَسة.

يقدّم الفصل الخامس عشر شهادة أخرى، إذ تعود ميريام صفير بنا إلى أوائل التسعينيات، عندما انضمّت إلى مجلّة «الرائدة» بعد وقت قصير من تخرُّجها، واستكشفت المدينة والأنشطة النسوية خلال تلك الفترة. أمّا في الفصل السادس عشر، وبعنوان «الوعي النسوي في تسعينيات لبنان»، فتكتب لينا أبو حبيب تحليلًا عن الحركة النسوية في التسعينيات حين أعادت تجميع نفسها بعد سنوات من الحرب الأهلية، مُسَلِّطَةً الضوء على كيفية تحوُّل القضايا النسوية وطرائِق العمل في التسعينيات على الرّغم من المُقاوَمة ومُحاوَلات الاستيلاء، وتُظهِر أيضًا كيف ساهم مؤتمَر «بكين» والاجتماعات التحضيرية التي سبقته في هذا التحوّل. ويشكّل الفصل السابع عشر وثيقة أرشيفية شاركتها معنا عزّة شرارة بيضون، وهي رسالة مؤرّخة في العام ١٩٩٥، تعرض فيها فِكَرَهَا حول الاجتماعات التي ساهَمَتْ في انعِقادِ مؤتمَر «بكين». أخيرًا، ننتهي بالتأملات الشخصية لجِين سعيد مقدسي التي تأثّرت بالإحباطات المتولِّدة مِنْ مُشارَكتها في جهود تنظيم النساء والنسويات خلال التسعينيات، والتي أخذتها إلى طريق آخَر، وهو استكشاف تاريخ حياة النساء في عائلتها وفي مُجتمَعها.

بينما كنّا ننهي العمل على هذا الكتاب، وصلنا خبر موجع عن رحيل الأستاذة وطفاء حمادي التي كان لنا أطيب الذكريات في العمل معها من خلال نصها الوارد هنا. لقد استمتعنا وتعلمنا من نقاشاتنا معها، وتشجعنا من دعمها لنا. شكرًا وطفاء على كل ما قدّمته للفكر النسوي. ستبقين في ذاكرتنا وقلوبنا دائمًا.

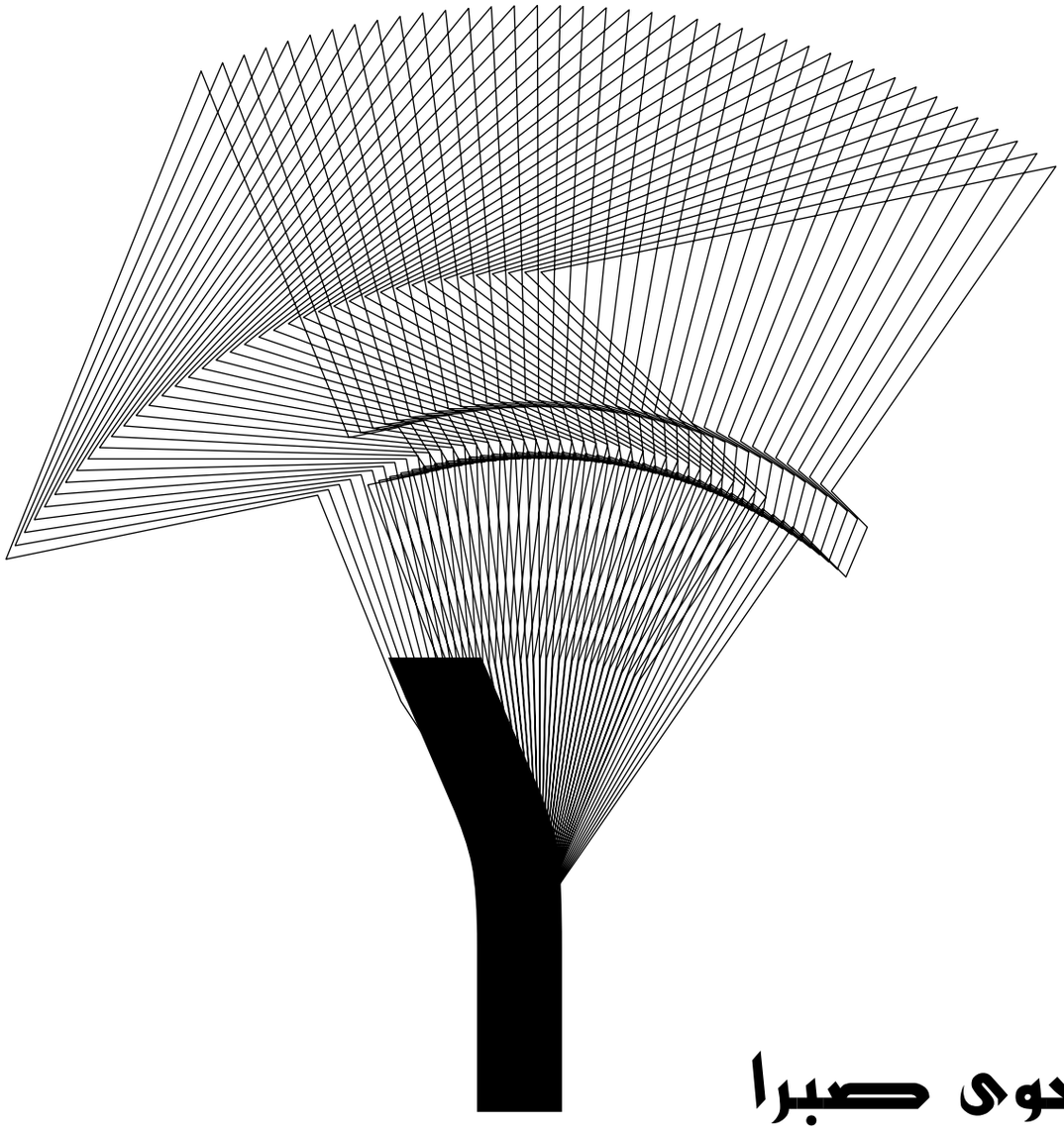

نجوى صبرا

عاملة اجتماعية وهي تكتب من وقت لآخر. ولدت عام ١٩٨٦، وتعتبر نفسها محظوظة لمعايشتها التسعينيات بكل مجدها.

رسالة حب إلى فرح

اعتدت اللهو مع أختي بلعبة البحث في ذاكرتنا (ذكرياتنا) عن أكثر أغاني البوب سخافة في حقبة التسعينيات، وإرسالها إلى بعضنا. كانت قواعد اللعبة صارمة، إذ يجب إرسال الأغنية مُرفقة بملحوظة تسرد إحدى القصص بطريقة مُفصّلة، من خلالِ انسياقِ السيناريو ببطء، إلى حين الكشف العظيم عن جوهر القصّة. كان على كلمات الأغنية أن تنزلق بمهارة لافتة إلى حين إسدال الستارة بعد عرض النهاية المثالية بالنسبة إلينا، ومن ثَمَّ توجيه ضربة قاضية لكاتبها الأساسي.

كانت فرح تفوز دائمًا، فهي كانت أفضل منّي في تذكّر أغرب أغاني تلك الحقبة بصفتها حارسة طفولتنا. لطالما أنهت جميع ملحوظاتها بـ«إيه»، وهو صوت ابتكرته، ولا يعني شيئًا بالنسبة لأحد غيرنا ، إذ يجمع بين الضحكة المزعجة والإعلان السَّهل للنصر؛ بعبارة أخرى مثير للجنون.

ما بدأ كمسابَقة سخيفة، سرعان ما تحوّل إلى حبل أفكار مُتصل، وإلى طريقة للبقاء في حياة بعضنا، على الرغم من إقامتنا في قارّتين مختلفتَين. كتبنا الكثير من المَلحوظاتِ التي كانت تتأرجح ذهابًا وإيابًا عبر الزمان والمكان، من دون أن تخطئ في مسارها، تمامًا كما الحمام الزاجل، وَاستخدمنا مشاهد من حياتنا اليومية كمقدّمة للأغاني: مغامَرات فرح في سيّارات الأجرة في القاهرة، وليالي الأرق التي ألهمتني لأتذكّر أغنية زياد غصن الحاقدة التي تعهّد فيها بتحطيم حبيبته السابقة («لو يبقى من عمري يوم، حالف بدي بكّيك، ... يا خيبة أملي فيكِ»)، وَاللوحات الإعلانية التي تنتشر في أيلول وتنبئ بـ«العودة إلى المدرسة»، وتذكّرنا بأغنية زين العمر (التي تُعدُّ أقرب إلى تحرُّش بالأطفال من كونها أغنية)، التي نشأنا على الاستماع إليها:

زتّ عنّك هل مريول
يلا لنطير سوية
حتى أصبر مش معقول
لآخر هل شتويّة
لأهلك بكرا رح قول
إدّامن في تلات حلول
يمّا قاتل أو مقتول، يمّا بتعطوني هيِّ

شكّلت هذه الأغنية تعبيرًا عن رومانسية تلك الحقبة، وعلّمتنا نحن تلميذات المدارس الصغيرات معنى الحبّ.[١]

في وقت لاحق، توقّفنا عن كتابة المَلحوظاتِ، لكنَّ الأغاني استمرّت في التدفّق؛ فعدا عن كونها ذريعة لنبقى على اتصال، أصبحت أيضًا طريقتنا المُعتمَدة لنرسل إلى بعضنا جرعات من العزاء الفوري سريعة المفعول من وقت إلى آخَر. تبيّن لي أنه يكاد لا يوجد أمر يعجزُ عمرو دياب عن إصلاحه: «حبيتك وما كنش في بالي الحب الحقيقي يضيع، والله دي حال الدنيا بتفرّق في القلوب». تتمتّع أغاني البوب في حقبة التسعينيات بقدرة سحرية على تغيير الحالة المزاجية وتضميد الجروح؛ إذ نعثر ضمنها على إحساس بالألفة والحنين إلى الماضي، ونجد فيها أيضًا — إن جرؤت على قول ذلك - ارتياحًا هزليًّا في مواجَهة العبثية المُرعِبة لهذه الكلمات.

كانت فرح تختار أفضل الأغاني دائمًا. كنا، أنا وأختي، أو ربما جيلنا بأكمله، نستمدُّ الراحة من هذا الصوت المزعج الآتي من طفولتنا، والراسخ في أذهاننا نتيجة ساعات من مشاهَدة AMTV في صباح كلّ سبت، ومن تسجيل أشرطة لأغانينا المفضّلة مباشرة من الراديو (كانت لدى فرح خبرة لافتة، مكّنتها من التقاط الأغاني مباشرة لتسجيلها منذ بدايتها).

١. ما الذي أقوله؟ فعلًا، لم يتغيّر شيء؛ فبعد نحو عشرين عامًا، كان فارس كرم يُخبِر الفتيات الشّابات أنَّ الرجل الحقيقي لا تعنيه الفتاة المتعلّمة، والعاملة، والمستقلّة، ولا يُدافِعُ عَنهَا.

سجّلنا كلّ شيء، كلّ الأغاني المتداوَلة بكثافة في ذلك الوقت: I wanna Love You لسوليد هارموني (لقد قبضنا مرّة على قريبتنا الصغيرة تردّدها كالتالي: «Amamamove You»)، وأغنية Magapay لأنجلينا ديميتريو (أنا متأكّدة من أننا جميعنا ارتكبنا مجازر في حقّ هذه الكلمات اليونانية)، وبالطبع الأغاني الكلاسيكية لفرقة BackStreet Boys، وSpice Girls، و... La Bouche.

لقد سجّلنا أكثر من مجرّد أغانٍ. ابتكرت فرح شخصية خياليّة وهي فرّوحة المِروَحَة، التي تمتلك لكنة غريبة، وصوتًا حادًّا، وضحكة فاقعة. كانت فرّوحة المِروَحَة بدينة ووقحة. لم تكتسبِ اسمَها بسبب وزنها، كما قد يعتقد المرء، وإنّما أيضًا بسبب غازاتها الشهيرة. كانت فرّوحة المروحة ذات صوت عالٍ ومبتذَلة وواثقة من نفسها وشرسة. رقصت، وغنّت، وناقشت وظائفها الجسدية بصراحة وفخر. كانت كلّ ما قيل لنا ألّا نكونه.

كنّا وقريبتنا عبير نملأ الأشرطة بمقابَلات خيالية وأغانٍ مختلَقة؛ كنّا الأسخف على الإطلاق، كنا سعيدات. مرّة، خلال إحدى جلسات التسجيل، ضحكنا بشدّة، ولفترة طويلة، لدرجة أننا لم نتمكّن من سماع والدي وهو ينادينا مرارًا وتكرارًا من الغرفة الأخرى. وفي حال استمع أحد ما إلى هذا الشريط الثمين اليوم، لا شكّ في أنه سوف يسمع ضحكاتنا الشديدة تقطعها صيحة غاضبة عالية تقول: «كلوا خرى!». لا يزال صوت أبي المُسجَّل على شريط وهو يشتمنا، من أكثر مآثر طفولتنا فخرًا. بعد الصدمة الأوّلية، متنا من الضحك. مرّة أخرى، ضحكنا بشدّة لدرجة أنّ إحدانا - لن أقول أكثر من ذلك كوننا أقسمنا على كتم السرّ - تبوّلت على نفسها.

عندما أنظر إلى الأوقات المُمتعة التي قضيناها في طفولتنا، أتذكّر الكثير من الذكريات السعيدة. أنا محظوظة بهذه الطريقة. أعود بالذاكرة إلى النزهات العائلية في لونا بارك، وإلى أحد مواسم عيد الميلاد عندما حصلت على هدايا أكثر ممّا كنت أتمنّاه، ومن ضمنها كلب يعمل على البطارية وينقلب رأسًا على عقب، ومنها إلى أصباح أيام الآحاد عندما سُمح لي بصنع المناقيش بنفسي في فرن أبو زياد (للأسف لم يعد موجودًا منذ ذلك الحين)، ثمّ أذهب لمشاهَدة عرض الدمى الذي تقيمه بانتظام جارتنا البالغة ١٨ عامًا لجميع أطفال البناية.

كنت أحبّ عروض الدمى، وأحبّ جارتنا اللطيفة التي كانت تختبئ خلف شرشف أبيض، وتنقلنا إلى عالم سحري.[٢] لكن لا شيء يجعلني سعيدة مثل فترات الظهيرة السخيفة التي نجتمع خلالها حول جهاز الستيريو الخاصّ بنا.

كانت تلك الأشرطة أغلى ما نملك؛ إنها ثروتنا. عندما أردنا مرّة معاقَبة أخينا الصغير لأنّه كان طفلًا مزعجًا في سنّ الحادية عشرة، عمدنا إلى تسجيل الأغاني فوق شريط أصلي لمايكل جاكسون يملكه. كانت هذه الأشرطة عبارة عن إثم يخفي أسرارنا الصغيرة. خبّأناها في صندوق تحت الدرج في منزل عبير في برج البراجنة، مع بعض الكتب المصوَّرة المصنوعة يدويًّا، والتي توضح تفاصيل مغامَرات فرّوحة الخالية من الهموم. أتساءل حاليًّا ما الذي حلّ بها!

كان لدى فرح جهاز استماع (Walkman). حسنًا، كان لديها العديد منه، لكنها كانت تصرّ دائمًا على أنَّ حظّها سيّئ مع الإلكترونيات، لأنها تنكسر، أو تختفي بشكل غامض، أو تُسرَق. لم تُمضِ يومًا واحدًا من دون موسيقاها. إنها أروع شخص عرفته. حاولت تقليدها في كلّ ما تفعله: في حسّها في الموضة، وذوقها الموسيقي، وأسلوب شعرها، كنت أرتدي قمصانًا واسعة، وبنطالًا واسعًا مثلها تمامًا، وقرّرت – فجأة - أنَّ مصطفى قمر وسيلين ديون هما المطربان المفضّلان لدي أيضًا. مرّة ضفرت شعري وتركته طوال الليل ليكتسب التجعيدات نفسها، لكنّني للأسف لم أكن ناجحة في ذلك المسعى. حاولت الذهاب إلى حيثُ تذهب فرح، وأن أكون صديقة أصدقائها؛ قدتها إلى الجنون. في تلك الفترة، كانت فرح قد كوّنت شخصيتها الخاصّة، فيما كنت لا أزال أسعى إلى ذلك، فحاولت أن أكون فرح؛ لم أستطع التفكير في شخص أفضل لأتمثّل به.

وَإذا كنت حتّى اليوم أجد راحة في موسيقى التسعينيات، على الرغم من جودتها المشكوك فيها، ذلك لأنها تذكّرني بالوقت الذي كنّا فيه، فرح وأنا، فريقًا واحدًا، وقريبتين من بعضنا، لا ننفصل على الرغم من جهودها. لقد كنت عنيدة، لا أتزعزع. كنت أشبه بتماغوتشي بالنسبة إلى فرح (أو زازو كما يُعرف في لبنان حيث نشأنا)، وهي أبقتني على قيد الحياة بأعجوبة.
أبقتني فرح على قيد الحياة، حرفيًّا، فهي أنقذتني عندما سقطتُ على رأسي خلف زاوية الكنبة، وهي تنقذني يوميًّا منذ ذلك الحين من خلال تمهيدها الطريق أمامي، وأخذ الخطوة الأولى الأصعب على عاتقها حتى لا أضطرّ إلى ذلك. لا أستطيع التفكير في التسعينيات من دون أن أرى وجه فرح أمامي، فرح تكسر القواعد وحاجز الصمت، وتحطّم السلاسل. فرح تحطّم الأسرة وتعيد بناءَها بشكل أفضل، تجعلنا جميعًا أفضل لوجودها بيننا.

فرح هي عائلتي بأكملها. لقد صنعتني - وتصنعني - تمامًا كما تفعل جيناتي.

فرح هي مرحلة التسعينيات من عمري؛ كانت درعي وصخرتي وأنا أتعلم كيف أكون فتاة في محيط يقف ضدّها منذ البداية. لقد تعلّمت كيفية التمرّد، لأنها علّمتني ذلك، لكن في غالبية الأحيان، لم أكن بحاجة إلَيهِ، لأنها كانت تخوض المعركة مسبقًا من أجل كِلتَينا.

فرح وأنا لدينا قول مأثور، فنحن نشير دائمًا إلى تناوبنا على تأدية دور الأخت الكبرى. لكنّني كنت أعلم في أعماقي أنني لا أستطيع الارتقاء إلى مستواها أبدًا؛ فرح تفوز دائمًا، وبجدارة، بلقب الأخت الكبرى. في الواقع، إنها تفوز في كلّ مبارياتنا. فرح الرائدة. أختي وحارستي. أنا مُدينة لكِ إلى الأبد. أحبُّكِ.

٢. لاحقًا، لم نعد نُدعَى إلى عروض يوم الأحد، وكنّا نشهد بصمت كيف تحاول عائلتها والجيران تحطيمها فقط لأنها تزوّجت رجلًا -طلّقَتْهُ بعدَ مُدَّة- من طائفة أخرى، ضدّ مشيئة أهلها. لقد تعلّمنا الإبداع منها، واكتسبنا درسًا مُبكرًا عن الثمن الباهظ الذي تدفعه أي فتاة مُتمرّدة لا تسير وفق أهواء المجتمَع. في الواقع، لم تعد الفتاة نفسها منذ ذلك الحين.

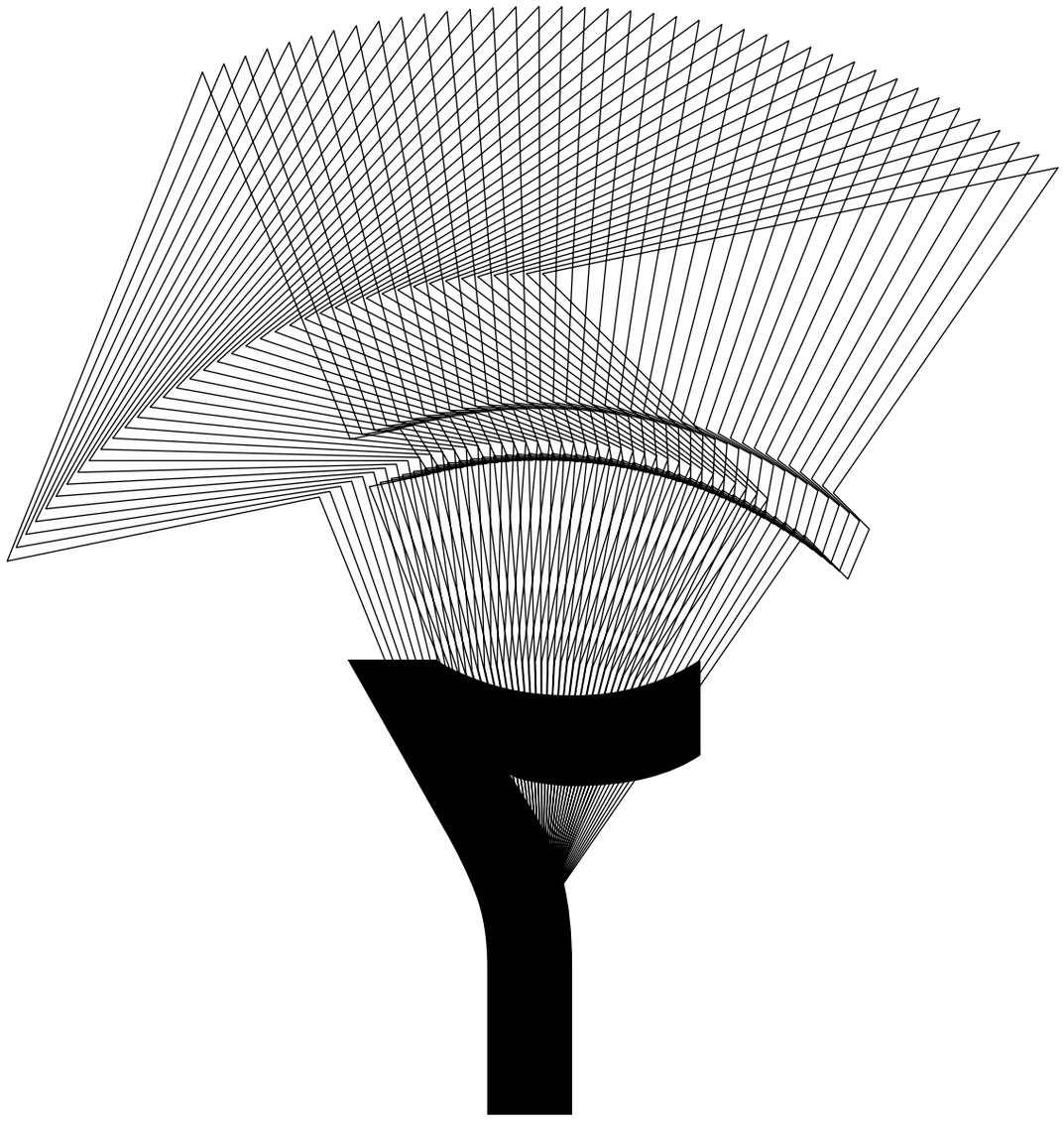

تجربة: ث.

أنا ث.، خلقانة بسيرلانكا، سنة ١٩٧٩، شهر ٥، يوم ١٨. بسيرلانكا كانت طفولتي والله حلوة كتير، يعني عيشتنا طبيعية. لحتّى صار عمري ١٥ سنة، كانت عيشتنا منيحة. ما كان في مشاكل، ما كنت بعرف أصلًا شو يعني مشاكل. نحنا كنّا ٣ أخوات، وبيّي كان يشتغل بالبحر. كان كتير منيح معنا. كنّا مش غنايا، بس يجيب كل شي بدنا ياه: أكل، شرب، هيك. كان يعطينا وقته.

ماما سافرت لهون على لبنان بال١٩٨٦. كانت تفكّر كيف غيرها بيجي عشان حياة أحسن، فهي إجت تعمل شي هون. كانت تشتغل، بس ما كان في مصاري، كانت كلّ شهر ما تقبض أكتر من ٧٠$. نحنا كنّا ولاد صغار. أنا كان عمري ٦ سنين لمّا هي سافرت. نحنا ورايحين نوصّلها عالمطار، قلتلّها «ماما، خذيني معك»، وقلتلّها «أنا كمان جاية معك ع لبنان»، بسّ إمّي قالتلي «لأ، بعدين.» بس مع الوقت، لحالها قالتلي «بدّك تجي ع لبنان؟»

إجت وما عادت تقدر ترجع على سيرلانكا. وقتها كان في حرب بلبنان ومشاكل كتير. ما كان في تليفونات، فكانت تبعت رسائل. كل رسالة كان بدّها شهر، شهر ونصّ لتوصلنا، وبعدين كمان لنردّ عليها. حرام إمّي، تساعدنا. كانت تعرف إنو أنا بآكل الصبح والظهر وبعد الظهر وعشيّة. فكانت تكتب بالرسالة: «ما تنسوا تطعموا ث.، طعموها بعد الظهر كمان.»

بس بيّي كان حنون كتير، يجبلنا كل شي وياخذنا عند تيتا. كان أكبر من إمّي بكتير. نحنا لحدّ هلق منقول متل بيّي ما في بالدّنيا. بيّي مات سنة ’٩٤، بشهر ٥. أنا جيت ع لبنان ’٩٤ شهر ٦، يعني بعد ما مات بشهر. وكان عمري ١٥ سنة.

جيت عشان إمّي، بس ما كنت عارفة شي عن لبنان. بعدين لما جيت لهون عرفت إنّو في ناس بيحكوا عربي. ما كان في انترنت لحتّى نحضر، وما كانت الناس تحكي. شفتي ليش كنّا مرتاحين؟ ما كان في إشيا كتير تعمل ضّغط للرّاس متل هلّق.

جيت على لبنان

أكتر شي كنت بعرف في حرب بلبنان، في مشاكل بلبنان. أول ما نجي بدنا نسافر، منكون بالمطار، بيجي حدا بيقلّي «ليش رايحين علبنان؟ لبنان في حرب، رايحين عشان تعملوا حرب معهن يعني؟» حرام إمّي قعدت بالحرب كتير. بسّ أنا ما أخذت بالي من الحرب كتير، لأنّ كنت صغيرة وما بعرف شو حرب. المهمّ أنا بعرف إمّي هون. لمّن وصلت على المطار، شفت إمّي، خلص ارتحت.

بوقتها لمّا رحت على المطار أوّل مرّة، بال٩٤، قبل ما تطلع الطيّارة، ونحنا واقفين برّا قبل الوقت، شفت الطّيارة كيف عم تطلع. قلبي بلّش يدقّ، وصرت أرجف. كانت طيّارة كبيرة كتير، طيّارة إسمها Gulf Air.

نزلت بشي بلد، مشّ عارفة كيف ووين، بس حسّيت إنّو نزلت الطيارة. نحنا ما نزلنا بالمطار، يمكن أخذونا من طيّارة لطيّارة. وصلت لهون على لبنان، لقيت المطار متل فيلّا مش متل المطار، يعني ما في شي، مش متل هلّق. قعدنا عالأرض، كنّا كم واحد نحنا، وكتير ناس وصلت بعدنا. بالمطار بعيّطولنا بالإسم، بيجي رجال بياخذ شي ١٠ باسبورات للبنات—مش متل هلّق في كاونتر. ضهّرونا لبرّا برّا، كان كلّن كفلاء واقفين على الطريق. عيّطولي. بيعيّطوا مثلًا «ث.»، بيصير الكفيل يعرف مين ث. عطيت باسبوري للكفيل. وهيك ضهرنا.

بخبرك شو صار معي أوّل نهار. إنّو مشّ معوّدة على لبنان. بس شفت الكفيل—وكانت فولا، فكّرتها شبّ! بعدين عرفت هي بنت. بتذكّر كان شعرها قصير وكانت لابسة شورت. كمان كان في واحدة من عنّا، من سريلانكا، مجوّزة واحد لبناني. إمّي قالتلي روحي عمليلها زيارة. رحت عملتلها زيارة. ضيفتني، قالتلي «اشربي شي»، قلتلّها لأ، ما بدّي. زوجها قعد حدّي. شفته: ناصح، طويل، قاعد بلا قميص، وأنا صغيرة. خِفِت، صار بدّي إطلع، وضهرت بسرعة. هو مات حرام، بس قبل ما مات كان يتذكّر ويضحك كيف خفت منه وكيف تطلّعت فيه أوّل مرّة.

أوّل ما جيت، كان لبنان منيح، ما حسّيت هالضّغط اللّي هلّق فيه، كنت مرتاحة، مبسوطة. كان في ناس من سيرلانكا بيضهروا، بيكزدروا. يعني كلّ أحد كنّا نروح رحلة من الكنيسة. كنّا نروح مثلًا على حريصا، منكزدر على الثلج، على فاريّا. كنّا مبسوطين والله. بسّ هلّق لأ، من كل الجهات مشّ منيح. لا بالشّغل، ولا بالطّريق، ولا بالعيش. كانت فولا تاخذنا وتجيبنا. كانت تساعد السريلانكيين. إذا صار في مشكلة، كانت تدخّل. فولا كانت تشتغل بالمحل. بس سكّرت يمكن سنة ٩٨، من بعد ما قوّصوا عالمحل، وبعد فترة ماتت.

كنت روح اشتغل بالبيوت كانوا يحبّوني، يمكن لأن كنت صغيرة. هلّق على كبر يمكن صرت أفهم أكتر، بفهم عليهم لغتهم. يمكن زمان، يعني مثلاً من الـ٩٤ حتى الـ٢٠٠٠ كانت الأشيا منيحة. قبل الكورونا، كنّا أوقات منروح رحلة، بسّ كلّو مع أجانب، يعني من سيرلانكا، بنغلادش، الهند. من قبلها كنّا كلّنا سريلانكيين مع بعض، ما في أجانب إلّا سريلانكيين وفلبينيين. بعدين صاروا أثيوبيين ومن بنغلادش. بسّ هلّق بسّ تشوفينا مع بعض، بتحسّينا نحنا بلدنا واحد.

كمان أوّل ما جيت، كنت بسّ شمّ ريحة الأكل اللبناني تقلب معدتي-- كيف اللبناني لمّا بشمّ ريحة أكل سريلانكي مع بهارات، هيك. كانت ن. لمّا تجي عالمحل يللي بتشتغل فيه مع فولا، تعمل سلاطة، وتاخذهم عالمحلّ، أنا تحت هونيكِ. شمّ ريحة التّوم! معدتي تقلب. كنت روح عالشغل، شو بآكل؟ بجيب خبز فرنجي، بقصّه، وبحطّ جبنة بيكون. هلّق بآكل كلّ شي. في أكل لبناني، مثلاً الكوسى بالبندورة إيه، بحسّ إنّي أكلت، بسّ الكوسى باللّبن، ما بعرف، بآكل بسّ ما بحسّ إنّي أكلت. أنا وصغيرة بسيرلانكا، ما كنت آكل لحم أبدًا، إخواتي بياكلوا لحمة. بيّي شو كان يعمل؟ كان يجيب عصاية ويضلّ حدّي، كنت حطّ شقفة لحمة بقلب الرّز لأبلعها، ما بدّي حسّ فيها. هلّق أنا هون بآكل، بروح على سيرلانكا، ما بآكل لحمة. مرتديلا أوّل ما أكلت عند ناس، أوّل ما جيت على لبنان، ركضت إستفرغ. لحدّ هلّق شو ما كان مع مرتديلا، ما باكلها، ما بحبّها. بحبّ سّاندويش الزّعتر، إيه، بسّ مرتديلا، لأ.

صار معي إشيا بتذكرها هلق عشّان اضحّك. كانت شغلات بشعة، بسّ أنا بضحّك إنّو كيف هيك بيعملوا؟ كنت اشتغل عند ناس، بعرفهن من لما جيت وكان عمري ١٥ سنة لحدّ ٢٠٠٢، يعني بعرفهن منيح، بشتغل عندهن كلّ يوم. الإشيا المنيحة بيحطّوها بالبرّاد جوّا، بسّ الشّي اللّي مشّ منيح، بتحطّو حدّي وبتقللي مدّي إيدك. وكان يحطولي أكل بالصحن، الزّلمة بيحطّلي أكل بالصحن، بتجي مرتو شو بتعمل؟ بتقسّمهن بتقلو هودي كتير، بتشيل من الأكل. هي تفكّر أنا ما بشوفها، بسّ أنا شفتها، زوجها عمّ بيحطّ أكل لإلي، هي بتجي بتشيل. هيدا أكتر شي بشع يمكن بحياتي. يعني لو ما عطاني أكل، ما أثّرت فيي. بسّ حدا يحطّ بصحن وتشيلها، شي كتير بشع! إذا إتّفقنا اشتغل لساعة، لو في بعد خمس دقايق، بتعطيني شغلة، ما بتقلّك «روحي»، على ٥ دقايق بتشغّلني. هيدي إشيا مشّ منيحة بتفكير النّاس.

لمّا جيت، كان بعد ما يصيروا ٣ أشهر، بدي أعمل إقامة. كان في إقامة، ما كان في مشاكل مثل هلّق يعني، إنتِ تشتغلي برّا وتشتغلي بأيّ مكان، بس المهمّ معك إقامة. هلّق صار الشغل برّا ممنوع.

أول شغل بلبنان كان بالقياعة [شارع في صيدا]، كنت أنا فوت لإشتغل، بس ما كنت عارفة كيف. ما حدا قلّلي «اشتغلي»، إمّي ما قالتلي «اشتغلي» ولا شي، بسّ أنا هيك لحالي حبّيت إشتغل، دبّرتلي شغل، مش ماما كمان، رفيقتها. بسّ لمّا روح إشتغل، ما عرفت كيف. رحت عند النّاس، ووقفت بالمطبخ مكتفة. ولا أعرف احكي، ولا أعرف اشتغل. شوي شوي اشتغلت. بسّ طلع الزّلمة مشّ منيح كمان. هو رجال كبير، يعني عندو ولاد أكبر منّي بكتير، إيّامها بنته وابنه كان عمرهم ٢٥ سنة، شي هيك. أوقات بيحكيني إشيا بشعة.

أنا ما خبّرتها لماما، خبّرت رفيقتها لمّا إجت، بسّ بعدين ماما قالتلي ما تروحي. مشّ إنّه والله بدّي خبّي من إمّي. بيجي رجّال، مثلًا، بيقلّك ضبّي خزانة ثياب المدام، بيجي يفرجيني إشيا خصوصيّ فيها للمدام. بقلّك بسكّر عليكي، بحطّلك فيلم. أنا ما عارفة شو بدّو يحطّلي فيلم، بيسكّر الباب، ما في حدا. هو بإشارة أنا بفهم، ولو ما بعرف لغة، بفهم أنا، بهز براسي انه لأ. نحنا ما شفنا هيك شي بسيرلانكا، عشان هيك. يعني نحنا حياتنا غير كانت، بقلّك نحنا كنّا ٣ بنات، بيّي ما كان يقعد بالبيت، ولا في إمّي بالبيت، ما حدا علّمنا شي، نلعب كلّ النّهار. بسّ هون، يجي الزّلمة هيك يعمل، الزّلمة كبير يعني كان، قدّ إمّي، يمكن أكبر كمان.

بالسّنترال صارت قصة كمان. بالسّنترال نحنا منحكي تليفون، أنا طلبت عالدّقيقة، دقّيت لأختي اللّي أكبر منّي بسيرلانكا، هي عند تيتا. قام إجا زلمة من ورا، دفشني، بهدلني، وعمل مشكل. بقللي «إنتو شو عم تعملوا هون؟» قلتلّه إنّو جيت لشيل زبالتكن، شو جيت أعمل يعني؟ قللي «روحوا من هون!» من هون من لبنان، يعني فلّوا، قلتلّه نحنا ما جينا بالممنوع، نحنا جينا بالطّيارة، وفي فيزا، مشّ جايين هربانين من شي. شو كمان إنت رئيس لبنان يعني مثلاً—كان إيّامها رفيق الحريري— وبهدلته أنا هيك، يعني قلتله: إنت ولا شي، إنت شو جاي تحكي، يعني إنت رفيق الحريري مثلاً؟

في مرّة كمان بالسّنترال، أنا لحالي كنت، حدّي واحد لبناني، واتنين بنات أثيوبيين، واقفين بالسّنترال عم يحكوا. إجت وحدة معتّرة، بدّها شي، إجت لحدّي، أنا ما حكيت شي. المرا بدّا مصاري، معتّرة، فقيرة، لبنانيّة، بدّا ألف ليرة، خمسميّة ليرة، أي شي. الزّلمة من لبنان، قلها للمرا المعتّرة، «إنتي رايحة تطلبي شي من السّيرلانكيّ؟ هنّي ما معهن مصاري.» أنا ما حكيت شي لا للزلمة، ولا حكيت شي للمرا، ما كنت رايقة لإحكي شي. قام الأثيوبيّة الاتنين، قالوله «ليش ما في مصاري مع السّيرلانكي؟ الحمد الله نحنا عم نشتغل، معنا مصاري»، قلّها «طيّب أعطيها»، قام هيّ أخدت مصاري واعطت المرا، وهو ساكت وأنا ساكتة. إذا حكيت، بدّها تكبر المشكلة، ما إلي خلق كان. بس هو شو خصّه! ليه؟ إذا إنتَ معك، أعطيها، مشّ بتقلّها «سيرلانكيّة ما في مصاري.» الأثيوبية وقتها كانت عم تدافع عنّي، ومشّ عشان شي، عشان نحنا بغربة، عشان هيك كلّ واحدة بتدافع عن التانيين، منحس ببعضنا. هلّق مثلًا، يجي زلمة لبناني بدّو يبهدل رجّال من بنغلاديش، ما بقبل ع حالي، بدّي إفهم ليش غلط وصح، أو بدّي أدافع عنّه يعني، هو بغربة ونحنا بغربة، وكيف عم يصير هيك.

شو يعني اتزوّج

زوجي، كان من بنغلادش، هو إجا شبّ كمان على لبنان، كان أكبر منّي شوي، كان عمري ١٦ سنة وهو كان شي ١٧ سنة. كان حُب ولاد، يعني حب ما فيه مسؤولية، ما كنت اسأل: قادر يطعمينا، يشربنا، يجبلنا بيت؟ بسّ وقتها ما كنت عارفة هيدا حبّ ولاد. أمّي ما قبلت، سفّرتني على سيرلانكا أوّل السنة. وبيّو كان هون كمان، ما قبل، قلّي إنتي من سيرلانكا، هو من بنغلادش.

فهو ضلّ هون وأنا رحت، قعدت فترة، بعدين في وحدة كانت بتجيب البنات من المكاتب لهون، قام هيّي قالتلي إذا إنتي معك إقامتك، بتقدري ترجعي على لبنان. نصيب هيدا، بدّو يصير هيك، إنّو أنا ارجع. معي إقامة، جبنا تيكيت وجيت علبنان، صار يجي ورايي وبدّه يتجوّز. ضلّ وراي! وإمّي ما بدّها، وبيّو ما بدّه، آخر شي، يشوفنا بيّه مع بعض وهيكِ. إمّي ضلّت مش قبلانة. بس بيّه قبل، أخذنا وزوّجنا أحسن ما يصير شي حرام.

أنا كنت حبّه، يعني ما إلي حدا غيره، كنت ما بعرف شو يعني أصلاً إتجوّز، أنا فكّر الناس بحبّوا بعض، بيشوفوا بعض، بيحكوا مع بعض، بس ما بعرف شو يعني إتجوّز، ليش بيتجوزوا، شو مستقبل هيدا الشّي، ما حدا علّمنا. أنا جيت ٩٤، رجع رحت ب٩٥ شهر ١١، سافرت ع سريلانكا. بال٩٦ بشهر ٥ رجعت على لبنان. ما في شي شهر يمكن تجوّزت، وضلّينا هيك سنة، وخلّفت صبي بال ٩٧.

إبني كان يضلّ معي. ضلّ معي لشي عمر سنة ونصّ، سنتين. بيّو لزوجي مات هون، وزوجي بدّه ياخده على بنغلادش. أخذ الصبي وراح على مكتب خ.ص. هو أخذ منّه ٤,٠٠٠ دولار، لحتى يسافروا هو وبيّو وابني سوا، بدون ما أعرف أنا. انقهرت قهر لمّا عرفت. هيدا الشخص من المكتب من زمان بجيب من سيرلانكا، بجيب أيّا حدا من برّا يعني. الواطي، باسبوري كان معه. ما عطيته صورة عن باسبوري لزوجي أنا، حتّى ما يقدر ياخد الولد. بيعرفني أنا وبيعرف هو إنّه زوجي، قام هو زبّط كلّ الوراق، زوجي دفع ٤,٠٠٠ دولار وسافر، بعد ما سافر ب ٣-٤ أيّام لخبّرني إلي.

رحت جيب الباسبور، قلّي «زوجك سافر، عندك خبر؟» قلتلّه لأ، كيف سافر؟ قلّي «أنا اللّي سفّرته». قلتلّه إنتَ كيف سفّرته؟ إنّه إنت بتعرف هالصبيّ إبني، بتاخده من هون بدون ما اعرف أنا! قلّي «هو دفع مصاري، وأنا سفرّته». قلتلّه هو هرب من لبنان، بسّ ما

هرب من الله، في الله، بيجي إيّام بدّها تتدمّر حياته. لو أنا قلتلّه «خود الصّبي» أوكيه، بسّ أنا ما قلتلّه خود الصّبي. هو حرامي، سرق إبني. مشّ سرقة هيدي؟! يعني إنتَ عملت غلط كمان، إنتَ بتعرف هوّ متجوّز، إنتَ بتعرف هالصّبي إمّو بعدا هون بلبنان، بدون ما تدقّلها، وتخبّرها، بتسفّرو؟ حراميّة، كرمال المصاري. كان عمره إبني شي سنتين ونصّ. وما عرفت عنّه شي.

بعد فترة طويلة، رجع زوجي إجا على لبنان وشفته هون. أخدت رقم إبني منه، وصرنا نتواصل عالتليفون. حكيته كان صار عمره شي ١٩ أو ٢٠. كتير قهرني انّو ما كنت أعرف شو شكله، شو موديله، وإذا بيشبهني. وزوجي رجع تزوّج، ومرتو جابت خمس أولاد وإبني كان عايش مع ستّو، أم بيو. إبني بيحكي لغة غير لغتي، ما بقدر احكيه تفاصيل، بدّي جيب حدا بيحكي لغتهن لأفهم شو عم يقول، غير هيك ما فيّي. أخواتي بيحكوا معه عالفايسبوك، بيشوفوا صوره، بيشوف صورهن، بيعرفوا كم كلمة بالانكليزي. بس هيك مش كفاية لتحكي مع حدا. أنا بدي أحكي حكي كثير معو، عندي قصص كثيرة أحكيها، وهو بده يخبرني قصص، ما بيمشي الحال بكلمة. بحب سافر على بنغلادش لشوفه أو هو يجي عسريلانكا، بس نحن مش غنايا لنروح ونجي ونشوف بعض. هو بحبني كثير وبقلّي مش رح يتزوج غير ما أنا كون معه وساعده.

جمعيّات مع بعض

بلبنان نحن منعمل زيارات أكثر لبعض. بسيرلانكا عند التيتا، جدّو، عمّو، هيك. هون حتّى إمّي بتروح عند النّاس اللّي من عنّا؛ بتروح بتاكل، بتشرب، وبتجي، في أخذ وعطاء كثير. إذا في وحدة كانت بدها تسافر وناقصها شويّة مصاري بعد، بتقول لرفيقتها «عطيني، بسّ إجي بعطيكي»، وبالعكس بس رفيقتها تسافر بتعطيها. مثلًا إمّي كان بدّها تسافر، تقلّها لصاحبتها «بدّي شي ١,٠٠٠$»، هيّي بتديّنها ١,٠٠٠$. في ثقة، مع الوقت صرنا نعرف بيوت بعض بسيرلانكا. منعرف البيت وين، وكيف حياتها، يعني مش بعد معرفة اليوم وبكرا منتديّن من بعض. في فترة بيناتنا نحن السّيرلانكيين، مثلًا إذا إنتِ رايحة بدّك تساوي شي بيت، نحنا كلّنا منعمل جمعيّات، منطلب «أعطيني جمعيّتك، أنا بسّ إجي بعطيكي.»

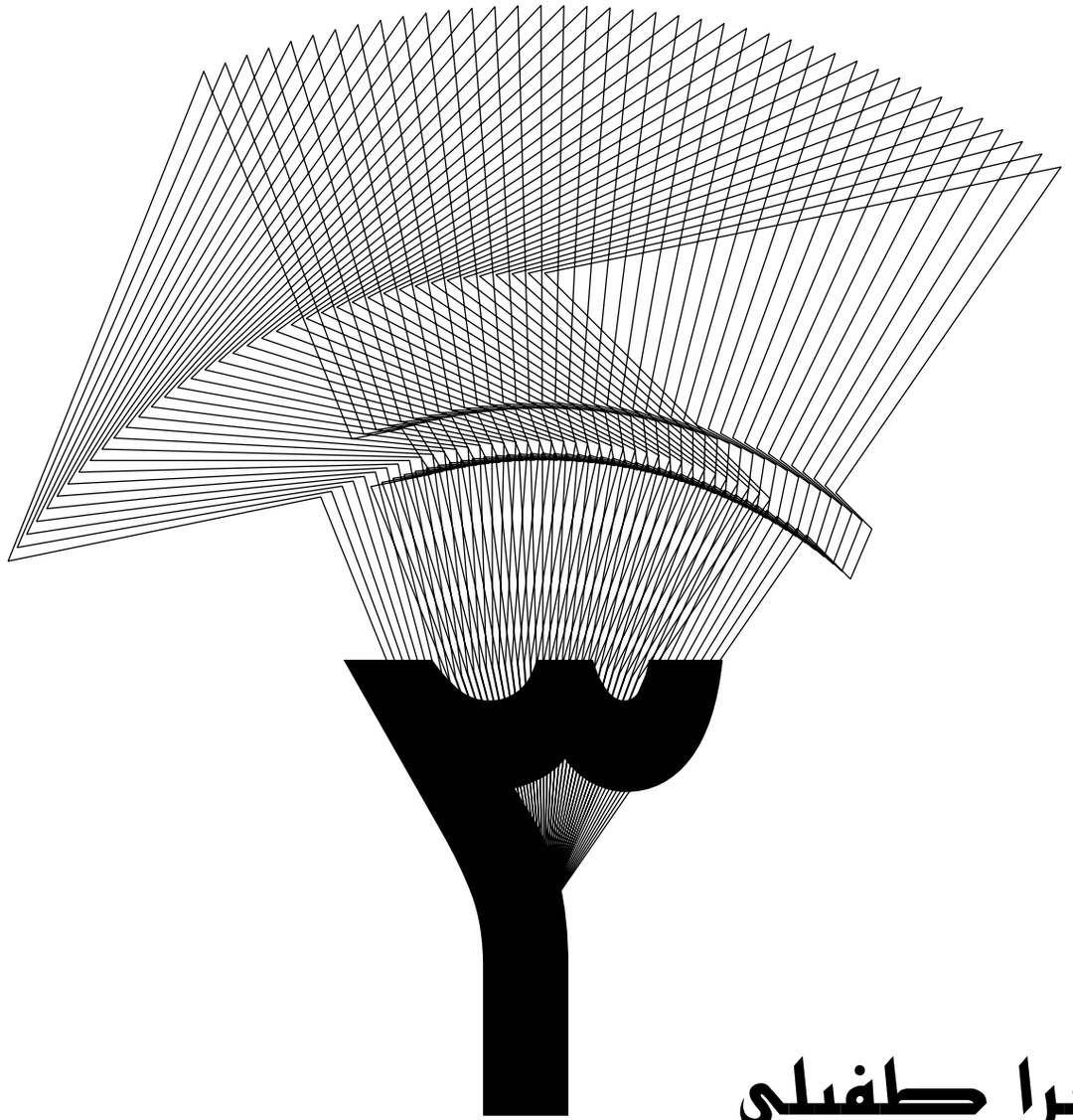

ميرا طفيلي

طالبة دكتوراه في علم الاجتماع، في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (EHESS) في باريس. يركّز عملها التجريبي على إثنوغرافيا شبكة الباصات في بيروت. تحاضر طفيلي في جامعة باريس الأولى - بانتيون سوربون وجامعة باريس - نانتير. بعيدًا عن عملها في علم اجتماع المدن، ميرا شغوفة بالأدب الفرنسي والرقص المصري.

إعطاء المعنى وفقدانه - قصّة امرأة في بيروت بعد العام ١٩٩٠

يمكن العثور على ديناميكيّات إعطاء المعنى وفقدانه في العمل الموازي لمعظم عمليّات التأويل، فهي تتعايش في حالة من التوتر، وعند تحليلها قد تشير إلى التكتيكات التي نستخدمها كأفراد وكباحثين، للتفاوض على مشاعر الترابط وعدم الترابط، واستكشافها. أحلِّل في هذه المقالة عمليتين تأويليتين مختلفتين من أجل استكشاف ديناميكيات صنع المعنى وفقدانه. تتحدّث العملية الأولى عَنْ تجارب الترابط والابتعاد مع علياء*، المرأة التي قابلتُها، والطريقة التي تعطي فيها معنى - أو تفقده- لتجربتها، كمقيمة في بيروت في فترة التسعينيات. فيما ترتبط الطريقة الثانية بالآثار المعرفية لشهادة علياء والمفاوَضات، لإعطاء معنى أو فقدانه خلال تفسير شهادتها. يركّز هذا المقال، بالتالي، على السياق العامّ في بيروت في العامين ١٩٩٠ و١٩٩١، في أعقاب الحرب الإقليمية والأهلية التي اندلعت في لبنان بدءًا من العام ١٩٧٥.

«استطلاع وضعية ما بعد الصراع»[1]

تتميّز بيروت في التسعينيات، بكلّ حيادية، ووفق أدبيّات علم الاجتماع الحضري والعلوم السياسية، بأنها مدينة «ما بعد الصراع» أو «ما بعد الحرب» (للمزيد حول «ما بعد الحرب» انظر Davie، ١٩٩٣؛ Sawalha، ٢٠١١. وللمزيد حول «ما بعد الصراع» انظر Bonte، ٢٠١٧؛ Comaty، ٢٠٢١؛ Hills [يصدر قريبًا]، ٢٠١٣). وُضِعت هذه الفئات في منظارها الصحيح وانتُقِدَتْ، ومن الأمثلة البارزة نذكر Pettigrew (٢٠١٣) في دراستها عن الحرب الأهلية في النيبال، أو بو عكر (٢٠١٨) التي استبدلت فكرة كون بيروت مدينة «ما بعد الحرب» بأنّها النسيج الحضري الذي تشكّلَ عبر حالة دائمة من «حرب لم تأتِ بعد». إلى ذلك، يبرهن شنايدرمان وسنيلينغر (٢٠١٤) أنَّ الزاوية الرَّئِيسَة للنقد الموجَّه إلى فئة «ما بعد الصراع» تكمن في استطلاع «وضعية» «ما بعد الصراع»، بمعنى التّأكيد على أنَّ «معايير تأطير الصراع هي سياسية في ذاتها» (شنايدرمان وسنيلينغر، ٢٠١٤). في سياق بيروت، يعني ذلك التمييز بين تأريخ تاريخي واضح لـ«صراع» مُعيَّن، وامتداداته غير الواضحة في التواريخ والجغرافيا العالقة في أذهان المقيمين.

على الرّغم مِنْ تماشي الفرضية النظرية للمقال مع دراسة فئة ما بعد الصراع، إلّا أنني لن أناقش هذه الفئة من الناحية المفاهيمية، ولن أتأمل في الصلاحية النظرية لهذه التسمية، بل سوف أواجه تداعياتها المعرفية على تصوُّر المرأة البيروتية التي تتذكّر قصّة حياتها خلال العامين ١٩٩٠ و١٩٩١، وترويها بعد ٣٠ عامًا من انتهاء الحرب. في الواقع، لم تُطوّر روايات التجارب المعيشية الاستِعادية في لبنان، لا سيّما للنساء في عقد التسعينيات، وهو ما يبدو أنه طال انتظاره. ولدت علياء في العام ١٩٦٧، وكانت تبلغ ٢٣ عامًا مع نهاية الحرب الأهلية والإقليمية في لبنان. وبما أنَّ المقالة تركّز فقط على شهادتها، فهي لا تهدف بأي حال إلى تقديم سرد شامل لتجارب النساء خلال تلك الفترة. إنَّ اختيار البحث المُعمَّق في شهادة إحدى النساء أمر مقصود، فهو يهدف إلى المساعَدة في تعليق، ولو للحظة، أي دافع يمكن أن يُقدّم «لإعطاء معنى» لتجربتها، عبر استخدامه لتعميم التصوُّر. مِنْ هُنا، سوف تساهم شهادتها في الإجابة عن الأسئلة الآتِيَة: إلى أي مدى تُتَرجَم فئة «مدينة ما بعد الصراع» في التجارب العمرانية الحيّة والمُتجسدة في علياء؟ ما الذي تعدُّهُ مهمًّا في مسارها الخاص عندما سُئلت عن العامين ١٩٩١ و١٩٩٢؟ ما هو الخطاب الذي تستخدمه لإعطاء معنى لتجربتها، أو إفقداها أيّ معنى؟ ستجيب المقالة عَنْ هذه الأسئلة من خلال دراسة تجربتها الفريدة في احتلال الجسد للمساحة خلال إطار زمني مُحدّد، وسوف تركّز أيضًا على تصوُّر علياء الحالي لتجاربها التي عاشتها في تلك الفترة.

١. وفق تعبير شنايدرمان وسنيلينغر، ٢٠١٤.

تحديد الوقت والحدود

علياء وأنا قريبتان. عاشت في زقاق البلاط في العام ١٩٩٠ مع أسرتها. تشاركت غرفتها مع شقيقاتها الأربع، بينما كان أشقاؤها الثلاثة ينامون في غرفة المعيشة. قسَّمت علياء وقتها بين العمل في مصرف الصناعة،[٢] كمحاسِبة وسكرتيرة، والدراسة في الجامعة اللبنانية. تزوّجت من رجل لبناني في العام ١٩٩٣، وغادرا إلى فرنسا. لا تزال علياء تعيش في فرنسا، وتزور لبنان مرّات عدّة في السنة، وقد كانت في زيارة خلال صيف ٢٠٠٦.

في المرّة الأولى التي أخبرتها فيها عن مشروع هذه المقالة، سألتها عمّا إذا كانت تعرف نساءً عشن في بيروت في العام ١٩٩٠، وإن كنَّ يرغبن في التحدّث معي عن الفترة التي تلت «الحرب الأهلية والإقليمية في لبنان». لاحقًا، بعدما أعربت عن رغبتها في إجراء مقابَلة معي، سألتني على الفور عن الحرب التي كنت أنوي التركيز عليها بشكل خاص، إذ كانت هناك حروب متنوِّعة مع أطراف مختلفة، وقد ظهر هذا السؤال المُتعلّق بالفترة الزمنية مرّات عدّة خلال مناقشتنا، حيثُ شرعتُ في شرح تصوّرها إيّاها، وإصرارها على الحديث عن الحروب في صيغة الجمع:

«حتى لو بحثتِ عن «الحرب اللبنانية» على ويكيبيديا، سوف يخبرونكِ عن حروب عدّة. لديّ تصوّر مجزّأ بالكامل عن الوقت. نحن اللبنانيين نستخدم كلمات مختلفة لتصنيف الحروب: حرب التحرير، حرب الإلغاء... وهي حروب وقعت في العام ١٩٩٠، وقبلهما وقعت الحرب الأهلية. كانت هذه أصعب الحروب بالنسبة إِلَيَّ، لكنَّ الحروب في رأيي هي عبارة عن تجارب مختلفة أيضًا. اعتدنا أن نقول «عِلْقوا»، أي بدأت المعارك. هذا ما أعنيه بحروب عدّة».[٣]

لمتابَعة سؤالي: «هل تجدينَ أنَّ هناك حروبًا وقعت بعد العام ١٩٩٠؟». أجابت: «أعتقد أنه لم تعد هناك حروب بعد العام ١٩٩٠». وفي حديثها عن تصوّرها للزمن، استخدمت عبارة «نحن لبنانيون»، في إشارة واضحة إلى أنني لم أعش تجارب حرب العام ١٩٩٠ لأرسم حدودًا بين من عايشوها («نحن») وبين الآخرين. حُدِّد العام ١٩٩٠ على أنه تاريخ انتهاء الحرب الإقليمية والأهلية في لبنان (Davie, 1993; Kastrissianakis, 2012). من هنا، كنت أتوقّع أن يحمل معنًى رمزيًّا قويًّا. مع ذلك، لم تربط علياء العام ١٩٩٠ بنهاية أيّ شيء (على الرغم من توضيحها أنَّ الأمور «عادت إلى طبيعتها» بعد ذلك) بل ربطتها بحرب التحرير، أي الهجوم الذي شنّه ميشال عون لإخراج الجيش السوري من الأراضي اللبنانية. خلال نقاشنا، استخدمت التعبير المُلطّف «عِلْقوا» للإشارة إلى الحروب المختلفة. لكن عند الإشارة إلى فترة العامين ١٩٨٩ و١٩٩٠ وحرب التحرير، تحدّثت صراحةً عن ذكرياتٍ، مع سقوط القذائف.

عِلم اجتماع الجسد

ذكرت علياء أنَّ اشتباكات العامين ١٩٨٩-١٩٩٠ كانت «أصعب حرب على الإطلاق» بالنسبة إِلَيها. في رأيها، شكّلت حدّة الاشتباكات الحدث الرَّئيس في العام ١٩٩٠، وليس نهاية الحرب؛ فعند الإشارة إلى تلك الفترة، اختارت مرارًا أن تتحدّث عن «الأصوات»، حتّى أنها تعيد تقليدها بصوتها:

م: إذا نظرنا إلى الوراء، هل سوف تتمكّنين من وصف شعورك حيال النصف الأوّل من التسعينيات؟
ع: بالنسبة إِلَيَّ كانت مرادفة للأصوات، أصوات القذائف، ما زلت أتذكّر صوتها. ما زلت أتذكّر كلّ ذلك. كان صوتها هكذا [تقلّد الصوت]. شهد العام ١٩٩٠ المستوى الأعلى من حدّة أصوات القذائف. بعد ذلك كنت سعيدة بانتهائها، لم أعد أسمع أصواتًا بعد العام ١٩٩٠ إلّا أصوات التفجيرات.
م: إذًا، كان الاختلاف قبل ذلك العام وبعده في ما سمعته فعليًّا، وليس في كيفية عيشك؟
ع: كان الاختلاف في كيفيّة عيشي، وإنّما أيضًا في ما سمعته. قبل ذلك كنت أسمع أصوات بنادق الكلاشينكوف، ثمّ أصوات القذائف في العام ١٩٩٠.

٢. يُعرف أيضًا باسم مصرف الإنماء، وكان يقع في حيّ الكونكورد.
٣. ترجمت كلّ مقتطفات حديثنا من الفرنسية إلى الإنكليزية.

م: هل هناك من لحظة أدركت خلالها أنَّ الحرب انتهت؟
ع: أتذكّر أنَّ كلّ شيء عاد إلى طبيعته، ولم نعد نخاف من القذائف. بصراحة لم أشعر أبدًا بأنني كنت بحاجة إلى أي شيء خلال الحرب، وتمكّنت من الحصول عليه بعدها، فإذا كنت تريدين أن نتحدّث ماديًّا، على سبيل المثال، لم يتغيّر شيء قبل الحرب وبعدها. لم أشعر أبدًا بأنني أفتقد أيّ شيء. لم أشعر بأنني كنت أعيش أفضل بعد الحرب من الناحية المادية، مقارَنةً بكيفية عيشي في أثناء الحرب. فقط شعور الخوف هو الذي تغيّر.

ذكرت أيضًا أنَّ: «عواقب الحرب الرَّئيسة على حياتي كانت الأصوات والخوف؛ الاختلاف الأساسي بين فترة الحرب وما بعدها هو الأصوات». في الواقع، تُعدُّ الأصوات والخوف من مظاهر الحرب، أحدهما عاطفي والآخر ظاهري، لكنَّ الإثْنَينِ يشعر بهما الجسد، ويُمسِك بهما. وعندما سألتها عمّا كانت تحبُّ أن تفعله في أوقات فراغها في أثناء الحرب وبعدها، أجابت بابتسامة:

ع: «كنت أذهب للتسوّق كثيرًا! في البربير. لاحقًا، عندما بدأت العمل في المصرف، حقّقت نقلة إلى مرتبة أعلى، إذ صرت أتسوّق في الحمرا والكونكورد. تسجّلت أيضًا في نادٍ رياضيٍّ لمدّة ثلاث سنوات في التسعينيات، وأصبحت مدمنة على الشعور الذي أعطاني إياه».

ع: «كنت أمشي كثيرًا. أتذكر أنني كنت أذهب إلى العمل سيرًا على الأقدام وأتعرّق كثيرًا، فأصل كما لو أنني غرقت في مياه».

ركّزت هذه التفاصيل من حياة علياء اليومية على تجربتها الجسدية، وبمعزل عن الخوف الذي ذكرته مرّة واحدة فقط، إلّا أنها لم تتحدّث عن شعورها أبدًا.[٤] بدلًا من ذلك، ركّزت انطباعاتها على تجربتها وإدراكها المتجسِّدَين، بحيث يُنظر إلى الجسد على أنه «عضو في الإدراك، والحركة، والتمثيل الدرامي» (Cefai، ٢٠٠٣، ص. ٤٦٩)، وهو ما يذكّرنا بموجِز «علم الاجتماع الجسدي» لواكانت الذي يشير إلى أنَّ «علم الاجتماع ليس حول الجسد (كمنتج اجتماعي)، ولكن من الجسد (مثل الربيع الاجتماعي، وناقل المعرفة)» (Wacquant، ٢٠٠٥). إلى ذلك، يحثّ واكانت على إيجاد طرائِق «للاستفادة الكاملة من الطبيعة المعرفية للحياة الاجتماعية» (المرجع نفسه). كانت روايات علياء عميقة بالفعل، لا لأنَّها تصويرية، وهي ليست كذلك، وإنّما لأنّها ربطتها صراحةً بتجربتها الجسدية. سألتها سؤالًا عن تصوّرها لصيف ٢٠٠٦ وما تلاه، مقارَنةً بما كانت تعيشه في العام ١٩٩٠، فأجابت على الفور:

ع: لا يمكنك مقارَنة العامين ٢٠٠٦ و١٩٩٠، لأنّني عشتهما بشكل مختلف تمامًا؛ في العام ٢٠٠٦، كنت خائفة طوال الوقت لأنني كنت أمًّا [كان لديها ثلاثة أطفال، وقد وُجِدوا معها في لبنان، فيما زوجها في فرنسا]. إنَّ مسؤولية إنجاب الأطفال غيّرت كلّ شيء. كنت بعيدة مِنْ «بلدي» فرنسا، إذا أمكنني قول ذلك. خلال التسعينيات كنت عزباء وليس لديّ أطفال، كنت... متهوِّرة جدًّا. لا يعني ذلك أنّني لم أكن خائفة قبل العام ٢٠٠٦ ... ولكنّني لم أكن أكترث للخطر. على سبيل المثال، عندما كان ينزل الجميع إلى الملجإ [عبارة عن قبو تحت بعض المباني، يستخدمه السكّان لحماية أنفسهم من القذائف]، كنت أصعد ٨ طبقات من دون كهرباء، لجلب بعض الأغراض للعائلة أو للجيران، ولم أكن أخاف من ذلك.

م: هل تستطيعين تحديد سبب عدم خوفك في ذلك الوقت؟
ع (بعد صمت طويل): على سبيل المِثالِ، في السنة التي تخرّجت فيها، أصبت وشقيقتي بشظية قذيفة، وكنّا نعلم أنَّ هناك قصفًا في المنطقة التي قصدناها. لكن لماذا ذهبت إلى منطقة قريبة من القصف لرؤية صديقتي؟ [تكوّن لديّ انطباع، وهو أنها لا تسألني، بل تتساءل بينها وبينَ نَفْسِهَا]. هل ترين ما أقصده؟ كنّا نعلم أنَّ هناك قصفًا، وذهبنا لرؤية صديقتنا. كان اسمها رولا*، وَكانتْ تعيش في منطقة بالقرب من السفارة الفرنسية. لكن مُقارَنةً بالعام ٢٠٠٦، نعم كنت خائفة.

٤. كوننا قريبتَين، قد يفسّر ذلك أو ربّما لا.

م: هل تعتقدين أنَّ الأمر يتعلّق فقط بمسؤوليّتك تجاه أطفالك في العام ٢٠٠٦؟
ع: نعم، وأيضًا لأنني رأيت ماذا يحصل... [بدأت تتكلّم العربية]، ربّما لأنني كبرت أو لأنني نضجت. وأيضًا لأنها إسرائيل. بالنسبة إلَينا إسرائيل... هي ... إسرائيل.

شعرت بالدهشة لأن تحيّزي جعلني أتوقّع منها أن تخبرني أنَّ العام ١٩٩٠ كان أكثر صعوبة. كان العام ٢٠٠٦ مخيفًا للغاية، وأكثر من كلّ الأعوام، وليس بالنسبة إليها فحسب، لكنّها استحضرت السياق الجيوسياسي المُختلف في نهاية إجاباتها لشرح تصوُّرها، وَاستشهدت بتجربتين جسديتين أُخرَيَين، هُمَا: البُعد مِنْ زوجها، وتجربة الأمومة، ومسؤوليّة إنجاب ثلاثة أطفال وبقاؤهم معها. بالنسبة إلَيها، يكمن الاختلاف في السياق الجيوسياسي في تصوُّرها الشدائد، إذْ يتناقض ترداد هذه العبارة «إسرائيل ... إنها إسرائيل» مع تعبيرها المُلطّف «علقوا» [تصادموا] الذي استخدمته لوصف العامين ١٩٨٩ و١٩٩٠.

الانتقال إلى بيروت خلال عقد التسعينيات

تستحضر بو عكر (٢٠١٨) مقارَبة «ما بعد التنمية» التي تُتبع غالبًا عند تحليل بيروت، وتشرح قائلة: «في بيروت، ولبنان عمومًا، تُحدّد حاليًا الأراضي وفقًا لمناطق». ينطلق نهج «ما بعد التنمية» بعيدًا من المقارَبة الشاملة للأراضي، بما يحوّل «الإنتاج العالمي للمعرفة» إلى «تصوُّر للنسيج الحضري بِعَدِّهِ مجزَّأً بالضرورة» (بو عكر، ٢٠١٨، ص. ١٦٩)، وهو ما يعيدنا إلى ما قالته مونرو (٢٠١٦): «حاليًا، بعد مرور أكثر من عشرين عامًا على انتهاء حرب لبنان، ما زالت المناطق التي استُحدثت كنسخة مِنْ بيروت تُستخدم للتعبير عن تفكُّك المجتمع، وإضفاء الطابع الإقليمي على الفضاء، وتحويله إلى أجزاء متحارِبة» (مونرو، ٢٠١٦). بالنسبة إلَيَّ، إنَّ انتشار نهج «ما بعد التنمية» يسير بالتوازي مع غياب أي تحليل عن التنقّل والنقل المشترك عند مناقَشة جغرافية لبنان (للمزيد من التفاصيل، انظُر الطفيلي، ٢٠١٩)، وهو ما يُعدُّ أحد الأسباب التي دفعتني، قصدًا، إلى تركيز أسئلتي حول النقل بعد الحرب كطريقة لمعايَنة، لا التفتت فحسب، وإنّما أيضًا الاستمرارية التي يمكن أن تنشأ حول الجغرافيا في ذهن الفرد. عند الحديث عن النقل في أثناء الحرب وبعدها، أصرّ بحزم على ضرورة الابتعاد مِنَ الرؤية الرومانسية للنقل المُشترَك كوسيلة «لربط المدينة المجزّأة معًا». مع ذلك، يمكن لدراسة النقل خلال التسعينيات أن تساهم في تجاوز رؤية بيروت كـ«مدينة مجزّأة»؛ ففي التسعينيات، مشت علياء كثيرًا:

ع: بين العامين ١٩٩٠ و١٩٩٢، كان زملائي المُقِيمُونَ في الضاحية يعرضون اصطحابي أحيانًا عند الساعة الثانية بعد الظهر من العمل إلى الجامعة. لكن في معظم الأوقات كنت آخذُ «سرفيس» أو «سرفيس ونصف» وأمشي قليلًا ... للوصول إلى عملي صباحًا، كنت أمشي عادةً لأنه لم يكن بعيدًا جدًّا. للعودة في المساء من الجامعة إلى المنزل، كنت أستخدم السرفيس بالتأكيد، لأنني كنت أنهي صفوفي في وقت متأخّر. لكنّني لا أحبّ الليل، ولا التنقّل في السرفيس خلاله. كنت أستخدم سرفيسين أحيانًا، أو نجمع بعضنا في الجامعة لنتشارك مسار العودة. ولكنها لم تكن عادةً ثابتة.

م: عندما تقولين إنك لا تحبّين التنقّل بالسرفيس خلال الليل، ماذا يعني ذلك؟
ع: كلا، كلا، السياق في لبنان، الحرب، أمور من هذا القبيل.

م: لماذا تعتقدين أنَّ الأمر كان أكثر إزعاجًا لكِ في الليل؟
ع: بسبب السياق العام. اليوم، على سبيل المثال، قالوا لنا: «لا تخرجوا في الليل»، لأنَّ هناك كثيرًا من أعمال النهب والسرقة وما إلى ذلك. في ذلك الوقت من التسعينيات كانت جامعتي في منطقة غير مأهولة بالسكّان. لذلك، حتّى لو كنتِ تعيشين في أكثر البلدان أمانًا، نفسيًّا، إذا كنتِ بمفردك في الشارع، سوف يكون الأمر مخيفًا.

م: عندما تشيرين إلى السياق اليوم، ما الذي تقصدينه بالضبط؟
ع: الآن، هناك سرقاتٌ كثيرةٌ في بيروت، لأنَّ الناس لا يملكون المال.

م: كيف كان التنقّل سيرًا على الأقدام؟ هل كان لديك مُتسَع من الوقت للمشي؟
ع [تبتسم]: كما هو الحال اليوم، تعلمين.

م: أجريتِ مقارنات مرّات عدّة مع الوضع اليوم. هل تشعرين برغبة في التّوسّع في الحديث؟
ع: على سبيل المثال، طلبَتْ مني عمّتي في الشهر الماضي أن آتي وآخذ شيئًا مِنْ مَنزِلِها في الروشة عند الساعة ٩ مساءً، فقلتُ لها: «لقد نصحوني بألّا أذهب وحدي». فردّت: «نعم أنتِ على حقّ»، وأرسلَتِ ابنها. وصلنا إلى هذا الوضع الآن، إذا كان لديكِ سيارة، فهذا أفضل. لكن بالعودة إلى الأيام الماضية، لم يكن لديّ سيارة.

م: هل كان هناك أماكن في بيروت لا تقصدينها، أو تذهبين إليها بوتيرة أقلّ من غيرها؟
ع: سوف أخبركِ: بين العامين ١٩٩١ و١٩٩٢، كنت أخرج مع أشخاص أعرفهم، ومعظمهم في بيروت الغربية. لكن أحيانًا كنت أذهب إلى الأشرفية للعمل في أحد المصارف هناك. تجب الإشارة إلى أنَّ خلال الحرب، قلّل الناس من وقت تنقّلهم حفاظًا على أمانهم، لذلك التحقوا بالجامعات الأقرب إلى منازلهم. على سبيل المثال، لم يكن هناك أشخاص من كسروان يتسجّلون في جامعات في الضاحية. أترين ما أقصده؟ كان الهدف التمكّن من العودة إلى المنزل في أسرع وقت ممكن إذا لزم الأمر. كان هناك مسيحيون في كليّتي، لكنّهم كانوا يعيشون بالقرب من الكلّية؛ الوضع مرتبط بالسياق العام في البلاد، وليس برغبتنا في الانفصال! إسوة بالحال في فرنسا، أنت تدرسين في جامعات تبعًا لمكان إقامتك.

م: ماذا عن الحافلات؟ هل سبق أن استخدَمتِها؟
ع: بضع مرّات عندما كنت في الكلّية، ومرّة واحدة في العام ٢٠٠٥ للذهاب إلى منطقة المزرعة.

م: لكنها كانت متداوَلة للغاية، أليس كذلك؟
ع: نعم، كان وقت الانتظار مهمًّا جدًّا. لم يكن هناك كثيرٌ من الحافلات المتبقية بعد الحرب. كذلك لم يكن هناك فانات خلالها [بدأ استخدامها في العام ١٩٩٦]. كنت أقوم بكلّ شيء تقريبًا وأنا أنتقّل سيرًا على الأقدام. حتى عندما يكون الطقس حارًّا.

على الرغم من أنَّ علياء كانت تتحدّث عن العامين ١٩٩١ و١٩٩٢، إلّا أنها استخدمت كلمة «الحرب» لتحديد السيّاق مرّتين. لا تزال تنقّلاتها حيّة في ذاكرتها؛ فعندما كانت تساعدني في تحديدها، كانت تستخدم تعابير مثل «سرفيس واحد»، و«سرفيس ونصف»، و«سرفيسين». لقد شاركتني في تحديد منطقة دائرية، كوحدة قياس ذهني، حيث يمكن الوصول مقابل ألف ليرة لبنانية (سعر السرفيس في ذلك الوقت). تجدر الإشارة أيضًا إلى أنّني طرحت، بإحراج، سؤالي عن الأماكن التي لم تذهب إليها في بيروت، لأنه بدا مشحونًا برؤية مُسبَقة عن بيروت كمدينة طائفية. لقد ندمت على ذلك لأنني شعرت بأنه وضع علياء في موقع تسويغ سلوكها الاجتماعي، والذي يمكن ملاحظته تقريبًا في العديد من العواصم بين الطلّاب الشباب. وعندما سألتها عمَّا إذا كان سياق الحرب قد أثّر في طريقة تفكيرها في بيروت ما بعد الحرب في التسعينيات، أجابت:

ع: لن أكذب، ترسيم حدود التَّماس بين الشرقية والغربية كان حاضرًا جدًّا في رأسي حتى بعد الحرب. كان حاضرًا في رؤوس كلّ اللبنانيين. ما زلنا نتحدّث حتّى اليَوم عن بيروت الشرقية والغربية، ويسألك الناس «من أي جزء أنت»؟

م: هل كنت تفكرين في أنَّكِ تجتازين خط التمَّاس كلّما عَبَرْتِهِ بعد العام ١٩٩٠؟
ع: لا، لم أفكّر في ذلك. كنت أستصعب الذهاب للتسوّق في الأشرفية، لم أكن أعرف المتاجر.

م: نعم، الأمر طبيعي، لأنه ببساطة لم يكن حيّك.
ع: لا يمكنك رؤية خطّ التَّماس الفاصل. إنه خطٌ وهمي. لديّ في رأسي تصوُّر للمنطقتين (الشرقية والغربية) ولكن ليس للخطّ في ذاته. حتّى الآن ما زلت أجهلُ إلى أي أين يمتدّ الخطّ وكيف يتحدّد. أعلم أنه يقع على طريق صيدا القديمة لا أكثر.

تشير ذكريات علياء إلى التناقض بين فكرتها الواضحة عن منطقتين ضمن بيروت خلال التسعينيات، وعن خطّ التَّماس الفاصل غير الواضح.

عدم إمكانية صنع الأساطير

من خلال بعض إجابات علياء، تكوّن لديّ انطباع مفاده أنّها تكشف عن خطابات ضمنيّة حول المدينة؛ وَإِنَّ مثل هذه الخطابات كانت مشحونة بشدّة لدرجة أجبرتها على التمركز حولها. كان ذلك واضحًا للمرّة الأولى عندما استخدمتِ الضمائر المجهولة للإشارة إلى جذور مُعيَّنة تحاول إيضاحها لي. على سبيل المثال: «قالوا لنا ألّا نخرج وحدنا في الليل»؛ «نصحوني الشهر الماضي بعدم الخروج بمفردي»، وقد ظهر ذلك أيضًا، عندما لم أكن قادرة على سؤالها عن الأماكن التي ذهبت إليها بأقل تكلفة، ما جعلها تشعر وكأنَّ عليها أن تبرّرَ نفسها.

م: هل تتذكّرين شكل المدينة في العامين ١٩٩١ و١٩٩٢؟
ع: بدت مثل الأفلام التي أكرهها. الأفلام التي نراها على اليوتيوب. الأفلام كُلُّها عن بيروت تُظِهر مباني فيها ثقوب. فعلى الرغم من وجود كثيرٍ من المباني الخالية من الثقوب، إلّا أنَّ الأفلامَ لَمْ تُظهِرها، لأنَّ أربابَها يحبّون إظهار الثقوب. مع ذلك، هناك العديد من المباني التي تظهر فيها ثقوب، لا سيّما على طريق صيدا القديمة. هل تعلمين ذلك؟ استغرقوا وقتًا طويلًا لإصلاحها.

م: إذًا، أنت لا تحبّين هذه الأفلام لاعتقادك أنها لا تصوّر بيروت كما كانت عليه في ذلك الوقت؟ أم العكس؟ هل وجدْتِ أنها تشبه بيروت في ذلك الوقت، وتذكّرك بأشياء عنيفة، لذلك لا تحبين تلك الأفلام؟
ع (تبدو مُتردّدة): إنّها مجرّد تصوير حقيقي، إنّما جزئي للحرب وما بعدها.
الأفلام تتحدّث فقط عن الأشياء السيّئة.

م: إذا كان بإمكانك إنتاج فيلم عن الحرب أو ما بعدها، كيف تريدين أن تظهر الأمور من خلاله؟
ع: أنا لست ضدّ تلك الأفلام، لكنّهم يتحدّثون فيها فقط عن الحرب والأمور السلبية. بينما عاش الناس خلال ذلك الوقت، وكان بعضهم سعيدًا. كان هناك كثيرٌ من المباني الجميلة ... إنّهم يتحدّثون فقط عن الأمور السيّئة.

م: ما الذي تعتقدين أنه يمكنهم فعله لنقل صورة أكثر دقّة؟
ع: يمكنهم أن يتحدّثوا عن رؤيتين للمَدينة، وليس فقط عن المباني المثقوبة، والحرب، وما إلى ذلك. أفهم ربّما أنّهُمْ ينتجون فيلمًا عن الحرب، ولا يريدون إظهار شَيءٍ آخَر. أنا آسفة، لكن عليّ أن أخبرك: لديَّ ذكريات جيّدة عن تلك الفترة. على سبيل المثال، عندما كنّا نخرج، ونستقبل العائلة، ونزور أقاربنا، ونذهب إلى الجامعة ... لم تكن كلّ الأمور سيّئة. بينما الأفلام تركز فقط على الحرب، حتّى عندما تشاهدين الفيلم، تكون الألوان كلّها سُودًا، لا توجد شمس ... ربّما الحديث عن الحرب يقتضي إنتاج فيلمٍ مُماثِلٍ. لكنَّ ذلك لا يتوافق مع تجربتي.

إنَّ رأي علياء في الأفلام التي تصوّر الحرب، والعقد الذي تلاها، يسلّط الضوء على شعورها بعدم الارتياح لسببين متناقضين في المظهر فقط: إنّها تكرههما لأنّهما يشبهان، وأيضًا لا يشبهان، ذكرياتها عن بيروت في تلك الفترة. يبدو أنَّ الخطاب والأساطير التي كانت تحيط ببيروت ثقيلة للغاية. وبالفعل، تعبّر علياء عن عدم قدرتها على تبنّيها؛ فهي تعتذر قبل أن تخبرني عن ذكرياتها الجميلة، ما قد يعني أنها حدّدت ثقل الخطاب السائد تلك الحقبة، وإحساسها بأنَّ مشاعرها غير مشروعة، أو ربّما لا معنى لها؛ لقد أصرّت كثيرًا على إخباري عن ذكرياتها الجميلة ما قبل الحرب وبعدها. أمَّا الكلمات الأخيرة التي تبادلناها خلال مناقشتنا، فتضمَّنها هذا الحِوَارُ:

م: ليس لديّ المزيد من الأسئلة، شكرًا جزيلًا على وقتكِ. هل هناك ما تريدين إضافته؟
ع (بعد صمت طويل): هناك أشياء لا أتذكّرها جيّدًا عن تلك الفترة. على سبيل المثال، عندما أقرأ عن أحداث الحرب، أو ما بعدها، أشعر بالغربة. كنت هناك فعلًا، لكنَّ الأمر يبدو كما لو كنت غريبة عمّا أقرأه. يجب القول إننا كنّا نهرب كثيرًا إلى الضيعة. أتذكّر في العام ١٩٨٢ أنني رأيت إسرائيليًّا عاريًا على دبّابة، وهو يسكب الماء على نفسه. لا أعرف إذا كان ذلك حلمًا أم حقيقة، ولكنّني أعتقد أنني رأيته.

م: هل هناك سؤال تودّين الإجابة عَنهُ، أَوْ كنت تريدين منّي أن أسألك عنه؟
ع: كلا، لكن بصراحة... ربّما لسبب ... ليس لديّ ذاكرة مؤلمة عن الحرب في لبنان وعن السنوات التي تلتها، ربّما لأننا كنّا نهرب إلى الضيعة عندما تخرج الأمور عن السيطرة، وربّما لأنني هاجرت في العام ١٩٩٣. يبدو الأمر كما لو أنني لم أشعر بما شعر به الناس. يظهرُ أنَّ إصرار علياء على أنَّ تلك الحقبة لم تكن «مؤلمة» بالنسبة إلَيها، موجّه ضدّ رؤية أخرى تدور في ذهنها حول ما يعتقده الناس عند سماع شهادتها. لم أذكر أبدًا كلمة «مؤلم»، وتركتها تتحدّث عن فترة ما قبل العام ١٩٩٠ عندما أرادت، على الرغم من أنَّ أسئلتي كانت موجَّهةً نحو حياتها خلال العامين ١٩٩١ و١٩٩٢. في الواقع، تعكس رواياتها الشعور بالغربة، والانفصال الطوعي أو غير الطوعي عن بعض الأحداث، وعدم قدرتها على تبنّي الأساطير الجماعية التي يبدو أنها تشغل مساحة كبيرة جدًّا، قادرة على مَحوِ إمكانيّة تحديد الهُوية الفردية أو الجماعية.

إضفاء المقارَبة الجندرية على الصراع العالمي: منظور معرفي

لم تشعر علياء بأنَّ تجربتها الحيّة للتنقّل في الأماكن العامّة واستخدام وسائل النقل المُشترَكة كانت فريدة بسبب جنسها، أو مختلفة مِنْ تجربة أي رجل.

م: هل تتذكّرين أين كنت تحبّين تناول الطعام في السنوات الأولى من عقد التسعينيات؟
ع: كما الآن، أحبّ الوجبات المطبوخة في المنزل! أيّام الآحاد، كان أبي يقلّنا كعائلة الى مدينة لونا بارك للملاهي في المرسيدس الخاصّة به. كنّا نتناول الغداء في مقهى بالقرب من لونا بارك، وهو لا يزال موجودًا حتّى اليوم.

م: هل تعتقدين أنَّ الرجال، أشقاءك على سبيل المثال، لديهم تجربة تنقُّل مختلفة مِنْ تجربتِكِ؟ أو ربّما هناكَ أمرٌ متعلّق بما كنت تخبرنني إيَّاهُ عن التنقّل في الليل؟
ع: بصراحة لم نكن نخرج كثيرًا في الليل. في ليلة رأس السنة، على سبيل المثال، كنّا نخرج مع العائلة والأقارب. لم تكن الأوضاع آمنة في التسعينيات كما هي الآن. هل تُدرِكين ما أقصده؟ كانَ أشقائي يمشون كثيرًا، مثلي تمامًا.

م: أتساءل عمَّا إذا كانت تجربتك في السير والخروج متأثّرة بجنسك، أو إذا كنت تعتقدين أنَّ الأمور لكانت مماثِلة لو أنك رجل.
ع: لا، لقد كانَ أشقائي يتنقّلون بالطَّرائِقِ نفسها مثلي. وكان الجميع يتخذ الاحتياطات نفسها.
لقد نفد صبري مِنْ سماع روايتها عن تصوّرها للتنقّل في الأماكن العامّة ووسائل النقل المُشترَكة. مع ذلك، نظرًا إلى أنَّها لم تُولِ اقتراحي اهتمامًا على الإطلاق، والمتمثِّل في فكرة أنَّ تجارب الفرد في مكان عام، يمكن أن تتشكّل بطريقة مختلفة بالاستناد إلى جنسه، لم أضغط لإضفاء بُعْد «النوع الاجتماعي» على نقاشنا. [٥]

٥. للاطلاع على جندرة الصراع، انظُرْ Sjoberg، ٢٠١٣.

في الختام، جمعت هذه المقالة خطابًا استعاديًّا، تمحور حول الإدراك الحسّي، بغية تسليط الضوء على حقبة الحرب الأهلية والإقليمية في لبنان، والحقبة التي تلتها، والجغرافية التي انطبعت في الأذهان. إنَّ رواية علياء عن تصوُّرها لنهاية الحرب حسّاسة بقدر ما هي جيوسياسية؛ فهي تصف العامين ١٩٩١ و١٩٩٢ على أنّهما ليسا نهاية الحرب، وإنّما نهاية أصوات المدافع، من دون أن نُنكر أنَّ الحرب تتشكّل في تصوُّرها للعصر - وتتنقَّل بين الفترات التي تلت العام ١٩٩٠ وسبقته، مُشيرةً أحيانًا إلى ما بعد العام ١٩٩٠ على أنه «سياق حرب» — إلّا أنها أكّدت اعتقادها أنَّ تجربتها لم تتمحور حول الحرمان أو الصدمة مرّات عدّة. ويُعَدُّ وصفها مهمًّا لأنه يبرز إسهام جميع الروايات الاستعادية التي تركّز على الإدراك، في تسليط الضوء على الطّرائِق التي يعيش بها سكّان المدن التي وصفناها بـ«ما بعد الصراع»، وكيفيّة تصوُّرها مِنْ قِبَلِهِمْ.

يمكن للمرء أن يقدّم موجزًا، لا لصالح استكشاف «الجغرافيا السياسية للتأثير والعاطفة في مدينة ما بعد الصراع» (لاكيتا، ٢٠١٦) فحسب، إنّما أيضًا لإعادة صياغة عبارة لاكيتا حول الجغرافيا السياسية للإدراك الحسّي والشعور بالارتباط بمدينة ما بعد الصراع؛ فبمجرّد أن تكون شهادة علياء استعادية وتنظر ٣٠ عامًا إلى الوراء، يعني أنّه كان لديها الوقت للعودة إلى الأساطير والخطابات المُرتبطة بتلك الفترة، والتي شاركت، ربّما، في إنتاجها، ومكّنتها من التعبير عن عجزها عن تبنّيها. إلى ذلك، قرّرتُ عدم إضافة أي مقابلة مع امرأة أخرى، كوني لم أرغب في تقييم شهادة علياء مقارَنةً بشهادة أُخرى، إذ تكمن قيمة شهادتها في أنّها غير قابلة للتعميم، وتجبرنا على النظر إليها انطلاقًا من قيمتها الخاصة، ومن دون أي طلاء مفاهيمي أو منظور مُدرَك ناتج عن المقارَنة.

بشكل عام، علّمني الحديث مع علياء عدم الارتياح، وخصوبة مقاوَمة رغبتي في فهم تجربتها المتناقِضة في اختيار الكلمات التي تفاجئني. في الواقع، من خلال السعي الدؤوب إلى فَهْمِ المعنى فقط، قد نأمل التقاط لمحات من فقدان المعنى، سواء فرديًّا أَمْ جماعيًّا. تعمل ديناميكيّات تفكيك المعنى في حال حدوث مواجَهة مع شخص مُعيَّن، أو بين بعض الأشخاص الذين يتوقون إلى الارتباط والتواصل، ويواجهون خطابًا جماعيًّا، أو أسطورة مُشترَكة تجمّد كلّ محاولاتهم، وتجعلها غير قابلة للربط. وقدْ كتب بارت أنَّ «نهاية الأساطير هي شلّ لحركة العالَم» (بارت، ١٩٥٧)، وهو ما قد يجعلهم غير قابلين على التواصل والارتباط. في الواقع، إنَّ ما أسمّيه فقدان المعنى ليس إلّا اعترافًا بمواجَهة شعور عدم الارتباط، واستكشاف قوّته الاستدلالية.

المراجع

Barthes, Roland. Mythologies. Pierres Vives. Paris: Seuil, 1957.

Bonte, Marie. « Beyrouth, états de fêtes. Géographie des loisirs nocturnes dans une ville post-conflit ». Phdthesis, Communauté Université Grenoble . Alpes, 2017. https://tel.archives-ouvertes.fr/tel-01697151.

Bou Akar, Hiba. For the war yet to come: planning Beirut's frontiers. Stanford, California: Stanford University Press, 2018.

Cefaï, Daniel, éd. L'enquête de terrain. Recherches. Paris: La Découverte, 2003.

Comaty, Lyna. POST-CONFLICT TRANSITION IN LEBANON: The Disappeared of the Civil War. S.l.: ROUTLEDGE, 2021.

Davie, Michael F. « A Post-War Urban Geography of Beirut », juillet 1993. https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-01083151.

Hills, Alice. Policing Post-Conflict Cities. Zed Books Ltd., 2013.

Kastrissianakis, Konstantin. « Transformations urbaines et affirmation de nouvelles souverainetés : le cas de Beyrouth ». Rives méditerranéennes, no 42 (30 juin 2012): 75-95. https://doi.org/10.4000/rives.4183.

Laketa, Sunčana. « Geopolitics of Affect and Emotions in a Post-Conflict City ». Geopolitics 21, no 3 (2 juillet 2016): 661-85. https://doi.org/10.1080/14650045.2016.1141765.

Monroe, K. The insecure city: space, power, and mobility in Beirut.

New Brunswick, New Jersey: Rutgers University Press, 2016.

Pettigrew, Judith, et David N. Gellner. Maoists at the hearth: everyday life in Nepal's civil war. 1st ed. The ethnography of political violence. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2013.

Sawalha, Aseel. Reconstructing Beirut: Memory and Space in a Postwar Arab City. Austin, Tex.; Chesham: University of Texas Press ; Combined Academic [distributor], 2011.

Shneiderman, Sara, et Amanda Snellinger. « Framing the Issues: The Politics of "Postconflict" ». Society for Cultural Anthropology, Fieldsights, 2014. https://culanth.org/fieldsights/framing-the-issues-the-politics-of-postconflict.

Sjoberg, Laura. Gendering Global Conflict – Toward a Feminist Theory of War. New York: Columbia University Press, 2013.

Tfaily, Mira. La Fabrique de l'Illégitime – Une éthnographie de la ligne de bus 15 à Beyrouth. Mémoire soutenu à l'Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, 2019.

Wacquant, Loïc. « Carnal Connections: On Embodiment, Apprenticeship, and Membership ». Qualitative Sociology 28, no 4 (1 décembre 2005): 445-74. https://doi.org/10.1007/s11133-005-8367-0.

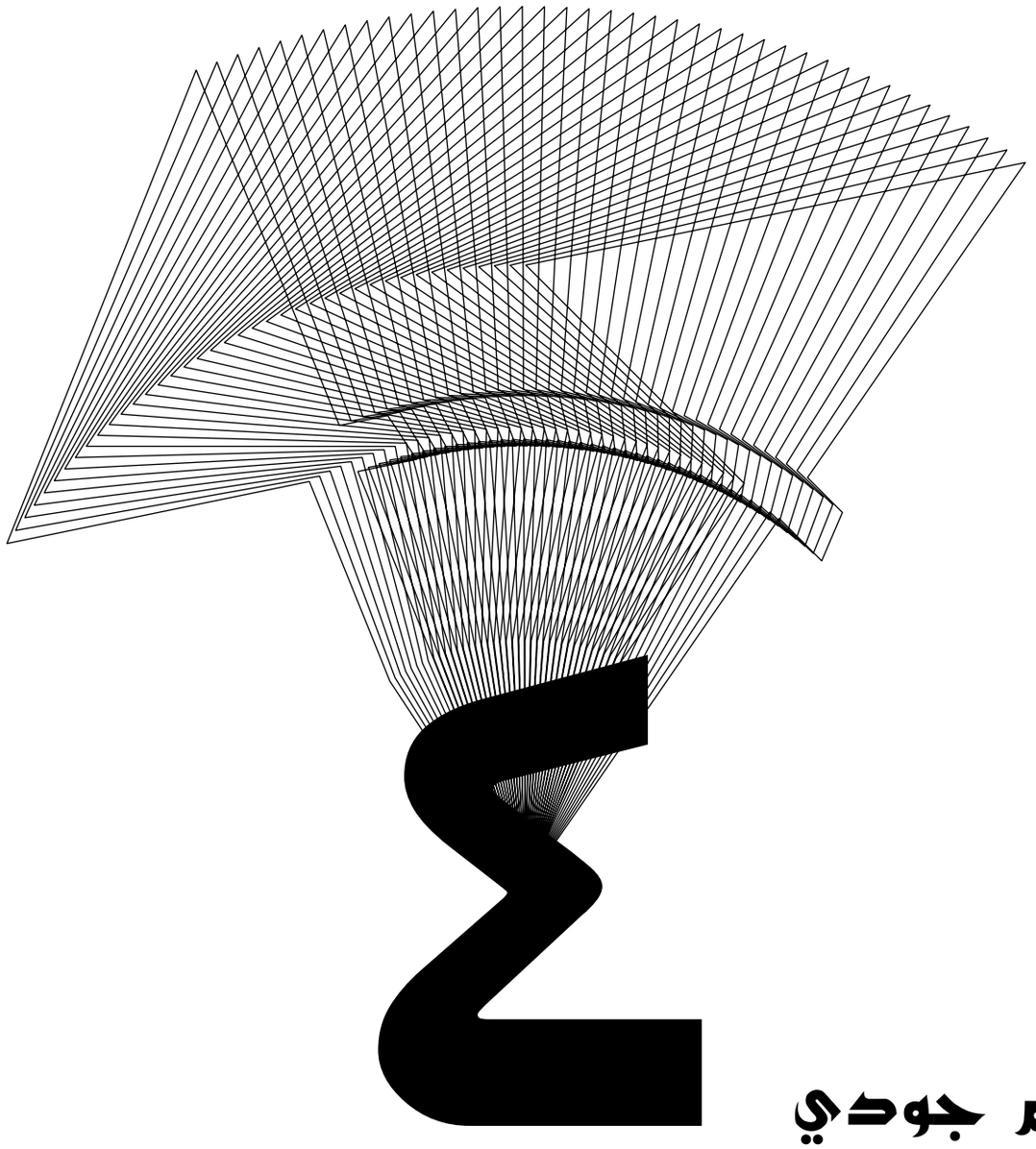

ريم جودي

باحثة إعلامية وكاتبة مقيمة في لبنان. حائزة على ماجستير في الدراسات الإعلامية من الجامعة الأميركية في بيروت، وعلى إجازة في الاقتصاد الدولي من جامعة جورج تاون. تتناول اهتماماتها البحثية التقاطع بين الثقافة البصرية والمساحة المدنيّة والنظرية المؤثّرة، وتركّز بشكل خاص على لبنان ومنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

عن المدن والنساء والأجساد: حوار بين إيتيل عدنان وهوغيت كالان

بعد انفجار ٤ آب/أغسطس الذي دمّر بيروت في الصيف الماضي، عُدت إلى مجموعة رسائل إيتيل عدنان عن المدن، والنساء، ولوحات هوغيت كالان. وقع الانفجار فيما كان الشعب منهَكًا قبل أن يُعبِّئَه حزن جماعي وغضب من دولة مُهمِلة دمّرت العاصمة اللبنانية، مُوازِيًا صِرَاعًا بين كثيرين، بعد فقدان مدينة أصيبت بجروح بسبب العنف والصدمات الكثيرة المُتتالية التي تلقّتها. كانت هذه الخسارة معاناة جسدية، وثقلًا يخترق الأجساد وينتقل عبر الأوردة، ويعصر القلوب بشدّة. عبّرت أعمال عدنان وكالان عن إحساس باللجوء بعيدًا من مناظر بيروت الجديدة وغير المفهومة. أعتقد أننا وجدنا بعضنا في الأزمات. جذبتني أعمالهما التي كانت مزيجًا يجمع، وفق هذا الترتيب الدقيق، بين الوطن، والمنفى، وكوني امرأة؛ إيتيل عدنان وهوغيت كالان، امرأتان وُلِدتا وترعرعتا خلال محطّات التغيير التاريخيّة الكبرى في بيروت؛ سواء في طفولة عدنان خلال الاستعمار الفرنسي في جبل لبنان، أم في نشأة كالان ابنة الرئيس الأوّل للبنان بعد الاستقلال. إنهما امراتان غادرتا بيروت سعيًا وراء اهتماماتهما، وهذه محنة انتقلت إلى أجيال من اللبنانيين الباحثين عن فرص جديدة في بلاد الاغتراب. والأهمّ، أنهما فنانتان تعكس أعمالهما، بشكل قويّ وحاسم، مكانتهما كنساء عربيّات في المنفى، ما يسلّط الضوء على التوتّرات الهُوياتية التي ترتكز إلى هذه الفئة من الوجود.

شكّل العثور على أعمالِ عدنان وكالان رمزًا للتقلّبات المكانية والزمانية التي مرّت بها بيروت، ولبنان عمومًا، في لحظات تاريخيّة مختلِفة. كان مسار الاكتشاف بمَنزلةِ خيط مُترابط، يسمح بتشكيل قصص النساء وكتابتها. من هنا، تُعدُّ هذه الورقة محاوَلة لتحليل هذه الوقائع المنظورة والمُتقاطعة، ولوضع أعمال الفنانتين في حوار يجمعهما، وللتفكير في الروايات التي قد تنشأ عنه. سوف أقرأ رسائل إيتيل عدنان إلى فوّاز طرابلسي خُصُوصًا، والتي أرسلتُها من بيروت في العامين ١٩٩١ و ١٩٩٢، عبر ربطها بلوحتين لكالان، وهما صورة ذاتية (١٩٩٥)، وفتاة تقفز على الحبل (١٩٩٨ أو ٢٠٠٠)، والنظر إلى توجّهات المؤلّفتين تجاه الفضاء والأجساد، والتي أعادت تأطير مناظر بيروت بعد الحرب، بِعَدِّها مساحات أنثوية، حيث يجري التفاوض على الانتماء، والهروب، والنفي، والخسارة بطريقة عاطفيّة.

الحرب والأغراض والأجساد

لم يكن العثور على الرسائل واللوحات مُجرّد صدفة، بل لحظة اعتراف بالنفس. رأيت أنَّ كلمات عدنان تعكس تجربتي كامرأة مُغتربة، من خلال السعي الدؤوب إلى الحُصُولِ على «وطن» في جميع الأماكن التي عشت فيها وزرتها، والذي يكتنزه إدراك صعب بأنَّ كلّ محطة تبقى ناقصة إلى حدّ ما. قد يكون القلق الذهني والاضطراب الجسدي النَّاتِجانِ من البحث عن وطنهما، هُوَ ما قادني إلى لوحتَيْ كالان، حيث وجدتُ تمازجًا بين الحرية والانغلاق، وأصبح علاجي في مساعيَّ الشاقّة. يبدو الجسد العاري في لوحة صورة ذاتية غير مُقيَّد بحدود اللوحة نفسها، بل يملأ فراغاتها بالكامل. أمّا لوحة «فتاة تقفز على الحبل» وهي تطفو فوق مدينة ثنائيّة الأبعاد، فتدلّ على التحرّر والتخلّي عن مرحلة سابقة، والانسياق نحو مرحلة جديدة.

دَفَعَتْني علاقتي الشخصية بالنصوص الثلاثة — التي تشكّلت وسط المناطق المُمزَّقة في بيروت —إلى التنقيب عن الروابط بينها. كما استخدمتُ عِلم الظواهر الكويرية Queer Phenomenology لسارة أحمد (٢٠٠٦)، لدراسة الروابط بين رسائل عدنان ولوحات كالان. تشير أحمد إلى كيفية فهم العالَم من حولنا وفقًا لدراسات كويرية، وترى أنَّ الأجساد قائمة مكانيًّا وزمانيًّا في الوقت نفسه من خلال الانتباه إلى تفاصيل المصطلَحات: «التوجه» في التوجّه الجنسي sexual orientation، و«الشرق» في الاستشراق orientalism، ما يؤثّر على طرق تكوينها وإمكانيّة تحرّكها في اتجاه أمور معيّنة، أو بعيدًا منها. تشير أيضًا إلى أنَّ «العمل في الفضاء ينطوي على

تفاوض ديناميكي بين ما هو مألوف وما هو غريب». لذلك، على الرغم من أنَّ التوجيه يعني الشعور بالوجود ضمن «وطن» في مساحة وسياق معيَّنَين، لكن تبقى هناك «إمكانيّة لخلق انطباعات جديدة حسب الاتجاه الذي نسير فيه»(أحمد ٢٠٠٦: ٧-٨). إلى ذلك، تركّز قراءتها الانفعاليّة للفضاء والذات على الحميمية والمشاعر، كونها طريقة للمعرفة. وبالتالي، تُعَدُّ المساحات الأرضية جزءًا من الجسم، وليس العناصر الخارجية، للإشارة إلى «أنَّ المساحات تشبه الجلد الثاني الذي يتكشّف في ثنايا الجسد» (أحمد ٢٠٠٦: ٩).

من ناحية ربط الأجساد، والمساحات، والأشياء، والعواطف، يقدّم نصّ أحمد أرضية مُنتِجة للتفكير في الأعمال المخُتارة، ولتبيينِ علاقتي بها، والسياق اللبناني بعد الحرب. يمكن القول إنَّ الحرب الأهلية (١٩٧٥-١٩٩٠) كانت من أهمّ الأحداث في تاريخ البلاد الحديث، كونها أنتجت أصداءً مكانيّة وزمنيّة لا تزال ملموسة حتّى اليوم. في الواقع، دمّر الحدث الدموي أجزاءً كبيرة من بيروت، وحدّد أحياءها على أسس طائفية، وترك مباني متشظّية بشكل واضح حولها، فضلًا عن أنه أفرز نظامًا طائفيًّا لتقاسم السلطة، فيما سعى في مرحلة إعادة الإعمار بعد الحرب، وبرعاية الدولة، إلى محو الذكريات الجماعية للحرب، من خلال عملية مُمنهَجة لإفقاد الذاكرة. أمّا تداعيات الحرب الأهلية، فأنتَجَتْ فترة مؤقّتة من «الجمود»— تسميها جوديث نايف (٢٠١٨) «معلّق الآن» — حيث يُبنى الحاضر على أنه لحظة طويلة ومستمرّة للأزمة ولعدم الاستقرار. إلى ذلك، بدلًا من تأطير الحدث على أنه فردي أو نتاج التاريخ، يسمح نصّ أحمد بالتفكير في الطرق التي يمكن للعنف أن يعيق بها التوجّهات، وللصدمة أن تقتلع الأجساد والبيئات، وفي كيفية إنتاج هذه التحوّلات وتنفيذها، من خلال الوظائف والقدرات اليوميّة.

تكوير الشعب وتأطير المنفى

يكمن جوهر نصّ أحمد في استكشاف كيفية احتلال الأجساد، لا سيّما التي لا تتناسب مع الحدود والتفسيرات الاجتماعية المعيارية، و/أو المطالَبة بمساحة لها من خلال علاقتها بأشياء مختلفة. إنَّ تجادُلَ أحمد للوصول إلى فهم تاريخي للأشياء، يأخذ في الاعتبار علاقات العمل، وديناميكيات القوّة، والاقتصادات السياسية التي تساهم في تشكّلها وفق ما هي عليه. على سبيل المثال، لا تُعدُّ مساحة العمل في تحليل أحمد «أمرًا» مُحايدًا. في حالة النساء الكاتبات - كثيرات منهنَّ موجودات على هامش المجتمَع أو لم تُسمَع أصواتهنّ - تعدُّ المطالَبة بمساحة للكتابة عملًا سياسيًّا، كذلك تصبح مساحة العمل موقعًا للنضال النسوي.

عند تحليل تسلسُل حجّة أحمد، أبدأ في التفكير في إمكانيّة وجود الجسد الأنثوي كموقع وشيء. تربط الشعوب، في تعبيراتها الجغرافية والهويّاتية، الجسد الأنثوي ضمن مجموعة من المعايير الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، التي غالبًا ما تنظّم كيفيّة تحرُّك هذا الجسد، وظهوره، وحديثه، وإمكانيّة رؤيته في مكانٍ مُعَيَّنٍ. بالتالي، قد يؤدّي اعتماد الشعب كإطار، وكنقطة مرجعية إلى (إعادة) إنتاج الجسد الأنثوي كرمز وغرض للاستهلاك، ما يحدُّ من استكشاف الأجساد والمساحات التي تتجاوز الحدود الإقليمية. إلى ذلك، ما هي التوجّهات التي قد تفتح إمكانيّات جديدة لقراءة جسد الأنثى؟ يقدّم استكشاف غاياتري غوبيناث للمغتربين الكويريين الإقليميين إجابة واحدة مُحتمَلة، إذ تبحث في كتابها، رؤى جامحة (٢٠١٨)، في كيفية تسليط الضوء على «التواريخ، والذوات، والرغبات» التي لم تكن مرئية في الروايات التاريخية السائدة (٩)، وذلك من خلال الممارَسات الجمالية للشتات الكويري في الرسم، والتصوير الفوتوغرافي. كذلك، تجادل في أنَّ التحوّل إلى الإقليمي غالبًا ما يكون شخصيًّا، ويسرد سيرة ذاتية، لأنَّهُ يتخذ «شكل الاستكشافات الشخصية والانفعاليّة للانتماء الإقليمي أو الاغتراب» (غوبيناث ٢٠١٨: ١٠). لا تعني الكويرية بالنسبة إلى غوبيناث النشاط الجنسي غير النمطي فحسب، بل تعبّر أيضًا عن طرق جديدة لرؤية المكان والزمان، ولتفسيرهما.

قرأت رسائل عدنان ولوحات كالان بوصفها أشياء كويرية، كونها تفتح إمكانيّات جديدة لفهم الفضاء، والذاكرة، والتاريخ في لبنان. أرى أيضًا أنَّ الفنانتين تغوصان في عوالم داخلية، وتوجّهانِ نَفسَيهما تجاه عوالم أُخرى خارجية، عبرَ أساليب تتحدّى الفهم المعياري للذات، والفضاء، والأمّة. عند قراءة هذه النصوص بالتوافق والتضاد في ما بينها، نجد أنها ترسم حدودًا جديدة للجسد الأنثوي تتجاوز حدود الأمّة، وتتحدّث عن مواقف الفنانتين كنساء في «المنفى». أؤطِّر هذا الشرط على أنه اقتلاع و/أو اضطراب في الأجساد، ناتج عن المساحات المعروفة كوطن، سواء كان مرغوبًا أم لا و/أو معترفًا به، أم غير مُعترَف به. أكثر تحديدًا، يمكن قراءتها على أنها لحظة طويلة من الارتباك؛ «ضعف جسدي [قد يكون] مُقلقًا، قد يحطّم إحساس المرء بالثقة أساسًا...» (أحمد ٢٠٠٦: ١٥٧). عبّرت عدنان نفسها عن هذا التفسير للمنفى، وكتبت في الرسالة الأخيرة ضمن مجموعتها: «... أشعر بأنني لم أستقرّ في أي مكان، أنا أعيش في العالم، في كلّ مكان، في الصحف، في محطّات القطار، والمقاهي، والمطارات ... الكتب التي أخطّها هي منازل أبنيها لنفسي» (١٩٩٣: ١٢٧). من ثمّ أرسو في ثنايا البيوت الأدبية لعدنان، سواء في هشاشتها، أم في ما تولّده من أمل، أم حتّى في زوالها، لأخلق في داخلها بيتي الخاصّ.

كُتِبت رسائل عدنان بين العامين ١٩٩٠ و١٩٩٢ في أماكن مختلفة من أوروبا ومن بيروت، وتناول كُلٌّ منها حالَ المرأة، وعلاقاتها المتطوّرة بالبيئات المُحيطة، فضلًا عن الأزمات المُتفاقمة، والحروب العنيفة التي تواجه لبنان والعالَم العربيّ. حفّزت كلماتها التضامن بين النساء في برلين، وروما، واليونان، وبيروت، عبر تشكيل «منطقة» أدبيّة متخيّلة، حيث يمكن رسم خرائط لجسد المرأة، وانتمائها، وشوقها النسوي. كذلك حدّدت تأمّلاتها الشعور بالاغتراب خلال نشأتها في أسرة ذات خلفيّات قومية، وعرقية، ودينية متنوّعة، ورغبتها في التنقيب عن ذكريات شخصية في الوطن عبر البحث عنها في مواقع حالية، والانزعاج الناتج من محاوَلة الانتماء إلى مدينة - مثل بيروت - تخضع باستمرار لأحداث مُتسلسلة من العنف. تستخدم كالان أيضًا علاقاتها مع جسدها وذكرياتها الشخصية، ومع المدينة كأساليب لإعادة صياغة معنى كونها امرأة في مواقع مختلفة.

من هنا، يمكن للمرء أن يَستنتِجَ أَنَّ المدن، والنساء، ولوحتَيْ كالان محاوَلاتٌ للتصدّي للارتباك الناجم عن كونهما فنانتين في المنفى، عاشتا غالبية حياتهما بعيدًا من لبنان، وتشعران بجاذبية إلى بلد أنهكه تفاقم الأزمات والحروب العنيفة. تعيد الفنانتان رسم حدود الوطن في أعمالهما، ما يخلق، وفق غوبيناث، مناظر كويرية عاطفيّة، ومناطق تعيد تفسير المكان والوقت. وبصورة أكثر تحديدًا، انْظُرْ إلى المدينة والبحر كمواقع كتبت فيها هذه المناظر.

المدينة

يعيد عمل كلّ من عدنان وكالان تخيُّل المدينة كمساحة أنثوية، إذ تتشكّل عند تقاطع يجمع بين تذكّر الماضي وتخيُّل مستقبَل بديل؛ إذ توجّه الفنانتان نفسيهما بعد الحرب، وتُعيدان تأطير المدينة من خلال الارتباطات العاطفية بالبيئات المحيطة.
بعد سنوات من الغياب، عادت عدنان إلى المدينة التي غيّرتها الحرب في العام ١٩٩١، مُشِيرَةً إلى أنَّ النساء، من خلال اتصالهنَّ بالأرض والوطن، شاهدات على الحرب، حيثُ تنعكس قوّتهنّ من رغبتهنّ في البقاء في لبنان؛ تعطي عدنان مثالًا عن والدة صديقتها جانين ربيز المُسِنّة التي رفضت مغادرة منزلها على الرغم من تعرّضه لأضرار كبيرة ولدمار شديد، وهو ما عُدَّ تحديًا ومقاوَمة، وجعل النساء حافظات للذاكرة، ورابطًا مُتجسِّدًا لأنقاض الحرب.

لا تتذكّر النساء الحرب فحسب، بل يتابعن أيضًا تغيّرات واجهات المدينة الحضرية. تلاحظ عدنان استعداد النساء الدائم للتحدّث عن المنازل، إذ يصفن «بالدقّة التي يمتلكها مهندس معماري أو طبيب، كلّ ما حدث بالضبط لكلّ منزل، وشرفة، وجدران مُتفحمة، وواجهات مشوَّهة، وغرف مدمَّرة» (١٩٩٣: ١٠٩)، وَيعكس تعليقها الطريقة التي يميّز بها الجنسان مساحة المدينة، إذ يُنظر إلى الوطن على أنه مجال خاص بالمرأة، كما يُبَيِّنُ عدمَ استقرارِ التّوجُّهاتِ نحوَ هذه البيئة المعيشيّة في أعقاب الحرب، ما يترك ندوبًا جسدية مرئية (مثل الخراب، والدمار، والحطام)، وأُخرى مُستترة (مثل ذكريات عمّا كان قائمًا يومًا ما، وما فُقِد، وما كان يمكن أن يكون عليه)، فضلاً عن كيفية حفظ ذكرى الدمار في أعقاب المأساة، وكيفية مساعَدة الآخرين على حفظها، ولمن نأرشف آثارنا، وإن كان هذا التصنيف القهري شافيًا.

في إعادة رسمها الحدود المُشوّهة لبيروت بعد الحرب، تشير عدنان إلى كيفية تغيّر الشارع. تلك المساحة التي غالبًا ما تُصوَّر على أنها عامّة ومُتاحة للجميع، تحوّلت إلى «مجال خاصّ بالرجال» (عدنان ١٩٩٣: ١١٠). ربّما تفترض عدنان أنَّ النِّساءَ أُقصِينَ إلى المجال الخاصّ، وتتساءل عمّا إذا كانت عودتهنَّ إلى الشوارع واحتلالها، وتملكّهن الفضاء العام، قد يعبّران عن تحريرهنّ، وكذلك الرجال الذين خاضوا الحرب؛ إذ تقول: «إذا خرجت أعداد أكبر من النساء إلى الهواء الطلق في الأحياء المُتضرّرة... فإنَّ كلّ هؤلاء الرجال المُرهَقين، والمجهَدين، والمُحصَّنين في متاجرهم وأعمالهم، والذين لا يزالون قلقين ومذلولين، سوف يجدون بعض القوّة، مرّة أخرى، نتيجة الحنان المُتدفّق وبعض التحرّر» (عدنان ١٩٩٣: ١١١). بالنسبة إلى عدنان، من الممكن إعادة توجيه الحياة العاطفية بعد الحرب (مشاعر الخُزي، والإذلال، والغضب، واليأس) من خلال منظور نسوي وأنثوي، يحوّل الضعف إلى قوّة للتجديد والتحرّر.

إسوة بعدنان، ترسم كالان مدينتها على أنها أنثوية أيضًا، إذْ نرى في لوحة صورة ذاتية (١٩٩٥) مُخطَّطًا لجسد عَارٍ يغطّي اللوحة بأكملها، بشكل استفزازي، وحاسم، ومثير للذكريات بمساحته الوردية الصارخة وخطوطه الناعمة التي تشكّل اتجاهًا نحو الذات، والجنس، والبيئات المُحيطة، حَيثُ تظهر هذه الخطوط مرحة ورحبة، وتقدّم الجسد — كمنزل مجازي — بنته كالان بنفسها. تشير سارة أحمد إلى أنَّ الخطوط تصوِّر التوجّه الجنسي، وأنَّ اتباع سطور معيَّنة ينطوي على لحظات من الأمل، والشكّ، وانعدام اليقين، ما يفتح الاحتمال نحو تصوّرات جديدة. إنَّ رسم كالان العاري هو امتداد لنفسها، ويوفّر مساحة للتفسيرات البديلة التي لا «تتماشى»

مع المفاهيم التقليدية للأجساد والمساحات. وَيمكننا قراءة اتساع المساحة الوردية في اللوحة وصلابة مُخطّط كالان على أنّهما مواقع لإعادة رسم الخرائط والمدينة. بالتالي، لا يمكن عَدُّ الجسد الأنثوي العاري مجرّد شكل أو وعاء، إنّما أيضًا حدود للتفاوض على ديناميّات السلطة، إذ يحمل في طيّاته إمكانيّة خلق الرقّة التي تطرحُها عدنان، وكذلك التحرّر.

أمّا لوحة «فتاة تقفز على الحبل»، فربّما تكون محاوَلة لتذكُّر المدينة بشكل غير دقيق، من خلال ضبابيّة الذاكرة الشخصية. تعبّر اللوحة عن فتاة صغيرة تطفو فوق مدينة ثنائية الأبعاد في منظر جوي تتكشف في أسفله المناظر الطبيعية، بالتوازي مع خطوط قاسية وزخارف حميمة، حيثُ تتداخل مع المساحات المُفكّكة بألوانها الفاقعة. يقسم حبل القفز اللوحة مكانيًا وزمنيًا، وكأنه يدعو المُشاهِدَ إلى السفر على طول خطوطه، عساه يتذكّر نسخة مختلفة مِنْ نفسه إسوة بما تفعله الفنانتان. في انعكاس للذاكرة وعودة إلى الماضي، تصوّر كالان حالها في سنٍّ أصغر، وفي بيئة خيالية، إذْ تظهر المدينة مشوَّهة ومشوَّشة مكانيًا، ما يعبّر عن فقدان الوطن كإطار مرجعي، ويدعو إلى تخيُّل مناظر جديدة من خلال الهياكل العائمة والسائلة. يُعدُّ عملها حزينًا وملوّنًا في آن معًا، يجمع مشهدًا من الطفولة، ويفرز الذاكرة كمجموعة من المرفقات السابقة والحقائق الحالية، لذلك، يمكن للمرء أن يقرأ هذه اللوحة على أنها حنين إلى زمن اتسم بالبساطة، أو انعكاس لفترة الشباب ولطفولة المرأة وصباها، أو رغبة في الهروب من قيود الحياة الماضية. وَفي زاوية اللوحة الفنية نرى شخصية أكبر سنًّا تنظر إليها الفنانة، وهي زوجها بول كالان الذي وقعت في حبّه في سنّ مُبكرة، ما يعكس، ربّما، طفوها فوق المباني والمدينة المُرقَّعة، وأيضًا لحظة انتقالها من كونها فتاة صغيرة إلى امرأة، ومن الحياة الماضية إلى الوعد بمستقبَل مختلِف.

في حين تناقش عدنان إمكانيّة إيجاد الرقّة والتحرّر عندما تشغل النساء شوارع بيروت، تصوّر كالان الحنان والتحرّر كجزء من الجسد الأنثوي، مُتجاوِزةً حدود المساحة الجغرافية. تؤطِّرُ هذه العلاقة بين النصوص الثلاثة الجسدَ كـ«جهاز توجيه»، ما يساعد على تحديد الإحساس بالذات والوطن في لحظات الارتباك، خصوصًا بالنسبة إلى الَّذِينَ يسافرون عبر فترات زمنية مختلفة. إلى ذلك، لا يُعَدُّ الفضاء المادي للمدينة «خارجًا» عن الأجساد، فبدلًا من ذلك، تشبّه الفراغات بالجلد الثاني الذي يتجدّد في ثنايا الجسم» (أحمد ٢٠٠٦: ٩).

البحر

يُعَدُّ البحر موضوعًا مهمًّا في رسائل عدنان، ويرتبط بعلاقتها الحميمية والهويّاتية مع البحر المتوسّط. ولِدت عدنان من أبٍ سوري عثماني وأُمٍّ يونانية، وكثيرًا ما وجدت نفسها تطفو بين الهُويات الوطنية واللغوية، فأصبح البحر ملجإً لها وفضاءً للانتماء. في رسائل بيروت التي كتبتها، تعمل عدنان على تأطير البحر كموقع مُتعدّد الأشكال، يتوسّط الهروب، والانتماء، والوطن، والخسارة. وَعند وصولها إلى المدينة في العام ١٩٩١، وصفت المنظر من شقّتها في الطبقة الحادية عشرة المُطلّة على البحر من ثلاث جهات؛ تقول عدنان: «اجتمعتُ مرّة أخرى بهذا البحر الذي أحبّه قبل كلّ شيء، وأخشاه في كثير من الأحيان أكثر من أي شيء آخَر في العالَم ... لم أتركه أبدًا ورائي» (١٩٩٣: ١٠٦). يلخِّص هذا الاقتباس كيف توجّه نفسها نحو البحر المتوسّط تحديدًا، بمعزل عن مكان وجودها في العالم، إذْ تبني هُويتها المتوسّطية من خلال عملية التوجيه تحديدًا، وتتصارع مع الأبعاد الانفعاليّة مثل الحبّ والخوف، لتأطير البحر كوطن ثابت تعود إليه على الرغم من المنفى.

بالنسبة إلى عدنان، ليس البَحرُ مساحة أنثوية فحسب، بل هو أنثوي في جوهره وصوره؛ تشير إلى أنه «لا يوجد فصل بين البحر والمرأة، ولا جدوى من النظر أبعد من ذلك، سواء في الفكر أم من خلال خبرة الآخرين، من أجل الاقتراب من جوهر ما هو أنثوي: الماء والملح ... والشمس تغطّي كلّ شيء» (١٩٩٣: ١١٠). تحوّل عدنان البحر إلى بيئة وموقع لإعادة التفاوض على الارتباطات الذاتية، ومساحة يمكن أن «تذوب» نفسها فيها وتستسلم للمدّ والجزر في البحر المتوسّط. لذلك، تحمل الخريطة المُعقَّدة للارتباط البحري التي ترسمها آثارًا منهجية مثيرة للاهتمام؛ فإذا كان البحر، كما تشير عدنان، مساحة «لنصبح ما نحن عليه» (١٩٩٣: ١١٠)، إذًا، فإنَّ الجسد العاري في لوحة صورة ذاتية يحوّل المساحة الزهرية الواسعة في اللوحة إلى بحر رمزي يمكننا توجيه أنفسنا تجاهه وضده. قد يكون الجسد وطنًا أيضًا، وعودةً إلى الوطن، ومرسًى، ومكانًا للإبحار منه. تتباين تأمّلات عدنان حول العلاقة بين البحر، والذات، والحياة اليومية من خلال نقاشاتها حول الخسارة، والعنف، والموت. وفي أثناء تأمّلها الأنقاض ووحشية الحرب، تقول: «لولا البحر لما نجت بيروت من الدمار» (١٩٩٣: ١١٠). لولا ملح البحر - الموجود علينا وفي داخلنا وفي البيئات المُحيطة — لاستسلمَتِ المدينة لجراحها، وربّما ضاعت في هذه العملية. إذًا، يَبعَثُ توجّهها نحو البحر على الأمل، لأنّه يبدو أنه يتصدّى لاستمرار الحرب كواقع

مُعاش، ويترك آثارًا ملموسة حول فضاء المدينة، وَمجالًا لإعادة توجيه أنفسنا نحو البيئات الطبيعية، والنظر إليها على أنها مساحات نتفاعل معها، ويمكن أن تمهِّد المسار أمام تصوّرات بديلة للمستقبَل. من هنا، ربّما يؤدّي التحوّل نحو العناصر إلى إلقاء الضوء على استراتيجيات المقاوَمة، والوقاية، والبقاء، التي تجابه شبح العنف والانحلال.

التحوّلات

تغيّرت وجهات نظر عدنان في شأن المدينة والبحر بشكل جذري، عندما عادت إلى بيروت في العام ١٩٩٢ لحضور جنازة صديقتها جانين. كان هذا الحدث مُربِكًا لها، وغيّر طريقة ارتباطها بالمناظر المادية والمتخيَّلة من حولها. لقد استبدلت بقايا الأمل بمستقبَل أفضل بالاستسلام والهزيمة؛ فمصاعب الحياة في لبنان، والتي كان يمكن تحمّلها خلال زيارتها الأولى مثل انقطاع التيار الكهربائي وارتفاع الحرارة، لم تعد تطاق الآن. لقد باتت أكثر انسجامًا مع الضوضاء، والحرارة، ومتاعب الحياة اليومية في المدينة، إذ بالنسبة إليها «العيش [في بيروت] هو فعل خضوع للأسوأ» (عدنان ١٩٩٣: ١٢٢).

بعد وفاة صديقتها، تحوّلت الأماكن المألوفة إلى أماكن غير مُرحَّب بها، لِأَنَّ الحزن الذي تعيشه عميق جدًّا، لدرجة أنه غيّر توجّهها نحو البحر. بدأت في كتابة رسالتها من النافذة، وفيما كانت تنظر إلى البحر المتوسّط أمامها، لاحظت عدم وجود سوى عدد قليل من القوارب التي تخترق الأفق، ويمحوها الضباب أو عبق درجات الحرارة (عدنان ١٩٩٣: ١٢٢). هذا البحر، الذي كان موطنها وملجإها الدائم، أصبح «مُسطَّحًا ولا حول مِنه» (١٩٩٣: ١٢٤)، لم يعد حليفها، وإنّما مجرّد مساحة «تشبه الشمس كثيرًا وتحرق عينيها». (١٩٩٣: ١٢٧). أصبح البحر بالنسبة إلى عدنان مُرعِبًا، نتيجة الخسارة والحزن العاطفيّ، مثل قادة الميليشيات، وهذا الفكر يخيفها. لقد ذابَ الملح الذي حفظ جسدها، تحت وطأة الحزن، والدبق الناجم عن الحرارة في بيروت. لذلك، إذا أفسحت المجال للغضب ودمجت تخيّلاتها عن البحر في الحرب والعنف، قد ينتج عن ذلك ارتباك عميق يغيّر جسدها ويخرجه مِنْ طوره. في هذا السياق، تشير أحمد إلى أنه «يمكن للأجساد التي تعاني من الارتباك أن تكون دفاعية في سعيها إلى الحُصُولِ على الدعم، أو في أثناء بحثها عن مكان لإعادة بناء علاقتها بالعالم» (٢٠٠٦: ١٥٨). لكنّها بدلًا من ذلك، تبحث عن سُبل للتعامل مع وفاة صديقتها.

وَمن الأساليب التي تستخدمها عدنان لمحاوَلة فهم مشاعرها وكشفها، هي مساواة صديقتها بالمدينة، فتصبح وفاة جانين موتًا لبيروت أيضًا، حيثُ تجد عدنان نفسها راغبةً في التحدّث إلى جانين عن أحاسيسها وألمها بسبب وفاة صديقتها! تسمح عبثية هذا الفكر لعدنان بالتفكير في كيفية توجيه الأجساد نحو الموت، كما أنَّ هشاشة الجسد، وقابليته للتلف، والطريقة التي يتشكّل بها الناس - اجتماعيًّةً كانتْ أَمْ سياسِيَّةً - من خلال ضعفهم، تؤطّر تفكُّك جسد صديقتها وجسد المدينة بشكل مشابه (عدنان ١٩٩٣: ١٢٨). في هذا السياق، يذكّرنا التركيز على جسد المرأة بمناقَشة عدنان السابقة حول الرقّة. مع ذلك، ما عَدَّتْهُ وسيلة للتغلّب على أهوال الحرب أصبح تذكيرًا بإنسانيتنا، وبالطيّات الناعمة لأجسادنا التي يمكن أيضًا وخزها وحثّها.

لم تتمكّن عدنان من استعادة توجّهها نحو محيطها إلّا بعد مرور بعض الوقت؛ ففي منتصف أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٢، شعرَتْ بأنَّ الريح تتغيّر، والبحر يتحرّك، فتوصّلَتْ إلى استنتاج مفاده أنَّ «سرّ الموت يمرّ من خلالنا... نحن لسنا موتى». ومن خلال مشارَكتها في طقوس الجنازة والحداد، تكتشف أنَّ «بيروت حافظَتْ على لحظات النُّبل، وأنَّ لدينا الكثير لنحفظه ونكتشفه» (عدنان ١٩٩٣: ١٢٩). كما توصَّلَتْ عدنان من خلالِ تفكيرها في الحياة والموت في مدينة تُحتضر إلى نتيجة شبه كاملة، وهيَ أنَّ الأملَ ما زالَ مَوجُودًا.

استنتاج

لطالما تم تَخَيُّلُ بيروت على أنها مدينة أنثوية، أو ربّما ضحية، أو فتاة في محنة. تُبرِزُ أعمال كالان وعدنان مناظر بيروت بعد الحرب، وتعيد تأطير الأنوثة في داخلها، إذْ نراهُما تغوصان في موضوعاتِ المنفى، والانتماء، والوطن، والذات، لتذكيرنا بأنهما ليستا بحاجةٍ إلينا لننقذهما، والمدينة كذلك الأمر. كما تفتح الفنانتان إمكانيّاتٍ جديدةً للتفكير في بيروت اليوم، بعد انفجار المرفإ، والأزمات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية المُتعدِّدة التي تمرّ بها البلاد، إذ ربّما يساعد تأنيث المدينة إسوة بكالان وعدنان - وإيجاد الرقّة في ثناياها - على مُواجَهة الخسارة، ورسم تخيّلات سياسية وثقافية بديلة.

في نهاية رسالتها في العام ١٩٩٢، كتبَتْ عدنان: «في اليوم الذي سوف ينسدّ فيه أفق البحر أمامنا، سوف نواجه كابوسًا لا يمكن محوه» (١٩٩٣: ١٢٧). لقد فقدنا أجزاء شاسعة من شواطئ لبنان نتيجة الخصخصة، والاحتلال غير القانونيّ، وتضرُّر المرفأ المركزي للبلاد بشدّة. مع ذلك، إنَّ التحوّل نحو البحر في تفكيرنا وتوجّهاتنا، قد يكشف آفاقًا جديدة لفهم مدينتنا، ولإعادة بنائها، والانتماء إليها. بعد أن تُغرِق الأمواج المنازل التي فقدناها وتلك التي نبنيها، كيف نستخرج «الملح» الباقي في داخلنا وحولنا؟

المراجع:

Adnan, Etel, Of Cities and Women (California : Post-Apollo Press, 1993).

Ahmed, Sara, Queer Phenomenology: Orientations, Objects, Others (Durham: Duke University Press, 2006).

Caland, Huguette. Self Portrait. 1995. https://www.artsy.net/artwork/huguette-caland-self-portrait

Caland, Huguette. Girl Skipping Rope. 1998 or 2000. https://www.christies.com/lot/lot-huguette-caland-1931-2019-girl-skipping-rope-6285876/

Gopinath, Gayatri. Unruly Visions: The Aesthetic Practices of Queer Diaspora (Durham: Duke University Press, 2018).

Naeff, Judith, Precarious Imaginaries of Beirut : A City's Suspended Now (Cham: Palgrave Macmillan, 2018).

Ouyang,Wen-Chin. "From Beirut to Beirut: Exile, Wandering and Homecoming in the Narratives of Etel Adnan.". In Majaj, Lisa and Amireh, Amal, (eds.), Etel Adnan: Critical Essays on the Arab-American Writer and Artist, 67-88. London: McFarland and Co., 2002.

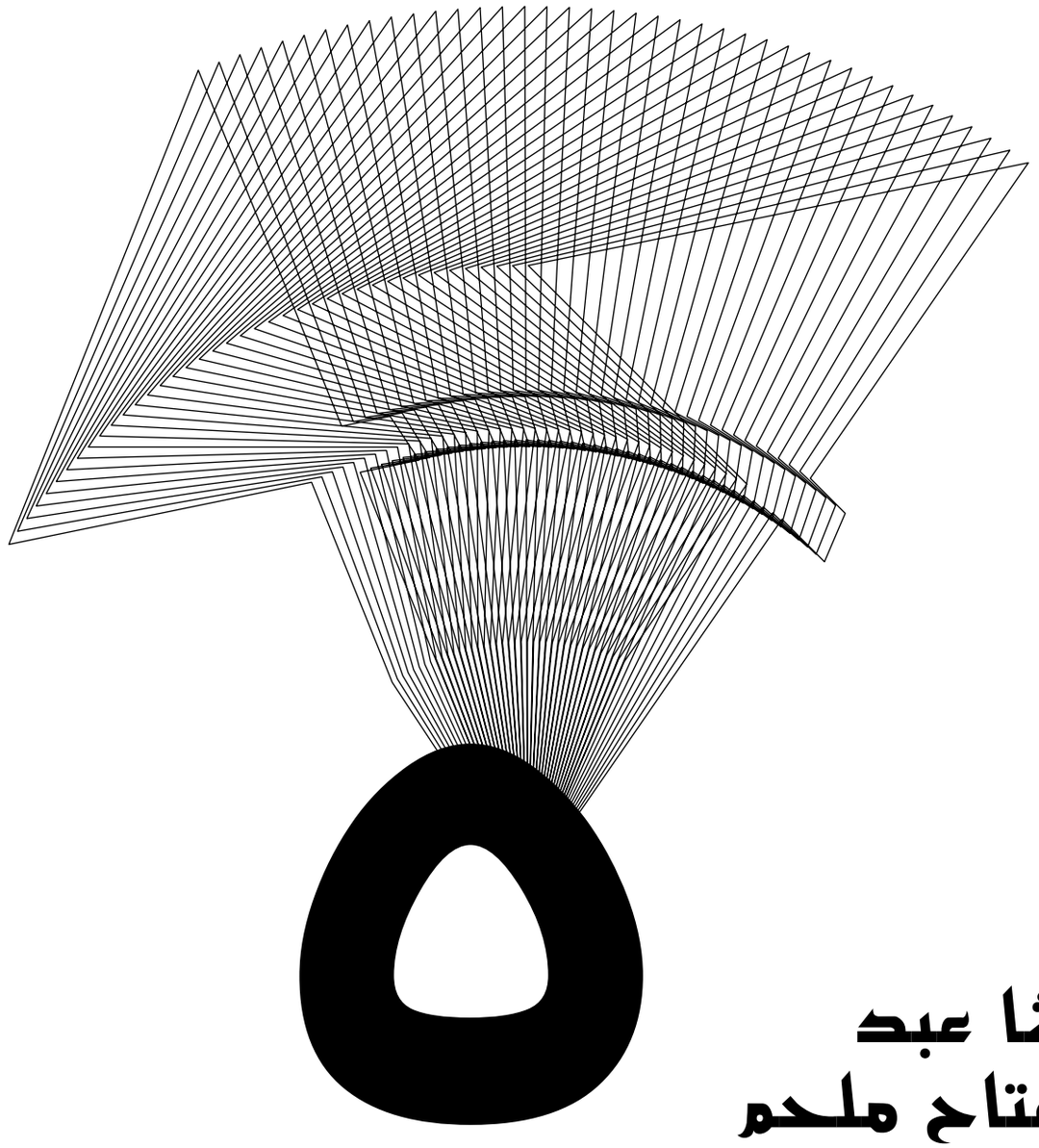

رشا عبد الفتاح ملحم

دكتوراه في الفن وعلومه - أستاذة متعاقِدة، وَمحاضِرة في الجامعة اللبنانية.

إسهامات غاليري جانين ربيز في دعم التجارب النسائية في الفن بين العامين ١٩٩٠ و٢٠٠٠

بعدما خفتت نيران الحرب الأهلية في لبنان، بدأت الحياة الثقافية والفنية تستعيد نشاطها في بيروت، وعادت غاليريات الفن لاستئناف حركتها الفنية، ونشطت بدورها الحركة النسوية حيث تخطّى إسهام النساء في الحياة التشكيلية إنتاجهنَّ الفنّي، ليكُنَّ أيضًا داعماتٍ للفنّ.

تُعدّ جانين ربيز رائدة من رائدات الحركة الثقافية، فقد أسهمت مع منير أبو دبس في تأسيس مدرسة الفنون الدرامية، وأسَّست دار الفن والأدب في العام ١٩٦٧، فكانتْ منبرًا للفن وللّقاءات الفكرية والسياسية منذ تأسيسها، وحتى وفاة ربيز في سنة ١٩٩٢. حينها، استبدلَتِ ابنتُها نادين بكداش اسم الدار بغاليري جانين ربيز، ليستمرَّ في تقديم نشاطات ثقافية، وفنية، وأدبية في بيروت. وتجدر الإشارة إلى أنَّ الدار كانت قد تعرّضت للتدمير بفعل القصف خلال الحرب الأهلية، وحينها آثرت صاحبتُها عرض الأعمال الفنية من شقتها الخاصة.

تشمل الأنشطة الثّقافيّة التي قدّمتها دار الفن والأدب بين سنتَي ١٩٦٧ و١٩٩٢، سلسلة من النقاشات، والمؤتمَرات، والمَعارض، والحفلات الموسيقية، ومسابَقات الشِّعر، وعُروض الأفلام. التزمت ربيز بقضايا العروبة والوحدة، ومحارَبة الانقسامات الطائفية في لبنان، فنظّمت سلسلة محاضَرات بعنوان «العرب، قراءة جديدة» في سنة ١٩٩٠. كما قدّمت رؤية حول سياسة لبنان الثقافية، مِنْ دون أن ننسى دعمها الحركات النسائية في لبنان كما جاء في بيان الاتّحاد النسائيّ التقدميّ،[١] الذي أكدّت فيه دورَ المرأة وأهميتها في المجتمَع، إلى جانب الاهتمام بالمجالَين التشكيليّ والمسرحيّ.

وبعد سنة ١٩٩٢، أخذ معرض غاليري جانين ربيز، بقيادة بكداش، على عاتقه دعم التجارب الفنية الشابة والرائدة في مجال الفنون البصرية في فترة التسعينيات، إن من خلال مَعارض فنية، أو من خلال مشارَكة الغاليري في معارض دولية وعالمية. وقد حقق العديد من الفنّانين الذين دعمهم الغاليري نجاحًا على المستويين المحلي والدولي، كتجربة إيتيل عدنان، وهوغيت كالان، وشفيق عبود، وإيفيت أشقر، وجان خليفة، وغيرهم.

١. أدركت جانين ربيز الظلم الاجتماعي المفروض على النساء في المنطقة العربية منذ منتصف القرن العشرين، فتبنّت قضيّتهُنَّ، وأصبحت قضيتها الأساسية. وقد أسهمت جانين في ذلك، خلال طرح إشكالية هذه القضية وجرأة اختيار موضوعات دقيقة فكريًا ودينيًا، حيثُ لم تُبحث من قبل إلّا في مجموعات محصورة. انضمت ربيز إلى الحزب التقدمي الاشتراكي، ووصلت إلى مركز نيابة الرئاسة، ومفوضة الشؤون النسائية في الحزب. وكانت لديها مواقف علنية تجاه قضايا النساء جاهرت بها في ندوات عدّة، منها، على سبيل المثال: ندوة في سنة ١٩٧٤ عن أهمية التحرر الجنسي في عملية تحرر المرأة، وندوة أخرى عن قضية المرأة اللبنانية، وأفق تحررها في ١٩٧٤/٥/٢٨-٢٧، والمؤتمَر الدولي للسنة العالمية للمرأة في سنة ١٩٧٥، والمؤتمَر الأول لميثاق حقوق المرأة اللبنانية في ١٩٨٣/٢/٥

الإشكالية والمنهج:

بين الإلتزام بالقضايا السياسية والقضايا الثقافية والفنية، كيف دعم غاليري جانين ربيز التجارب النسائية في الفن في لبنان، في تسعينيات القرن العشرين؟ كما تسأل هذه الدراسة: ما هو الدور الذي أدّاهُ غاليري جانين ربيز في تطور الحركة الفنية بشكل عام في لبنان في التسعينيات؟ يعتمد البحث المنهج التاريخي الوصفي، ثم التحليلي النقدي من منظور نسوي، ويجمع الحقائق المتعلقة بالموضوع من مصادر مختلفة، للإحاطة بالجوانب الرئيسة لدراسة إسهامات غاليري ربيز خلال فترة التسعينيات.

لمحة عن غاليري جانين ربيز:

في رهانه على مُجاوَزةِ الواقع اللبناني المأسوي، والصراعات الداخلية الحادّة، وعدم الاستقرار عشية انتهاء الحرب الأهلية، وما رافقها من عصف بالحركة التشكيلية خلال تلك الفترة، شهد لبنان في التسعينيّات من القرن العشرين انفراجًا على مختلف الصعد، أدى إلى ازدهار دُور قاعات العرض التشكيلي في لبنان، وتناميها. وقد شكّل غاليري ربيز، في العاصمة اللبنانية بيروت، علامة هامة في المشهد التشكيلي، مُجاوِزًا بذلك المشهد القاتم خلال الحرب، ومُحاولًا رسم معالم جديدة للحياة الثقافية، وإقامة نوع من التواصل بين التجارب الفنية اللبنانية والجمهور. وقد أحدثت الحرب تغييرًا في مستوى التلقّي عند الجمهور، وفرضت نوعية فنيّة محدَّدة، تعالج قضايا إنسانية، تجسّد بدورها مآسي العنف والحرب، وويلاتهما.

لذلك، فإنّ هذه الدراسة تقتصر على تسليط الضوء على تجربة غاليري ربيز في فترة التسعينيات، نظرًا إلى أهمّيّة تلك المرحلة في حياة لبنان، بعدّها مرحلة انتقالية، بإدارة ابنتها، تحمل رؤية بكداش المغايِرة. قُلِّصَتْ في تلك الفترة نشاطات دار الفن والأدب، وحُصِرَتْ في مسار واحد وهو الفن البصري. وتميّزت هذه الفترة أيضًا بالبحث عن آليات للمشارَكة في المَعارض العربية والدولية. ولا شك في أنَّ مختلف التقنيات التي دخلت حيّز البحث والمعالَجة كأساليب فنية جديدة، وكسر القواعد، وبروز ثورة جديدة على اللوحة التقليدية بنفحات من الحرية، دفعتِ الغاليري إلى تبنّي تلك المتغيرات كافّة، وهضمها، كونها تُعَدُّ انعكاسًا للتحولات الجمالية الّتي سادَتِ الغربَ، والتي وجدت سبيلها في النتاجات اللبنانية في تلك الفترة، وما قبلها.

أمّا القضايا السياسية والنسائية التي شكّلت أحد روافد أنشطة دار الفن والأدب،[٢] فقد غابت عن أنشطة غاليري جانين ربيز لاحقًا، باستثناء المشارَكة في المعارض الفنية. ولكنَّ المرحلة الممهِّدة لفترة التسعينيات شهدت أيضًا أحداثًا فنية هامة، امتدّت بين العامَين ١٩٨٨ و١٩٩١، حَيثُ نظّمت جانين ربيز معرضًا فنّيًّا في بيتها، بغية تنشيط الحركة الثقافية في لبنان، فكان معرض إيفيت أشقر في سنة ١٩٨٩، ومعرض روز الحسيني في سنة ١٩٩١، وقد شهد المعرضان إقبالًا نشطًا مِنْ جمهور الفن في لبنان، بالإضافة إلى معارض أخرى، منها، معرض لمحمود الزيباوي في سنة ١٩٨٧، وآخَر لحليم جرداق، ومعرض ثنائي هامّ ،ضَمَّ أمين الباشا وأشقر في سنة ١٩٩٠، ومعرض جماعي لستة فنانين في العام ١٩٩٣، ومعرض للفنان إيلي كنعان في سنة ١٩٩٣، ومعرض جماعي بعنوان Christmas show collection exhibition في سنة ١٩٩٣. وإلى جانبها، استضافت ربيز أربعة معارض استعادية، ضمَّت أعمالًا فنية، تعود إلى فترات زمنية مختلفة، شكّلت بدورها استرجاعًا لمحطات الفن التشكيلي في لبنان.

ولوحظ في تلك الفترة الإقبال المتنامي تجاه التجارب الفنية لفنانين رواد على حساب التجارب الشابة، ما جعل ربيز تلامس واقع السوق الفنية في لبنان، ما صعّبَ بدورهِ مهمّة الدّار في تقديم جيل جديد حداثوي،[٣] خاصَّة أنَّ الحرب وانقساماتها وجدت سبيلها

٢. أنشطة دار الفن بين سنتَي ١٩٦٧ و١٩٨٧ فيما يخص النساء، توزَّعتْ على أنماط أربعة: استدعاء نساء من أهل الفنّ، والإبداع، والثقافة، للمشارَكة في أعمال الدار، ولإلقاء محاضَراتٍ وشِعرٍ، ولعرض أعمال فنية - استدعاء أهل الفكر، والعِلم، والاختصاص، لبحث موضوعات تختص بالنساء وبدورهنَّ في المجتمَع - إقامة ندوات مستمرة ومكثّفة لطرح قضايا النساء - تحرير البيانات، والنداءات، وميثاق الاتحاد النسائي التقدمي، لا سيما المقترَح لإنشاء وزارة لشؤون المرأة.

٣. جيل حداثوي: أي جيل الفنانين الذين ينتمون إلى مرحلة الحداثة في لبنان.

إلى الجمهور اللبناني،[٤] وهي مشكلة كانت تتعارض ورؤية الدار. شكّل هذا الإنقسام مواجَهة وتحدِّيًا كبيرين أمام بكداش، كان عليها خوضهما في مرحلة لاحقة. فهل هذه المعايير هي التي دفعت صاحبة الغاليري الجديدة إلى صبِّ اهتمامها في مجال الفنون البصرية فقط؟

انعطاف المسار:

هدَفَ الغاليري منذ عودته إلى العمل في سنة ١٩٩٢ إلى أن يكون منارة فنية، وحلقة تواصل بين الفنان والمجتمَع، لا سيما بعدما انحصر دوره في المعارض الفنية البصرية فقط. وربّما يؤشِّرُ ذلك التوقيت بالذات إلى استرجاع دور صالات العرض، وإعادة إحيائها، لا سيما أنّ قسمًا كبيرًا منها أقفل أبوابه بعدما أتت الحرب عليه، بالإضافة إلى غياب المؤسَّسات الثقافية الرسمية عن المشهد الفني في لبنان.

تشبّه نادين بكداش التسعينيات بفترة السبعينيات إلى حدّ كبير؛ فمجتمَع النخبة كان توّاقًا إلى معرفة ما توصّل إليه كبار الفنانين في لبنان، ومعرفة مراحل تطوّر تجاربهم، لذلك كان التهافت على حضور المعارض خلال التسعينيات لافتًا من قبل نخبة من المهتمّات والمهتمين بالحركة الثقافية والفن. كانت نسبة الحضور إلى المعارض مرتفعة جدًا، لدرجة أنّ معظم اللوحات للرواد والرائدات، مثل أشقر، وزيباوي، وعبّود، وجميل ملاعب، وهيلين الخال، وغيرهم، كانت تُباع بشكل سريع ما يشير إلى أنّ سوق الفن التشكيلي في لبنان عاد إلى الحياة. (نادين بكداش - مقابَلة خاصة، ٢٠٢١).

وتضيف بكداش أنَّ تلك النهضة كانت منتشرة في معظم غاليريات بيروت، إِذْ ظهر في الساحة التشكيلية عدد جديد من صالات العرض، لكنَّ هذا لم يُضعِف دور أيّ غاليري، بل على العكس، كان هناك اهتمام، ومتابَعة، ومُشارَكة حقيقيّة في ما تعرضه معظم الغاليريات في بيروت، لأنَّ لكل واحدة منها رؤيتها الخاصة. وقد شكّل غاليري ربيز صلة وصل بين فناني الداخل وطالبي العلم والفن، والفنانين المسافرين في الخارج. (نادين بكداش - مقابَلة خاصة، ٢٠٢١).

ذلك كُلُّهُ أوجد معايير جديدة تبنّتها بكداش في تحديد التفضيلات الجمالية والنقدية التي من الممكن أن تتأسس عليها رؤية الغاليري وهدفه، خصوصًا أنَّ هيمنة فنون ما بعد الحداثة في لبنان لم تتحقق إلّا خلال العقد الأخير من القرن العشرين وما بعده،[٥] عندما انتشرت المعارض الفنية التي تنادي بالتغيير، فكثرت المحاولات الفنية التي تجمع أساليب وتقنيات متعددة، أحدثت انقلابًا في المفاهيم.

واكب غاليري جانين ربيز في التسعينيات أعمال رواد الحداثة التشكيلية في لبنان،[٦] ومنها أعمال عبود، وعدنان، وكالان، وأشقر، وعارف الريّس، وأمين الباشا، وغيرهم من الفنانين الرواد، إلى جانب التجارب الشابة ذات التوجهات المُختلِفة. آمنتْ بكداش بأداء الفنانين، وقدمتهم للجمهور، وتابعت مراحل تقدُّم أعمالهم وتجربتهم، وهو ما يستغرق سنواتٍ وربما عقوداً، حسب بكداش.[٧] وضمّ الغاليري مجموعة كبيرة من أعمال الفنانات اللبنانيات من أمثال أشقر، وريم الجندي، ولارا تابت، ولور غريّب، وعفاف زريق، وغيرهنّ، كما مثّل أشقر، وغريّب، وكالان، ومن الجيل الجديد دينا ديوان، وديالا بعاصيري، ومريم بولس، ولارا تابت. أدّى غاليري جانين ربيز، وما زال يؤدّي، دورًا مزدوجًا في حركة الفن التشكيلي في لبنان، فهو يشكل مساحة واسعة لعرض الأعمال الفنيّة وبيعها، وهو جزء من حركة السوق الفنية في لبنان، بالإضافة إلى كونه منصة لتبادل الخبرات الفنية والأفكار.

٤. مهى عزيزة. "جانين ربيز وتجربة دار الفن والأدب، نجمة من أقطاب الحداثة ومن صانعي العصر الذهبي لبيروت". بيروت: مركز التراث اللبناني في الجامعة اللبنانية الأمريكية LAU، ٢٠١٥.

٥. ما بعد الحداثة (Postmodernism): مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة الغربية عرفت بعد الحرب العالمية الثانية، وقد أتت كردّ فعل على الحداثة، عقب الأزمة التي وسعت الهوة بين الفنان والمتلقي. وسعت فنون ما بعد الحداثة إلى محاوَلة نقد هذه المرحلة، والبحث عن خيارات جديدة ارتبطتْ بالأدب، والعمارة، والفلسفة، ونقد الفن، وتوظيف التقنيات والأساليب التكنولوجية في أعمال فنية تعرض للجمهور.

٦. الحداثة :(Modernism) ترتبط بالمجال الثقافي، وبِعلمَيِ الجمال والفن، وبالتغيرات التي طالتها بعد الحرب العالمية الأولى.

٧. Monica Smith, "Artist's Battle with Cancer Provides Creative Inspiration," The Daily Star Newspaper - Lebanon, June 2, 2003, https://www.dailystar.com.lb/ArticlePrint.aspx?id=109917&mode=print.

وفي ظل غياب توجهات عامة كبيرة للإنتاج الثقافي في لبنان، تستبدل صالات العرض البنية التحتية القوية بنظام بيئي هش، فتتحول تلكَ الصالات إلى مراجع أساسية، لأنه لا بديل لها، لا سيَّما أنّ الغاليريات هي «مؤسسات سارت خارج مؤسَّسات الدولة، وخارج أطر الكتل التقليدية الخاصة».[٨]

إزاء ما تقدّم، يمكننا القول إنّنا أمام قراءتين مختلفتين لدور غاليري جانين ربيز: الأولى قراءة شكلية للمعارض الفنية، والثانية باطنية أعمق تسعى إلى مواكَبة الفن البصري، وإدخاله في العالَم، وجعله مقبولًا بين الفئات المختلفة من المجتمَع في لبنان، وهو ما يحتاج إلى جهد كبير، لا سيّما أنّ الدور يلامس البُنى الثقافية، والاجتماعية، والسياسية في لبنان. والسؤال الذي يخاطرنا: هل استطاع غاليري جانين ربيز أن يقيم توازنًا بين القراءتين، في تقديمه التجارب الفنية خلال فترة التسعينيات، خصوصًا التجارب النسائية؟ وما هي العوامل التي دفعت بكداش إلى تغيير مسار الدار؟

حضور غاليري جانين ربيز في الساحة التشكيلية المحلية والدولية، خلال فترة التسعينيات:

كان من الطبيعي أن تستثمر بكداش معرفتها ومشاهداتها الفنية والبصرية التي تكونت لديها بفعل السفر مع والديها منذ الصغر، وشغفها بالمعارض الفنية في الغرب، وزيارة المتاحف، في تطوّر مسار الغاليري؛ إذِ استوعبت الإرث الثقافي لوالدتها، والانفتاحين السياسيّ والثقافيّ لدار الفن والأدب، وما واكبهما من آراء لمفكرين لبنانين شاركوا في تقديم محاضَرات لهم في دار الفن في فترة السبعينيات، من أمثال غسان التويني، وكمال جنبلاط، وغيرهما من المفكِّرين في لبنان. (نادين بكداش - مقابَلة خاصة، ٢٠٢١).

هذا التاريخ الثقافي لربيز، بالإضافة إلى خبرة بكداش وعلاقاتها الجيّدة مع الفنانين الرواد، منحَ الأخيرةَ الثقة لتأسيس غاليري متخصِّص في الفنون التشكيلية. وساعدت كتابات النقّاد الفنيين في لبنان أمثال نزيه خاطر، وهيلين الخال، وجوزيف طرّاب، وغيرهم في الإضاءة على التجارب الفنيّة التي كانت تعرض في الغاليري في فترة التسعينيات. ولا شك في أنّ مسألة نهوض الغاليري بعد الحرب كانت أمرًا يصعب حدوثه مِنْ دون مواجَهة مجموعة حقائق، أثَّرت سلبًا في المسار التشكيلي في لبنان؛ فالتدمير أتى على المدينة وتراثها المادي وغير المادي في آن واحد، وأحدثَ شرخًا في النتاجات السائدة، وفي تواصل الفنانين في ما بينهم، ما يفسِّر غياب التوجهات الفنية المشترَكة، وبروز حالات فنية فردية. وطغت على لوحة جيل الحرب مسألة التعبير عن التشتّت، والتشرذم، والتمزق، وهو ما يفسر انتشار لوحة الكولاج والأعمال الاختبارية الأخرى[٩] ومن اللافت أنّ كثيرينَ من الفنانين طرحوا مسألة الحرب والفن، ودور الفن الملتزم. كما أتت الحرب على غياب سوق الفن، وقلّصَتْ عدد المعارض الفنية، وتسبّبتْ في هجرة عدد كبير من الفنانين.[١٠] وقد راقبت بكداش مِنْ كثب ما يجري في المجال الثقافي منذ الثمانينيات، قبل استلامها إدارة الغاليري بشكل فردي.

أمام هذه الضبابية، كيف يمكن لغاليري جانين ربيز أن يواجه هذه الحقائق كلّها، ويعمل على هضمها وإبرازها للمجتمَع، بما يتماشى والتطلعات الفنية الجديدة لجيل فني جديد؟

ارتبطت فترة التسعينيات بظهور تجارب لبنانية شابة، كان يقيم عدد منها في فرنسا، تعرّفت إليها بكداش، ودعتها إلى العَرْضِ في لبنان. وكانت تلك التجارب تمتاز بِفِكَرٍ جديدة وجريئة. وقد تمكّن الفنانون من دمج الفلسفة في الفن والمسرح، بهدف تقديم مفاهيم جديدة في الفن، لمْ يُتطرَّقْ إليها سابقًا.

٨. خالدة سعيد. يوتوبيا المدينة المثقَّفة (الإصدار ١)، بيروت، لبنان: دار الساقي، ٢٠١٢.

٩. الكولاج (Collage)، أو الإلصاق: وهو فن يقوم على إدخال قصاصات مختلفة من الصحف والمجلات على العمل الفني، وقدْ نشأ في الصين، وفي بدايات القرن العشرين مع براك وبيكاسو.

١٠. أبو رزق وآخرون، الفن التشكيلي في لبنان، بيروت: المنظَّمة العربية للتربية، والثقافة، والعلوم، ٢٠٠٤، ٩٠.

رسمت بكداش مسارًا مغايرًا أحاديًّا، سعت من خلاله إلى تحقيق تطلّعاتها، عَبرَ اتّباع منهجٍ محدَّدٍ ومعيارٍ عامٍّ في اختيار الأعمال الفنية وتحديدها، بغيةَ عرضها على جدران الغاليري، والخروج بها إلى أكبر المعارض العربيةَ والدولية؛ إذ حصرت انتباهها في العمل الفني وما يحمله من رؤية الفنان، ومدى تطويره المادة التي كان يقدِّمها. أما الأسلوب، حسب بكداش، فهو مجموعة أبحاث يعدّها الفنان، قابلة للتغيّر، والتبدّل، والتطوير، حسب مهنيّته وحرفيّته، والوسائط التي يختارها للعمل بها، والّتي تحدّد نوعية العمل الفني وجماليّته. بحثت بكداش عن التجارب الشابة ودعمتها، ووضعتها في خانة مُوازِية للتجارب الرائدة في لبنان، ما منحَ النتاج الفني الشاب زخمًا ودعمًا كَبيرَينِ. تبنّت بكداش في التسعينيات أيضًا فنون التجهيز، والفيديو، والتصوير الفوتوغرافيّ، إلى جانب اللوحات والمنحوتات التي تنتمي إلى مختلف المدارس الفنية. وتقول بكداش: «أعتقد أننا يجب أن ندرك أننا بحاجة إلى أن ننضج سياسيًّا، وأنَّ الثقافة جزء رئيسي من هذا التطور... فما نحتاجه هو فن، هو ثقافة».[١١]

إذًا، هناك ثلاثة مقومات أساسية، سعى غاليري جانين ربيز إلى إبرازها:

- تعريف الجمهور إلى تجارب عالمية تحمل رسالة له، بما فيها تعريفه إلى فنانين لبنانيين عالميين.

- تعريف الجمهور إلى التجارب الشابّة المبدِعة.

- إبراز تجربة الفن التشكيلي اللبناني في المَعارض الدولية والعربية.

تمكَّن الغاليري خلال التسعينيات من إدخال تيّارات فنية تنتمي إلى مرحلة ما بعد الحداثة؛ فمع التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدها لبنان خلال الحرب، والتي كان لها وقعها على النتاج التشكيلي، تداخلت التقنيات والخامات مع بعضها، وأضيفتْ إليها تقنيات تكنولوجية معاصِرة، كالتصوير الفوتوغرافي، وتقنيات الكمبيوتر، والفنون الرقمية بمختلف اتجاهاتها، حتى بات من الصعب رسم حدود فاصلة بين مدارس الفن المُعاصِر. وخرج النص التشكيلي في لبنان من خطابه الجمالي، إلى خطاب سوسيوثقافيّ آخَر، يتبنى فيه الفنان القضايا الاجتماعية والوجودية على غرار ما يطرحه الفن المُعاصِر في الغرب.

إنَّ النشاط الداخلي دفع الغاليري إلى توسيع مروحة نشاطاته، والانفتاح على الخارج، لتأسيس تواصُل مع أوروبا ودول عربية، ولاستقدام تجارب فنية رائدة غربية وعربية وعرضها في بيروت، حَيثُ استقدمت بكداش معرض جان جيرود المعروف بموبيوس ١٩٩٤ (فرنسا)، وآدم حنين ١٩٩٥ (مصر)، وأنطونيو سيغي ١٩٩٥ (أرجنتين)، وفاتح المدرّس ١٩٩٦ (سوريا)، وبيتر ألكسندر ١٩٩٧ (أمريكا)، وكارين بولانجير ٢٠٠٠ (فرنسا) (راجع جدول رقم ١). وهذا التوجه لم يكن جديدًا، فقد استقدمت دار الفن والأدب في العام ١٩٧٠ معرضًا لسبعة نحاتين بريطانيين، كان من بينهم باربرا هيبوورث، وهنري مور.[١٢]

أمَّا المشارَكة في المَعارِض الخارجية، فكانت مسألة تحظى بالاهتمام الأساسي للغاليري، لأنها تؤكد حضوره في المشهد الفني العالمي. وفي هذا السياق، تؤكد بكداش أنّ الفنانات في لبنان تمكنّ من إبراز أنفسهنّ في الساحة العالمية، وحضرن بشكل بارز في السوق الفنية العربية والدولية، وأصبح العديد من المتاحف يضم أعمالًا فنية لهنّ، لما فيها من أهمية، ونوعيّة، وخصوصيّة.[١٣] ويولّد هذا الوجود للغاليري والأداء للفنانات اللواتي يدعمُهُنَّ، بيئةً حاضنةً للفن التشكيلي في الخارج، ويُوجِد بدوره مجموعةً من جامعي النتاجات التشكيلية اللبنانية في الخارج، الذين يساهمون بدورهم في إبراز فنانين لبنانيين في البيئات المختلفة التي يعيشون فيها، كما يفتح الأبواب أمام جامعي اللوحات الفنية من غير اللبنانيين. وتعود أهمية الانفتاح على العرض في الخارج إلى إيمان بكداش بضرورة دعم الفن والثقافة، وبأهمية احتضان التجارب الشابة، وإفساح المجال أمامها، ومنحها الثّقة والحرّيّة، لإبراز مكانتها الفنّيّة. وتصف بكداش هذه التجربة بأنها هامة جِدًّا في الحركة التشكيلية، مع العلم أنها اليوم تواجه صعوبات كثيرة.[١٤]

١١. نادين بكداش، أرشيف الغاليري، مقابَلات سابقة.

١٢. سيزار نُّمور، النحت في لبنان، بيروت: دار الفنون الجميلة، ط ١، ١٩٩٠.

١٣. نادين بكداش، أرشيف الغاليري، مقابَلات سابقة.

١٤. نادين بكداش في مقابلة خاصة، ٢٠٢١.

عين على التجارب النسائية في غاليري جانين ربيز في التسعينيات:

مع بداية التسعينيات، أخذ الفنانون بالظهور بشكل فردي، فطوّروا خصائص مستمَدّة من جذور جغرافية-اجتماعية لبنانية، وثاروا على كثيرٍ من القواعد، حاملين مفاهيم جديدة مُغايرة لتلك التي عرفها جيل ما قبل الحرب، وَاتّصفَ بها. قبل تلك الحقبة الزمنية، كانت اللّوحة تتّصف باقترابها مِنَ المَدَارِسِ والاتجاهات الفنية الغربية، فكانت مُحاكاةً متأخِّرة. ومع اقتراب فترة ما قبل الحرب، تلاحمت اللوحة في التوجهات الثقافيّة الأخرى، من الأدب والشعر.[١٥] فالحداثة في غمرة دخولها إلينا، طالت الأدب، والشعر المحلي أيضًا، لما تحمله من مجمل إشكاليات مثّلت خلفية لموضوعات نقدية وشعرية، ربط أصحابها بين الأحداث الطارئة وظهور الحركة الشعرية المعاصِرة، على غرار ما كان يحدث في أوروبا خلال فترة تصاعُد الحداثة.

هذا التوجه السائد لوحة ما قبل الحرب، نجده طاغيًا في المَعارِض الفنية التي أقامها غاليري جانين ربيز في التسعينيات، لا سيَّما في التجارب النسائية التي تمكنت من ابراز نفسها في الساحة الفنية التشكيلية في لبنان. تقول بكداش إنَّه في الفن وأعماله، لا يمكننا البحث عن صفات خاصة نسائية أو أُخرى ذكورية وبالتالي لا فارق بين دور المرأة ودور الرجل في الحقل التشكيلي،[١٦] ولكن على النساء في منطقتنا أن يعملن كثيرًا للحصول على الفرص المتاحة للرجال ذاتها. وإذا درسنا تطوّر الفن النسوي، من الممكن أن نخلص إلى أنَّ عددًا من النساء فاقَ الرجال في تحررهنَّ، وفي التساؤل حول دورهنَّ في الحياة السياسية والاجتماعية في المنطقة. وتقول بكداش في مقابَلة لها، «نحن نعمل من أجل تحرير المرأة، والمساواة الاجتماعية السياسية، والعدالة، والقضاء على المحرَّمات، حيث بدأت المعركة الاجتماعية السياسية للمرأة مع بداية القرن العشرين، مع ماري حداد حتى اليوم» (Proctor، ٢٠١٧) .

إلّا أن عدد المَعارِض النسائية لم يكن كثيفًا، كما يشير الجدول رقم ١، حَيثُ يُظهِر أنَّ العدد الإجماليّ للمَعارِض التي نظَّمها الغاليري بين سنتَي ١٩٩٤- ٢٠٠٠ بلغ ٥٨ معرضًا، تراوحت بين ٥١ معرضًا فرديًّا (٤٥ معرضًا لفنانين لبنانيين، و٤ معارض لأجانب، واثنيَن لفنانين عرب)، بالإضافة إلى سبعة معارض جماعية (موزَّعة بين لبنان والخارج). وفي توصيفٍ لنشاط الغاليري، وحسب الجدول، نلاحظ أنَّ عدد المعارض النسائية في البداية كان ٥ معارض، وفي ما بعد أخذ يتزايد حتى بلغ متوسط العدد ٨، ولا يزيد عن ١٠. وتُرجِعُ بكداش السبب في ذلك إلى أهمية إعطاء كُلّ تجربة حقّها في العرض، ليتسنى للطلاب، والباحثين، والكتّاب، ومحبي اقتناء الأعمال الفنية، والخبراء، التمعّن في الأعمال المعروضة، وحضور المَعارِض كافّة.[١٧]

أما عدد المعارض النسائية الفردية فقد بلغ ١٧ معرضًا من أصل ٥١، أي ما يساوي ٣٣,٣٣ ٪ من نسبة عدد المَعارِض الفردية خلال فترة التسعينيات، من بينِها ١٦ معرضًا فرديًّا لفنانات لبنانيات من أصل ٤٥ مِنَ العدد الإجماليّ، أي ما يقارب ٣٥,٥٥٪، ومعرض واحد لفنانة أجنبية من أصل ٦ مَعارِض أي ١٦,٦٦ ٪. كما يشير الجدول ١ إلى أنّ عدد المَعارِض الإفرادية حسب الجندر كانت متوازية بين الفنانين الرجال والنساء؛ فعلى سبيل المثال، قدّمت هوغيت كالان ٣ معارض، وعرضت روز الحسيني ٣ معارض، وريتا عون معرضين، ولميا جريج معرضين. وقدّم شفيق عبود معرضين، ومحمود الزيباوي ٣ معارض، وهنيبعل سروجي معرضين، باستثناء جميل ملاعب الّذي قد قدّم ستة معارض خلال الفترة التسعينيات، ما يدلُّ على غزارة إنتاجِهِ، آنذَاكَ.

وعلى الرّغم من أنّ خوض الفنانات المجال الإبداعي كان متأخرًا مقارنة بِالفنانين الرجال، حيثُ إنَّ ظهورهنَّ في الساحة الفنيّة في لبنان، كانَ في أربعينيات القرن الماضي، وبأعداد قليلة، إلّا أنّهنّ تمكنَّ من استحقاق مكانٍ بارزٍ، لا يتساوى مع الكتابات النقدية للتجارب النسائية، والتي من شأنها أن تقيم وجود حركات فنية نسوية مهمة في لبنان، أو تعترف بِهِ. فجلّ الكتابات المتوفِّرة عبارة عن مقالات مخصَّصة لتجربة محدَّدة، تدرس كلَّ فنّانة على حِدة.

١٥. أبو رزق وآخرون، الفن التشكيلي في لبنان، بيروت: المنظَّمة العربية للتربية، والثقافة، والعلوم، ٢٠٠٤، ٤٢.

١٦. إنَّ مسألة الفن النسوي التي طُرِحَتْ في أوروبا والولايات المتحدة، لم تصل إلى تأسيس تيّار أو اتجاه فني قائم بذاته. والمقصود في موقف بكداش، أنه لا يمكننا التكهّن في معرفة ما إذا كان العمل الفني لمرأة أو لرجل، وأنَّ ما يحكم العمل الفني هو الأداء التعبيري فقط أي الأسلوب، بغض النظر عن موضوع العمل، حيث أصبحت أعمال النساء تضاهي أعمال الرجال في الفن؛ فقد استطاعت أعمال النحاتة سلوى روضة شقير (وهي رائدة التجريد في العالم العربي) على سبيل المثال، أن تشي بغياب الملامح الأنثوية العلنية، وقد يكون لصلابة المادة دور في ذلك، لأنها تتطلّب بنية فيزيائية قوية.

١٧. نادين بكداش، أرشيف الغاليري، مقابَلات سابقة.

ويُلاحِظ المتتبّع للفن التشكيلي أنَّ معظم الفنانات النساء، رائداتٌ ينتمين إلى مرحلة ما قبل الحرب، تمكّن بعضهنَّ من إضافة بعض الإشارات في أعمالِهِ مع بداية التسعينيّات، أو تغييرها. ويمكن إدراج هذه التغييرات في سياق تحوُّلات التجارب المعروفة الَّتِي بدت وكأنها تبحث لها عن مناخات جديدة، خاصة أنَّ عددًا من الفنانات هاجرَ بفعل الحرب، وهنّ، كما أغلبية رواد الحداثة اللبنانية، تمكَّنّ من أن يخطّنَّ لأنفسهنّ مسارًا واضحًا، خرجن به من الحدود الداخلية للبنان إلى الخارج، والبروز في الساحات الفنية العالمية. نذكر منهنّ، على سبيل المثال، كالان (١٩٣١-١٩٢٠)، وعدنان (١٩٢٥)، وعفاف زريق (١٩٤٨)، وسيمون فتّال (١٩٤٢) ورنا روضة (١٩٦١)، والحسيني (١٩٥٢) في الولايات المتحدة الامريكية، وأشقر (١٩٢٨) في فرنسا. ومن اللافت أنَّ الأسلوب الفني الذي يجمع هؤلاء الفنانات هو الاتجاه التجريديّ في الفن، الّذي بدا جليًّا في نتاجات النّحّاتَيِن اللُّبنانِيَّيِن معزز روضة (١٩٠٦- ١٩٨٦)، وجريج (١٩٧٢)، في ما بعد.

وعلى الرّغم من أنّ الاتجاه التجريدي في الفن يقرّب بين نتاج هؤلاء الفنانات، من مفهوم الحداثة التي تتلخّص في البحث عن الذات في حدود المعطيات الجديدة، والتنقيب في المادة والتقنية، للخروج عن المألوف، والتصدّي للتساؤلات التي تطرحها اللوحة على الفنان لتحثّه على إيجاد أجوبة لها في عمل آخر، غيرَ أنّ الفنانات تساءَلْنَ عن كيفية تقديم رؤاهنّ واختباراتهنّ بأمانة ووضوح، في عالَمٍ يتجاوز الحواس... والفن التجريدي هو فن التصريح عن الذات من دون قيود، والتعبير عن حرية الفنان والقضايا الخاصة به، إلى جانب قضايا النساء والتمييز الجندري.

وتعدّ تجربة الفنانة كالان خير نموذج على ذلك؛ فهذه الفنانة التي تنتمي إلى عائلة سياسية بامتياز كونها ابنة رئيس الجمهورية اللبنانية السابق بشارة الخوري، تمكنت من كسر جدار المحرَّمات في التعبير عن مشاكلها الخاصة في الفن. فمن المعروف أنّ مسألة الجسد شغلت حيِّزًا كبيرًا في نتاجاتها الفنية، ويعود السبب في ذلك إلى أهمية مسألة الجسد ومشكلتها الخاصة معه، كونها كانت من النّساء البدينات، وهو موضوع مثير للفكر النسوي بشكل عام. أمّا السؤال الأهم بالنسبة إليها، فكانَ: كيف ترى المرأة جسدها؟ عالجت كالان هذه الإشكالية، وعرضت مفاهيمها الخاصة الأنثوية المتمرِّدة، فرسمت العري بأسلوب مؤسلَب، كما عرضت تجريداتٍ للجسد في الغاليري في سَنَتَيْ ١٩٩٤ و١٩٩٧، بعنوان «وجوه وأماكن»، في جُزءَيهِ الأول والثاني، أكدتْ من خلالها اختبارها الوسائط والمَوضوعات المختلِفة، مُعِيدَةً «خلق نفسها باستمرار لرسم ذكريات من حياتها الغنية. تكشف خفة خطوطها، وثباتها، ودقتها عن إحساس متفرِّد يسكنها، وعن روح الدعابة التي تمتعت بها....». أثار هذا التميّز انتباه بكداش واهتمامها منذ البداية، وهو ما تؤكده ابنة كالان (بريجيت) في المقابلة نفسِها: «دائمًا ما كانت نادين تهتم بعمل والدتي، بدأت بذلك في التسعينيات، وآمنت بها وبفنها قبل أي شخص آخَر».

وعلى الرّغم من هجرتها إلى خارج لبنان، إلَّا أنَّ أعمالها تضج في مراحل مختلفة من مسيرتها الفنية بعناصر تعود إلى الفنون الإسلامية المطعَّمة بالأسلوب التجريدي الغربي. وتصف هيلين الخال تجربة كالان خلال فترة التسعينيات بأنَّ لوحاتِها أخذت تتحول شيئًا فشيئًا نحو مناظر المدينة والأنماط المجرَّدة، مع العلم أنَّ مشارَكاتِها الفنية كانت قليلة في تلك الفترة. وتُضيفُ الخال أنَّ نتاجها الفنّي يتّصف ببعض الذاتية والنسوية التي غالبًا ما تنقص في لوحات الفنانين الرجال عندما يتطرّقُونَ إِلَى موضوع المرأة في أعمالهم؛ فأجساد كالان تتحول إلى حقول لونية، وأشكالٍ متنوعة تشبه المناظر الطبيعية أو التشققات الجغرافيّة.

كذلك هو الحال مع تجريدات الفنانة روز الحسيني التي عرضتها في الغاليري في سنة ١٩٩٤، وهو معرضها الفردي الثاني، ويُظهِر المراحل التطورية السريعة في عملها؛ ففي معرضها الأول الذي أقامته في دار الفن والأدب في سنة ١٩٩١، كانت لوحاتها تميل إلى الموضوعات التقليدية والأسلوب الانطباعي. ظهرت أعمالها وكأنها مجموعة ملاحَظات للفنانة، إلى أن استقر أسلوبها في التجريد، بعدما «مارست صياغة المنظر المتداخِل»، ويمكن اعتبار أنّ هذا الإنتقال التدريجيّ حصل بسلاسة، ولكن مِنَ الصّعب التّحدُّث في أعمالها التّجريديّةِ عن التجريد النسبي أو التجريد المطلَق، خصوصًا في مراحله الأولى. ويمكن للمرء أن يُلاحِظَ بسهولة الأسباب التي دفعتها إلى تَقلِيصِ الجوانب القصصية في لوحاتها، والبحث عن واقع آخر يتماشى مع تطلعاتها. ويؤكد جاك أسود أنَّ هذا المعرض يشير إلى التأثر الواضح للفنانة بالتجريد التعبيري في لوحة إيفيت أشقر، ويبتجلّى ذلك، حسبَ رأيه، في رسالة موجَّهة من أشقر إلى الحسيني، في تاريخ ١٩٩٣/١٢/٢٢.

أما في معرضيها اللاحقين، في سَنَتَيْ ١٩٩٧ و١٩٩٩، فقد أخذت لوحات الحسيني تعبّر عن ألم الفنانة، وارتبط نتاجها بالحالة الصحية التي عاشتها، حيث برزت إشارات مثّلت للقارئ تعبيرًا عن الألم الّذي كابدتْهُ خلال إصابتها بسرطان الغدد الليمفاوية لمدة ثلاث سنوات، انعكست في نتاجاتها بشكل عفوي. وتسمح العلامات، والأشكال، والدرجات اللونية للخلفية في الحِفاظِ على دلالات الأشكال المرئية بشكل غير مستقر، فعملها يخلق مساحة ديناميكية تدور العناصر في فلكها. وقد قالت بكداش في معرض الحسيني إنه: «عادة ما ننشئ معرضًا يعتمد على فترة فنية، أو أسلوبية معيَّنة لفنان»، لكن قد «يُعَدُّ هذا العرض استثناءً، لأنه مجموعة متنوعة من الأعمال التي أنجزتها الحسيني في أثناء مرضها».

شكّلَ العام ١٩٩١ علامة فارقة في تاريخ الفن في لبنان، حيث إنَّ الباحثين والنقاد يُجمِعون على أنه بداية المرحلة المعاصِرة في الفن، طارحًا لوحة فنية غير مألوفة، بل فيها كثيرٌ من المواقف المحدَّدة، كما طرح إشكاليات إنسانية ووجدانية تعكس الواقع المأسوي، وتستعيد الذاكرة البصرية المشحونة والمضطرِبة، والّتي تُعَدُّ أكثر التصاقًا بمجرَيات الواقع والحدث السياسيَّين. وفي الوقت نفسه، بدت الأعمال في تلك الفترة مفعمة بكثير من الثقة، والحرية التعبيرية اللّتينِ انعكستا في الأعمال التجريبية التي بدأت تظهر آنذاكَ. ويُشير أبو رزق في كتابه إلى أنّ الفكرة الرئيسة في العمل الفني في نتاج هذا الجيل، قد انقسمت إلى فِكَرٍ عديدة، وغابت بدورها الفكرة الواحدة. وفي رأيه، إنَّ هذا التوجه في الفن يتفق مع ما يُسمّى «المفهوم المعاصِر الحديث للفن»، والذي باتت تطرحه قوى ترى أنَّ اللوحة الحديثة هي نتاج الفكرة غير المحدودة، والمواد المتنوِّعة»، مِنْ دون أن ننسى العقدين الأخيرين من القرن العشرين، حَيثُ شهدنا فيهما اكتشافاتٍ عديدةً في مختلف المجالات، وانتشارًا واسعًا لمفهوم العولمة، ما أدى إلى حدوث ردود فعل مختلفة بين الأوساط الفنية، دفع الفنانينَ إلى ابتكار أساليب وصيغ جمالية جديدة. من هنا، بات من الصعب الفصل بين التقنيات المُستَخدَمة في الفنّ، وتحوَّل الفنان إلى مؤرخ وموثّق، وإلى مصوّر... وبذلك، يكون الفنان قد خرج عن كونه رسّامًا أو فنانًا تشكيليًّا، وذلك لأنَّ الفنون البصرية في زمن ما بعد الحداثة جمعت تقنيات بين المؤثّرات الصوتية والسمعية والبصرية في بوتقة واحدة، أفرزت بدورها خطابًا تشكيليًّا مُغايرًا، يطرح مفهومًا جديدًا للفنّ، وتساؤلاتٍ حول الهُوية والانتماء.

استنتاجات:

شكّل غاليري جانين ربيز بيئة حاضنة جديدة، بغية البروز في السّوق العالميّة للفنّ، كونه عرض أعمالًا تنتمي إلى أجيال مختلفة، للتّأكيد على حداثة كُلّ تجربة وفرادتها، وعدم انسلاخها عن التوجهات المعاصِرة في العالَم؛ ففي ظل التبدلات الثقافية العابرة للحدود والمجتمَعات، تمكّن الغاليري من مواكَبة التبدلات بسرعة، وتركّز فلسفته العامة على هدم الحاجز الذي شيّدته فنون الحداثة ما بين ثقافة النخبة وثقافة الجمهور، الأمر الذي منحه الفرصة لإعادة قراءة مفهوم العمل الفنيّ وصياغته، بالإضافةِ إلى قراءةِ رسالة الفنان ودوره، ووظيفة المتلقي، والعلاقة بينهما.

كان الغاليري مؤهَّلًا لهضم تلك الاختلافات شتّى، ولفتح المجال لاختبار التجربة الجمالية وإغنائِها، ولتطوير التعبير الفني، وملامَسة بعض الأحداث، من مشاكل سياسية، واضطرابات أمنية، وحروب؛ ففي خِضمّ بحث الفنانة التشكيلية عن أسلوب فني خاص بها، تمكّنت من نهجِ عصب فني محدَّد للتعاطي مع المادة بأسلوب مغاير، برز في الخطاب التشكيلي وفي الأداء الفني. لذلك، كانت الفناناتُ حاضراتٍ في الساحة التشكيلية، وفي غاليري ربيز.

تميّز الإنتاج الفنّي للنساء في التسعينيات بفرادة أساليبهنَّ، وهو المعيار الأساسي للعرض في غاليري ربيز، إذ تمكنت الفنانات من كسر مفهوم المحرَّمات في الفن. وعلى الرّغم من عدم وجود مدرسة أو حركة فنيّة نسائية في التسعينيات، لكنَّ غاليري ربيز، ومن خلال دعمه الفنانات المخضرَمات والشابات، هيّأ الأرض لوجود تلكَ الحركة في المستقبَل.

أسود، جاك. "معرض روز الحسيني"، ملحَق النهار، ١٩٩٤.

أمهز، محمود، التيارات الفنية المعاصرة، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٦.

أبو رزق وآخرون، الفن التشكيلي في لبنان، بيروت: المنظّمة العربية للتربية، والثقافة، والعلوم، ٢٠٠٤.

بكداش، نادين. (مِنْ دون تاريخ). أرشيف الغاليري- مقابَلات سابقة.

ربيز، جانين، نظرة في التراث الثقافي، بيروت: دار النهار،٢٠٠٣.

رصيف ٢٢، "هوغيت كالان... شغف الحرية والفن"، ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٠، ١٠٧٩٥١٥/net/article.https://raseef٢٢- هوغيت-كالان-شغف-الحرية-والفن

سعيد، خالدة. يوتوبيا المدينة المثقَّفة (الإصدار ١)، بيروت، لبنان: دار الساقي، ٢٠١٢.

عزيزة، مهى. "جانين ربيز وتجربة دار الفن والأدب، نجمة من أقطاب الحداثة ومن صانعي العصر الذهبي لبيروت". بيروت: مركز التراث اللبناني في الجامعة اللبنانية الأمريكية LAU، ٢٠١٥.

نَمُّور، سيزار، النحت في لبنان، بيروت: دار الفنون الجميلة، ط ١، ١٩٩٠.

American University of Beirut. "Women Artists in Lebanon." Google Arts & Culture. Accessed February 12, 2021. https://g.co/arts/yzQbbVHBvBD9K83K9.

Galerie Janine Rubeiz. Accessed February 12, 2021. http://www.galeriejaninerubeiz.com/.

Khal, Helen. "Art That Reaches for Home or the Heavens." The Daily Star Newspaper - Lebanon, October 16, 1999. http://www.dailystar.com.lb/ArticlePrint.aspx?id=101279&-mode=print.

Malhame Harfouche, Nicole. "Rose Husseiny Chez Janine Rubeiz Technique Et Créativité," 2003. http://www.rdl.com.lb/2003/q2/3899/arts.html.

Smith, Monica. "Artist's Battle with Cancer Provides Creative Inspiration." The Daily Star Newspaper - Lebanon, June 2, 2003. https://www.dailystar.com.lb/ArticlePrint.aspx-?id=109917&mode=print.

Tarnowski, Stefan. "Beirut." ArtAsiaPacific, 2014. http://www.artasiapacific.com/Magazine/90/Beirut/.

Wilson-Goldie, Kaelen. "Gulf's Burgeoning - but Not-Yet Burnished - Art Market Sends Potential Collectors Back to School." The Daily Star Newspaper - Lebanon, January 19, 2008. http://www.dailystar.com.lb/Culture/Art/2008/Jan-19/114719-gulfs-burgeoning-but-not-yet-burnished-art-market-sends-potential-collectors-back-to-school.ashx.
Proctor, Rebecca Anne (2017). interview with Nadine Begdache. Harper Art Arabia Magazine. Gallery archive

جدول رقـــــــم ١

عــدد المعــارض التــي نظمهــا غالــيري ربيــز بــين العامــين ١٩٩٤ و ٢٠٠٠

السنة	المعارض الفنية/ الفنانون	تاريخ المعرض	عدد المعارض خلال العام	المعارض النسوية الفردية	المعارض الجماعية
1994	محمد زيباوي	24-2 شباط	9	2	
	روز الحسيني	16 آذار- 2 نيسان			
	سعيد عقل	نيسان			
	فرنسوا سارغالوغو	20-4 أيار			
	هوغيت كالان	22-1 حزيران			
	Moebius	تموز			
	جميل ملاعب	-			
	شفيق عبود	كانون الأول			
	ايلي كنعان	كانون الأول			
1995	أدم حنين	كانون الثاني	5	1	
	جميل ملاعب	8 آذار- 8 نيسان			
	محمود زيباوي	14 حزيران- 7 تموز			
	معرض دار الفن	12- 28 تموز			
	أنطونيو سيغوي	29 تشرين الثاني- 29 كانون الأول			
1996	ابراهيم مرزوق	10 كانون الثاني- 10 شباط	7	2	
	فاتح المدرّس	شباط			
	عارف الرّيّس	20 آذار- 12 نيسان			
	معزز روضة	حزيران			
	آرام جوغيان	10 تموز-2 آب			
	ايفيت أشقر	6- 30 تشرين الثاني			
	جميل ملاعب	11- 31 كانون الأول			
1997	هنيبعل سروجي	8 كانون الثاني- 8 شباط	9	3	1
	روز الحسيني	19 شباط- 12 آذار			
	هوغيت كالان	16 نيسان- 9 أيار			
	Europ art	30 نيسان- 4 أيار			
	جوزيف شحفة	14 أيار- 4 حزيران			
	ريتا عون	11 حزيران- 2 تموز			
	رؤوف رفاعي	16 تموز- 8 آب			
	آرام جوغيان	13-30 آب			
	بيتر ألكسندر	5 تشرين الثاني- 5 كانون الأول			
1998	حليم جرداق	4- 27 شباط	7	1	
	عفاف زريق	19 آذار - 9 نيسان			
	محمود زيباوي	4- 8 آذار			
	جميل ملاعب	8- 30 نيسان			
	بسام جعيتاوي	3- 25 حزيران			
	شوقي شمعون	كانون الأول			
	جوزيف حرب	28-6 كانون الأول			
1999	جميل ملاعب	22-6 كانون الثاني	10	4	3
	فيصل سلطان	25-3 شباط			
	لميا جريج	25-3 آذار			
	Europe art	14- 18 نيسان			
	ايتيل عدنان	7- 27 نيسان			
	شفيق عبود	29-5 أيار			
	ريتا عون	9- 29 حزيران			
	Art paris	أيلول			
	Artuel	19- 24 تشرين الأول			
	روز الحسيني	6- 28 تشرين الأول			
2000	كارين بولانجير	2000 -1999	11	5	2
	هوغيت كالان	19 كانون الثاني- 10 شباط			
	جميل ملاعب	23 شباط- 15 آذار			
	هنيبعل سروجي	22 آذار- 14 نيسان			
	لميا جريج	11- 28 نيسان			
	جوزيف حرب	19 نيسان- 10 أيار			
	ستيلو سكامنغا	17 أيار- 8 حزيران			
	رنا روضة	14 حزيران- 6 تموز			
	Artuel	18- 25 تموز			
	سيمون فتال	6- 23 كانون الأول			
	Salon ART- DECO SIMAA	-			

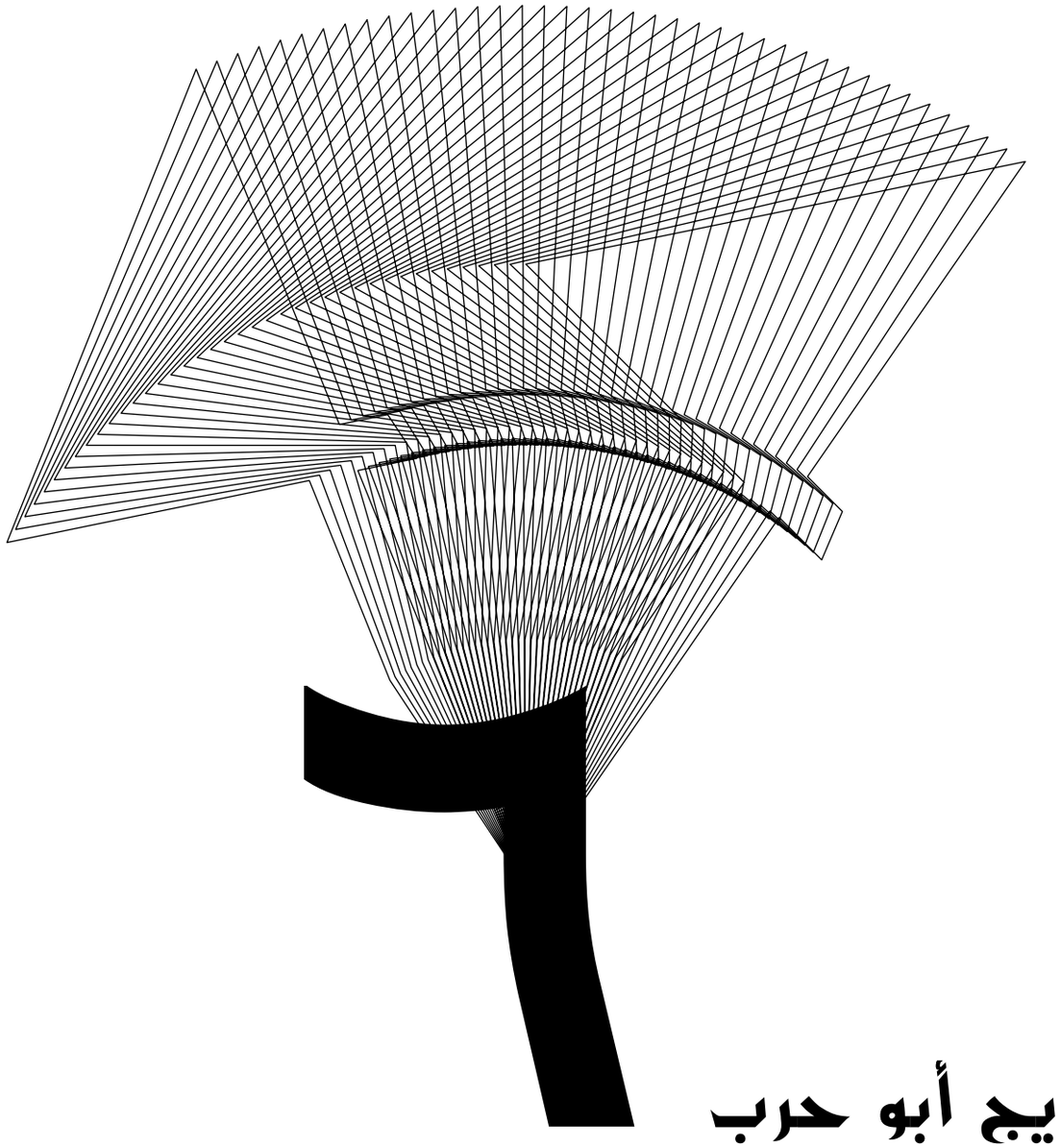

أريج أبو حرب

(١٩٨٦) فاعلة ثقافية وباحثة، شاركت في تأسيس المبادرة الثقافية الموسيقية مِعْزَفْ وهي مديرة البرامج في المؤسسة الإقليميّة المورد الثقافي. مرشّحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الثقافي لبلاد الشام في جامعة لوميير – ليون ٢، وهي حاصلة على درجة الماجستير في تصميم وإدارة المشاريع الثقافية من جامعة السوربون الجديدة – باريس ٣. تشمل اهتماماتها مواضيع مختلفة من صناعة الموسيقى المشرقية والوصول إلى الثقافة واللامركزية وتنقّل الفاعلين الثقافيين والجمهور والتمظهر الثقافي في المقاهي وأرشيفات المجلات والمجلات الثقافية ونماذج تمويل المشاريع الثقافية والسياسات الثقافية.

الفنّ في سياق أسطورة الأبديّة: مغنّيات ومؤدِّيات في لبنان، في التسعينيات

[نجَينَ من الحرب، وخلعنَ بأقدامهنَّ الباب المقفول لسنوات... نساء مقيمات في لبنان لم يسقطنَ في القتال تمامًا، أم أنّهنَ لم يكترثنَ للسقوط العام. حملنَ آمالهنَّ وظهرنَ في شاشة التلفاز – بألوانه غير الدقيقة يومها – ضحكنَ، ومثّلنَ، وغنّينَ، وصرنَ طائرَ الفينيق الحيّ وَالجميل، ليؤخذنَ تطبيقًا حيًّا عن أسطورة الأبديّة وعدم الفناء المتربّصة بلبنان، عند كل كارثة ودمار.]

هذه ليست مقدّمة، وليس فيها من التدقيق العلميّ المطلوب، ولكنّها تعميمٌ مشهديٌّ مقصودٌ لوصف انطباعٍ متوارثٍ عمّا كانت عليه الفنون الأدائيّة الجماهيريّة لفترة التسعينيات.[١] سنعود إليها في الختام لقياس اتساقها، أو اتساق أجزاءٍ منها، مع بعض الوقائع من تلك الفترة، بما وُثِّقَ في مقالاتٍ مكتوبة، وفيديوهاتٍ مُصوَّرةٍ تحدّثَتْ عَنِ النِّساءِ المُغَنِّياتِ، والموسيقيّات، وَالمؤدِّيات. نسعى في هذه المقالة إلى استعراض المواقع المختلفةً التي ظهرت فيها النساء في لبنان في الأغنيات، والفيديوهات المصوَّرة، والتغيّرات الثقافيّة التي رافقت العقد الأخير من القرن العشرين، مُحاوِلينَ مقارَبة الموضوع من منطلقٍ تاريخيٍّ ثقافيٍّ، يربطُ التسعينيات بأحداث القرن العشرين، ويضعها في سياقه العام، من دون تغييب الأثرين السياسيّ والاجتماعيّ عنها.

شكّلت سنوات التسعينيات من القرن العشرين خاتمة بارزة، وفي الوقت عينه متوقَّعةً للتغيّرات الحاصلة في كامل القرن، منذ بدايته على المستويين الموسيقي والثقافيّ، في ما يسمّى بالمشرق العربي، لا سيّما لبنان، وفي أبرز محطّاته التي أثّرت بشكلٍ مباشر في المجال الموسيقي: (١) انتشار أوسع للتسجيل على الشمع بعد بداياته في العام ١٨٩٥، ثم دخول الأسطوانة إلى مصر في العام ١٩٠٣ وإلى بلاد الشام في العام ١٩٠٦. (٢) انطلاق المحطات الإذاعية في المنطقة كراديو بغداد في العام ١٩٣٢، والإذاعة المصرية في العام ١٩٣٤، وإذاعة القدس في العام ١٩٣٦، وإذاعة الشرق (لبنان لاحقًا) في العام ١٩٣٨. (٣) بداية الإنتاج السينمائي الصامت في المنطقة في العشرينيّات في سوريا، وقبلها بأعوام في مصر، تَبِعَهُ تدريجًا الإنتاج السينمائي الناطق. (٤) انتشار دُور المسارح في بيروت ودمشق في عشرينيّات القرن، خلال فترة الانتداب الفرنسي. (٥) وأخيرًا، دخول التلفاز، وانطلاق البث التلفزيونيّ في العراق في العام ١٩٥٦، وفي لبنان في العام ١٩٥٩، وفي مصر وسوريا في العام ١٩٦٠.

في المرور على تأثير هذه المحطات، كان للأسطوانة دورٌ مفصليٌّ في تثبيت الألحان وتحديد مدّتها حسب سعة الأسطوانة، ما أظهَرَ تغييرًا في شكل الوصلات الموسيقيّة وجوهرها.[٢] وساهم التسجيل أيضًا في انتشار الألحان، وفي توسيع شهرة الموسيقيين والمغنّين. ويُقال أنّ أولى الأسطوانات المسجَّلة لم تحمل وصلات موسيقيّة لمغنّي «الصف الأول» الّذينَ امتنَعُوا عَنِ الغناءِ في بداية الأمر، ربّما بسبب عدم رغبتهم في المغامَرة مع هذا الوسيط الجديد، فانتشرت الأسطوانات الأولى مع مغنّين أقلّ شهرة منهم، ثمّ استقطبت شركات التسجيل المغنّين الممتنعين، لما للأسطوانة من قدرة على نشر الألحان وترويجها. من ناحية أخرى، ساهم الراديو في نشر الموسيقى، وفي إدخالها إلى المقاهي والبيوت، مثلما اكتسح بعده التلفاز جميع الوسائط، وأصبح المصدر الأول للوصول إلى الجمهور. كذلك، أدَّتِ السينما دورًا بارزًا في التغيير الموسيقي، فقد تمحورت غالبية الأفلام الناطقة بين ثلاثينيات القرن وستّينيّاته حولَ الأفلام الغنائيّة.[٣]

---

١. يطال هذا التعميم النساء والرجال، وإن كنّا نودّ في هذه الورقة أن نبرز إسقاطه على النساء لما له من أثر متوقّع على وضعهنَ وتموضعهنَ في السياقين الفني والثقافي العامّين.

٢. Ali Jihad Racy, Musical Change and Commercial Recording in Egypt 1904 – 1932, the University of Illinois Press, 1977

٣. جلال الشرقاوي، رسالة في تاريخ السينما العربية، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٠.

ومن المحطّات البارزة الَّتي كانَ لها تأثير عميق في اجتماعية الموسيقى ومنظومة سماعها، مؤتمر الموسيقى في العام ١٩٣٢ في القاهرة،[٤] وما رافقه من تأسيس لمعاهد عليا للموسيقى.[٥] وقد تكون هذه المعاهد ومناهجها الجديدة ساهمت في تغيير المزاج الثقافيّ العام.

ولوضع هذه المحطات في السياق العام للقرن، لا بدّ من الإضاءة على التغيّرات السياسيّة والاجتماعية التي حدثت خلاله. ففي مطلع القرن نالت مصر استقلالها في العام ١٩٢٢، ثم لحقها العراق في العام ١٩٣٢. بعدها جلا الانتداب الفرنسي عن لبنان وسوريا في العام ١٩٤٦. وفي الفترة عينها، وُضِعَتْ فلسطين تحت الوصاية الدوليّة بإشراف بريطانيا، ثمّ أُعلِنَ قرار تقسيمها في العام ١٩٤٧، تمهيدًا للنكبة، ولإرساء الاحتلال الإسرائيليّ في العام ١٩٤٨. وقد ترافقت هذه التغيّرات السياسيّة مع حركة للموسيقيين في المنطقة؛ فمع استقلال مصر، أصبحت القاهرة وجهةً للفنانين والمنتجين، حيث التقت وتشكّلت فيها قدرات إنتاجيّة مهمّة، ظهرت خصوصًا في الإنتاجَينِ السينمائي والموسيقيّ. كذلك، قبل النكبة، ومع وجود إذاعة القدس (١٩٣٦) وإذاعة الشرق الأدنى في يافا (١٩٤١)، استقطبت الإذاعتان الموسيقيين من مدن بلاد الشام ومصر. وبعد النكبة، أعادت الظروف انتشار الموسيقيين، وكانت الوجهة الأبرز بيروت وإذاعتها.[٦]

وفي النظر إلى موقع النساء المغنّيات في هذه الفترة، بدأ القرن العشرون مع أفول فرق «العوالم» في الحانات،[٧] وفي الجلسات الخاصة في مصر وبلاد الشام، ومع بداية ظهور النساء على المسرح لإحياء حفلات موسيقيّة، غناءً. وتوسّع هذا الظهور تدريجًا مع الأفلام السينمائيّة، حيث لم تنضمّ النساء لاحقًا إلى المجال، بل كُنَّ مُشارِكاتٍ فيه منذ ولادته؛ فالمغنيّة نادرة كانت بطلة أول فيلم سينمائي ناطق في مصر في العام ١٩٣٢، وهو فيلم أنشودة الفؤاد من ألحان زكريا أحمد.[٨] كما يُذكر في بعض المصادر أنّه حين وصلت أمّ كلثوم إلى القاهرة في العشرينيات، قادمةً من الريف، وبعد دراستها الإنشاد الديني مع والدها الشيخ إبراهيم البلتاجي، ثم الشيخ أبو العلا محمد، لم يكن رائجًا أن تغني النساء على المسرح، وكان الخيار المتاح أن تنضمّ إلى فرق العوالم. رفضت أمّ كلثوم الغناء في الحانات، وأصرّت على الغناء على المسرح، وكانت بذلك، كما يُشاع، أوّل امرأة تعتلي المسرح كمغنية.[٩]

لم تكن هذه التغيّرات في مصر فقط، بل انسحبت إلى المشهد في لبنان؛ فمنذ بداية القرن، بدأت النساء تدريجًا بالمشاركة في العروض الفنيّة في الحانات والمقاهي في بيروت،[١٠] كما اعتَلَيْنَ المسرح منذ بداياته. وعلى الرَّغم من ندرة التفاصيل حول هذه المشارَكات، تُعرَفُ من النساء اللواتي ساهمن في التأليف المسرحي في الثلاثينيات حبيبة شعبان يكن التي لها نصوص مسرحيّة منشورة.[١١]

٤. كتاب مؤتمَر الموسيقى العربية، المطبعة الأميرية، وزارة المعارف العمومية، ١٩٣٣.

٥. في لبنان، أُسِّسَ المعهد العالي للموسيقى في العام ١٩٢٥، خلال فترة الانتداب الفرنسي.

٦. تقوم هذه السرديّة حول حركة الموسيقيين في المنطقة على الأبحاث المختلفة الّتي أجرتها مجموعة من الباحثين والموثّقين للحياة الموسيقيّة في المنطقة، مثل الصحافي والباحث إلياس سحّاب، والباحث نادر جلال. وقد استندوا في أبحاثهم إلى مقابَلات مع كامل قسطندي (١٩٢٥ – ٢٠١٩) الذي قدم من إذاعة الشرق الأدنى والقدس إلى بيروت، وَساهم في تأسيس استديو بعلبك، وفرقة الأنوار.

٧. انتشر مصطلح العوالم في مصر بدايةً، ليصف مجموعات النساء اللواتي كنّ يقدمن أغانيَ في الحانات. وقد اشتهرت العوالم في الموضوعات الجريئة التي طرحتها في الطقاطيق (الأغنيات بسيطة اللحن) بشكل واسع، وفي بعض الأدوار. يمكن الرجوع إلى مقال المؤرّخ فريديريك لاجرانج للاطّلاعِ على المَزيد حول الموضوع: https://www.amar-foundation.org/les-almees-frederic-lagrange/

٨. فكتور سحّاب، أضواء على السينما الغنائية ١٩٣٢ – ١٩٦٠، دار نلسن للنشر، ٢٠١٦.

٩. الياس سحّاب، أمّ كلثوم "السيرة"، من موسوعة أمّ كلثوم، موسيقى الشرق، ٢٠٠٣.

١٠. Diana Abbani, Musique et Société au temps de la Nahda à Beyrouth (fin XIXe siècle-1938), ٢٠١٨ | رسالة دكتوراه في جامعة باريس سوربون (غير منشورة).

١١. نُشر لها نصٌّ مسرحيٌّ في مجلّة العرفان في عدد آذار/مارس ١٩٣٨.

وربّما تكون الفترة الزمنيّة الممتدّة من الخمسينيات حتى منتصف السبعينيات من أكثر الفترات غزارةً في إبراز مشارَكة النساء المغنّيات والمؤديات على المسارح، وفي الحانات والفنادق في بيروت، والمصايف (عاليه، وبحمدون، وصوفر، وغيرها)، حيث راجت الحفلات والعروض الفنيّة فيها، وشغلتِ النساء حيّزًا واسعًا في صفحات دوريات الفترة [١٢] التي كانت تسلّط الأضواء على النساء المغنّيات، وحفلاتهنّ، وأخبارهنّ الفنيّة والشخصيّة. ومنذ منتصف السبعينيات حتى أواخر الثمانينيّات، أي في خلال الحرب الأهلية في لبنان، لم تنقطع الحفلات الموسيقيّة والعروض الفنيّة، ولكنّها تقلّصت لأسبابٍ معروفة، منها ضعف القدرة على الإنتاج بسبب الحرب والأضرار في المسارح والمقاهي، إلى جانب انقسام العاصمة بين شرقيّة وغربيّة.

ولكنّ هذه الفترة حملت أيضًا تمهيدًا مهمًّا قُطفت ثماره بعد الحرب في التسعينيات؛ ففي العام ١٩٧٢، بدأ بث برنامج تلفزيونيّ كان الأول من نوعه في لبنان والمنطقة، وهو برنامج «ستوديو الفن» من إعداد سيمون أسمر (١٩٤٣- ٢٠١٩).[١٣] عمل هذا البرنامج لسنوات على ما تُصطلح تسميته صناعة النجوم. يقوم على لجنة تحكيمٍ موسَّعة تضمّ شخصياتٍ معروفة في الأدب، والإعلام، والموسيقى، تُقَدَّمُ أمامها مجموعاتٌ من الهواة المَوهوبين، مِنْ فئاتٍ مختلفة. يُخَرِّجُ البرنامج دفعاتٍ من المغنّين، والمغنّيات، والإعلاميين، والإعلاميات... يصبحون بعده من الوُجوه الأكثر انتشارًا وشهرةً في لبنان (ولاحقًا في المنطقة). ومن أشهر المغنّيات اللواتي تخرّجن من ستوديو الفن في سنواته الأولى المغنّية ماجدة الرومي (١٩٥٦) التي شاركت في البرنامج في العام ١٩٧٤، ومنه انطلقت واشتهرت. وقد مَنَحَ هذا البرنامج على مرّ السنين المتخرّجين فيه ما يمكن وصفه بالشهادة أو بالمصداقيّة الفنيّة، فنرى في بعض المقابَلات الفنيّة مغنّياتٍ ومغنّين يتكلّمون على تخرّجهم من «مدرسة سيمون أسمر» أو «مدرسة ستوديو الفن» للتأكيد على جدارتهم. ومن هذه المقابَلات، مقابَلة أجراها تلفزيون الكويت مع المغنّية نوال الزغبي [١٤] (١٩٧١) التي تصف نفسها بالمغنيّة «المتخرّجة من ستوديو الفن» في العام ١٩٨٨، بعد تعذُّر استكمالها دراسة الموسيقى في المعهد العالي بسبب الحرب.

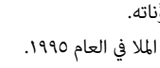

ففي بداية التسعينيات، تحديدًا في العقد الأخير من هذا القرن المُشبَع بالمحطات الفنيّة والمتغيّرات الاجتماعية والسياسيّة في المنطقة، كان لبنان يدخل فترة «ما بعد الحرب» على صعدٍ عدّة؛ فمن ناحية، حملت هذه الفترة مشاريع استجلاب أموالٍ ومتموّلين للمساهَمة في إعادة إعمار البلد، وبالتالي سلسلة من المؤتمَرات العالميّة للدائنين والواهبين.[١٥] كذلك أظهرت هذه الفترة نموًّا في الإنتاج التلفزيوني في لبنان، خصوصًا مع صعود القنوات الخاصة وتوسُّعها على حساب التلفزيون الرسمي.[١٦] فكان لا بدّ من حصد ثمار ما زُرِعَ في فترة الحرب، حيثُ احتلّتْ أفواجُ خرّيجي «ستوديو الفنّ» حيّزًا واسِعًا في الشّاشة، وبالتّالي لدى الجمهور، وفي المشهد العامّ. وخلال هذه الفترة أيضًا شاعَ استخدامُ وسيطٍ إنتاجيّ متجدّد، ساعدَ المغنّينَ في ترويج أعمالهم، وهُو الفيديوهات المصوّرة للأغنيات. وكان للمغنّيات نصيبٌ كبيرٌ منها، لا يقلّ عن نصيب المغنّين؛ ففي المقابلة عينها مع نوال الزغبي، تظهر المغنيّة الشابّة وهي في بداية سنوات شهرتها، مُتحدِّثَةً عن انطلاقتها في العام ١٩٩١ «بعد الحرب»، فتقول إنّها كانت تحبّ أن تغنّي «للعمالقة» (في إشارة إلى مغنّيات فترة الخمسينيات حتّى السبعينيات) [١٧] وإنّ السينما وأغانيها لطالما استهوتها، ولكنها اختارت أن تغنّي ما يناسب العصر وصورته مع وجود «الفيديو كليب». وفي حديثها تشير أيضًا إلى بداية شهرتها في الخليج وإلى تذوّقها الموسيقى الخليجية ورغبتها في أدائها. وقد برزت لدى الجمهور، من خلال الصورة التي نقلها الإعلام ربّما، ميزة هذه الفنانات في «إسعاد» الجمهور أو «ترفيهه»، وهي فكرة لم تنشأ في التسعينيات بالطبع، ولكنّها شغلتْ حيّزًا إعلاميًّا واسِعًا من خلال انتشار الفيديوهات المصوّرة، والحديث المُطوَّل عن الأزياء، وتصفيف الشعر، والأهواء في الموضة لدى الفنانات.

١٢. مجلّة الشبكة الصادرة عن دار الصياد بين ١٩٥٦ و٢٠١٨، ومجلّة الموعد الصادرة عن دار البديع للتأليف والنشر منذ ١٩٥٣، وغيرهما.

١٣. أنتج تلفزيون لبنان هذا البرنامج وبثّهُ منذ ١٩٧٢ حتى أواخر الثمانينيات، ثم حصلت على حقوق إنتاجه وبثّه المؤسسة اللبنانية للإرسال من العام ١٩٨٨ حتى العام ٢٠٠٩، حين اشتراه تلفزيون المر (أم تي في)، وغيّر في مكوّناته.

١٤. أجريت المقابَلة ضمن برنامج "ستديو ٥٠٠" مع المذيعة حصه الملا في العام ١٩٩٥.

١٥. بدأت هذه المؤتمَرات بعد اتفاق الطائف في العام ١٩٨٩ الّذي أفضى إلى وقف القتال.

١٦. وثائقي "تلفزيون وائع" لمايا مجذوب، ٢٠١٥.

١٧. راجتْ في الإعلام مصطلحات متعدّدة لوصف فترة الخمسينيات حتى السبعينيات من القرن العشرين، منها الزمن الجميل، والعصر الذهبي، وعمالقة الغناء. ولا تكمنُ دقّة هذه المصطلحات في ما تصفهُ، ولكنّها مصطلحات متكرّرة في الخطاب الإعلامي.

يمكن التوسّع في تحليل هذه الصورة في السنوات التي تَبِعَتِ التسعينيات، حيث استقطب لبنان مغنِّياتٍ من المنطقة العربيّة، نظرًا إلى قُوّةِ الإنتاجِ في الفيديوهات المصوّرة، وتمهيدًا لبداية «عصر عمليات التجميل» (إذا صحّ التعبير)؛ إذْ تحدَّثَتْ مغنِّياتٌ من اللواتي اشتهرن في سوريا ومصر عن عالَم الإنتاج اللبناني الذي أذهلهُنَّ بشدّة، كونه منحَ المغنّيةَ شكلًا جميلًا ومحبّبًا لدى الجمهور، فكان لا بدَّ من القدوم إلى لبنان، والعمل مع المنتِجين فيه. على سبيل المثال، يمكن الرجوع إلى بعض مقابَلات المغنية السوريّة أصالة نصري التي كانت قد اشتهرت في سوريا ثمّ في مصر، ولكنها حَصَدَتْ شُهرةً واسِعَةً – حسب وصفها - عند قدومها إلى لبنان وبدء تعاونها مع منتجين، ومصوِّرين، ومصمِّمي أزياء فيه، وما تَبِعَ ذلك من تغيّرات في شكلها وفي مظهرها.

في العودة إلى مقابَلة المغنِّية نوال الزغبي المشار إليها سابقًا، برزت فيها إشارة توضح جزءًا من مشهدٍ عام، من ناحية توجُّه كثيراتٍ من المغنِّياتِ إلى جمهورٍ أوسع من الجمهور المحلّي في لبنان في اتّجاه الخليج، وهو أمرٌ يُفسّر في سياقِ القدرة الأكبر على تسويق الإنتاج الفنّي في منطقة الخليج. ولكن على الرّغمِ من أهمّيّة هذا المشهد، إلّا أنَّهُ لم يكن الوحيد؛ ففي مقابل الموسيقى الاستهلاكية الجماهيريّة وتخريج أعدادٍ من المغنِّيات (والمغنّين أيضًا)، والعمل على إظهارهنّ في فيديوهاتٍ مصوّرة للأغنيات وما تبعه بعد فترة التسعين من عملٍ واسعٍ على «تجميل» صورة المغنِّيات من خلال تغيير أشكالهنّ وأزيائهنّ بالتعاون مع فرق إنتاجٍ ومستشاري صورة... برزت في تلك الفترة في المسارح البيروتيّة مغنّياتٌ من اللواتي درسن الموسيقى، إن كان في المعهد العالي أو عن طريق أساتذة، وعملن بإنتاجٍ محدودٍ على تقديم حفلاتٍ وأعمالٍ من الموسيقى غير الاستهلاكيّة (من موشَّحاتٍ، وأدوار، وطقاطيق) أو من الموسيقى الاستهلاكيّة، ولكن في قالبٍ فنيٍّ. أطلق الإعلام على هؤلاءِ المغنِّيات صفة «الملتزِمات» اللواتي يقدّمن «فنًّا ملتزمًا»، وقدّمهن كـ «أيقونات فنيّة» مناقضة في الخطاب الفني لمغنِّيات البرامج الاستهلاكيّة، أو وصفهنّ بسلطانات الطرب، أو المدافِعات عن الطرب الأصيل، أو المعبِّرات عن الزمن الجميل.[١٨] ومن بين هؤلاء المغنِّيات جاهدة وهبة، وسمر كمّوج، وسميّة بعلبكي، وأميمة الخليل، وغيرهنَّ؛ فقد ارتبط اسم المغنيّة أميمة الخليل (١٩٦٦)، على سبيل المثال، منذ الثمانينيّات باسم الملحّن والمؤدّي مارسيل خليفة، حيث انضمّت إلى فرقته الموسيقيّة «الميادين» وقدَّمَتْ معه العديد من الحفلات التي تمحورت حول أغنياتٍ عن الوطن والحب. مارست أُمَيمَة الغناء منذ صغرها بمرافَقة والدها على آلة العود، وانتقلت من البقاع إلى بيروت من أجل دراسة الموسيقى، ثمّ بدأت، بالتزامن مع عملها مع مارسيل خليفة، بإطلاق ألبوماتها الخاصة منذ العام ١٩٩٤، ولم تُصَوِّر أيّ فيديو كليب حتى مطلع الألفية الثانية. أمّا جاهدة وهبة (١٩٦٩) فقد درست الموسيقى في المعهد العالي، كما درست الفنون المسرحيّة، و اشتهرت بغناء موشّحات وأدوار وأغانٍ لأبرز موسيقيي القرن العشرين، كأمّ كلثوم وعبد الوهاب، إلى جانب أغانيها الخاصة، والألحان التي أعدّتها، و مشاركتها في أعمالٍ مسرحيّة. وقد نالت ألقابًا كثيرة في الإعلام كـ«كاهنة المسرح»، و«شاعرة الصوت». ويُقال أنَّ وديع الصافي قد لقّبها بـ «المجاهِدة في سبيل الفن الأصيل». كما عُرِفَتْ بارتدائها عباءات فضفاضة، وبتقديمها حفلاتها في قالبٍ فنيّ، وبإدماج الشعر في حفلاتها وعروضها.

في وصف النساء المغنّيات، في الحالتين، أتت الصفات من منطلقٍ تنميطيّ إعلاميّ،[١٩] يتمحور حول طرح الصورة المقدَّمة للجمهور، وحول خلق الإيحاءات له ضمن ثنائيّة «جيّد / سيّئ». ولكن في المقابل، في الحالتين، أُطِّرَ العمل الفنّي بما يظهر النساء المغنِّيات – بعد الحرب – في صورة امرأةٍ صلبةٍ لا تهزمها الحرب، على الرّغم من ثقلها على الوطن والمجتمَع من جهة، وامرأة فتيّة لا تعنيها الحرب، وتسعى إلى ترفيه الجمهور وإسعاده من جهة أخرى. وفي هذين الطرحين اختزالٌ لسياقٍ طويلٍ سبق التسعينيات بعقودٍ، ظهرت فيه النساء المغنِّيات والمؤدّيات في العروض الفنيّة في كِلا المَظهَرين، وفي كَثِيرٍ من المَظاهِر المتنوِّعة الأُخرى أيضًا... فكيف يكون التصنيف دقيقًا؟ وكيف لا يكون التنميط مدخلًا إلى التَّحليل؟ وكيف يمكن أن يصار إلى إنتاجٍ فنّي لا يعتمد «الأسطرة»، ويتقبّل - لا بل يظهر – اختلافات التعاطي مع ما يمكن أن يكون نجاةً من الدمار والكوارث؟

١٨. استُخدِمَتْ هذه المصطلحات إعلاميًّا في وصف كثيراتٍ من المغنيات اللواتي لم يُقدّمن أغانِيَ استهلاكيّة جماهيريّة.

١٩. نقصد مِنَ المنطلق الإعلاميّ أنّ التصنيف لا يأخذ مدارس العمل الفني أساسًا للتعريف، بل يخلق تصنيفاتٍ مرتكِزةً إلى مُخاطَبة الجُمهُور.

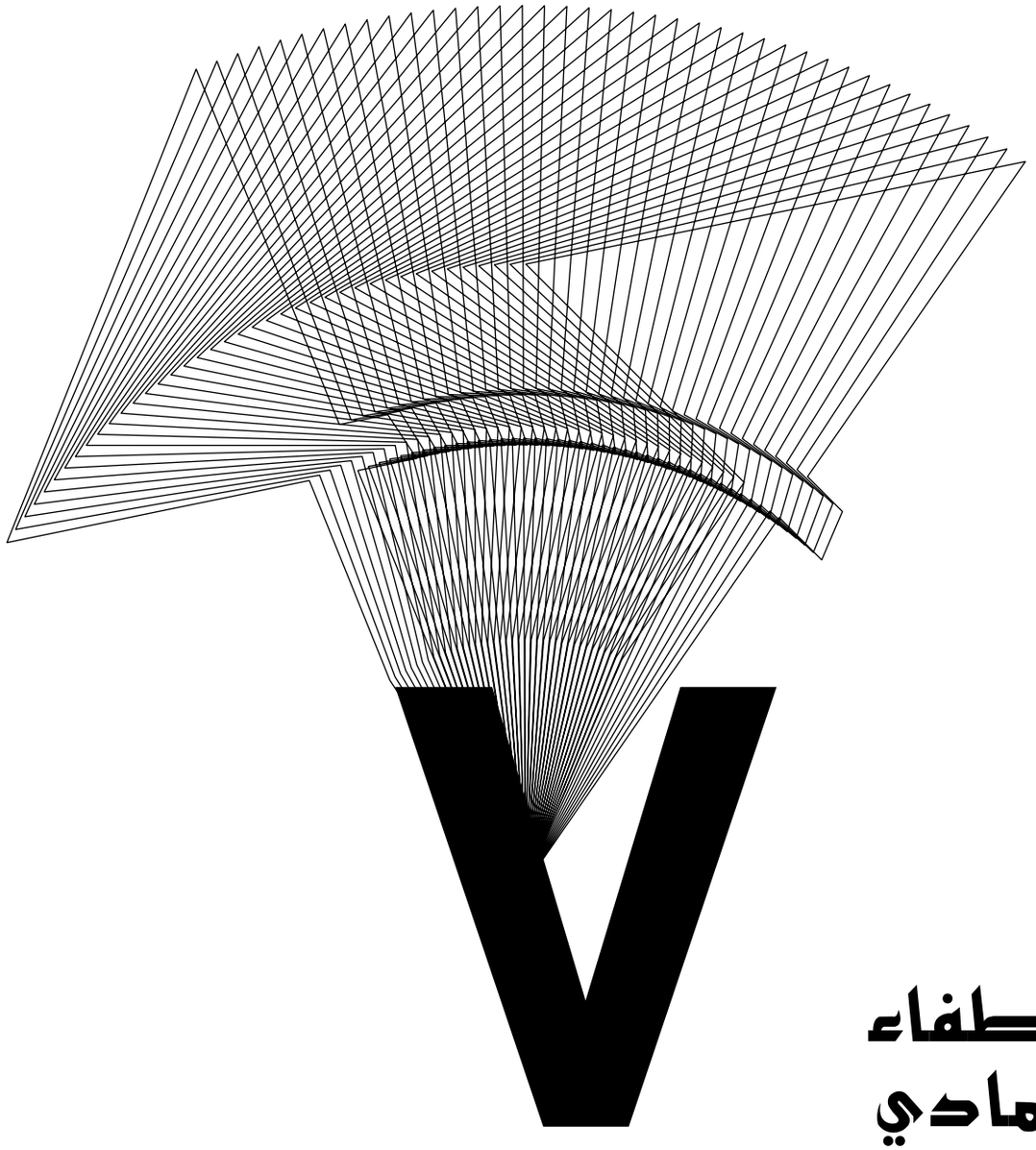

وطفاء حمادي

أستاذة جامعية، باحثة في المسرح النسوي والشبابي العربيين.

النسوية والتعبير عن الذات في المسرح اللبناني في مرحلة التسعينيات

في ستينيات القرن العشرين، أثار المسرح في لبنان إشكاليات متنوعة، منها ما يتعلق بالمجتمَع اللبناني وثقافته، ومنها ما يتعلق بمفهوم المسرح ودوره، وجمهوره، وقضاياه، كتلك التي قدّمتها المخرجة لطيفة ملتقى في مسرحية «حرب في الطابق الثالث»، وفيها وصفت الواقِعَين السياسي والاجتماعي اللبنانيَّين. ثم ظهرت عروض تعالج قضية النضالات المطلبية التي شاركت النساء في أغلبها، كما في مسرحية «مجدلون» التي وضع سياقها المسرحيّ روجيه عسّاف، ونفَّذها مع المخرجة اللبنانية نضال الأشقر الّتي مثّلَتْ فيها أيضًا، في أواخر الستينيات. وكانت هذه المسرحية تدعم برؤيتها العمل الفدائي الفلسطيني، وتتّخذُ موقفًا نقديًّا معاديًا للجيش، الأمر الذي أدى إلى وقف عرضها، فغادر الممثلون والممثلات صالة العرض ليقدموه في الشارع. وفي إثر ذلك، اعتُقل فريق المسرحية بأكمله ومعه المُخرِجة نضال الأشقر. كما أنَّ العروض التي قُدِّمت على مسرح الستينيَّات كمسرحية «جريمة وعقاب» إخراج منير أبو دبس، وَ «تحت رعاية زكور» إخراج ريمون جبارة، و«الزنزلخت» تأليف عصام محفوظ، قد عالجت، في أغلبها، مختلف القضايا السياسية، والاجتماعية، والوجودية، والعبثية، إلا أنها لم تتطرّق إلى واقع النساء في تلك المرحلة.

وفي السبعينيات ظهر شعار «النسوية والوطنية»، إذ قدمت مسرحيات الأخوين رحباني عاصي ومنصور الغنائية مثل مسرحيات «بترا»، و «جبال الصوان» و «لولو»، التي عالجت القضايا السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والوطنية، ومسرحيات شوشو التي تناولت النقد السياسي. وفي هذه المسرحيات لم يكن للنساء دور في خارج سياق حركة التحرير الوطني، وقد شاركن في هذا النضال إيمانًا بالفكرة السائدة «أنَّ خبرات المجتمَعات الأُخرى قد أظهرت أنَّ تحرير النساء لا ينتج تلقائيًّا عن النضال من أجل الديمقراطية أو التحرير الوطني، وإنما يجب التعامل مع مسألة تحريرهنّ في إطار المجتمَع ككل، وأنّ الثورة ضرورية لتمكين النساء وتحقيق آمالهنَّ، ما يدلُّ على التقاطع بين النضال الوطني»،[1] وبين نضال النوع الاجتماعيّ.

وفي منتصف هذه المرحلة، بدأت الحرب الأهلية اللبنانية التي قسّمت الخشبة المسرحية إلى خشبتين، تبعًا لانقسام المناطق بين شرقية وغربية، وانتعش المسرح التجاري والشانسونيه، كما نشط المسرح السياسيّ مع يعقوب شدراوي، وجلال خوري، وروجيه عساف.

أما مسرح الثمانينيات فلم يرفض رفضًا تامًّا مفهوم الوطن، بقدر ما تساءل حول حدود ذلك المفهوم وقيوده، مع تناوله من خلال شبكة من هُويات الطبقية، والنوع، والجنسية، ولم يأت دومًا في صيغة السرد بضمير المتكلّم أو في روايات شخصية، بل تداخلت فيه الحدود بين ما هو شخصي وما هو جماعي؛ فقد «كان خطاب النساء عن أنفسهنَّ يتلاقى في بعض الحالات مع نماذج، شكلت على العموم، إما ردود فعل، وإما آليات دفاع تتضمن تغطية لعجز ما، أو تمويلها مشاريع وطموحات تأخذ النساء موضوعًا لتنفذ إلى مرامٍ أخرى، أو لتخدم مصالح خاصة أو عامة، وقد يكون من نتائجها الحفاظ على التصورات الموروثة عن أدوار النساء، أكثر ممَّا هو بناء وقائع واستشراف مستقبَل» حسب إيلا شوهات.[2]

١. بيرناديت ضو، التيارات النسوية في لبنان: بعد الولاء للوطن، هل سينتفض الجسد خلال "الربيع العربي"؟، ٢٠١٥،
https://civilsociety-centre.org/paper/التيارات-النسوية-في-لبنان-بعد-الولاء-للوطن،-هل-سينتفض-الجسد-خلال-الربيع-العربي؟

٢. هدى الصدّة، أصوات بديلة: المرأة والعرق والوطن في العالَم الثالث، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ص. ٤٨٤، ٢٠٠٢.

وفي مرحلة التسعينيات التي عقبتِ الحرب الأهلية اللبنانية، ظهرت تغيرات متنوعة على المستويات الفكرية، والثقافية، والسياسية، والاجتماعية، لا سيما على مستوى واقع النساء اللبنانيات اللاتي عشن «في زمن انتشار أفكار الحركة النسوية وما أدته لمضاعَفة النضال النسوي»،[٣] وفيه بدت تأثيرات ما بعد الحداثة عندما تقلّص الانصراف إلى السرديات الكبرى، واستُبدِلَتْ بتعزيز الأنا الفردية؛ سعت النساء الكاتبات إلى استردادِ وكالة تعبير الكاتب/الرجل عنهنَّ لمدة طويلة، وبرزت تعبيراتهنّ في الرواية، والشِّعر، والقصة، وفي الفنون: كالسينما، والمسلسَلات التلفزيونية، والمسرح، وتبنَّينَ القضية الأكثر تعقيدًا، إذ جعلن النساء موضوعًا لهنَّ، وتناولنها بمقارَبات متنوعة، تتشابك فيها منظومة القيم الخاصّة بِالعلاقات الأسرية والزوجية بعلاقات الأبوية المسيطرة.[٤] وفي هذا الحيز التعبيري صاغت النساء خطابهنَّ، وفيه ساءلن الوقائع الثقافية الاجتماعية حيث تولد التناقضات، وتكشف التوترات ورهانات الهُوية. وقد شكَّل هذا الخطاب بعدًا من أبعاد البحث عن معاني الكيان الأنطولوجي الفردي وعلاقته بالجماعيّ، وبنى تصورات عن الذات والآخَر في تشكيل الهويات.[٥] من هذا المنطلق، تسعى هذه الدراسة إلى التعّرف إلى نتاج بعض نساء مرحلة التسعينيّات بمنظوره النسوي في المسرح، وقد اخترنا المسرح كنوع فني فعّال، شاع فيه تقديم العروض التي تناولت واقع النساء في لبنان، في تلك المرحلة التي بدأ فيها التمرّد النسوي الصاعد في العالَم، وعُرِفَت بـ «لحظة الجنون»، حيث يبدو أنّ كل شيء ممكن، حتى بلوغ مرحلة الذروة وعلاماتها الراديكالية في الأفعال.[٦]

هدف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى الآتي:
-ربط نتاج المسرح النسوي بمراحل معرفة معظم النساء في لبنان للحركة النسوية، وأفكارها وَكيفيّة اعتمادها في التسعينيّات، هذه المعرفة التي نادرًا ما تناولتها الدراسات.
-دراسة رؤية النساء المسرحيات اللبنانيات التي جسدنها في أعمالهنّ المسرحية المختارة، والتي تُظهِر وعيهنّ بكينونتهنّ ذات الخصوصية كنساء، انطلاقًا من مفهوم نسوي مدّت من خلاله النساء جسورًا للعبور إلى ذواتهنّ جسدًا وفكرًا، وللحفر في دواخلهنّ للتخلص مما سببته لهنّ السلطة الذكورية من وهن، واستسلام، وفقدان الثقة بالنفس.

الإشكالية

تطرح الدراسة أسئلة إشكاليةً تتعلق بتجلّيات الأفكار النسوية في الممارَسات المسرحية في التسعينيات، لنتبين كيف تمكّنت النساء المسرحيات من تجسيد بعض الأفكار النسوية فيها، ولمَعرفة ما إذا تمكّنّ من إبراز علاقة النساء بكينوناتهنّ، وبأجسادهنّ، وبمفهومهنّ عن الأمومة، وكيفيّة بروز هذه العلاقة، ولتبيين ما إذا كانت هذه الممارَسات قد ركَّزَتْ على المطالَبة برفع الظلم عن النساء لنيل حقوقهنّ وعدم التفريق الجندري بينهنّ وبين الرجال، أم أنّها اكتفت بعرض معاناة النساء.

منهج الدراسة

هو منهج النقد الثقافي بمقارَبة نسوية سوسيولوجية، يهتم باستكشاف الأنساق الثقافية المضمَرة، وبدراستها في سياقاتها الثقافيّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والتاريخيّة، والمؤسَّساتيّة، فهمًا وتفسيرًا.

٣. مقدمة كتاب باحثات بعنوان خطاب النّساء، العدد التاسع.
٤. هدى الصدّة، المرجع السابق، ص. ٤٨٣
٥. مقدمة كتاب باحثات، المرجع السابق.
٦. برناديت ضو، المرجع السابق.

مادة البحث

خلال تسعينيات القرن العشرين، قُدِّمَتْ أعمال مسرحية لأجيال عديدة في المسرح اللبناني، شاركت فيها النساء كممثلات، ومخرجات، وكاتبات، ومعدات دراماتورجيات،[٧] ولم تكن ذات منظور نسوي، بل عالجت موضوعات تتعلق بالشأن العام، وتكشف عن مشارَكة النساء في القضايا السياسية والاجتماعية، مثل مسرحية «الجيب السري» للمخرجة سهام ناصر في سنة ١٩٩٢.

وبالتوازي، برز عدد قليل من أعمالٍ تطرقت إلى موضوعات عبّرت عن الخصوصية النسوية، وتناولَ كلٌّ منها قضية من القضايا التي تربط واقع النساء في لبنان بالمعطيات السياسية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، كما ورد في مسرحيات «ميديا» وعلاقتها بالأمومة والتضحية المفروضتَينِ عليها. أمّا «مشهد سعدى» في مسرحية «جنينة الصنايع»، فيركّز على علاقة النساء بأجسادهنّ، بينما تُرَكِّزُ المَشاهِد الأخرى في المسرحية على الواقع الأمني وذيول تأثيرات الحرب الأهلية على الناس. بالإضافةِ إلى ذَلِكَ، اخترت النص الثالث وهو نص «طقوس الإشارات والتّحوُّلات»، لأنه يعالج قضايا أساسية في السياق النسوي، كسفاح القربى، واستغلال فقر النساء، وكذلك المثلية الجنسية، علمًا أنَّ هذه القضية لم تدخل الخطاب النسوي بشكل جدّي في لبنان حتى القرن الواحد والعشرين.

والجدير ذِكرُهُ أنَّ النصوص الثلاثة التي اخترناها كمادة للدراسة، لم تكتبها كلها كاتبات أو كتّاب من لبنان، بل أعدّتها كاتباتٌ إعدادًا دراماتورجيًّا، وصغنها برؤية نسوية، أي الرؤية التي تكشف عن التهميش والعزل اللَّذَين تعرضت لهما الكتابات النسوية، فضلًا عن معالَجة الكاتبات قضاياهنَّ. وقد عالجن فيها ثيمات تزامنت مع انتشار الفكر النسوي، وهي:

-**الأول:** نص مسرحية «ميديا...ميديا»، أعدّته دراماتورجيًّا وعرّبته المُخرِجة سهام ناصر عن نص «ميديا» لجان أنوي الذي أعدّه بدوره عن نص أوريبيدس. وركزت على رؤية النص للعلاقة الصراعية بين المرأة والرجل، وقدمتها بين العامين ١٩٩٤-١٩٩٥. وميديا هي امرأة بربرية تتمتع بقوة سحرية غامضة لتحدُّرها من أصل إلهي، ولكنها شديدة الفتك تقتل جميع من يعترض سبيلها، أو من ينتزع منها ما تراه حقًّا لها. لقد قتلت أخاها لاعتراضه على زواجها من جايسون، وهربت مع زوجها إلى كورنثة في اليونان، لكنَّ جايسون تزوج من امرأة أخرى، فسممتهما ميديا وقتلت ولديها انتقامًا من زوجها لأنهما امتداد له، ثم أحرقت نفسها وماتت وهي في حالة صعود بقوتها السحرية. تمثلت ناصر خاتمة نص «ميديا» لأوريبيدس، مضيفة إليها رؤية معاصِرة في نهاية النص، إذ تركت شخصية نانا المرضعة تحاور الحارس وهو يرتدي ملابس حديثة، وتناقشه في أمور الطعام، لتشير إلى استمرارية الحياة التي تخترق الأسطورة، وتقترب من الحياة اليومية.

-**الثاني:** مشهد «آمنة» (المرأة المقموعة جنسيًّا) في مسرحية «جنينة الصنايع» التي عالجت قصة «خليل طه» المتّهم بقتل المرأة التي استأجر منها غرفة للسكن وبتقطيع جثتها، حيثُ يعدم شنقًا في العام ١٩٨٤ في حديقة الصنايع في العاصمة اللبنانية بيروت. ويرمز هذا الموضوع إلى تقطيع أوصال المدينة بيروت من قبل أهلها المواطنين/ المتقاتلين. وقد اقتطعنا منها مشهدًا كتبته ومثلته الممثلة حنان الحاج علي، لتجسد فيه رؤية تكشف عن علاقة النساء بأجسادهنَّ.

-**الثالث:** مسرحية «طقوس الإشارات والتحولات» للكاتب السوري سعد الله ونوس، أخرجَتها نضال الأشقر في العام ١٩٩٦، والتزمت إخراجيًّا بنص الكاتب. أمَّا ما دفعنا إلى اختيار هذه المسرحية ودراستها، فهو محاوَلة منا للكشف عن واقع النساء وعلاقتهن بأجسادهنّ، والقمع الممارَس عليهنّ من قبل السلطات الدينية، والسياسية، والعائلية البطريركية، مثلما عبّر عنها حوار النساء في النص، حيثُ قاربنا هذهِ الموضوعات مقارَبة نسوية.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ اختيارنا لهذه النماذج المسرحية لا يعني بالضرورة التعميم حول علاقة الأفكار النسوية بالمسرح خلال التسعينيات، بل أنّنا سندرس فرادة النموذج، وخصوصيته، والمشترَك بينه وبين النماذج الأخرى، حيث تتعدد صورة المرأة في النموذج الواحد، ما يكسر النمطية ويكشف الرؤية لصور متعددة من النساء.

٧. دراماتورجيا، والدراماتورج dramaturge هي من تعد النص وتذهب بعيدًا في عملية تفسير المفاهيم الجمالية والسياسية والاجتماعية والتاريخية للعمل، وفي شرحها، مستجيبة للتفسير الأيديولوجي للنص وعلاقته بالمتلقي الحاضر.

المسرح والمَطالِب الإصلاحية النسوية:

في التسعينيات، بعد انتهاء الحرب الأهلية في لبنان، ومع بروز عوامل داخليّة وعالمية ساعدت في تسارع تأسيس العديد من المنظّمات النسوية، وفي تعزيز نشاطها، بدأ تأثير أفكار الحركة النسوية في إحداث بعض التغيير الاجتماعي للعادات والممارَسات الذكورية التي تقمع النساء، وتكبّل الكثير من حرياتهنّ. كما ظهرت الاتّفاقيّة الدولية (سيداو) التي طرحت فِكرَتَيِ الجندر والقضاء على جميع أشكال التمييز ضد النساء، وسمحت بظهور شكل جديد من أشكال النضال النسوي بمحمول فكري تغييريّ، ولّد لغة «اصطلاحية حديثة حول القضايا الجديدة»، مثل: «التمييز الإيجابي»، وَ«العنف القائم على النوع الاجتماعي»، و«المواطنة الكاملة» و«العنف الأسري والاغتصاب الزوجي»،[٨] وغيرها من أفكار تحريرية جاوزتِ الواقع المعيش، وواجهتهُ.

وطالبت النساء والنسويات بتعديل أحكام قوانين الأحوال الشخصية، وهي في أغلبها تمييزية ضد النساء (خاصة في ما يتعلق بحرية اختيار الزوج، وقرار الطلاق، وأحكام الإرث، والوصاية، والحضانة ...) التي كان المسرح في لبنان قد بدأ بمعالَجتها منذ الثمانينات؛ فالمسرح لم يتوقف في زمن الحرب، إذْ قدّم روجيه عساف مسرحيته «أيام الخيام» في سنة ١٩٨٢، عندما تناولت الممثلة حنان الحاج علي موضوع حرية اختيار الزوج وفق ما تنص عليه التشريعات، وما ترفضه وتحاربه العادات والتقاليد، وأبرزت ذلك في مشهد أعدته في مسرحية «أيام الخيام» ، فاستخدمت «سعدى» الشخصية التي أدتها الممثلة حنان، مُؤَكِّدَةً حقها الشرعي في القيام بعقد زواج بينها وبين من اختارته زوجًا، مِنْ دون الاستعانة بشهود، بل يمكن الاكتفاء بكلمة «إني زوجتك نفسي».
لم يقتصر الأمر في هذه الأعمال على واقع النساء الشرعي وفق ما طرحته الأفكار النسوية التي تطالب بتحرّر النساء، وبالمساواة بالحقوق القانونية والتشريعية مع الرجال، بل راح المسرح يفجّر المسكوت عنه في نصوص النساء والرجال أيضًا، بالتعبير عن الحرية التي يجب أن تتمتع بها النساء، خاصّةً حرية العلاقة مع الجسد، والتعبير عنه وعن الأذية الملحَقة به، ورفض هذه الأذية، وهذا أمر لم يكن التعبير عنه مُتاحًا في السّابق.

التعبيرعن العلاقة مع الجسد في تسعينيّات المسرح اللبناني:

أ- أذية الجسد النسوي: نقل عدوى المرض إليه، واغتصابه من قبل أقرباء وغرباء

بعدما شهدت التسعينيات تطوُّرًا في الخطاب والعمل المؤسساتي، خصوصًا في ما يتعلّق بقضايا الجسد وبالعنف القائم على الجندر، ظهر التعبير عن أذية السلطة الذكورية للنساء في أعمال مسرحية مثل «جنينة الصنايع»، من خلال احتقار أجساد النساء لدرجة أنها تستغل من قبل الآخَر حتى لو تسبّب لها بأمراض معدية. ويدلُّ ذلك على أنّ الرّجل يعدُّ هذا الجسد ملكًا له يأتيه متى يشاء، وكيفما يشاء، وفي أي حالة مرضية أو صحية يتمتع بها أو يشكو منها. وتعبّر عن ذلك حنان في مشهد من المسرحية، خلال مونولوغ تعتمده غالبًا النساء الكاتبات المسرحيات في نصوصهنّ، لأنهنَّ، وبشكل اعتيادي يَشكونَ أنفسهنّ إلى أنفسهنّ من خلال هذا الحوار الذاتي، فتقول حنان: «وقتها طلعتلي بذات المطرح بس حبة صغيرة وإلها بزبوز أسود.. أبو أحمد طلعتلو هيي ذاتها بس ب راس أصبعو... ولما نوى يروح عالحج إجا يقللي: سامحيني يا آمنة أمانة... قلتللو على شو؟ قلي: وقت ما مرضتي أنا السبب.. نقلتلك مرض السفلس وحرقت السنسفيل تاعك وحلف عالنسوان..» [٩]

إذًا، تتعرّضُ أجساد النساء لحالات قاهرة متعدِّدة، إذ يتعدى الأمر الاستغلال المادي لها، ليضحي اعتداءً عليهنّ، وقهرًا لهنّ، مع حرمانهنَّ من حرية الاختيار في كيفية التعامل مع أجسادهنّ، ومصادَرة سبل متعتهنّ، حتى من خلال نقل المرض، وهنا يتحقَّقُ ما يقوله أفلاطون: «الجسد قبر» (soma sema).[١٠]

٨. برناديت ضو، المرجع السابق.
٩. مسرحية "جنينة الصنايع"، مخطوطة.
١٠. صالح سعد، سعد، صالح. الأنا الآخر، ازدواجية الفن التمثيلي، عالَم المعرفة، العدد ٢٧٤، ٢٠٠٢، ص. ١٣٠.

إلا أنَّ السُّلطة الذكورية تدلف إلى ساحة المناطق العميقة والمظلمة، حيث الرغبات، والشرور، والمطامع، والأهواء الكامنة في تلك الطبقات العميقة من النفس البشرية التي تدفعها إلى سلوكيات «لا إنسانية»، فتصير أجساد النساء مغتصَبة كما عبَّر عنها نص «طقوس الإشارات والتحولات»؛ نذكُرُ في هذا الصّددِ وردة التي تمثل شخصية الغانية في «جنينة الصنايع»، والتي أخبرت مؤمنة (ابنة الشيخ) أنَّ أباها الشيخ الجليل اشتراها من أهلها، لأنهم كانوا محتاجين إلى الأكل، وكان يلحظها بعنايته.

تُكملُ وردة قصّتها، فتقولُ:
- «... وقبل أن أحيض كان قد كشف لي الطريق، وسار معي فيه، كان يفسق بي، وهو يعلّمني طبقات الفسق ومراتبه». ثمّ ذكرت لها كيف كان يتناوب عليها الأب والابن اللذان ألقيا بها في الشارع في ما بعد.[١١]

وكذلك تتعرض شخصية مؤمنة للاعتداء الجنسي عليها من قبل والدها الشيخ الجليل، وتعاني من خيانة زوجها نقيب الأشراف مع الغانية وردة. أما ردّ فعلها على هذا الواقع فيدفعها إلى سلوك دروب الغواية على يد وردة، والتي تختار لها اسمًا جديدًا هو ألماسة، «ألماسة» التي كانت مفعمة بالأنوثة الخلّاقة، أضحت في ما بعد ضحيّة مجتمَع ذكوريّ لا يعترف إلّا بتسيّد الرجل وغضّ الطرف عن معايبه، وجاء طقس الموت تعبيرًا عن موت أعزّ ما امتلكته، موت جسدها».[١٢]

وتقول مؤمنة /ألماسة مخاطِبةً أباها:
- «... أتحدثني أيها الرجل التقي عن التربية؟ هل تعرف ما هي النّار التي وشمت جسدي، وأنضجته قبل أوانه؟ إنّها نار الحرقة في دموع أمي، وصمتها الموجوع، إنّها نارُ عينيك اللتين كانتا تلحقان بي في الدار وبيت الخلاء ومحل النوم...».

وبهذا، تُظهِر «جنينة الصنايع» العنف والاستغلال الجنسي اللّذين تتعرّض لهما النساء اللواتي يدفعنَ ثمنه أيضًا بمزيد من العنف، والنبذ، والمرض حتى. وبسبب هذا القمع، تكون المقاومة، إمَّا من خلال الكلام على هذا العنف، إن بحوار ذاتي، أو مع رفيقاتهنّ من النساء، اللواتي يُعطينهنَّ اسمًا جديدًا يعكس جوهرهنَّ: ألماسة، وإما بمواجَهة المغتصِبين كما واجهت مؤمنة/ألماسة والدها.

ب- التحول وبوادر الانزياح نحو الذات في المسرح

طرحت الأفكار النسوية في فترة التسعينيّات أفكارًا رؤى تغييرية اقتدى بها بعض النساء المسرحيات في المسرح اللبناني، وجسَّد بعضًا منها في أعماله، وتتسق هذه الأفكار مع التغيرات الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والحقوقية التي حدثت في لبنان؛ إذْ بدت بوادر الانزياح نحو الذات التي ترفض القمع وتسعى إلى الحرية نتيجة وعيهنّ، في مفهوم مختلف في العلاقة مع أجسادهنّ وفي مجتمَعات تحرّم عليهنَّ البوح بأحاسيسهنّ وعواطفهنّ ورغباتهنّ، أو تُصَعِّبُ عليهنَّ ذَلِكَ، وقد رفض الخطاب النسوي في بعض المسرحيات الاضطهاد الذي تمارسه عليهنَّ السلطة الذكورية . وفي ترجمة لهذا التحوُّل، اختارت الشخصية التي جسّدتها الممثلة حنان الحاج أن تستسلم إلى حد ما لتحرير جسدها المقموع من الخوف الذي تربت عليه، بِعَدِّهِ منطقة محرَّمة لا يجوز المس بها أو الدنو منها، إلَّا من خلال ما يحلله الشرع؛ ففي مشهد من مشاهد مسرحية «جنينة الصنايع»، تقول الست آمنة: «اليوم طلب مني الكوافير هوي يغسلي شعري... احمريت واستحيت، بس قبلت... تركتو يغسلي شعري... ما حسيت إلا دموعي عم تكرج على إرس خدودي... ما عرفت ليش...، ومن خوفي... من هبلي حلفت ما عود إدعس عنده.. حرمنا دنيا الله لا يحرموا آخرة... شو كنت هبلة! بدن ياني كل عمري ضل هبلي؟ ما عرفت كيف تلحلحت، وما عاد بدي إلا شغلة وحدي: بدي أنبسط..»[١٣]

١١. سعد الله ونوس، طقوس الإشارات والتحولات، دار الآداب، رؤية إخراجية لنضال الأشقر، ١٩٩٧.
١٢. أدهم مسعود القاق، "سعد الله ونوس في "طقوس الإشارات والتحوّلات""، يونيو ٢٠١٨، https://middle-east-online.com/سعد-الله-ونوس-في-طقوس-الإشارات-والتحوّلات
١٣. مسرحية " جنينة الصنايع".

فالنسوية فتحت مساحات جديدة لفهم العلاقة مع أجساد النساء اللّواتي تغلغلنَ دواخلهنَّ ليصغن مفهومًا تحرُّريًّا لهذا الجسد، وظهر ذلك في الاستراتيجية التي اتبعتها الكاتبات الغربيات في تأليف الدراما، والّتي طوّرت وعيًا في تفهّم تنوّع مستوى هذه العلاقة خاصةً في المسرح، وفي تقديم صور واضحة عن التناقض والغموض اللّذين يُحيطان بالأجساد والهُويات. وقد مكّن تطوّر الخطاب النسوي في المسرح بعض الكاتبات من إقامة أبنية صلبة على الأرض والعمل –حسب المخرجة كارين مالبيد- على «كسر حاجز الصمت الذي يجعلنا في حالة خضوع فيه هلاكنا»،[١٤] وما يمكِّنهنَّ من بناء شخصيات «ذوات فرديّة تعصف بها الأهواء والنوازع وترهقها الخيارات، وسيكون هناكَ سوء فهم كبير، إذا لم تُقرَأ هذه الشخصيّات من خلال تفرّدها وكثافة عوالمها الداخلية...» [١٥]

وقد عبّرت آمنة أيضًا عن هذا الكسر لحالة الصمت أو الإسكات، والبحث عن الاستيفاء الذاتي من خلال المونولوغ التي قدّمته: «هاه ولا مرة فكرت بحالي بأحاسيسي بمشاعري... مبلى مرة وحدة... صرت روح عند الكوافير اللي فاتح جديد حدنا... أنبسط لما لاقي ناطرني... صرت حب هالإشياء الصغيرة يللي تخليني حس حالي إني شيء مهم، شي غير شكل...»[١٦]

إلّا أنَّ اكتشاف الذات الساعية إلى الحرية بعلاقتها مع جسدها كانت مقيَّدة بشروط إرضاء الزوج، ومطمورة ضمن الواجبات الزوجية، ودور الزوجات في خدمة الرجل حتى لو عوملنَ بمنتهى الإهمال والتهميش، فيوافقنَ ويتقبّلنَ لأنَّ «الزلمة رحمة لو كان فحمة» أي أنَّ وجود الرجل في حياة المرأة هو رحمة من الله مهما كانت أحواله، ويأتي هذا المثل الشعبي في سياق مجتمعيّ ذكوريّ يؤكد حاجة المرأة إلى الرجل/السند/ والحامي/ حتى لا تظل عزباء وغير محمية.

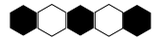

الصراع بين الذكورة والأنوثة

كانت السلطة الذكورية حتى التسعينيات، وما زالت حتى اليوم، تحاول السيطرة على النساء، وإلزامهنَّ بمحرَّمات، وتقييدهنَّ بقواعد، وتعاقبهنَّ إن جرَّبنَ تحدّيها. وهذا ما تعرضت له شخصية آمنة عندما أحست بضرورة إعلان امتلاك جسدها والتعبير عن إحساسها، فاتهمت بالانحلال في حين أنَّ سلوك الزوج وخياناته المتكرِّرة لها تُسَوَّغُ بذريعة كونه رجلًا: «نعم إني امرأة... ست ويعلي بشانها كلني أحاسيس ومشاعر.. قال شو مش طبيعية وبدن يحطوني بمصح! إذا هيك أبو أحمد كان بدو عصفورية».[١٧] نلاحظ من خلال الحوار أنَّ النساء يُتَّهمن بالجنون في حال حاولنَ التحرُّر من السلطة الذكورية القامعة لهنَّ، والّتي تُحرِّمُ عليهنَّ التعبير عن حاجاتهنّ وشعورهنّ، في حين أنّ الرجل يوصف بالـ «الفحل». ويوحي ذلك بأنّ «النفس البشرية حينما تتصالح مع جسدها ورغباته وسط مجتمَع يحتقر الأجساد ومتعها، تتحول إلى حالة من إعصار مدمِّر لا يقود إلّا إلى الجنون أو الموت»،[١٨] في حين أنَّ الرجل الذي يمارس الخيانة، لا يعاقَب لأنه محصَّن ومدعوم من الشرع، ومحميّ من العادات والتقاليد، لا بل بالعكس يمكن التباهي بما يسلكه من ضروب خيانة الزوجة، ويوصف بأنه : «يحكوا عنو بكل إعجاب: هيدا زلمة قبضاي ، نمر، عتر، فحل... «هيدا جوزك نسونجي كبير كوني قدها وقدود يا آمنة» كان يعيطولوا الفحل وكان مفخرة العيل هلق مسمايني المفحلة وعاملييني مسخرة... يا ريت مسخرة بيستحوا فيي..» [١٩]

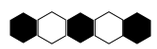

١٤. برناديت ضو، المرجع السابق.

١٥. أدهم مسعود القاق، المرجع السابق.

١٦. مسرحية " جنينة الصنايع".

١٧ . المصدر نفسه.

١٨. أدهم مسعود القاق، المرجع السابق.

١٩. المصدر نفسه.

الهُويَّة الجنسية المثلية: ثورة هُويَّة

إلى جانب رفض المجتمَعات الذكورية في البلاد العربية لتحرير أجساد النساء، كان هناك رفض أيضًا لأيّ هُويَّات جنسية غير نمطية، وتجلّى ذلك عندما بدأت طروحات مختلفة بالانتشار، في ما يتعلق بالهُويات الجندرية والميول الجنسية التي تفترض عدم التصنيف الجنسي، وتؤيد المثلية الجنسية. وقد بدأ طرح هذه الأفكار على الرّغم من المعارَضة الشديدة لها، باعتبارها تتعدى ما دعا إليه الشرع، والسائد، والمألوف، وبعدِّها اختراقًا للمحظور والتَّحريم الدِّينيّ. وقد قدمت نضال الأشقر مسرحية « طقوس الإشارات والتحولات» في سنة ١٩٩٧، وتضمَّنَ نصها قضية الهُويات والميول الجنسية.

ظَهَرَتْ في «طقوس الإشارات والتحولات» شخصية «عفصة»، الشخصية المثلية الّتي تمثَّلتْ في رَجُلٍ «تصالح مع جسده، فأزالَ الشّعرَ منه كلّه، وَحلقَ شاربه، إرضاء لميوله الجنسية المثليّة، وانتصارًا لضرورة تحوّلات جسده، وَتوافُقًا مع تركيبته البيولوجية. أمّا «عبّاس» الذي يُخفي ميوله الجنسية، فيرفض عفصة لأنّه كان يستمتع جسديًّا معه بشكله «الرجوليّ»، وخفية عن نظرات أفراد محيطه الاجتماعيّ المُحافِظ، ووفقًا لما تمليه قواعد الدين الاجتماعيّة عليه. أمَّا عفصة الذي يتوق إلى تفجير المسكوت عنه، والجهر بهذا الميل، متحديًا كل ما يفرضه المجتمَع من مفاهيم للعلاقات الإنسانية والجنسية، فيقول: «كتمتَ وأخفيتَ، عشتَ وتكرّمتَ، وإن صدقتَ وكشفتَ نبذوك وأخرجوك منهم...» وعندما يرفضه المعشوق عباس ويخجل من هذا الإعلان، ينتحر غضبًا من رفض عباس له.[٢٠]

من المؤكَّد أنَّ هذه المفاهيم المتعلقة بحرية الجسد، والتي بدأت تتسّرب في حقبة التسعينيَّات في لبنان، لم تكن مقبولة بعد على الرّغم من التحول الذي طرأ على التفكير العلائقي مع الجسد بعد انتشار الفكر النسوي. لكنَّ الأشقر لم تحذف شخصيَّتَيْ عبّاس وعفصة من النص المسرحي الّذي يمكن القول إنه أخذ يعلن بداية البحث عن الهُويَّة الجنسانية وفتح كوة تخترق حجب الرفض بالقبول، وتواجه الرفض المجتمَعيّ لها.

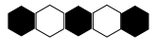

وفضلًا عن قضية العلاقة مع الجسد، تناولت النصوص المسرحية قضايا أخرى عولجت بمنظور نسوي مثل: الأمومة التي تجنح نحو تكريس صفة الأنثوية للنساء من منظور بيولوجي؛ فالمرأة هي الأنثى/ والرحم / والولادة / والجمال / وجمال الصدر والأرداف، إنها رمز الأنوثة المناقِضة للذكورة. وقد أشار بعض النصوص المصاغ دراماتورجيًّا إلى قضيتين ما زالتا تلازمان عقلية النساء ومناحي تفكيرهنَّ، وهُما:

التضحية والأمومة

ركزت سهام ناصر في نصّها على رفض صورة الأمومة وتكريس هذا الدور لها كامرأة: «إذ استقلت ميديا عن ذاتها كامرأة وأم، وتحولت إلى امرأة ثائرة ومرعبة، لقد انفصل عنها ابناها، وعادا ابني أبيهما، عادا امتدادًا له في الوجود من دونها، ولكنها عاشت حالة انقسام أوقعتها في قبضة أحاسيس متناقِضة؛ فهي تعبِّرعن حسها الأمومي بقولها:» ميديا: صحيح أنا بربرية وغريبة، بس كمان من محل ما جيت الأمهات بتحن على ولادهن، «وهذا ما يشير إلى صراع تعيشه هذه المرأة بين أمومتها من جهة، وكيانها وذاتها المنكسِرة من جهة أُخرى، نتيجة خيانة زوجها جايسون لها. وبعدَ ذَلك، أضافت سهام بعض العلامات الدالة على العلاقة الثنائية القائمة بين الذكورة والأنوثة، وعلى الصراع القائم بينهما، وضمنتها جوانب مشترَكة من خيارات النساء في تلك الحقبة، ثم ركَّزت على إظهار ميديا بصورة تتمتع فيها بحريتها كاملة، وكفيلة بجعلها تخرج من الدور الأنثوي بمفهومه السلبي/ الضعيف الحامل مفهوم الأمومة والتضحية من أجلها. وهي بذلك، تخالف المفهوم السائد عن علاقة المرأة بالحيِّزين العام والخاص، التي يفترضها بعض وجهات النظر الذكورية القائم على خلق متوازيات وثنائيات، فيضع المرأة دَومًا في إطار الحيِّز الخاص الذي يشار إليه مَجازًا بإطار الأسرة والبيت، بينما يحتل الرجل الحيِّز العام الذي يشار إليه مَجازًا بالحيِّز الخارجيّ، ويتمثل في سلوك الرجل.[٢١]

٢٠. مسرحية "طقوس الإشارات والتحولات".

٢١. هالة كمال، كتابة الذات وسياسة المقاوَمة، بيروت: قراءة في تاريخي بقلمي لنبوية موسى، مؤتمر الباحثات اللبنانيات، ٢٠٠١.

كما أبقت سهام ناصر على ما ورد في نص جان أنوي الدال على تشابه حالة ميديا مع حالة النساء اللاتي يبدين حاجتهنّ إلى الرّجُلِ، وبالأخصّ لمَّا أعلنت ميديا بنفسها: «نحن معشر النساء أسوأ المخلوقات حظًا. فأولًا يطلب منا أن نشتري رجلًا بثروة ضخمة ونتخذه سيدًا لأجسادنا، لأنه من أسوإِ الأمور ألّا يكون لنا زوج»،[٢٢] ولكنها اختلفت عنهنّ عندَ إصابتها بخيبة من العلاقة الزوجية، فصار لهذه التضحية بالذات مردود غير متوقع عندما خانها زوجها، وتطور هذا المردود وصار إدراكًا كاملًا للذّات.

ويُشيرُ ذلك - حسب ما ادعت الباحثة هالة كمال - إلى أنَّ الدراما النسوية في طريقها لأن تعيد للمسرح اتجاهه الصادق نحو الواقعية، وَلاستكشافِ وضعَي النساء الاجتماعي والسياسيّ من جهة، وسيكولوجيتهنّ من جهة أخرى، ونتبين ذلك من رفض ميديا هُويَّتها كامرأة خاضعة للسلطة الذكورية: «ميديا: ليش أنا بنت، شو بدي بحالي...لو إني خلقت صبي مش كان أحسن». يمكن أن نحيل ذلك إلى ما يسميه لاكان «الانحراف المعرفي» meconnaissance، وهو جزء لا يتجزأ من تكوين الأنا. وتعيش ميديا حالة الانحراف المعرفي، وتفضل حينئذٍ أن «تتخلى عن دورها الأنثوي وتتنازل عن حلمها بأن تكون ميديا / المرأة السوية»،[٢٣] في المفاهيم المجتمَعية النمطية.

وفي اختيار المخرجة ناصر لهذا النص دلالات نسوية، لأنه -كما هو معلوم- في الاختيار أيضًا يكمن نوع الموقف والرؤية، خصوصًا في ما يتعلَّقُ باهتمامها بإشكالية العلاقة مع الأمومة، والعلاقة الزوجية، وبضرورة الزواج بالنسبة إلى النساء، وغيرها من القضايا. يتطرَّقُ هذا النص إلى العديد من جوانب شخصيات النساء، ويضعهنَّ أمام خيارات صعبة تدل على أنّهنّ قادراتٌ على التحكُّم في أيديولوجيا النظام الأبوي، بُغيَةَ الاستحواذ على السلطة التي يمتلكها، كما أنهنَّ قادراتٌ على توفير المهرب من القيود القهرية لهذا النِّظامِ، بشكل يتسم بالالتباس، ويقترن بالتمرد، أو الخيانة، أو القتل.[٢٤]

الخاتمة والاستنتاج

بينت هذه النصوص التي أعدتها النساء الدراميات اللبنانيات، وكتبنها، وأخرجنها «أنّ رؤيتهنّ لا تكمن في الطاقة التجريبية التي تميز أعمالهنّ، ولا في الموضوعات التي يتناولنها، ولكنها تكمن في قدرتهنّ على تخطي الأصوات المنفردة المستقلة التي تعزف عزفًا فرديًّا، إلى الأصوات الجماعية المتفجرة للنساء وهنّ يتكلمن، ويعانين، ويسردن قهرهنّ معًا»، في مرحلة ظهرَ فيها من الفردية إلى الجوقية أي جوقة النساء اللواتي اهتدينَ بأفكار الحركات النسوية على مَدَى العقود والموجات المتعدّدة، لا سيما خلال التسعينيات؛ فبين المُطالَبة بالحقوق الشرعية كما ورد في نص حنان الحاج علي، والعلاقة مع الجسد كما ورد في مسرحيَّتَيْ «جنينة الصنايع» و«طقوس الإشارات والتحولات»، والأمومة، والتضحية، والعلاقات التقليدية السائدة كما ورد في نص «ميديا ميديا» ، بدت هذه الجوقة النسوية دفعة في حَدِّ ذاتها لكسر التابوهات التي تقيّد النساء وتقمعهنَّ، خاصَّةً في ما يتعلق بعلاقتهنَّ مع الجسد. وقد تَضاعف هذا الفكر التغييري، وحركة الانزياح، والتغيير نتيجة انتشار الأفكار النسوية، ونظرًا إلى بروز التجليات الحداثية التي نجد ملامح تأثيرها في ثيمات النصوص المسرحية ومضمونها، واحتوائها على قاموسين:

-**الأول: حسّي /جسدي، وقد شغل محورًا كبيرًا من مَحاوِر الدراسة**، لا سيما الأجساد التواقة إلى التفلت من قيود سائدة، كما عبَّرت عنه الحاج في شخصيّتَي «آمنة وألماسة»، والمخرجة سهام ناصر في شخصيَّةِ «ميديا»؛ فعلى سبيلِ المثالِ، كتبت الحاج نصها في مرحلة التسعينيات، وفيه ما يشير إلى أنَّ المجتمَع اللبناني بدأ يتقبل تعبير النساء عن حاجاتهنَّ إلى بناءِ علاقة متصالِحة مع أجسادهنّ، واصِفَةً حنان (آمنة) ب «المنحلة» على لسان أقرب الناس إليها وهي ابنتها. وضمن هذا السياق، تقتضي الإشارة إلى أنَّ هناك نساءً ما زلن يحافظن على المفاهيم الذكورية ومعاييرها، ويُعدن إنتاجها. وفي هذا الصدد تقول حنان: «وما لقيت إلا والقيامة قايمة ولك شو عملت؟ مش عيب عليهن، أنا، الست آمنة المحترمة المقدرة اللي كل عمري مقصد وحلالة مشاكل بيقولوا عني محلولة؟ بنتي ليلى الحنونة بتقول عني ممحونة!!»[٢٥]

٢٢. انوي، المرجع السابق، ص. ٩.

٢٣. إدوارد الخراط، ميديا وأنتيغون في المسرح اليوناني القديم، والمسرح المعاصر، مجلة المسرح، العدد ١١١، ١٩٩٨، ص ٤٠.

٢٤. جان شلوتر، الدراما الأمريكية الحديثة، قراءة نسوية، القاهرة: مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون، ١٩٨٩، ص. ١٦٥.

٢٥. مسرحية "جنينة الصنايع"، المصدر السابق.

-**الثاني: معرفي ذهني ينتج من مفاهيم نسوية،** لا استنادًا إلى كَمٍّ مِن الكلمات، ولكن إلى صور رمزية تشكّل التصورات في الوجدان، وتعبِّر عن فكرة تعزيز للفردانية. لذلكَ، صار خطاب النص النسوي ينزاح نحو طرح الذات / الأنا لأنّ التجربة الفردية أساسية في مشروع محتمَل التحقق، لا ينتظر حلوله وتحققه إلا في توافر الشروط الموضوعية.[٢٦] ومن تجليات هذا الانزياح، بروز الانتقال من الشأن العام إلى الخاص حين ارتأت نساء المسرح أنّ هذين القاموسين، المذكورَين أعلاه، سيؤديان إلى التحول والاكتشاف بالمعنى الأرسطوي للمفهوم، أي الانتقال من حالة إلى أخرى، على أن يكون مسببه حدث أو موقف أو وعي كالوعي بالأفكار النسوية، وفقًا لقانون الاحتمال والضرورة؛ فالاكتشاف هو التحول، أي انتقال النساء من حالة عدم المعرفة بكيانهنّ وبخصوصيتهنّ واقتصار اهتمامهنّ على الأيديولوجيا السياسية والوطنية، إلى معرفة يقينية لحقيقة كانت مجهولة قبلَ ذَلِكَ، ما دَفَعَهُنَّ إلى عدمِ الاكتفاءِ بالمعرفة عبر الدراما، إنما تبعًا لما تقوله هيلين كيسار: «فالدراما التي تدور حول المَشاهد التي تصور الاكتشاف، حيث يكون الهدف هو أن يقف الشخص ساكنًا ويكتشف نفسه، تُعَدُّ بالضرورة دراما تقليدية: فهي تبحث وتحتضن ما هو كائن، وتؤكد قدرات الوعي الفردي، أما الدراما التي تحتضن فكرة التحول فهي لا تؤكد وجود جوهر خفي للنفس يستحق الاهتمام، بل تؤكد إمكانية التغيير، واللعب بالأدوار؛ فعملنا يمثل ذاتنا، وما سنصير إليه».[٢٧]

٢٦. وطفاء حمادي، الخطاب المسرحي في العالَم العربيّ ١٩٩٠-٢٠٠٧، بيروت: المركز الثقافي العرب، ٢٠٠٦، ص. ١٢.

٢٧. هيلين كيسار، المسرح النسوي، مراجَعة نهاد صليحة، القاهرة: أكاديمية الفنون، وزارة الثقافة، مهرجان المسرح التجريبي، ص.٤.

الخراط، إدوارد. ميديا وأنتيغون في المسرح اليوناني القديم، والمسرح المعاصر، مجلة المسرح، العدد ١١١، ١٩٩٨.

القاق، أدهم مسعود. «سعد الله ونوس في «طقوس الإشارات والتحوّلات»»، يونيو ٢٠١٨،
https://middle-east-online.com/سعد-الله-ونوس-في-طقوس-الإشارات-والتحوّلات

الصدّة، هدى، أصوات بديلة: المرأة والعرق والوطن في العالَم الثالث، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢.

حمادي، وطفاء. الخطاب المسرحي في العالَم العربيّ ١٩٩٠-٢٠٠٧، بيروت: المركز الثقافي العرب، ٢٠٠٦.

سعد، صالح. الأنا الآخر، ازدواجية الفن التمثيلي، عالَم المعرفة، العدد ٢٧٤، ٢٠٠٢.

سيف، محمد، «مفهوم «الدراما ورج» والبحث «الدراما ورجي» والالتباس في المسرح العربي»، ٢٠١٤،
www.alquds.co.uk/ مفهوم-الدراماتورج-والبحث-الدراما

شلوتر، جون. الدراما الأمريكية الحديثة، قراءة نسوية، القاهرة: مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون، ١٩٨٩.

ضو، بيرناديت. «التيارات النسوية في لبنان: بعد الولاء للوطن، هل سينتفض الجسد خلال «الربيع العربي»؟»، ٢٠١٥،
https://civilsociety-centre.org/paper/التيارات-النسوية-في-لبنان-بعد-الولاء-للوطن،-هل-سينتفض-الجسد-خلال-الربيع-العربي؟

كمال، هالة، كتابة الذات وسياسة المقاوَمة، بيروت: قراءة في تاريخي بقلمي لنبوية موسى، مؤتمر الباحثات اللبنانيات، ٢٠٠١.

كيسار، هيلين. المسرح النسوي، مراجَعة نهاد صليحة، القاهرة: أكاديمية الفنون، وزارة الثقافة، مهرجان المسرح التجريبي.

ونوس، سعد الله، طقوس الإشارات والتحولات، دار الآداب، رؤية إخراجية لنضال الأشقر، ١٩٩٧.

Jones, Ann Rosalind. “Writing the Body: Toward an Understanding of L’Ecriture Feminine.” Wofford, November 12, 2009. https://webs.wofford.edu/hitchmoughsa/Writing.html.

Makarem, Ghassan. “The Story of HELEM.” Journal of Middle East Women’s Studies 7, no. 3 (2011): 98–112. https://doi.org/10.2979/jmiddeastwomstud.7.3.98.

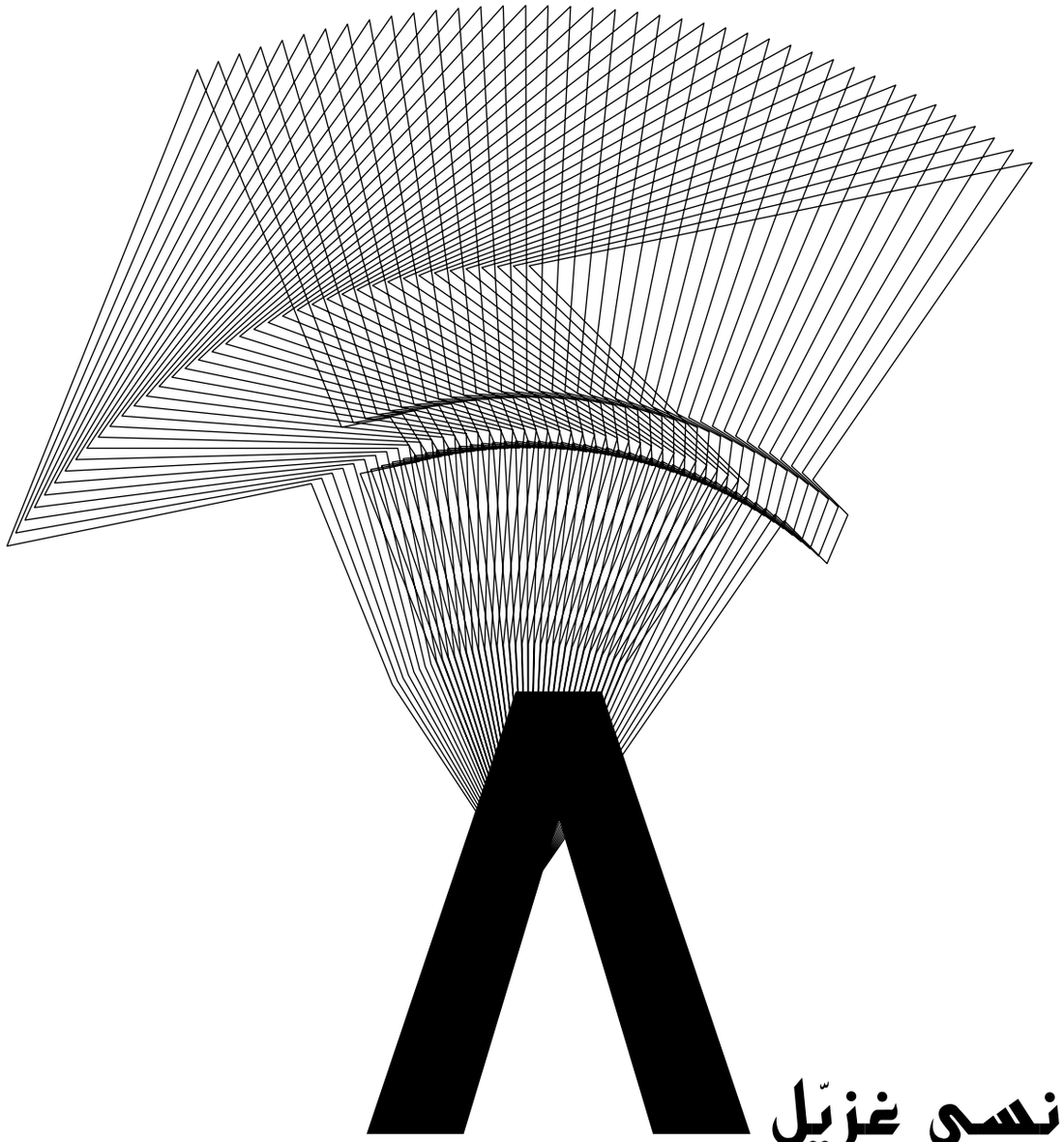

نانسي غزيّل

باحثة اجتماعية مهتمة بقضايا النسوية والبيئة. حاصلة على إجازة في العلوم الاجتماعية وجدارة في علم اجتماع التربية ودبلوم دراسات معمقة في العلوم الاجتماعية اختصاص: تنمية اجتماعية اقتصادية، من الجامعة اللبنانية.

واقع النساء الاقتصاديّ في مدينة صور، في تسعينيات القرن العشرين

المـــقدمــة

كانت فترة التسعينيات في لبنان مُشبَعة بالأحداث والمنعطَفات، انعكس بعضها على الاقتصاد اللبنانيّ في الفترة نفسها، وامتدَّ بعضها الآخَر إلى ما بعدها، ومن أبرزها انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية، كذلك ارتفاع سعر صرف الدولار مقابل الليرة اللبنانية، ومن ثمّ اندلاع «ثورة الدواليب»، وبعدها خطة النهوض الاقتصاديّ وإعادة الإعمار، تَبِعها الاقتراض لتمويلها. ومن أهمّ الأحداث أيضًا في تلك الفترة الاعتداءان الإسرائيليّان في العامين ١٩٩٣ و١٩٩٦، كذلك بداية تراكُم الدَّين العام وكلفته تَدريجًا جراء الفوائد المرتفعة عليه، بالإضافة إلى حصول اللبنانيات على بعض الحقوق الاقتصادية وغير الاقتصادية. ولا ننسى تصديق لبنان في تلك الفترة على الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، مع الإشارة إلى أنَّ المشرِّع اللبناني، «تحفَّظ عَنِ المادة ٩/الـفقرة ٢، المتعلقة بالمساواة في منح الجنسية، والمادة ١٦/الـفقرة ١ (ج، د، و، ز) المرتبطة بالمساواة في الحقوق والواجبات عند الزواج، وفي أثنائه، وعند فسخ عقده، والمادة ٢٩/الـفقرة ٢، العائدة إلى احتكام الدول الموقِّعة على الاتفاقية إلى محكمة العدل الدولية في سبيل تطبيقها».[١] كذلك، تأسست الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية. وأخيرًا، أُقِرَّ قانون التعليم الإلزامي الذي نص على إلزامية التعليم للجنسين في المرحلة الابتدائية.

وَعدا عن التأثير العام للواقع الاقتصادي في جميع اللبنانيين في مختلف المناطق خلال التسعينيات، تأثّرت النساء، بشكل خاص، بالتمييز القائم على النوع الاجتماعيّ.

من هنا، برزَتْ هذه الورقة البحثية التي سعت إلى التطرّق إلى الواقع الاقتصاديّ للنساء في مدينة صور، في التسعينيات، ولتحقيق ذلك، استخدمنا منهج دراسة الحالة والمنهج التاريخي، واعتمدنا على شهاداتٍ لأربع نساء صوريات، عاصرنَ هذا العقد في لبنان، وجاوزت أعمارهنَّ الخمسين سنة اليوم. ولم يغب عنّا أنَّ هذه العيِّنة لا تمثّل مجتمَع الدراسة، لصغر حجمها، ولكنها تعطي فكرة عن واقع النساء الصوريات من خلال قصصهنَّ في تلك الفترة، وذلك للإجابة عَنْ تساؤلات الدراسة المرتبِطة بإشكاليتها، وللوصول إلى استنتاجات تُظهِر ذلك الواقع في تلك المرحلة، وتُوضحه جيّدًا.

١. بتصرف: الجمهورية اللبنانية - مجلس النواب، المديرية العامة للدراسات والمعلومات - مصلحة الأبحاث والدراسات، واقع العنف ضد المرأة في لبنان، ٢٠١٦، ص. ٧،٨،٩.

الخطوات المنهجية

١- الأهداف:

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على الجانب الاقتصاديّ للنساء المقيمات في مدينة صور، في تسعينيات القرن العشرين، وذلك من خلال التطرّق إلى مصادر دخلهنّ، وأملاكهنّ الخاصة، ومعوّقات دخولهنّ سوق العمل، وأشكال العنف الاقتصاديّ الذي تعرضنَ له، وقدرتهنّ الشرائية بعد «ثورة الدواليب»، وأخيرًا التداعيات الاقتصادية التي تأثرنَ بها خلال الاعتداءين الإسرائيليَّين على لبنان، في التسعينيات.

٢- الإشكالية:

بعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية في أوائل التسعينيات، «دخل لبنان مرحلة سلام مع أزمتين اقتصادية واجتماعية حادَّتَين، وبدأ اهتمام المسؤولين يظهرُ في معالَجَة الأوضاع الأمنية والسياسية، ولكنّهم لم يبدوا اهتمامًا فعليًّا بالشأن الاقتصاديّ، إلَّا مع بداية العام ١٩٩٣، تحت اسم «خطة النهوض الاقتصاديّ وإعادة الإعمار».[٢] وقدِ اقتُرِضَ المالُ لتحقيقها على أرض الواقع، كما أنها ساهمت مع عوامل عدة في تحقيق بعض الانتعاش في الاقتصاد اللبنانيّ خلال التسعينيات، ولكنه لم يمتدَّ إلى مرحلة ما بعد التسعينيات.

أما في ما خصّ النساء اللبنانيات، فقد حصلن على بعض الحقوق في التسعينيات، تمثل الاقتصادي منها، «في الاعتراف بأهلية المرأة المتزوجة بمِمارَسة التجارة، مِنْ دون إجازة من زوجها، والاعتراف بحق الموظَّفة في السلك الدبلوماسي التي تتزوج أجنبيًّا بمتابَعة مهامها، كذلك تعديل المادة الأولى من القانون رقم ١٤٩ في تاريخ ١٩٩٩/١٠/٣٠ المتعلِّق بالمساواة بين الموظَّفة والموظَّف في الاستفادة من نظام المنافع والخدمات، في تعاونية موظَّفي الدولة».[٣]

مِنْ دون شك، إنّ الواقع الاقتصاديّ للنساء يتأثر بالمكان الجغرافي، ويرتبط بالأحداث، ويتحدد في الأدوار التي يرسمها المجتمَع ويتوقّعُها منهنَّ، في فترة زمنية محددة. من هنا، طرحنا إشكالية دراستنا: ما هو الواقع الاقتصاديّ للنساء في مدينة صور، في فترة تسعينيات القرن العشرين؟

٣- الصعوبات والمشاكل التي اعترضت الدراسة:

يمكن إيجاز الصعوبات والمشاكل التي اعترضتنا في دراستنا، بقلة المصادر والمراجع المرتبِطة بفترة التسعينيات في لبنان بشكل عام، والتي تتطرّقُ إلى قضايا النساء في تلك الفترة بشكل خاص، وتردُّد بعض السيدات في الإجابة عن بعض أسئلة المقابَلة، بالإضافة إلى فتح المكتبات العامة وإقفالها بسبب جائحة كورونا.

٢. اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا، التعليم العالي وسوق العمل في لبنان، الإسكوا، ٢٠٠٠، ص ٢٦.

٣. انظُرْ: لجنة حقوق الإنسان النيابية، الخطة الوطنية لحقوق الإنسان، لبنان، ٢٠٠٨، ص ١١.

- بطاقة تعريفية لصاحبات الشهادات

١- السيدة إ.ش.
هي سيدة لبنانية تبلغ من العمر ستين سنة، ولدت في مدينة صور، وترعرعت فيها. عائلتها ذات مستوى اقتصاديّ متوسِّط. لم تُنهِ المرحلة الابتدائية، وتزوجت في سنّ الثالثة عشرة. لديها ستة أبناء، كما أنها لم تعمل أو تبحث عن عمل.

٢- السيدة ف. ع.
سيدة لبنانية تبلغ من العمر ثلاثًا وستين سنة. ولدت في سيراليون، وعادت إلى لبنان في سنّ الخامسة عشرة. عائلتها ذات مستوى اقتصاديّ متوسط. أنهت المرحلة الثانوية، وتزوجت في سنّ العشرين، وأنجبت ثلاثة أبناء، قُتِل أحدهم في عمر السنة، في مجزرة جامع العباسية في العام ١٩٧٨. في البداية، عملت معلمة في إحدى مدارس منطقة صور، ثم استقالت وأعطت دروسًا خصوصية في منزلها.

٣- السيدة ع. ل.
سيدة لبنانية تبلغ من العمر سبعين سنة، ولدت في مدينة صور، وترعرعَتْ فيها. عائلتها ذات مستوى اقتصاديّ متوسط. لم تُنهِ المرحلة الابتدائية. تزوجت ثلاث مرات، وكان أول زواج لها في سنّ الخامسة عشرة. توفّي زوجها الأوّل وكان عمرها سبع عشرة سنة، وكان لديها طفلة حينها. أمَّا الثاني، فحصل الطلاق بينهما بسبب خلاف عائليّ، في حين أنّ زواجها من الرّجل الثالث تَمَّ بسبب معامَلة زوجة أبيها السيئة لها، حيث قالت: «كنت حس حالي غريبة ببيت بيّي». وتوفّي الزوج الثالث في سنة ٢٠١١. كان عدد جميع أبنائها ستة، ولم تعمل أو تبحث عن عمل.

٤- السيدة ر. ف.
هي سيدة لبنانية تبلغ من العمر خمسًا وخمسين سنة. ولدت في مدينة صور. عائلتها ذات مستوى اقتصاديّ متوسِّط. لم تُنهِ المرحلة الابتدائية، وتعلّمتِ الخياطة من خلال إحدى دورات مركز الشؤون الاجتماعية في مدينة صور. تزوجت في سنّ الثامنة عشرة، وأنجبت خمسة أبناء، ماتَ أحدهما بسبب «صيبة عين» على حد قولها. عملت حائِكةً في مؤسَّسات الإمام الصدر، في مدينة صور.

- مصادر دخل الصوريات في فترة التسعينيات

يتشكل دخل النساء بشكل عام من مجمل ما يحصلن عليه من أموال نقدية أو عينية، من خلال مصادر متعدِّدة. وفي لبنانَ، «تُكرِّس القوانين المذهبية توزيع الأدوار التقليدية في داخل الأسرة، وهي أساسًا موضوعة لصالح الرجل. تعمل النساء بدوام كامل في المنزل، لكن مِنْ دون أجر؛ فالمرأة هي المسؤولة عن العمل المنزلي ورعاية الأسرة، ما يحدُّ غالبًا من قدرتها على القيام بعمل مُدِرٍّ للدخل، أو يُعيقُها بشكلٍ كبيرٍ». [٤]

وقد ساهمت مجموعة من العوامل المتداخِلة بعد الحرب الأهلية اللبنانية في ارتفاع عدد النساء المشارِكات في النشاط الاقتصاديّ، فحصلنَ من خلال عملهنّ في خارج المنزل على مصادر دخل متنوِّعة، كالرواتب، والأجور، والمكافآت، والتعويضات، والضمان الاجتماعيّ. مع ذلك، «إنَّ إقبال المرأة على العمل في لبنان لا يزال يخضع لتقسيم عمل، يتركز في أنشطة محدَّدة في قطاعي الصحة والتعليم وغيرهما، وفي المهن الوسطى والوظائف الإدارية». [٥] ويتماثلُ هذا التقسيم مع الصور النمطية المرتبِطة بدَور النساء (الرعاية والاهتمام)، ويتميز بانخفاض معدَّلات الأجور العائدة من خلاله.

٤. غادة إبراهيم. "العنف القانوني ضد المرأة في لبنان - قوانين الأحوال الشخصية والعقوبات"، التجمع النسائي الديمقراطي اللبناني، أكتوبر ٢٠٠٨، https://www.rdflwomen.org/archives/121.

٥. اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا، العولمة وتقسيم العمل بين الجنسين، دراسة حالة صناعة الملبوسات، وقطاع التكنولوجيا، والمعلومات في لبنان والأردن، ٢٠٠٣، ص. ٩.

وفي التسعينيات، كانتْ جميعُ السّيّدات اللّواتي قابلتهنّ يعملنَ في داخل منازلهنَّ، ويرعينَ عائلاتهنَّ. وهذا العمل، ولو كان لساعات طويلة، فهو عمل مجاني، لم ينتج دخلًا ماديًّا لهنَّ. وقد كانت تمارسُهُ العاملات منهنّ، إلى جانب عملهنّ في خارج المنزل؛ «فالمرأة العربية التي تعمل في خارج المنزل، ملزَمة، باستثناء قلة ميسورة ومحظوظة، بمُمارَسَةِ مهام العبئين: العمل ذي المردود والعمل المنزلي معًا».[٦] وقد اقتصر دخل السَّيدتَينِ ع.ل. و إ.ش. اللتين لم يكن لديهما عمل منتج ماديًّا أو مصدر آخر للدخل، على مصروفهما من قبل زوج كل منهما، وهذا ما أنتَجَ تبعيتهما الاقتصادية، حيث كان قرار الإنفاق المادي يعُودُ إلى زوج كل منهما. وتدفَعُ هذه التبعية النساء أحيانًا إلى الرضوخ لأزواجهنَّ، خوفًا من العوز والحاجة. أما السيّدة ر.ف. فكانت تعمل في مجال الخياطة، والسيدة ف.ع. كانت تعمل في مجال التعليم، وقد حصلتا على مصدر دخل، من خلال عملهما، تمثَّلَ في راتبهما، وفي الضمان الاجتماعيّ. وساهم هذا الدخل في تحقيق استقلالهما الاقتصاديّ نوعًا ما، على حد قولهما.

- الملكية الخاصة للصوريات خلال فترة التسعينيات

تتشكل الملكية الخاصة للمرأة من الممتلَكات التي تعود إليها، وتكون حرة في التصرف بها، وتُقسَم وفقًا لطبيعتها إلى نوعين: ملكية منقولة، حيث يمكن نقلها من مكان إلى آخر من دون إتلافها، كالمجوهَرات، والسيارات، والأثاث، وإلى ملكية غير منقولة، أي لا يمكن نقلها أو تغيير مكانها، كالأراضي، والبيوت، والمصانع.

وقد تضمَّن إعلان عمل بيجين ومنهاجه، الصادر في العام ١٩٩٥ التزام الدول بـ «إجراء إصلاحات تشريعية وإدارية لمنح المرأة حقوقًا مساوِية لحقوق الرجل في الموارد الاقتصادية، بما في ذلك الحقّ في ملكية الأراضي وغيرها من أشكال الملكية، والتحكم فيها، والائتمان، والإرث، والموارد الطبيعية...». ومنذُ ذلك الوقت، لم يُطلِقْ لبنان أيّ مبادرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية المُتعدِّدَة، والتي لا تميّز فقط بين النساء والرجال، بل بين النساء أنفسهنَّ؛ فلكل طائفة قانونها الخاص بها، في ما يتعلق بالإرث وببعض القضايا المرتبِطة بحقوق النساء، وذلك بحجة خصوصية المجتمَع اللبناني، وتحديدًا التقسيم الطائفي فيه، والنّظر إلى «أنَّ لهذا التَّعدُّد التشريعي والقضائي في مجال الأحوال الشخصية، إطاره الدستوريّ، وجذوره المتصلة بنشأة الكيان اللبناني السياسي واستقراره. لذلك، يُعَدُّ هذا الموضوع من أكثر الموضوعات حساسية، وارتباطًا بالموضعَين السياسيّ والاجتماعيّ العامَّين في البلاد».[٧]

وعند سؤالهنَّ عمّا امتلكنه، قالت السيدة ع.ل: «كلّ ما كنت أملكه في تلك الفترة، كان عبارة عن مجوهَرات، ومبلغ من المال لغدر الزمن»، كذلك السيدة ف.ع. كانت تملكُ مبلغًا من المال، وبعضَ المجوهَرات، وسيارةً اشترتها من راتبها. والأمرُ نفسُهُ ينطبقُ على السّيّدةِ إ.ش الّتي تمثَّلت ملكيتها في مجوهراتٍ، وسيارةٍ، ومبلغٍ من المال. في حين أنَّ السيدة ر.ف. كان لديها مجوهَراتٌ، ومبلغٌ من المال، وماكينة خياطة.

لم نسعَ إلى ترتيب ممتلَكات السيدات من الأكثر إلى الأقل، أو إلى المُقارَنَة بَينهُنَّ على أساس ملكيتهنَّ، لأنَّ ذلك لن يفيد دراستنا بأي شيء. بل لاحظنا ممتلكاتهنَّ حسب طبيعتها، إذ تشكلت من مجوهَراتٍ، ومبالغَ ماليةٍ، وسيارتين، وماكينة خياطة. كانت هذه الممتلَكات كافّة منقولة، حيثُ لم تمتلك واحدة منهنَّ أيّ نوع من الممتلَكات غير المنقولة. وَكانَتِ العادات الغالبة في المدينة –ولا تزال- تستلزمُ إعطاء النساء في العائلة إرثهنَّ أموالًا منقولة (عادة ما تكون على شكل مبالغ نقدية)، وعند وجود ممتلَكات منقولة للعائلة، يشتري الرجال حصص النساء فيها مقابل التنازل عنها (قد يكون أحيانًا بمبالغ لا تساوي قيمتها الحقيقية)، إذْ تسعى العائلة عبرَ هذه الطريقة إلى الحفاظ على الملكية باسمها، كي لا تنتقل بالإرث إلى أولاد النساء، من رجال من خارجها. كذلك، كانت العادة تَستوجِبُ تسجيل الملكية غير المنقولة باسم الأب، أوِ الزوج، أوِ الأخ، وهذا ما حصل مع السيدة ر.ف، كونها منحتْ زوجها المال الذي ورثته عن والدها، فزاد عليه واشترى بيتًا أكبر، وسُجِّلَ البيت باسمه.

٦. قبانجي وآخرون، المرأة العاملة في لبنان، نتائج ميدانية وتحليلية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٧، ص. ١٩.

٧. التقرير لدوري الثالث، المقدَّم من الدول الأطراف لبنان، بموجب المادة ١٨، اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، ٢٠٠٦، ص. ١٢.

- تحديات دخول الصوريات إلى سوق العمل، في التسعينيات

لم يكن دخول النساء إلى سوق العمل أمرًا سَهلًا، حيث واجهتهنَّ العديد من التحديات الشخصية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، وحتى القانونية، منها على سبيل المثال: معارَضة بعض الأسر مشاركتَهنَّ في سوق العمل، ومُمارستهنَّ دَور الرعاية، وغياب مفهوم الشراكة في الأعمال المنزلية بينهنّ وبين الرجال، وتدنّي مستوى التحصيل العلمي، والتمييز بينهنّ وبين الرجال في المناصب والأجر في العملِ نَفسِهِ، بالإضافةِ إلى بعض القوانين المجحِفة في حقهنّ.

أما في ما يعود إلى التحديات التي واجهتها النساء وتحدثن عنها في المقابَلة، فقد أكّدتْ لنا السيدة إ.ش. عدم بحثها عن عمل، لأنها تزوجت في الثالثة عشرة من عمرها، كما أنها لم تُنهِ المرحلة الابتدائية. وكان الاهتمام بالبيت والعائلة يأخذ كلّ وقتها، خاصة أنها أم لستة أولاد. كذلك، لم تسعَ السيدة ع.ل إلى الحُصُولِ على عمل، بسبب زواجها المبكّر، وضعف تحصيلها العلمي، ومسؤولية الاهتمام بالبيت والعائلة، قائلَةً «إنّ بيت المرأة مملكتها، وواجبها الأساسي هو الاهتمام بالبيت والعائلة، وواجب الرجل الأساسي العمل وتأمين مصاريف البيت». أما السيدة ف. ع. والتي كانت معلمة في إحدى مدارس منطقة صور، فرأتْ أنَّ أبرزَ الصعوبات التي أعاقَتْ عملها، ضعف تحصيلها العلميّ، ورفضِ عملها مِنْ قبلِ زَوجِها، حيث إنها عانت كثيرًا بسبب تردُّده، ومُحاوَلة إقناعه، بالإضافة إلى تدنّي أجرها مقارَنةً بالأساتذة الرجال في المدرسة، ما جعلها تشعُرُ بدونية، ودفعها إلى ترك العمل في المدرسة، والتوجُّه إلى إعطاء دروس خصوصية في بيتها. أمّا السيدة ر.ف. التي عملت في ورشة للخياطة في مؤسَّسات الصدر في صور، فأشارت إلى أنَّ أبرز المعوقات التي وقفت حاجزًا أمام عملها، رفض زوجها في البداية، وضعف تحصيلها العلمي، حيث كانتْ تعاني مشكلةً في قراءة بعض القياسات والمَلحوظات الصادرة عن رئيسة قسم الخياطة، بالإضافة إلى مسؤولية الأسرة والبيت التي تجد أنّها لا تنتهي.

إنَّ الاهتمام بالبيت والأسرة كان أهم التحديات التي حالت دونَ دخول السيدات الأربع إلى سوق العمل، ويعودُ ذلكَ إلى غيابِ مُعين لهنَّ في الأسرة؛ فجميعهنّ لم يعتمدن على مساعَدات في المنزل على الرّغم من تزايد الاعتماد على العاملات الأجنبيات الآتيات من أثيوبيا وسريلانكا، في تدبير أمور البيوت، في فترة التسعينيات، إلّا أنَّ التكلفة منعتْ تحقيقَ ذلكَ، وفق ما أدلينَ به ، بالإضافة إلى غياب المشارَكة بين النساء والرجال في الأعمال المنزلية والرعائية، حيث اقتصر أداء هذا الدور على النساء فقط. أما ضعف التحصيل العلمي، فقد كان التحدي الثاني لدى السيدات، إذْ تبيّن لنا من خلال المقابَلات وجود ثلاث سيدات من أصل أربع لم يُنهينَ المرحلة الابتدائية، وذلك يرجعُ إلى الفقر، والموروثات الاجتماعية التي كانت وما زالت ترى أن لا حاجة لتعليم الفتاة، وأنَّ دورها بعد الزواج محصور في تدبير بيتها، وإنجاب الأطفال، وتربيتهم؛ فكما كانت تقول جدتي – رحمها اللهُ - التي عاصرت تلك الفترة: «لشو شهادة البنت، آخرتها للمطبخ». بالإضافة إلى أنَّ إلزامية التعليم الابتدائي ومجانيته في لبنان قد أقرَّتا في العام ١٩٩٨، وبالتالي لم تستفد منه السيدات الأربع، في حين شكّل الزواج المبكّر التحدي الثالث لهنّ، بسبب غياب قوانين رادعة في لبنان، تمنعه، وتحمي القاصرات منه. يضاف إلى ذلك رفض الزوج عملَ الزوجة، وتدنّي أجر المرأة مقابل أجر الرجل في العمل نفسِهِ؛ فمعوِّق رفض الزوج عمل زوجته، يرتبط بتوقّع حصر دور النساء في داخل المنزل، ويمنحُ الذّكور السلطة الأبوية عليهنَّ، ويحدِّد خياراتهنَّ. أمَّا ضعف أجر المرأة مقابل أجر الرجل في العمل نفسِهِ، فيعود إلى عدم وجود قوانين تحمي النساء من ذلك التمييز، بالإضافة إلى قبول بعضهنَّ ذلك التمييز، لحاجتهنَّ إلى العملِ. وأخيرًا، تُشكِّلُ الصورة النمطية لدور النساء عائقًا أمام دخولهنّ سوق العمل، وأحيانًا تصبح ثابتة في أذهانهنّ، ويستسلمن لها، ويرفضن الخروج منها، مثلما أشارتْ السيدة ع.ل. ففي رأيها، إنَّ واجب المرأة الأساسي الاهتمام بالبيت والعائلة، وواجب الرجل الأساسي العمل وتأمين مصاريف البيت.

- أشكال العنف الاقتصادي الذي تعرَّضَتْ له الصوريات في فترة التسعينيات

أكّدت التوصية رقم ١٩ الصادرة عن لجنة سيداو في العام ١٩٩٢ «أنَّ العنف ضد النساء هو النتيجة التلقائية للتمييز التاريخي ضدهنَّ».[٨] ويتمثل العنف الاقتصادي ضد النساء «في الحرمان من المال الضروري للمعيشة، خصوصًا ضد المرأة غير العاملة، أو الاستيلاء على معاش الزوجة أو الابنة، أو على المهر، أو النفقة».[٩] ويتمثل أيضًا في حرمان المرأة من الإرث، أو الاستيلاء عليه بعد حصولها عليه، وحرمانها من التعليم والتدريب، كذلك التمييز ضدّها، من ناحيةِ الأجر والترقية في العمل المتساوي، وفي بعض القوانين.

٨. انظُرْ:غادة إبراهيم، مرجع سابق.

٩. ليليان دعيبس، "مجلة معهد العلوم الاجتماعية"، المرأة في مواجَهة العنف، (عدد خاص ٢،٢٠١٩)، ص. ١١.

ويتّخِذُ العنف الاقتصاديّ الممارَس في حقّ النساء في لبنان أشكالًا متعددة، وهو متفاوت بينهنّ؛ ففي حين حَصَلَتِ النساء اللبنانيات على حقّهِنَّ في ممارَسة نشاطهنّ الاقتصاديّ مِنْ دون الرجوع إلى أزواجهنَّ بعد العام ١٩٩٤، يبقى التمييز المُمنهَج، وإقصاء النساء (اللبنانيات وغير اللبنانيات) من مجالات عمل ومهن كثيرة، مكرَّسًا في الممارَسات والقوانين المجحِفة؛ فعلى سبيل المثال، يستثني قانون العمل «من أحكامه فئات واسعة من النساء العاملات في أدنى المهن: الخادمات في بيوت الأفراد، والعاملات في الزراعة وفي المؤسَّسات التي لا يعمل فيها سوى أعضاء العائلة (المادة ٧)، بِالإضافة إلى استثنائه العاملات لحسابهنَّ».[١٠]

ومن أشكال العنف الاقتصاديّ الذي تعرَّضَتْ له بعض النساء في مدينة صور، أخبرتنا السيدة إ.ش. عن محدودية إنفاق زوجها عليها، رغم أنّ حاله كان ميسورًا، كما قالت: «كان يعطيني من الجمل أذنه». شبّهت عطاء زوجها لها بأذن الجمل التي لا تساوي شيئًا بالنسبة إلى حجمه، وهذا ما جعلها بحاجة مادية مستمرة إلى زوجها، وكرّس تبعيتها الاقتصادية له. أما السيدة ر.ف. فكان زوجها يأخذ راتبها ويعطيها مصروفها، كذلك أخذ إرثها منها، وعند سؤالها لماذا قبلت بذلك، أجابَتْ: «لأنه كان يفتعل المشاكل عندما لا أعطيه ما يريد، ونحن ننفق على أولادنا في النهاية». إنَّ تجنّب المشاكل (أو العنف الزوجي في أحيان أخرى)، وإقناع الذات بالمشارَكة المادية من أجل الأبناء يدفعان النساء إلى التنازل عن حقوقهنَّ المادية، فيبقين من دون ملكية خاصة. وعند حدوث الطلاق، لا حقَّ للزوجة في شيء إلا ما حدّد لها كنفقة، وكمهر مؤجَّل، وهذا إذا حصلت عليه! أما السيدة ف.ع. فقد عانت هي وزميلاتها التمييز في الأجر في العمل نفسِهِ لصالح الرجال، وذلك لعدم وجود قوانين تساوي في الأجرِ بين النساء والرجال في العمل نفسِهِ، في حين لم تشعر السّيّدة ر.ف بذلك التمييز، لعدم وجود رجال في قسم عملها (قسم الخياطة في مؤسَّسات الصدر).

- القدرة الشرائية للصوريات بعد ثورة الدواليب

نتيجة لتردّي الوضع الاقتصادي وارتفاع سعر صرف الليرة اللبنانية مقابل الدولار (ثلاثة آلاف ليرة للدولار الواحد)، تظاهَرَ اللبنانيون في أيار في العام ١٩٩٢، في مختلف المناطق ضد الحكومة، وقدْ سُميت تلك التحركات بـ «ثورة الدواليب»، وقد نتجتْ عنها استقالة رئيس الوزراء عمر كرامي، ومن ثمّ اختيار رفيق الحريري رئيسًا للوزراء. تغيّرَتْ بعد ذلك بعض السياسات الاقتصادية والمالية في لبنان، «وفي غضون عامين ارتفع معدل النمو ليبلغ ٨٪، فتحسنت العملة، وتراجعت الأسعار، وانخفضت الضرائب»،[١١] كذلك استقر «سعر صرف الليرة تدريجًا، ليصل في كانون الأول في العام ١٩٩٧ إلى ١٥٠٧,٥ ليرة مقابل الدولار»،[١٢] إلا أنَّ ذلك التحسّن لم يدم طويلًا، إذ طالت تبعاته فترة التسعينيات وما بعدها «؛ فمنذ العام ١٩٩٦ دخل الاقتصاد اللبناني في دورة انكماش، اشتدت في نهاية العام ١٩٩٨. [١٣] وفي أواخر العام ٢٠١٩، بدأت الليرة اللبنانية تفقد قيمتها مقابل الدولار حيث كاد الدولار الواحد يلامس ١٠,٠٠٠ ل.ل في السوق السوداء في العام ٢٠٢٠.

وفي مدينة صور شاركت النساء إلى جانب الرجال في «ثورة الدواليب»، التي انطلقت من ساحة البوابة، وجابت مختلف طرقات المدينة، ورُدِّدَ فيها: «بدنا ناكل جوعانين، بدنا خبز بدنا طحين». وقد شاركت فيها السيدة ف.ع. قائِلَةً: « كنت في السوق ورأيت أصحاب المحلات التجارية عم يسكروا ويتجمعوا مع المتظاهرين، وكانت المفاجأة لي وجود جارتي بين المتظاهرين، فتشجعت وانضممت إليهم، فحالي ليس أحسن من حالهم».

أما عن واقع القدرة الشرائية للنساء بعد ثورة الدواليب، فقد أشرنَ جميعًا إلى تحسُّن قدرتهنَّ الشرائية في تلك الفترة، سواء من خلال الدخل الشخصيّ الذي حصلت عليه اثنتان منهنّ من خلال العمل، أَمْ من خلال المصروف الذي تحصل عليه الأخريات من أزواجهنَّ. إنَّ تحسّن سعر صرف العملة انعكس إيجابًا على القدرة الشرائية للناس بعد ثورة الدواليب، ولكنَّ اعتماد السياسات النيوليبرالية على حساب الأجور، والأملاك العامة، والصناعة، انعكس سلبًا بعد فترة من الزمن في لبنان.

١٠. جاك قبانجي وآخرون، مرجع سابق، ص ٣٠.

١١. محمود إبراهيم «لبنان ينتفض: ثورة الشعب ضد دولة الطوائف»، إضاءات، أكتوبر ٢٠١٩.
https://www.ida2at.com/lebanon-revolution-people-against-state-sects.

١٢. توفيق كسبار. «الأزمة المالية في لبنان.»، المرصد اللبناني لحقوق العمال والموظفين، أيار ٢٠١٨.
https://lebaneselw.com/index.php/2018-05-29-23-59-33/item/1441-1.

١٣. انظُرْ: جورج قرم، الفرصة الضائعة في الإصلاح المالي في لبنان، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ٢٠٠١، ص. ٣٦٦.

- التداعيات الاقتصادية للعدوان الإسرائيلي على الصوريات في فترة التسعينيات

خلال عقد التسعينيات حدث عدوانان إسرائيليان على لبنان.

في العام ١٩٩٣، جَرَتْ عملية «تصفية الحساب» أو كما يسميها اللبنانيُّون «حرب الأيام السبعة»: «بدأت بشن غارات جوية على نحو ٢٥ هدفًا وموقعًا في جنوب وساحل الشوف وساحله، وقد طاول القصف نحو ٤٠ قرية وبلدة في الجنوب والبقاع».[١٤] لم يطل القصف مدينة صور، ولكن فُرِضَ عليها حصارًا بحريٌّ، لذلك توقّف الصيد في بحرها خلال العدوان، إلّا أنَّ سكانها لم ينزحوا بشكل عام، بل إنَّ بعضهم استقبل نازحين من القرى المجاوِرة. وكان لذلك بعض التداعيات الاقتصادية على عدد من الأسر الصورية؛ فالسّيّدتانِ ع. ل. و ر. ف. أكّدتا أنَّ مصروفهما قد ازداد عقب استقبال الأقارب في منزلهما خلال العدوان، هذا بالإضافة إلى التأثير النفسي الذي تركه ذلك العدوان في النساء وعائلاتهنَّ.

وفي العام ١٩٩٦ ، حدثت عملية «عناقيد الغضب» والتي «استشهد خلالها ١٩٠ شخصًا، مِن بينهم ١٠٥ شهداء من الأطفال، والنساء، والعجزة في مجزرة قانا»،[١٥] وأصيبَ ٣٥٦ شخصًا بجروحٍ مختلِفةٍ، كما نتجتْ عنها آثار نفسية عديدة على اللبنانيين والمقيمين، بسبب هول بشاعتها، وكذلك أضرار مادية جسيمة في مختلفِ المدن والبلدات اللبنانية. أمَّا في مدينة صور، فقد تعرّض موقع للجيش اللبناني للقصف، كذلك فرضت الزوارق البحرية الإسرائيلية حصارًا بحريًّا عليها. «كانت ظروف السكن صعبة، والوضع الاقتصادي متردِّيًا، والظروف المعيشية سيئة بسبب توقف العمل، ما دفع كثيرينَ من الشباب وأحيانًا أسرًا بكاملها إلى الهجرةِ، بالإضافة إلى استحالة الصمود والبقاء في المناطق المعرَّضة للقصف اليومي، والتي أدت إلى حالات التهجير القسري والإقامة في أماكن غير مؤهَّلة للسكن، وإنما آمنة، مثل الإقامة في المدارس». [١٦] وهكذا كان حال بعض العائلات التي نزحت من مدينة صور في اتجاه صيدا وبيروت، ومنها عائلة السيدة ع.ل. حيث لجأت إلى إحدى المدارس في مدينة صيدا، وعاشت ظروفًا صعبة في غرفة مع عائلتين، كان يفصل بينهما ستار من قماش للحصول على بعض الخصوصية. وعن احتياجاتهم المعيشية قالت السيدة: «كان عدد من الجمعيات يؤمنها لنا بصورة يومية». أما عن التداعيات الاقتصادية التي تأثرت بها بعض النساء في مدينة صور خلال العدوان في العام ١٩٩٦، فقد تمثّلت في ارتفاع أسعار السلع الغذائية، حيث قالت السيدة إ.ش: «كنت أشتري المعلَّبات بضعفَي سعرها، علبة السردين لما بعين حدا صار سعرها خمسة آلاف»، وقالت السيدة ع.ل: «كنا أحيانًا نأكل خبزًا وزيت زيتون بسبب الغلاء». كما ازداد مصروف السّيّدتينِ ف.ع. و ر.ف. بسبب استقبالهما عددًا من أقاربهما في بيتهما، وتوقف عمل أزواج السيدات الأربع في فترة الاعتداء، كما توقف عمل السّيّدتَينِ ف. ع. و ر.ف. اللتين كانتا تَعملانِ في تلك الفترة.

خَلَّفَ عدوان العام ١٩٩٦ تداعيات اقتصادية فاقت تداعيات العدوان في العام ١٩٩٣، حتى أنّ بعضها انعكس سلبًا على مرحلة ما بعد العدوان؛ فمدينة صور، على سبيل المثال، تعتمد على السياحة، وقد تسبّبَ العدوان عليها في شلل تام في القطاع السياحي في صيف ١٩٩٦، ما أثّرَ سلبًا في القطاع التجاري في المدينة. كذلك، تأثرت النساء العاملات، فتوقف عملهنَّ في فترة الاعتداء بشكل عام، أما بعد العدوان فتفاوت تأثرهنَّ من الناحية الاقتصادية بحسب الأضرار التي لحقت بالقطاع الّذي يعمَلنَ فيه.

وفي العدوانين المذكورَين، كان لاستقبال الأقارب من قبل أهالي صور أثر اقتصاديّ، تمثّل حسب النساء في ارتفاع المصاريف في بيوتهنّ. يُشيرُ هذا الأثر المادي إلى كيفية تأثر هذه العائلات والنساء بشكل خاص، مِنْ ناحية إدارة المصاريف والشؤون المنزلية، عقبَ نزوح الأقارب، وبالتالي زيادة العبء على النساء مِنْ ناحية العمل المنزلي والرعاية، أي العمل المجاني غير المرئي وغير المدفوع. كذلك، كان لارتفاع أسعار السلع في عدوان العام ١٩٩٦ تأثيره في انخفاض القدرة الشرائية لدى النساء وعائلاتهنَّ، وقد كانَ ذلك الأثر الماديّ مزدوجًا على النساء وعائلاتهنَّ، عند وجود مُعيلٍ ومصدر رزق واحدَينِ ويوميَّينِ في العائِلَة. وقد كان الصيد، وما زالَ، في مدينة صور مورد رزق مهم لعدد كبير من العائلات الصوريةِ، ولكنّهُ توقَّفَ خلال العدوانَين الاسرائيلِيَّين على لبنان. ومن ثمَّ، فإنَّ توقُّف أعمال العاملات منهنَّ وتوقُّف أعمال أزواجهنّ الَّتي امتدَّتْ إلى فترة ما بعد العدوان، دفعا بعضَ النّساءِ، كما أوضحن، إلى الاعتماد على مدخراتهنَّ.

١٤. مؤتَمر الجنوب الأول، الاعتداءات والحروب الإسرائيلية على لبنان وآثارها في بنية المجتمَع الجنوبيّ، (صيدا، ١٥- ١٦- ١٧، كانون الأول، ٢٠١١)، ص. ٦٩

١٥. المرجع السابق نفسه، ص. ٤٥١.

١٦. المرجع السابق نفسه، ص. ١٧٧.

الخـــاتـــمة

على الرّغم من أهمية الأحداث التي حصلت في فترة تسعينيات القرن العشرين في لبنان، غيرَ أنَّ المعرفة عنها لا تزال ناقصة وفي حاجة إلى البحثِ والدراسة في قسمٍ كبيرٍ مِنها، لذلكَ، تحاوِلُ هذه الدراسة استعادة الواقع الاقتصاديّ للنساء فيها، من خلال تجربتهنّ الخاصة، ما قد يساهم في فهم واقعهنَّ الحاليّ واستيعابه، ويساعد في مقارَنة الواقع في مراحل مختلفة، وملاحَظة تطور السياق الاقتصاديّ، وكيفيّة اختلاف تأثيره في حياة النساء.

فواقع النساء الاقتصادي في مدينة صور، كان يغلب عليه تحدي السلطة الذكورية بأشكالها كافّة، سواء في العائلة التي ولدن فيها أم لاحقًا عندما تزوجن، أمْ في مكان العمل، هذا بالإضافة إلى تأثره بالأحداث في تلك الفترة، ما ساهم في حصرهنّ في الأدوار الاجتماعية النمطية، والحدّ من قدرتهنّ على تغيير واقعهنّ الاقتصادي، وجعلهنّ الحلقة الأضعف في مكانهنّ الجغرافيّ.

أخيرًا، إنَّ واقع النساء الاقتصاديّ لن يتغير من دون العمل على المساواة بين النوع الاجتماعيّ، وتمكينهنّ، تمكينًا فعليًّا، وليس صوريًّا أو مجزوءًا، وليس فقط من خلال إيجاد بعض فرص العمل لهنّ، بل بوساطة المساواة في فرص التعليم، وكذلك المساواة في الميراث، وفي قوانين التجارة، وقوانين العمل، والضمان الاجتماعيّ، ومن الضروري أيضًا تقدير الجهد والوقت اللَّذَينِ تتطلبهما الأعمال المنزلية والرعائية، والتوقف عن عَدِّها أدوارًا تلقائية غير مدفوعة للنساء. ولكن، على الرّغم من مرور عقدين من الزمن، ظلّت السيدات الأربع اللواتي تَمَّ التّطرُّق إلى واقعهنّ الاقتصاديّ على حالهنّ نفسِهِ.

المراجع:

إبراهيم، غادة. "العنف القانوني ضد المرأة في لبنان - قوانين الأحوال الشخصية والعقوبات"، التجمع النسائي الديمقراطي اللبناني، أكتوبر ٢٠٠٨.
https://www.rdflwomen.org/archives/121

الجمهورية اللبنانية - مجلس النواب، المديرية العامة للدراسات والمعلومات - مصلحة الأبحاث والدراسات، واقع العنف ضد المرأة في لبنان، ٢٠١٦.

اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا، التعليم العالي وسوق العمل في لبنان، الإسكوا، ٢٠٠٠.

دعيبس، ليليان، "مجلة معهد العلوم الاجتماعية"، المرأة في مواجَهة العنف، عدد خاص٢، ٢٠١٩.

عبد الفتاح، كاميليا، سيكولوجيا المرأة العاملة، لبنان: دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٤.
قبانجي وآخرون. المرأة العاملة في لبنان، نتائج ميدانية وتحليلية، لبنان: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، ١٩٩٧.

قرم، جورج. الفرصة الضائعة في الإصلاح الماليّ في لبنان، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ٢٠٠١.

كسبار، توفيق."الأزمة المالية في لبنان."، المرصد اللبناني لحقوق العمال والموظفين، أيار ٢٠١٨.
https://lebaneselw.com/index.php/2018-05-29-23-59-33/item/1441-1
لجنة حقوق الإنسان النيابية، الخطة الوطنية لحقوق الإنسان، لبنان، ٢٠٠٨.

إبراهيم، محمود، "لبنان ينتفض: ثورة الشعب ضد دولة الطوائف"، إضاءات، أكتوبر ٢٠١٩.
https://www.ida2at.com/lebanon-revolution-people-against-state-sects

مؤتمَر الجنوب الأوَّل، الاعتداءات والحروب الإسرائيلية على لبنان وآثارها في بنية المجتمَع الجنوبيّ، صيدا، ١٥- ١٦- ١٧، كانون الأول، ٢٠١١.

وزارة الشؤون الاجتماعية واليونيسف، الوضع الاجتماعيّ والاقتصاديّ في لبنان، واقع وآفاق، بيروت، ٢٠٠٤.

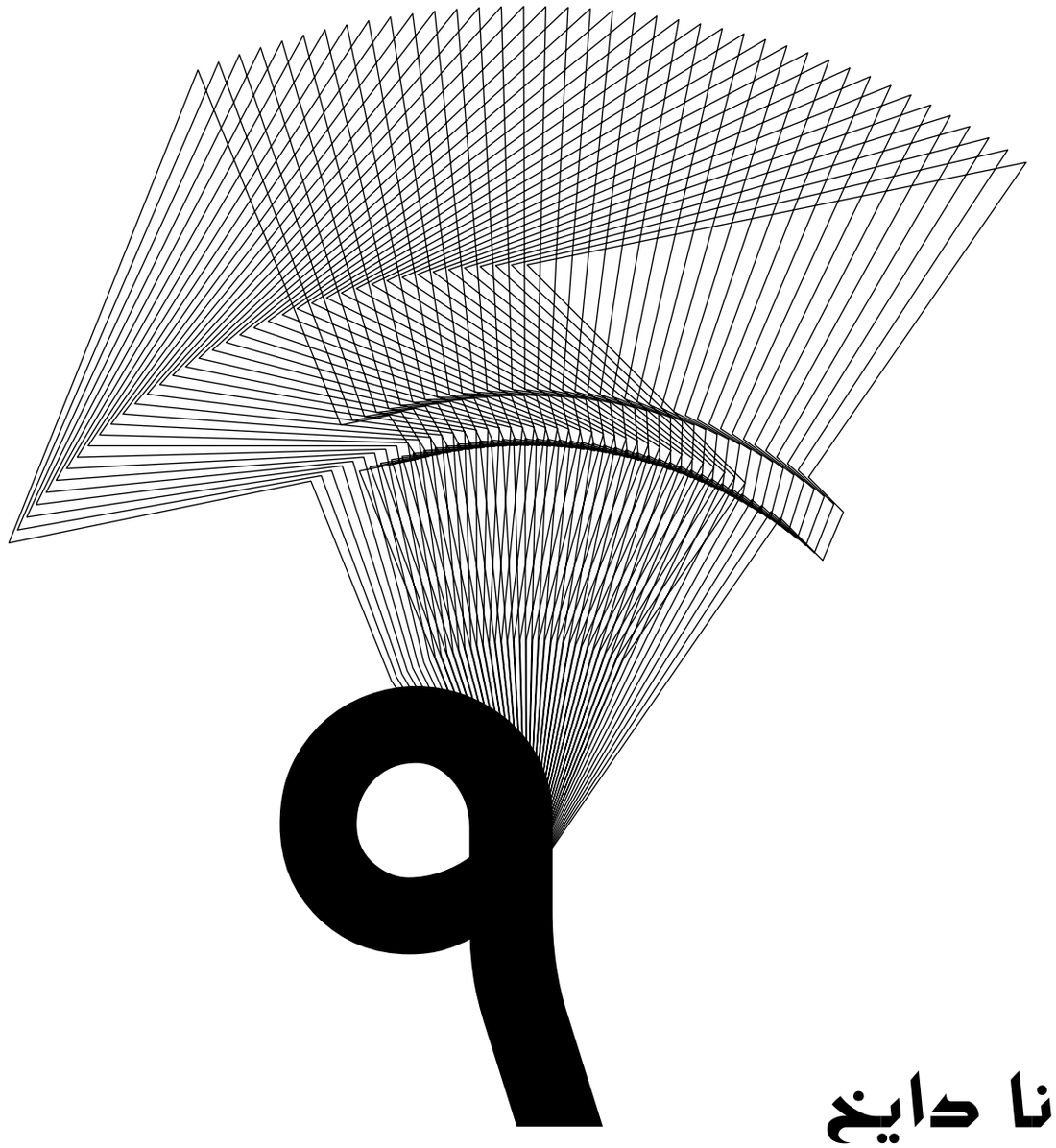

لونا دايخ

باحثة في مختبر المدن – بيروت (Beirut Urban Lab). مهتمة حاليًا بعملية التعافي ما بعد انفجار المرفأ في بيروت، ورسم خرائط لاستجابات كوفيد١٩ في لبنان. حاصلة على إجازة في العلاقات الدولية والسياسية من جامعة شيفيلد (Sheffield).

مواقع المقاوَمة: نشاط النساء في ظلّ الإصلاح النيوليبرالي في لبنان خلال التسعينيات

الإطار العام

سوف نناقش في هذه الورقة التحوّلات النيوليبرالية التي حدثت في لبنان بعد الحرب الأهلية، وفق ما سردتها ثلاث نساء، وسنُلقي الضوء على تجاربهنَّ كناشطات خلال تلك الحقبة. أنهى لبنان رسميًّا خمسةَ عشرَ عامًا من الحرب الأهلية في العام ١٩٩٠، ودخل حقبة جديدة من إعادة الإعمار، ارتبطت على نطاق واسع بعملية التحرير النيوليبرالية التي أدخلها رئيس الوزراء رفيق الحريري المُتأثِّر بالنماذج العالمية للتوسّع العمراني النيوليبرالي، وإدارة العملات، والخصخصة (بومان، ٢٠١٧). في الواقع، لطالما اتسم لبنان باقتصاد السوق الحرّ، إلّا أنَّ صعود الحريري ووصوله إلى السلطة، بالإضافة إلى سمات سنوات حكمه الأولى في العام ١٩٩٢، أشارت إلى تكثيف جذري في السياسات النيوليبرالية، واندماجها في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية. في سياق أوسع، تتحدّث نيومي كلاين (٢٠٠٧) في كتابها «عقيدة الصدمة» عن مدى أهمّية الانهيارات الاجتماعية لشروع السوق الحرّة، وتكشف عن أوجه التشابه المذهلة بين السياسات الاقتصادية النيوليبرالية المُطبّقة في تشيلي والعراق وروسيا وغيرها. لقد شهد لبنان، إسوة بالعديد من البلدان النامية الأخرى، موجة نيوليبرالية واسعة، بإملاء من المؤسَّسات الدولية التي لا تزال تؤثّر بسياساتها في حياتنا اليوم.

دخل رفيق الحريري المجال السياسي خلال الثمانينيات حين كانت مفاوَضات الهدنة جارية لوضع حدّ لحرب أهلية مروِّعة. في ذلك الوقت، أقام علاقات وثيقة مع الجهات الفاعلة الإقليمية والدولية، لا سيّما المملكة العربية السعودية وفرنسا، اللتين دعمتاه وساهمتا في تعيينه رئيسًا للحكومة بعد الحرب. إلى ذلك، يوضح بومان (٢٠١٧) أنَّ القوّة الكبيرة التي اكتسبها الرئيس الحريري بعد الحرب، تشير إلى كثيرٍ من التغييرات التي حصلت في لبنان آنذاكَ. وَبالإضافةِ إلى استخدام ثروته للتأثير السياسي، روَّج الحريري وأنصاره باستمرار لاعتماد الإصلاحات النيوليبرالية، بِعَدِّها الضمانة لإعادة إدراج لبنان في مسار التنمية العالمية الذي تخلّفت عنه البلاد خلال حربها الطويلة. نتيجة لذلك، شكّل اختياره كرئيس للحكومة تمثيلًا لأمل الناس في حدوث انتعاشٍ اجتماعي واقتصادي، ما يدلّ على أنَّ الأيديولوجية أدَّتْ دورًا مهمًّا في الترحيب بخطط الحريري، والدفع بمشروع إعادة الإعمار قدمًا.

تماشيًا مع هذه الحجّة، يصف تيموثي ميتشيل (١٩٩٩) النيوليبرالية بأنها انتصار «الخيال السياسي» (ص. ٤٥٥)، لأنَّ نجاحَها يعتمد على استعداد الناس لقبول وعودها بمستقبَل اقتصاديّ أفضل. في ذلك الوقت، استغلَّ الحريري رغبة الناس في قبول الإصلاح مقابل وعدهم بالازدهار والأمن، وهما شُعُورانِ افتقدوهما خلال الصراع الطائفي الطويل، ثمَّ أعلن عن مشروعه النيوليبرالي، مُفترضًا أنه سوف يؤدّي في النهاية إلى استقرار طَويل الأمد، وازدهار اقتصاديّ. وعلى الرغم من أنَّ الحريري لم يكن زعيمًا تقليديًّا لأيَّ ميليشيا، إلّا أنه شارك في إعادة إنتاج النظام الطائفي من خلال تقديم الخدمات، ومناشَدة المجتمع السني لتأييده، من أجل الفوز في الانتخابات، خصوصًا في نهاية التسعينيات (Baumann، ٢٠١٧). بالإضافة إلى ذلك، اتسمت عملية التخطيط بالظروف «الاستثنائية» التي أفرزتها الحرب الأهلية، وسمحت لمجموعة صغيرة من النخب بالسيطرة على المؤسَّسات المُكلّفة بعملية إعادة الإعمار. وَبالاستناد إلى نماذج مُستوردة من مدن غربية وخليجية، بدا الحريري، من خلال «رؤيته» لإعادة إعمار بيروت، كأنّه عامل رئيس للتحديث (المرجع نفسه). لكن في الوقت نفسه، ساهمت المخاوف والانتقادات المتزايدة التي أطلقها المُخطِّطون المدينيّون، والنقابات، والحركات اليسارية في إطلاق تحذيرات من مشروع الحريري.

في هذه النقطة، أتأثّر بنظرية شاندرا تالباد موهانتي (٢٠١٣) عن النيوليبرالية، وكيفية انعكاسها بقوّة على النموذج النيوليبرالي ما بعد الحرب في لبنان؛ ففي مقالها «المعابر النسوية العابرة للحدود»، تشرح موهانتي أنَّ المشروع النيوليبرالي للدولة يسهّل التنقّل والكوسموبوليتية (أي عدم الانتماء إلى بلد مُعَيَّن، وقوميات مُحدّدة) لبعض الأفراد المتميّزين في بيئتهم، على حساب المجتمَعات الفقيرة. بالمثل، لم تعلن حقبة الإصلاح في لبنان نهاية الحرب، بل كانت مجرّد امتداد للصراع في شكل عنف اجتماعيّ واقتصاديّ

وسياسيّ ضدّ المواطنين، لا سيّما الفئات الضعيفة منهم. أيضًا، تساعدنا موهانتي (٢٠٠٣) في التفكير بالعمل النسوي على نطاق أوسع من خلال الثقافات، وضرورة التيّقظ للسياسات الجزئية والذاتية، والنضال، بالإضافة إلى السياسات الكلّية للأنظمة الاقتصادية والسياسية العالمية، والعمليّات المرتبطة بها. لذلك، من أجل فهم هذه التحوّلات الواسعة وإعادة تشكيل العلاقات بين الدولة والسوق والمجتمَع المدني، يبحث هذا المقال في مواقع المقاوَمة، ويسلّط الضوء على نشاط المرأة في الرعاية الاجتماعية والاحتجاج السياسي كمواقع حاسمة لبناء المعرفة، والمجتمَعات، والهُويّات، وكذلك الرعاية الاجتماعية. أمّا مواقع المقاوَمة فتشملُ الممارَسات المُتجسِّدة، والمقاوَمة النشطة للنساء المشارِكات في أكثر من ساحة نضالية، يُحدِّدها انعدام المساواة الطبقية والجندرية.

في البيئة المُعقّدة ما بعد الحرب في لبنان، تُتاح لنا الإمكانية في تسليط الضوء على التحدّيات التي تواجهها النساء عند ممارَسة وكالتهنّ، من خلال النشاط والمشارَكة المَدَنيَّينِ في المشهد النيوليبرالي، ومن خلال تجلّي السلطة السياسية في أشكال مختلفة لاختراق كلّ ركن في حياتهنَّ. في هذا السياق، غالبًا ما اعتمدت النيوليبرالية التي تقودها الدولة على الناس ليأخذوا مكانها في تقديم الدعم لبعضهم ، ما يسمح بنشر المسؤولية التي تُعطى فيها الأولوية للربح، على حساب الاحتياجات الأساسية للمواطِنين. تبنّى هذا النظام أيضًا آليّات جندرية لردع النساء عَنِ المُشارَكَةِ في المجال السياسي، والسيطرة على منظّمات المجتمع المدني، وبالتالي تمكين الهياكل الأبوية الموجودة في المجتمع أساسًا، وتعزيزها.

المقابَلة

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على الجانب الاقتصاديّ للنساء المقيمات في مدينة صور، في تسعينيات القرن العشرين، وذلك من خلال التطرّق إلى مصادر دخلهنّ، وأملاكهنّ الخاصة، ومعوّقات دخولهنّ سوق العمل، وأشكال العنف الاقتصاديّ الذي تعرضنَ له، وقدرتهنّ الشرائية بعد «ثورة الدواليب»، وأخيرًا التداعيات الاقتصادية التي تأثرنَ بها خلال الاعتداءين الإسرائيليَّين على لبنان، في التسعينيات.

يستند بحثي إلى مقابلة شبه منظّمة، أجريت من خلال مكالمة فيديو جماعية مع نساء مُنخرطات في النشاطين السياسيّ والاجتماعيّ في أثناء الحرب الأهلية وبعدها، أتت بعدها متابَعة فردية لأسئلة مُحدَّدة. إلهام، وفريال، ورجاء هُنَّ الآن في منتصف الخمسينيات من أعمارهنَّ وأواخرها، التقين خلال إقامتهنَّ في بيروت الغربية خلال الحرب الأهلية؛ «الغربية» هي جزء من بيروت، وفق ما أشارت إلهام، مضيفة أنها «مصطلح عالق في ذاكرتنا حول الحرب الأهلية». لقد أصبحن صديقات مقرّبات منذ ذلك الحين، لا سيّما بعد انخراطهنَّ في الحركات اليسارية والمنظّمات النسائية. وَبينما كنَّ يروين قصصهنَّ، جرت نقاشات عدّة بينهنَّ حول نضالهنَّ الجماعيّ في مواجهَة التحوّل النيوليبراليّ والقمع السياسيّ، وتحدّثن بشكل خاصّ عن نقطة تحوّل رئيسة في تاريخ لبنان، تمثّلت في انتهاجِ العُنفِ مِنْ قِبَلِ زعماء الطوائف والنخب الاقتصادية، تجاه الحركات الاجتماعية والنقابات العمّالية التي تحدّت سياسات ما بعد الحرب. في هذه المرحلة أدركت النساء عدم إمكانية التخلّص من النظام بأكمله من خلال الاحتجاج، فبدأن البحث عن أساليب بديلة لتحقيق مطالبهنَّ، من خلال مشاركتهنَّ في المجتمَع المدنيّ.

كنت مهتمّة بمعرفة كيفيّة تأثُّر النساء بأساليب ممارَسة القوّة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ظلّ النيوليبرالية، ودور الوكالة (agency) خلال فترة التحوّل في التسعينيات. أردت أيضًا تسليط الضوء على كيفية تحوُّل طبيعة مشارَكة النساء في فترة ما بعد الحرب، من خلال العودة إلى تجاربهنَّ خلال الحرب الأهلية. ولا داعي للقول إنني لا أنوي في هذا المقال تعميم تجارب النساء كافة في أثناء الحرب وبعدها، بل أستند إلى تجارب خاصّة بالنساء اللواتي قابلتهنَّ، لإعطاء فكرة مثيرة للاهتمام عن ذكريات النساء اليساريات اللواتي نَشَطن خلال التسعينيات، وتجاربهنَّ.

القصص

لهؤلاء النساء الثلاث تاريخ طويل من العمل مع منظّمات المجتمَع المدنيّ والحركات اليسارية؛ كنَّ يشاركن بشكل أساسي في القطاع الاجتماعي من خلال المساعَدة الطبيّة، وتوزيع المساعَدات خلال حروب الثمانينيات، وغياب الدولة، وإفقار السكّان. وقد حملن بعض ممارَسات التضامن والرعاية المُجسَّدة في الأحياء أو المدن إلى فترة ما بعد الحرب، حيث برز تحوّل واضح في النشاط السياسي لمقاوَمة النموذج والدولة النّيوليبراليَّن. لا أهدفُ من خلال فتح روايات عن المقاومة، إلى إظهار قدرة النساء على التنظيم وبناء

شبكات دعم لمساعَدة الآخرين فحسب، إنّما أيضًا إلى إبرازِ كيفية تقوية أنفسهنَّ والدفع بها، لاكتشاف القدرات التي تضمن بقائهنَّ العاطفيّ والجسديّ في فترة عدم الاستقرار.

إذًا، عَمِلَتْ هؤلاء النّساء لفترةٍ طويلةٍ مع منظَّمات المجتمع المدني والحركات اليسارية. بدايةً، استُخدِم مصطلح «المجتمع المدني» بشكل فضفاض على مرّ السنين، لأنَّ الاختلافات بين ما هو عام وما هو خاص لم تُحَدَّدْ بشكل واضح، ما يكشف عن الطبيعة المُعقَّدة للمصطلح الذي يعتمد على كيفية إدراكه، والسّياق الّذي يضعه فيهِ الشخصُ الذي يعرِّفه. توضح إلهام أنَّ تعريفها للمجتمع المدني يجمع بين المنظّمات غير الربحية، والأحزاب السياسية، وتشرح أنَّ النهج التصاعدي لبناء الحزب يشبه الأسس التي تقوم عليها منظّمات المجتمع المدني. في هذه الحالة، كلاهما قادر على تمثيل مصالح مجموعة معيَّنة، مع مُلاحَظة أنَّ المواطنين خلال الحرب الأهلية انضمّوا إلى الأحزاب السياسية اليسارية أو اليمينية بإرادتهم الخاصّة، واستنادًا إلى مجموعة من المُعتقَدات. يهدف تعريف إلهام، أيضًا، إلى مقاوَمة التمييز بين الجنسين الذي يربط غالبًا الرجال بالعام والنساء بالخاص، وهو ما ينعكس في تفسير سعاد جوزيف (١٩٩٧) بأنَّ الحدود بين الدولة، والمجتمع المدني، وروابط القربى، أو المجال الخاص هي شديدة التقلّب ومُجندرة. لذلك، ازداد الوعي حول قضية إقصاء النساء من الدولة من خلال محاوَلة فصل هذه المجالات، أي الدولة، والمجتمع المدني، وروابط القربى، وحصر المرأة في المجال الخاص. بناءً على ذلك، تخلق إلهام مساحة لتمثيلٍ بديل من خلال الجمع بين المجالين العام والخاص، عند تحديد المجتمع المدني.

كانت تجارب تلك النساء المختلفات في بعض الأحيان فردية وفي أحيانٍ أخرى جماعية، وتنطوي إلى حدّ ما على مشارَكة سياسية. من هنا، من المهمّ أن نلاحظ أنَّ هذا النوع من التعبئة والتوكيل يجبُ أن يكون مُستنيرًا، من خلال رسم خريطة لعلاقات القوّة والوضعيّات المُتعدّدة للنساء ، لا سيّما الجندرية والأيديولوجية والأسرية وفي البيئة المحيطة بهن. منذ بداية الحرب الأهلية، أصبحت بيوت النساء ومحيطهنَّ مواقع للنضال نتيجة اندماج القطاعَين الخاص والعام، كونهنَّ شعرن بالتهديد في داخل منازلهنَّ بقدر ما يشعرن بالتهديد خلال تنقّلهنَّ في الشوارع. لكنهنَّ وجدن في الوقت نفسه ملاذًا في نشاطات أخرى، فانخرطن في إنشاء شبكات عبر القطاعات، وَخَلَقْنَ نماذج جديدة للتعاون في ما بينهنَّ، ومع مجتمعهنَّ.

في سياق الحرب

شاركت النساء بشكل أساسي في نشاطات تقديم الرعاية خلال الحرب الأهلية، وتحديدًا خلال فترة الثمانينيات في خضمّ الغزو الإسرائيلي. لقد دعمن بعضهنَّ والمجتمعات المحيطة بهنَّ، وانتهى بهنَّ الأمر إلى تكوين مجموعة صداقة مُتماسكة خلال أصعب أوقات حياتهنَّ، ما وفر لهنَّ القوّة اللازمة لمواصَلة العمل الإغاثي والإنقاذي، وشجّعهنَّ على التفكير الجماعي في مستقبَل بديل. ومع اقتراب نهاية الحرب، وإلى جانب العمل الاجتماعي، بدأن في التحوّل نحو النشاط السياسيَّ، ثّم انتقلن أخيرًا إلى التركيز على قضايا اجتماعية مُحدَّدة مع منظّمات المجتمع المدني.

توضح إلهام أنها جزءٌ من مجموعة نُظِّمت في إطار «تجمُّع المرأة اللبنانية». خلال الحرب، شارَكتْ هؤلاء النّساءُ في رعايةِ النازحين من الجنوب والذين كانوا يلتمسون اللجوء في بيروت. وزّعن المواد الغذائية والأدوية، وشاركن في الإسعافات الأوّلية، ونفّذن حملات توعية بيئية. بالمثل، كانت فريال جزءًا من فريق الإسعافات الأوّلية التابع للدفاع المدنيّ خلال الحرب الأهلية وما بعدها، وواصلت هذا النوع من العمل إلى حين انتقالها إلى «جمعيّة تنظيم الأسرة في لبنان» التي تُعنى بالتنمية وتمكين الأسرة. أخيرًا، شاركت رجاء أيضًا في العمل الاجتماعي في أثناء الحرب، وهي الآن جزءٌ من «التجمّع النسائي الديموقراطي اللبناني» الذي يركّز على القضايا المتعلّقة بالنساء والأطفال. تؤكّد النساء أنَّ المال لم يكن أبدًا مشكلة خلال الحرب، لأنّهُنَّ تلقّين أموالًا كافية من مانحين خارجيين، ومنظّمات غير حكومية، وأحزاب سياسية يسارية، وفصائل فلسطينية. لكن بالعودة إلى الأزمة الحالية ذات الطبقات المُتعدِّدَة التي يمرّ بها لبنان، وتكثيف السياسات الاقتصادية النيوليبرالية، توضح إلهام أنهنَّ لم يتلقّين الأموال الكافية لمساعَدة المحتاجين. في السابق، لم تخلق الحرب أيّ عوائق أمام تلقّي الأموال، في حين تواجه منظّمة إلهام حاليًا، وغيرها من المنظّمات مشكلاتٍ في الوصول إلى الموارد التي تحتاجُها، والتبرّعات الكافية بسبب الأزمة المصرفية، والعديد من العوامل العالمية. لذلك، في سياق الحرب، قرّرت النساء التركيز على العمل الاجتماعي كجزء من نشاطهنَّ، واعترفن به على أنه ضروري وملحّ في ذلك الوقت. في هذا الصدد، تؤكّد رجاء أنها لم تكن جزءًا من أيّ مقاومة مُسلّحَة، ولم تعمل في أيِّ مجالٍ عسكريٍّ، لأنها لا تدعم العنف، و «ضدّ إلغاء الآخر بوساطتِهِ».

استمرّ هذا العمل بعد الحرب الأهلية، وتوقّف في بداية العام ١٩٩٠ عندما اضطهد الاحتلال السوري اللبنانيين المعارِضين له جماعيًّا. تعرّضت العديد من الناشطات أو أصدقائهنَّ/صديقاتهنّ، وجيرانهنَّ، وأفراد عائلاتهنَّ لقمع وحشي، تمثّل في تَلَقّي التهديدات والتعذيب والاختطاف والاعتقال. نتيجة لذلك، أُجبرت العديد من الناشطات، أو مَعارفهنّ، ومن ضمنهنَّ إحدى النساء اللواتي تمّت مقابلتهنَّ ، على مغادَرة منازلهنَّ موقّتًا، والانتقال إلى مكان بعيد للاختباء من الجيش السوري. لكن بعد فترة وجيزة، تشكّلتْ نقطة تحوُّل في حياة النساء، كانَ أكثرها بُرُوزًا تحوّلٌ ملحوظٌ من العمل الاجتماعيّ إلى النشاط السياسيّ.

مقاوَمة النيوليبرالية والدَّولة

توضح إلهام أنه في فترة ما بعد الحرب مباشرة، وقبل أن يكتسب الحريري سلطة كبيرة، شهدت البلاد موجة ضخمة من المظاهَرات والاحتجاجات، تميّزت بشكل أساسي بتحرّكات نقابية عدّة، لا سيّما عندما قاد الاتحاد العمّالي العام، الذي تأسّس في العام ١٩٥٨، انتفاضة شعبية في العام ١٩٩٢ (عطالله، ٢٠٢٠). أدّت الاحتجاجات التي عمّت البلاد آنذاكَ إلى استقالة حكومة عُمَر كرامي، وتعود أسبابُها أساسًا إلى تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وانخفاض قيمة الليرة، في وقت لم يكن فيه اللبنانيون قد تعافوا بعد من ويلات الحرب، أو نسوا أشباحها، والتعذيب، والاختطاف، والموت. وَتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الحركات لم تكن مُرتبطة بالعمّال فحسب، بل شملت مجموعات مختلفة، وهدفت إلى قلب النظام.

شاركت النساء أيضًا في تنظيم الاحتجاجات والاعتصامات للمطالَبة بالحقوق الأساسية. تكشفُ إلهام أنه «مع نهاية الحرب، لم تنظّم الاحتجاجات للمطالبة بحقوقنا كنساء فقط، بل كنّا نطالب بحقوقنا كبشر»، شارِحَةً أنه كان عليهنَّ التواصل مع بعضهنَّ من خلال الأصدقاء، لإيصال الرسائل وتعميمها. لقد حاولن الوصول إلى الجميع، خصوصًا النساء من خلفيات سياسية وثقافية متنوّعة، إذ كان من الضروري جمع الكلّ معًا، ليكنَّ قادرات على التنظيم وبناء مقاوَمة قوية،[1] وقد كان ذلك ناجحًا في البداية. في هذا الصدد، تؤكّد رجاء أهمّية المشارَكة السياسية، بالإشارة إلى أنَّ «الانخراط في الأحزاب السياسية لا ينبغي له أن يكون ذا آثار سلبية، بل يمكن أن يكون وسيلة لتحدّي النظام من الداخل». وتشير إلى مدى حرص «الحركة الوطنية» على نشر الوعي النقدي، وترسيخ مكانتها في النضال الإقليمي المستمرّ ضد المشاريع الاستعمارية الجديدة والصهيونية. توضح رجاء أنَّ احتجاجاتهنَّ تحوّلت لاحقًا إلى قضايا اجتماعية مُحدَّدة، إذ بدأن في الاحتجاج ضدّ العنف الممارَس في حقّ النساء، والبطالة، وغلاء المعيشة، بالتوازي مع المطالَبة بزيادة الحدّ الأدنى للأجور، وتوفير الرعاية الصحّية. كذلك، شدّدت على الدور المهمّ الذي أدّتْهُ الجامعة اللبنانية في هذه الاحتجاجات بمشارَكة الطلاب، خصوصًا النساء اللواتي ساهمن في التنظيم، فضلًا عن تنظّم الطلاب للتعبير عن مخاوفهم في شأن القضايا التعليمية، بما في ذلك المطالَبة بدفع رواتب المعلّمين.

استمرّت موجة الاحتجاجات في أوائل التسعينيات، عندما أصبح الحريري رئيسًا للوزراء في العام ١٩٩٢، وأخذت سياسات إعادة الإعمار النيوليبرالية في زيادة التفاوتات بين مختلف شرائح المجتمَع؛ فوفقًا لرجاء، كانت هذه السياسات بالتوازي مع اتفاق الطائف الذي دخل حيّز التنفيذ في العام ١٩٨٩، «بمَنزلةِ صفعة على وجوهنا، كما لو أنَّ كلّ عملنا السابق ضاع هباءً». كما شاركت إلهام ورجاء بشكل فعّال في تنظيم الاحتجاجات، وكرّستا وقتهما للنزول إلى الشارع، والتعبير عن مطالبهما بالعدالة، على أمل تغيير النظام السياسي، حيثُ إنَّ الحريري قَدَّمَ نظامًا مختلفًا عمّا كانتا تهدفانِ إلى تحقيقه، لكنَّ رجاء أصرّت على الاستمرار في العمل ومواجَهة الصعاب كلّها، من أجل العدالة الاجتماعية، ومقاوَمة الأيديولوجيات التي أتت بها «الحقبة الحريرية» (وفق قولها).

كانت الحركة الوطنية اللبنانية، بما في ذلك الحزب الشيوعي اللبناني، ومنظّمة العمل الشيوعي، وغيرها من المجموعات اليسارية الأصغر، على علم بمزالق مشروع الحريري، وقد حَذَّرَتْ منه، وشَرَعَتْ لفترة من الوقت في إجراء مناقشات عامّة لإطلاع المجتمَع على مخاطر الإصلاحات النيوليبرالية، وما أطلقت عليه «فترة العولمة». وَقَدْ أوضحت رجاء وإلهام أنهما شاركتا في تنظيم هذه النقاشات، لا سيّما حول دور الحريري وما يمثّله، ومخاطر المشروع الذي يدفع به، من خلالِ تبادُلِ مَعلوماتٍ في ما بينهما، مُستنِدَتينِ فيها إلى معرفتهما وقراءتهما عن الاقتصاد السياسيّ الإقليميّ والعالميّ.

١. جاء هذا الردّ على سؤال مُحدّد طرحتُه حول الاعتراف بالتنوّع بين النساء في المجتمع في ذلك الوقت، (سواء كانت الاختلافات ناتجة عن عوامل اجتماعية – اقتصادية، أَمْ دينية، أَمْ قومية...)، وكيفية تمكّنهن من التنظيم، وهو ما ألهمني ما قالته أودري لورد (١٩٨٤): "ليس عليكِ أن تكوني أنا لنقاتل جنبًا إلى جنب" (ص. ١٤٢)، إذ جادلت في أنَّ النساء يحتجن إلى تقديم أنفسهنَّ بالكامل للحركة النسائية، وكانت تعتقد أنَّ الاختلاف، والتنوّع، والشمول، يجب أن تَكُونَ شريان حياة الحركة النسائية، أو أي حركة.

مع ذلك، نجح الحريري وحلفاؤه في إقناع بعض الطبقة العاملة بمشروعه، عبر تغذيتها بوعود كاذبة حول الاستقرار، والازدهار الاقتصادي، والمصالحَة الاجتماعية. كانت هذه الوعود قصيرة الأجل، وفي مرحلة لاحقة بدا أنَّ المشروع موجَّهٌ نحو تحقيق الأرباح، مع اقتصار فوائده على أعضاء السلطة الحاكمة وشركائها في الأعمال. هنا، تنضمّ إلهام إلى النقاش، وتشير إلى هذه الحقبة بـ «مشروع الشرق الأوسط الجديد، الذي يتطلّب خطّة لنشر النيوليبرالية في الشرق الأوسط بأكمله، وتطبيع العلاقات مع إسرائيل». لم تكن النيوليبرالية عملية خاصّة بلبنان، إذ كان هذا النمط ينتشر في جميع أنحاء البلدان العربية في المنطقة، وحصلت تحوّلات بالفعل في كلٍّ من الأردن، وتونس، والمغرب، ومصر. تميّزت تلك الفترة بالتركيز على القوة الاقتصادية، فيما سعت الولايات المتّحدة إلى تحقيق مشروع سلام عربيّ - إسرائيليّ في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (Baumann، ٢٠١٧).

تفكيك الحركات والاستقطاب

خلال هذه الفترة، اكتسب النظام الطائفي في فترة ما بعد الحرب قوّة كبيرة، وقد وصفه باسل صلوخ بأنه «نظام قويّ يعتمد على المؤسَّسات الزبائنية، وتستخدمه النخبة الطائفية للإمساك بمجتمَعاتها» (عطا الله، ٢٠٢٠). بدأت النخبة السياسية في تفكيك الاتحاد العمّالي العام من خلال ضخّ عدد كبير من النقابات غير الفاعلة فيه، حتّى نجحت في إزاحة الياس أبي رزق من منصبه كرئيس للاتحاد، بعدما اتهم الحكومة بزيادة التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية وآليّات خلق الريع، واستُبدِل بمرشّح مُوالٍ للطبقة السياسية، وتحديدًا لحركة أمل.

ووفقًا لوصف طرابلسي (٢٠١٤، ص. ٦٣)، باتت «الحركة النقابية مثل القشرة الفارغة» لأنَّ معظم النقابات التي نشأت في أثناء الحرب أو بعدها مبنية على أسس طائفية ومذهبية، ولا تمثّل معظم العمّال. كانت هذه استراتيجية حكومية للسيطرة على عمليّة صنع القرار، وتجريد الموظَّفين من أيّ حقّ في التنظيم، وفي التعبير عن غضبهم واستيائهم. أيضًا أفادت عطا الله (٢٠٢٠) بأنَّ هذا النوع من التخريب لم يكن خاصًّا بتلك الفترة الزمنية، لكنّه أصبح منهجيًّا في فترة ما بعد الحرب. في الواقع، تماشت العملية القائمة على تكتيكات التخويف بدعم من النظام السوري الذي لم يتسامح مع أيّ معارَضة ضمن الحركة العمّالية.

بعد ذلك، أوضحت النساء أنَّ الأحزاب والحركات اليسارية بدأت تفقد زخمها، إذْ لم تعد النقاشات العامّة تُعقد بشكل مُتكرّر إسوة بالفترة السابقة، وفقدت أفكارها الشعبية بين المواطنين. ووفقًا لرجاء: «الإفلاس الفكري هو إفلاس معنوي».[2] نتيجة لذلك، لم يعد طلاب الجامعة اللبنانية ينظّمون الاحتجاجات، وتلاشى «إحساس الناشطين بالانتماء إلى قضية». إلى ذلك، توضح أنَّ التغيير يتطلّب تعبئة سياسية واتخاذ قرارات ملموسة وقضية واضحة، إلّا أن النخبة السياسية تمكّنت من تقسيم المواطِنين على أسس طائفية، من خلال الحفاظ على نظام المحسوبية، وسياسة الخوف والقمع. تشير رجاء، أيضًا، إلى أنَّ الأحزاب السياسية الطائفية نجحت في إقناع مجموعات عدّة بهدف حماية نفسها من «التهديد المستمرّ»، عبر استخدام الخوف المذهبيّ من «الآخَر»، وَتغذيتِهِ.

طغيان أسلوب عمل المنظَّمات غير الحكومية على الحركة النسائية

في ذلك الوقت، انسحبت النساء من الاحتجاج والتنظيم السياسيّ بعد فقدان الأمل من تغيير النظام. تكشفُ رجاء أنها بقيت مُطلعة سياسيًّا من خلال قراءاتها فقط، فيما تحوّل عملها بشكل أساسي إلى منظَّمات المجتمَع المدنيّ التي تركّز على شؤون النساء. لقد شاركت النساء الثلاث في منظّمات المجتمع المدني منذ ذلك الحين. تُشيرُ رجاء أيضًا إلى أنَّنَا «قد أدركنا أننا في حاجةٍ إلى اتخاذ توجّه مُتخصّص ومُحدّد يركّز على قضايا معيَّنة، بدلًا من استهداف النظام ككلّ».

٢. استخدمت هذه الجملة للإشارة إلى أنَّ الاحتجاجات والمظاهَرات، تكون في العادةِ مدعومةً بنقاش فكري يحفّزها. لكن ما إنْ فُقِد ذلك، تلاشت الرغبة في التغيير أيضًا.

وَبالإضافة إلى تقويض عملية صنع القرار في النقابات العمّالية وحظر الاحتجاجات، بدأت الدولة في تعزيز مصالحها وتكييف النضال من أجل العدالة، عبر مجموعات المناصَرة النسائية كآليّة للقضاء على تسييس الحركة النسائية. خلال أواخر التسعينيات، وَمع بدء إعادة الهيكلة النيوليبرالية في اختراق المزيد من القطاعات، عيّنتِ الحكومة مجموعة من النخب النسائية، بالاستناد إلى وضعهنَّ الاجتماعيّ، لإدارة شؤون النساء في مرحلة التنمية بعد الحرب، من خلالِ إنشاء مؤسَّسة عامّة، وهْي «الهيئة الوطنية للمرأة اللبنانية»، والتي يشمل عملها الإشراف على المنظّمات غير الحكومية النسائية في المجتمَع المدني، وتشجيعها على تكوين علاقات مع الوكالات الدولية (El Hage، ٢٠١٥). وَعلى الرغم من أنَّ «الهيئة» ناصرت حقوق المرأة، إلّا أنَّ هيكليتها القائمة على اتخاذ القرار من أعلى إلى أسفل، وعجزها عَنِ اتخاذ أي قرار ملموس، قلّلا دورَها الوظيفيَّ في دولة ذات نظام أبويّ وطائفيّ. تعمل «الهيئة» وشركاؤها المحلّيون من خلال تشكيل مواقف تعاونية وشبه مُطابقة للهيكلية الهرمية للسوق النيوليبرالية، التي تعطي الأولوّية للرعاية الخارجية والشراكات مع المؤسَّسات المرموقة على حساب التنظيم الشعبي (المرجع نفسه). نتيجة لذلك، تصبح الأهداف والمشاريع الرّئيسة متوافقة مع مجتمع المانحين الدوليين أكثر من احتياجات النساء المحلّيات. ووفقًا لخطّاب (٢٠١٠، ص. ٩١): «تعمل وكالات الإغاثة الدولية على تقوية الجمعيّات النقابية بدلًا من الجمعيّات الشعبية، وتساهم في تهميش مصالح النساء واحتياجاتهنّ، وتعيق الإصلاحات الشاملة».

بالإشارة إلى هذه المنظّمات غير الحكومية، تقول رجاء إنها «تدّعي الحضارة» فقط عند مناشَدة الدول الغربية والتركيز على مشاريع التمكين الاقتصادي، فيما لا تزال النساء مُستبعَداتٍ إلى حدّ كبير من المجال السياسي وعمليّات صنع القرار. لمزيد من التوضيح، ركّزت المنظّمات المحلّية والدولية على التحوّل نحو مشاركة النساء في الاقتصاد. يصوِّر الخطاب النيوليبرالي النساءَ والرجالَ على أنهم فاعلون اقتصاديون عقلانيون على حَدٍّ سواء، ويشجّع النساء على دخول سوق العمل، إلّا أنَّ هذه الحوافز تعتمد على عمل النساء بأجر مُتَدَنٍّ في مجالات أخرى، غالبًا غير نظامية، ما يؤدّي إلى استغلالهنَّ، وتفاقُم انعدام المساواة الطبقية. توضح رجاء أنَّ المنظّمات غير الحكومية طرحت بعض الصور النمطية لإخضاعِ النساء، مثل «حسن الأخلاق، وحسن التصرّف، خصوصًا أمام الكاميرا، بالإضافة إلى تعزيز القيم والمبادئ الخصوصية». وهنا، تستند إلى إميل دوركهايم لإظهار مدى تأثير المجتمع القوي في الأفراد، وتشكيل الوعي الجماعيّ من خلال المعايير والمعتقَدات والقيم. في الواقع، ساهم ذلك كُلُّهُ في ترسيخ صورة نمطية جديدة عن النساء، ودورهنَّ الاقتصاديّ في المجتمَع.

على الرغم من أنَّ رجاء ذكرت سابقًا أهمّية المشارَكة السياسية، إلا أنَّ الطبيعة الأبوية للنظام السياسي القائم على الطائفية، والّذي تسيطر عليه النخب السياسية وأمراء الحرب الذكور، تُصَعِّبُ على النساء تولّي مناصب في عمليّة صنع القرار. وفي هذا الصَّدَدِ، تُشيرُ كيرستن شولتز (١٩٩٨) إلى أَنَّ المجتمَع اللبنانيّ يفتخر بالقيادة الذكورية «للزعيم»، الذي يجسّد القيم الذكورية المُعترف بها للغزو والسيطرة والمنافَسة والحرب، إذ بعدما تولّى منصب القائد العسكري خلال الحرب الأهلية، عاد إلى دوره التقليدي بالاستناد إلى الانقسامات الاجتماعية والسياسية، أو الامتياز الطبقيّ، أو المكانة الاجتماعية. بالإضافة إلى ذلك، رَأَتْ إلهام، ورجاء، وفريال أنَّ النساء في الحكومة لا يمثّلنهنَّ، كونهنَّ وصلن إلى مناصبهنَّ من خلال الروابط الأسرية أو الاجتماعية. في الواقع، لا يتمتّع معظم النساء بأي تأثير مهمّ في صنع القرار ضمن السياسة اللبنانية، بل يعملن على تمكين الهياكل الأبوية الموجودة أساسًا.

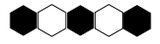

تجارب متباينة

على الرغم من أنَّ النساء الثلاث يتشاركن في وجهة نظر أيديولوجية مماثِلة، إلّا أن تجاربهنَّ اختلفت بناءً على تأثير المجتمَع المحيط بهنّ، لا سيّما الأسرة. لقدِ استكشفتُ معهنّ كيفية تأثير النظام الأبوي على النساء في محيط الأسرة. وعلى غرار الطريقة التي وضعت بها جوزيف نظرية الأسرة العربية (١٩٩٣)، أوضحت إلهام أنَّ نضالهنَّ كنساء لم يقتصر فقط على الحواجز التي تضعها الدولة، بل تجلّى أيضًا في داخل الأسرة. وتابعت أنَّ النظام الأبوي لا يقتصر على الرجال في المجتمَع فحسب، بل يشمل أيضًا «النساء والأمّهات اللواتي يُعِدن إنتاج هذا النظام في المنزل، خصوصًا عند تربية أطفالهنَّ، وتعليم بناتهنَّ التصرّف بشكل مختلف عن أبنائهنَّ. لقد واجهنا ذلك كلّه مع أمّهاتنا»؛ فعندما بدأت إلهام نشاطها السياسي، أبدت والدتها رفضها، وكانت تقلق في كثير من الأحيان على سلامتها، فضلًا عن أنها كانت مُتردِّدة في قبول وجود ابنتها في هذه الاحتجاجات، لكن بما أنَّ والدها كان منخرِطًا في الحركات السياسية اليسارية أيضًا، فقد تشجّعت على الانضمام إلى هذه الحركات والمشارَكة في الاحتجاجات، من دون مواجهَة مشكلات كبيرة.

من ناحية أخرى، توضح رجاء أنَّ أفرادَ عائلتها كانوا أكثر تقليدية وتديّنًا، ويُعارِضُونَ تمامًا وجودها في الشوارع، حتّى لو أخبرتهم أنَّ هدفها هو العمل الاجتماعيّ فقط، ولا علاقة له بالاحتجاجات. تذكُرُ أنها كانت تتسلّل من منزلها للمساعَدة أو للمشارَكة في الاحتجاجات، وحينها كانتِ النساء الثلاث يَضْحَكنَ عند تذكُّر تسلّق رجاء الشرفة للوصول إلى غرفتها، والإسراع في ارتداء ملابس النوم، على الرغم من أنَّ والدتها أبدت رفضًا كبيرًا لهذه التصرّفات، إلَّا أنّها كانت تتستّر عليها أحيانًا، وتخبر الجميع بأنها لا تزال نائمة في غرفتها.

أخيرًا، لم تشارك فريال في النشاط السياسي بالكامل، بل كانت جزءًا من فريق الدفاع المدني، وشاركت في تدريبات على الإسعافات الأوّلية في المركز المجاوِر لمنزلها، وقد وافق والداها على الأمر لأنها قريبة من المنزل. وقد أصبحت لاحِقًا أكثر انخراطًا في المجالِ السّياسيّ، وتحديدًا منذ مسيرة المظلّة خلال مظاهَرات العام ٢٠١١.

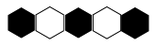

إعادة تصوُّر المستقبَل والبدائل

بعيدًا من إعادة الهيكلة الموعودة والازدهار، أدّى النموذج الاقتصادي الجديد إلى تدهور الظروف المعيشية للعديد من المواطنين في لبنان بعد الحرب الأهلية. تشير قصص النساء إلى التغييرات الناتجة عن الإصلاحات النيوليبرالية في ظلّ دولة قمعية، ما يعطي الأولويّة للربح على حساب رفاه المواطنين. في هذا السياق، شاركت إلهام ورجاء وفريال في أكثر من نضال، ومن ضمنها المطالَبة بالحصول على الرعاية الصحّية، وفرص العمل، والأمن الغذائيّ، والحفاظ على حقوقهنَّ كنساء. بعد الحرب، رأين في الأزمات العديدة نافذة لفرص تغيير اجتماعيّ، وهو ما أدّى لاحقًا إلى خلق لحظات مسروقة من التخريب السياسيّ، تبعتْها إعادة تشكيل غير متوقَّعة للترتيبات الاجتماعية والسياسية المُهيمِنة؛ فصحيحٌ أنَّ التاريخ اللبناني يعيد نفسه في بعض النواحي في فترات انعدام الاستقرار أو الأزمة الاقتصادية الحالية، لكنَّ الاحتجاجات خلال التسعينيات تركت أثرًا لافتًا في كثيرين من المواطِنين؛ مَنَحَتْ بعض المبادَرات الناشطين القوّةَ لإعادة تصوُّر مستقبَلهم، والبناء على أشكال الاحتجاج في العام ٢٠١٥، مؤخّرًا في العام ٢٠١٩، بدءًا من التعبئة الشعبية العفوية، مرورًا بتنظيم اعتصامات عمّالية، ووصولًا إلى طرطقة النساء على الطناجر والمقالي من شرفاتهنَّ، واحتجاجات العمّال الأجانب أمام سفارات بلادهم. كما شجّعت عفوية احتجاجات العام ٢٠١٩ الأخيرة النساءَ على المشارَكة، والتعبير عن مطالبهنَّ مرّةً أُخرى. وعلى الرَّغم من أنَّ نشاطهنَّ هذه المرّة لم يحمل الزخم نفسه كما في التسعينيات، إلّا أنه ذكّرهنَّ بالأمل المَوجود لديهنَّ في إسقاطِ النظام، وإعادة بنائه على أسس عادلة.

على الرَّغم من أنَّ النساء الثلاث يتشاركن في رؤيتهنَّ لمستقبلٍ عادلٍ اجتماعيًّا، إلّا أنّ إلهام ورجاء تعبّران عن رغبتهما في البقاء، وفي مواصَلة النضال من أجل سياسات أكثر مساواة وشمولية في المستقبَل، بينما تذكر فريال أنَّ التمسّك بخيط الأمل الأخير كان صعبًا خلال السنوات الماضية، لا سيّما مع تفاقم الأزمة الاقتصادية خلال العام ٢٠٢٠، وتقول: «لطالما كان لديّ أمل في أن يحدث التغيير، وفي وقت ما قيّدت هذا الأمل لكي أستمرّ في المضي قدمًا»، لكن بعد انفجار المرفأ في ٤ آب/أغسطس ٢٠٢٠، يبدو أنَّ المستقبَل يتغذّى من انعدام الأمن المُتزايد، ما يعكس فشل النموذج الاقتصادي النيوليبرالي الذي وضعه الحريري، ووعوده بـ«الازدهار والاستقرار على المدى الطويل»، والتي لم تعش طويلًا. هكذا، بعد عقود من النضال ومحاوَلة بناء الأمل، تشجّع الآن أولادها على الهجرة، حتّى تتمكّن من الانضمام إليهم، تاركةً كلّ شيء وراءها.

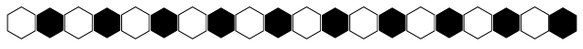

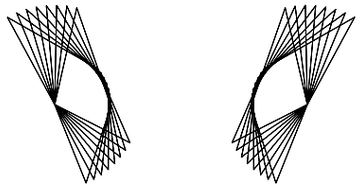

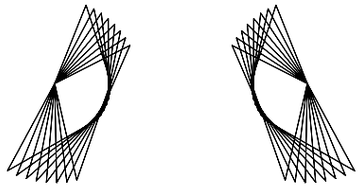

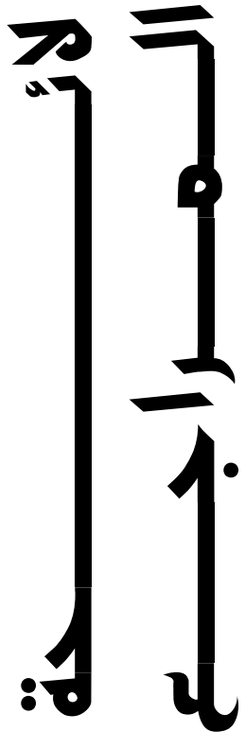

Atallah, Nada. 2020. «Lebanese Protests: The Missing Trade Unions - Nada Maucourant Atallah». Commerce Du Levant. https://www.lecommercedulevant.com/article/29632-lebanese-protests-the-missing-trade-unions.

Baumann, Hannes. 2017. Citizen Hariri: Lebanons Neo-Liberal Reconstruction. 1st ed. Hurst Publishers.

El Hage, Sandy S. 2015. «Between Fitna, Fawda, And Feminism: Implications Of Religious Institutions On Lebanon's Women's Movement». Civil Society Knowledge Centre 1 (1). doi:10.28943/cskc.001.30003.

Joseph, Suad. 1993. «Gender And Relationality Among Arab Families In Lebanon». Feminist Studies 19 (3): 465. doi:10.2307/3178097.

Joseph, Suad. 1997. «The Public/Private – The Imagined Boundary In The Imagined Nation/State/Community: The Lebanese Case». Feminist Review 57 (1): 73-92. doi:10.1080/014177897339669.

Khattab, Lara. 2010. Civil society in a Sectarian Context: The Women's Movement in a Post-War Lebanon, Beirut, Lebanese American University. p.78.
Klein, Naomi. 2007. The Shock Doctrine. Toronto: Vintage Canada.

Mitchell, Timothy. 1999. «No Factories, No Problems: The Logic Of Neo-Liberalism In Egypt». Review Of African Political Economy 26 (82): 455-468. doi:10.1080/03056249908704412.

Mohanty, Chandra Talpade. 2003. «"Under Western Eyes" Revisited: Feminist Solidarity Through Anticapitalist Struggles». Signs: Journal Of Women In Culture And Society 28 (2): 499-535. doi:10.1086/342914.

Mohanty, Chandra Talpade. 2013. «Transnational Feminist Crossings: On Neoliberalism And Radical Critique». Signs: Journal Of Women In Culture And Society 38 (4): 967-991. doi:10.1086/669576.

Schulze, Kirsten. 1998. «Communal Violence, Civil War and Foreign Occupation: Women in Lebanon» in Rick Wilford and Robert L Miller (eds.), Women, Ethnicity and Nationalism: The Politics of Transition. London: Routledge. 150–169.

Traboulsi, Fawwaz. 2014. Social Classes And Political Power In Lebanon. Beirut: Heinrich Boell Foundation - Middle East.

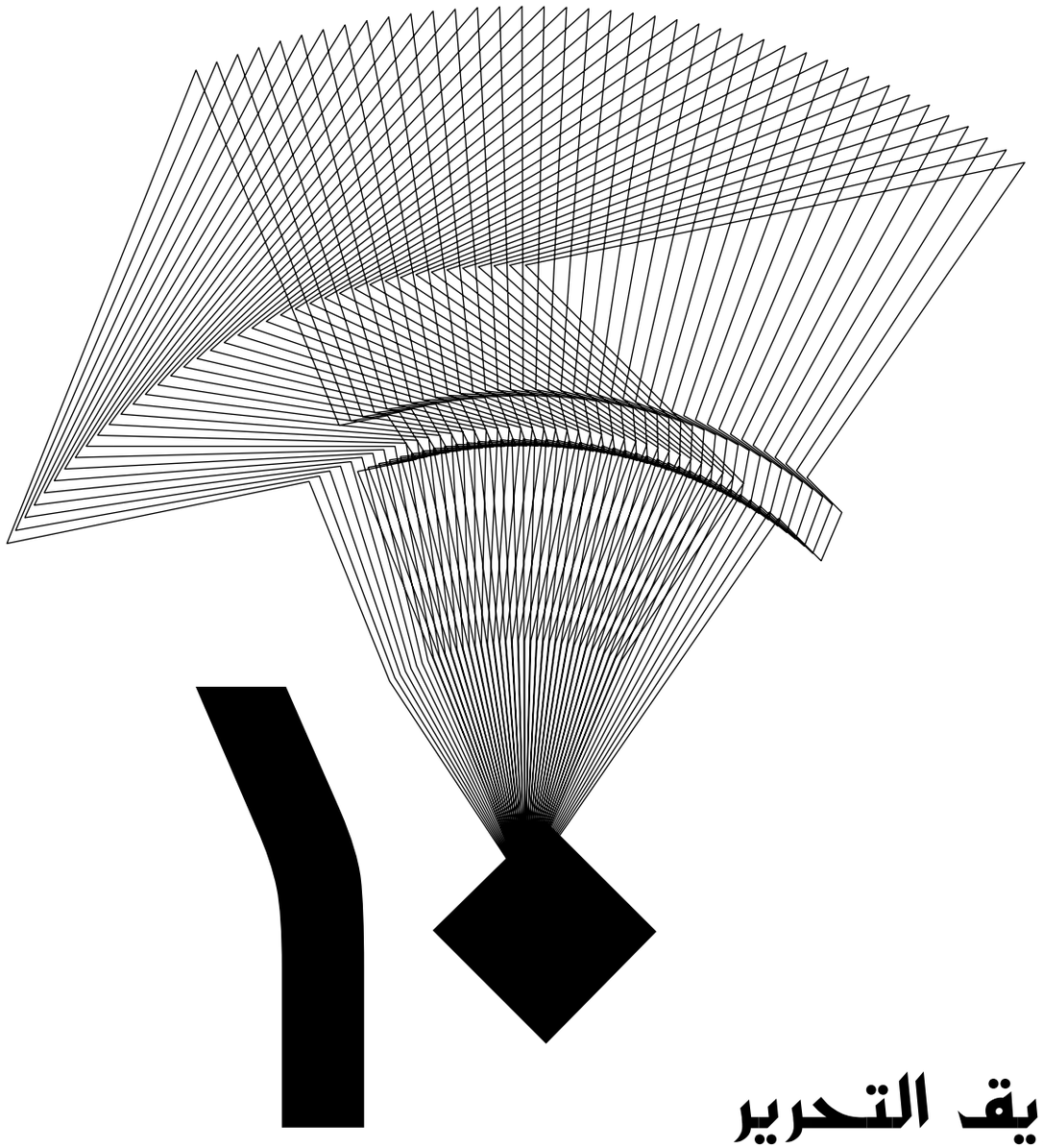

فريق التحرير

تجربة وداد حلواني ولجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان

يقوم هذا النص على مقابَلة تاريخ شفوي، أجرتها زينب وصفاء مع وداد حلواني، مؤسِّسة لجنة أهالي المخطوفين وقائدتها، إذ إنّهما اجتمعتا معها من خلال تطبيق زوم على مدار جلستَين، للاستماع إلى قصّة اللجنة والعمل الطويل والنضال المستمرّ لها منذ الثمانينيات. نشارك هنا قصّة اللجنة كما روتها وداد، مع بعض التأملات في هذا التاريخ والتّفاعُلات معه، مُدركاتٍ أنَّ الكتابة طريقة أُخرى نواجه عبرها سياسة المحو، ونتذكر أنَّ هناك نساءً ما زلن يبحثن وعائلاتٍ ما زالت تنتظر. والجدير ذكره أنَّ أعداد العائلات التي تبحث عن العدالة، في ازدياد.
تُشيرُ دِمة في مقدّمة هذه الإصدارة إلى أنَّ تاريخنا ليس خطًّا مستقيمًا بالضّرورة، وتشرحُ أنّ كلّ لحظة من حاضرنا النسوي تحمل ماضيًا متعدِّدًا، إذ إنَّ كلّ قصة تفتح الاحتمالات لقصص أخرى في الماضي أو المستقبَل ...

نفكر مليًّا في الروابط المتشعِّبة بين الماضي والحاضر والمستقبَل، بينما يعتصمُ أهالي قتلى انفجار المرفإ الذي حصل في بيروت في ٤ آب من العام ٢٠٢٠، بعد أكثر من ستة أشهر على التفجير، ويطالبون بالعدالة، وبمعرفة القتلة ومحاسَبتهم. كما نكتب عن هذه الروابط بينما ما يزال أهالي المفقودين والمفقودات في الحرب الأهلية في لبنان (١٩٧٥ - ١٩٩٠) ينتظرون/نَ أيضًا معرفة مصير مفقوديهم. لا شكّ في أنَّ ظروف الحرب والخطف والفقدان مختلفة مِن ظروف التفجير والقتل، لكن يبقى المشترَك هو المطالَبة بالمعرفة وبالعدالة اللَّتَين طال السعي وراءهما، وربما أيضًا باكتشاف هُويّة المرتكِبين في بلاد ما يزال حكامها بعد ثلاثين سنة هم أنفسهم زعماء الحرب. ألم نتعلم شيئًا من عقود من النضال في سبيل المعرفة والعدالة؟

نعود مع وداد حلواني إلى السنة الّتي خطف زوجها فيها، وإلى رحلة النضال مع رفيقاتها ورفاقها كما تسميهنَّ/هم.

في العام ١٩٨٢، خُطف عدنان حلواني في منطقة رأس النبع التي تقع ضمن ما كان يعرف حينها ببيروت الغربية، وعندها بدأت رحلة وداد، زوجته، للبحث عنه، حَيثُ زارت كلّ من اعتقدت أنه قد يساعدها في استعادة زوجها: رئيسَي الجمهورية والحكومة، ووزراء، ومسؤولين رسميين ودينيين وحزبيين. لكنها كانت تسمع دائمًا الإجابة نفسها: «في كتار متلك». أرادت وداد أن تبحث عن هؤلاء «الكتار مثلها»، ففكّرت في أنها لو اجتمعت بأربع أو بخمس نساء يشبهنها، قد يستطعن الضغط أكثر معًا. من هنا، أطلقت وداد نداءً عبر الإذاعة، وطلبت ممّن له شخص مفقود أو مخطوف أن يلاقيها عند جامع عبد الناصر في منطقة كورنيش المزرعة في ٢٤ تشرين الثاني من العام ١٩٨٢.

لم تتوقع وداد أنّ ذلك اليوم سيكون يوم ولادة لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان، وأنها في إثره ستبدأ مع رفيقاتها رحلة بحث طويلة عن جميع المفقودين والمخطوفين في حرب لبنان. تجمّع في ذلك اليوم المئات من أهالي المفقودين والمخطوفين، وكانوا كلهم من النساء اللّواتي انطلقن معًا في مسيرة نحو السراي الحكومي الذي كان في منطقة الصنايع (مكان وزارة الداخلية حاليًّا).
كانت البلاد يومها في حالة طوارئ، وكانت التظاهرات ممنوعة، ولكنّهنّ نجحن في إرسال وفد من نساء كثيراتٍ من الحاضرات في ذلك اليوم للاجتماع مع شفيق الوزّان، رئيس الوزراء آنذاك.

في الواقع، لم يكُن لقاء رئيس الوزراء أهمّ ما حدث في ذلك اليوم، بل لقاء النسوة مع بعضهنّ، والاتفاق على ضرورة العمل معًا من أجل المُطالَبة بعودة أحبائهنَّ. وهكذا وُلِدَتْ لجنة الأهالي.

بدأ العمل بتوثيق أسماء المفقودين والمعلومات المتعلّقة بظروف خطف كلّ منهم، حَيثُ أرادتِ النّساء أن يُشرنَ من خلال ذلكَ إلى أنّ هؤلاء المفقودين ليسوا أرقامًا، بل هم أشخاص، لهم حيواتهم وعائلاتهم التي تنتظرهم. بدأت التحركات بشكل يومي، ثم أصبحت أسبوعية، وبعد سنتين من النضال صارت شهرية، ثم لاحقًا في التسعينيات حصل تحوُّل ملحوظ في طريقة عمل اللجنة لتصبح أكثر وعيًا وتنظيمًا.

وعندما أُعلِن انتهاء الحرب رسمِيًّا، وصَدر قانون العفو العام، فُرِضتْ سياسة النسيان، لأن حكّام البلاد أرادوا طمس ما اقتُرف خلال الحرب وإقناع الناس بوجوب الانخراط في إعادة الإعمار والقبول بالسياسات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة للبلاد. رفع العفو العام من شأن المرتكبين، فوضعهم في مواقع السُّلطة، وهمّش الضحايا لا سيما الأهالي ومفقوديهم/هنّ. في حينها، رُفِعَتْ شعارات إعادة الإعمار والمضي قدمًا. وفي هذا الصّدد، تقول وداد: «إنّ السياسة الرسمية حملت ممحاة وانطلقت في محو ذاكرة الناس والبلد.»

ولكن ألم يكن هناك حاجة حينها إلى فترة نواجه فيها ما أنتجته الحرب من خسارات ومواجع؟ ألم نكن في حاجة إلى فترة انتقالية نعي خلالها ما خسرناه، ونعترف به، ونتصالح معه قبل أن نعطي الأولوية لإعادة الإعمار والمضي قدمًا؟ [1]

كانت لجنة أهالي المفقودين أوّل من رفض هذا السلم «الهش والمزيّف» كما تصفه وداد، فلا يمكن أن تُطوى صفحة الحرب مِن دون أن نفتحها، ونقرأها، ونعالجها. حينها، أصبح شعار لجنة الأهالي: «من حقّنا أن نعرف».

في الحقيقة، لم تكن سياسة النِّسيان وَممارَسته فقط على مستوى الدولة وإداراتها التي أرادت وضع قضية المفقودين جانبًا، بل إنّ وسائل الإعلام ساهَمَتْ أيضًا في نشرها، وربما حاجة الناس إلى المضي قدمًا بعد كلّ الخسائر التي مُنِيُوا بها خلال الحرب. صار تكرار سؤال «بعدكن عم تدوروا عالمفقودين؟ ما كلهن ماتوا!» مُزعِجًا بالنِّسبة إلى الأهالي، ومستفِزًّا لهم ولوداد التي قالت: «لقد تنبّهنا إلى ضرورة أن يعي المجتمَع مسؤوليته إزاء قضيتنا، وأن ينخرط معنا في هذا النضال». لذلك، بدأت اللجنة في التسعينيات وما بعدها باستعمال أساليب جديدة: أغانٍ، وأفلام، ومَعارِض، وما قد يساهم كلّه في رفع الصوت أكثر مقابل سياسة الإسكات والدعوة إلى النسيان.

وتستطرد وداد قبل أن تُكمل الحديث عن دَور المجتمَع، فتقول إنه، حين تأسّست اللجنة في سنة ١٩٨٢، لم يتوقع أحد من الأهالي أنّ القصة ستطول لعقود، لذلك لم يفكّروا/نَ كثيرًا باسمٍ للجنتهم/هنّ؛ فتارة كانوا/كُنَّ يعرّفونها/يُعرِّفنَها بـ «لجنة أمهات المفقودين والمعتقَلين»، وتارةً أُخرى «لجنة عائلات المخطوفين»، وأحيانًا «لجنة مُتابَعة المخطوفين»... حتّى اعتُمِدَ اسم واحد في التسعينيات، وَهُوَ: «لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان». وفي أواخر العام ١٩٩٩، تقدَّمَتِ النِّساءُ بطلب تسجيلها كجمعية، وكان ميشال المرّ في حينها وزيرًا للدّاخليّة، حَيثُ رفض المُوافَقة على ذَلِكَ، مُعتبِرًا أنّ اسم الجمعية «سياسي»، فطلبَ تغييره، ولكنّ النِّساءَ رفضن تغيير الاسم، وتمسَّكن به حتّى رضخ الوزير وأعطاهنَّ العِلم والخَبر في أوائل العام ٢٠٠٠.

وبالعودة إلى دَور المجتمَع ودعمه للقضية، استطاعت اللجنة في التسعينيات تشكيل إطار أصدقاء للقضية، ضمَّ مجموعةً من جمعيات المجتمَع المدني والأهلي، بالإضافة إلى عددٍ من المؤسَّسات الإعلامية، والهيئات الثقافية والتربوية، والنوادي الرياضية، والنقابات، والعديد من الأفراد الداعمين والداعمات للقضية. أطلقت لجنة الأهالي وأصدقاؤها في أواخر العام ١٩٩٩ حملةً باسم «من حقنا أن نعرف»، وأصبح اسم إطار الأصدقاء «حقنا نعرف». وَقَدْ تنوّعت أنشطة الحملة، حَيثُ أصدرت موادَّ إعلانية من بوسترات ومَنشُورات وفيديو كليب، فضلًا عَنْ تنظيم مَعارِض وندوات، وإعداد أفلام وثائقية وإنتاج أغنياتٍ، وكلّ ما قد يساعد في إعلاء الصوت وإيصال القضية إلى أكبر عدد ممكن من الناس، وفي تكوين رأي عام داعم.

١. تعود هنا روابط الماضي والحاضر والمستقبَل إلى الظُّهور، تمامًا عند قراءة نصّ لإسلام الخطيب، وهي نسوية شابة وُلِدَتْ في التسعينيات، تناقش فيه الأمل على مدوّنتها، والحداد على ما نعيشه الآن، ولكن أيضًا الحزن على كلّ "الخسارات التي خبأناها عن الأعين". كما نستلهم من نصّها الحاجة إلى الاعتراف بخسارات تعنينا جميعًا، وتستحق التوقف عندها لنتذكرها.
https://islamalkhatib.medium.com/a-brief-note-on-hope-grief-and-the-apocalypse-3148caef7b69.

أوصَلَتْ هذه الحملة إلى أوّل اعتراف رسميّ بقضية المفقودين، من خلال تشكيل أول لجنة رسمية لاستقصاء مصيرهم. وبعد ذلكَ، تتالت الحملات، ما ساهم في إحراز خطوات كبيرة في مسار هذه القضية.
خرجت خلاصة تقرير اللجنة الرسمية بعد ستة أشهر من تاريخ تشكيلها بنتيجة تصفها وداد «بالمأسوية»، مفادها عدم العثور على أحياء من المفقودين، ووجود مَقابر جماعية في مناطق عديدة، سمّت عددًا منها؛ فالدّولةُ أرادت إقفال الملف مجدَّدًا، وهذه المرة بحجّة أنَّ المفقودين كلهم موتى، والاكتفاء بدليل وجود المَقابر مِنْ دون أيّ إثباتات أو أدلة، ومِنْ دون القيام بأيّ إجراء للتعامل مع هذه المَقابر.

لكنَّ لجنة الأهالي وحليفتها سوليد لجأتا عبر محاميهما إلى مجلس شورى الدولة، للمُطالَبة بحقّ الاطلاع على ملفّ التحقيقات، بُغيَةَ التثبت من المعلومات التي نُشرت حول وفاة المفقودين. وقَدْ صَدَرَ قرار مجلس شورى الدولة في سنة ٢٠١٤ لصالح الأهالي، مانِحًا إيّاهم/هنَّ الحقّ المُطلَق في استلام نسخة عن ملفّ التحقيق. والجدير ذكرُهُ أنَّ هذا القرار كان من العَناصر التي ساهمت في التوصُّل إلى إقرار قانون المفقودين والمخفيين قسرًا، فَضلًا عَنْ حملة ٤٠ الحرب (٢٠١٥) الّتي أُضيفَت إِلَيهِ لاحِقًا، والعريضة الوطنية للمفقودين (٢٠١٧-٢٠١٨)، وحملة لائحة المفقودين في كلّ لبنان (٢٠١٨)، ونضالات لجنة الأهالي ودعم «حقنا نعرف». وشكّل انتزاع القانون الخاص بالمفقودين والمخفيين قسرًا في ١٣ تشرين الثاني مِنَ العام ٢٠١٨، وبعد ٣٦ عامًا من النضال والتحديات والمُواجَهة، إنجازًا كبيرًا كرّس حقّ الأهالي في معرفة مصير مفقوديهم/هنّ.

وعلى الرّغم من هذا الإنجاز، إلّا أنَّ المعركة لم تنتهِ هنا، بل هي مستمرة من أجل فرض تطبيق هذا القانون؛ فنضال النساء لم يتوقف رغمَ تناقُص أعدادهنّ مع مرور السنين، ليس لأنهنّ كللن أو يَئِسْنَ، بل بفعل المرض والشيخوخة والموت. ولكنَّ وداد، في المُقابِل، تُردِّد أغنية فيروز «بدنا نكمل بيللي بقيوا».
ترى وداد أنَّ نضال لجنة الأهالي تطوَّر من نضال مطلبي إلى نضال وطني، مُضيفةً أيضًا «أنَّ المُطالَبة بإعلان ١٣ نيسان يومًا وطنيًّا للذاكرة وبإقامة نصب تذكاريّ لجميع ضحايا الحرب وليس فقط للمفقودين، يفرضها علينا واجبُ حفظ الذاكرة».

وفي إطار سعيها إلى حفظ الذاكرة، بَدَأَتْ لجنة الأهالي منذ سنتين ونصف بمَأسسة أرشيفها وتحويله من أرشيف ورقي بغالبيته إلى أرشيف رقميّ. وتكمن أهمية هذا الأرشيف في كونه لا يقتصر على المعلومات المتعلّقة بالمفقودين وبأنشطة لجنة الأهالي، بل يوثّق أيضًا حقبة من تاريخ لبنان الحديث، ويُلقي الضوء على سلوك السلطات الرسمية والأحزاب الّتي لا ينبغي طمسها وتجاهلها مهما كانت بشعة. وبالتالي، ارتأت لجنة الأهالي أنَّ هذا الأرشيف لا يجب أن يبقى ملكًا خاصًّا بها، بل لا بُدَّ مِنْ أن يتوسع ويتشعب ويصبح عامًّا ومُتاحًا للمهتمين والمهتمات، وأن يشكّل مرجعًا للتعامل مع الماضي والتفاعل معه.

وكان مِنْ صلب عملنا في هذه الإصدارة، أن نتذكّر الماضي ونعيد استكشافه، وأن نواجه سياسات الإهمال والنسيان؛ فنضال لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين يُذكِّرُنا بأهمية مُواجَهة ماضينا والمعرفة، كعنصرين أساسيَّين، كي نتمكَّن كمجموعات وكأفراد من التّعافي وتحقيق العدالة. وعلى الرّغم مِنْ أنَّ التسعينيات في حينها كانت عقدًا لسياسة النسيان، خصوصًا النسيان الجماعي للحرب والقتل، بَيدَ أنَّ هذا النضال سيبقى يذكِّرنا بأنَّ هذه السّياسة لَمْ يَمشِ الجميع وراءَها، بل بقيت هناك مجموعات أصرّت على المُواجَهة والتَّعامُل مع الفقدان والنسيان، لننجحَ في فَهمِ ما حصل كلحظات أساسية في مآلات ما وصلنا إليه اليوم.

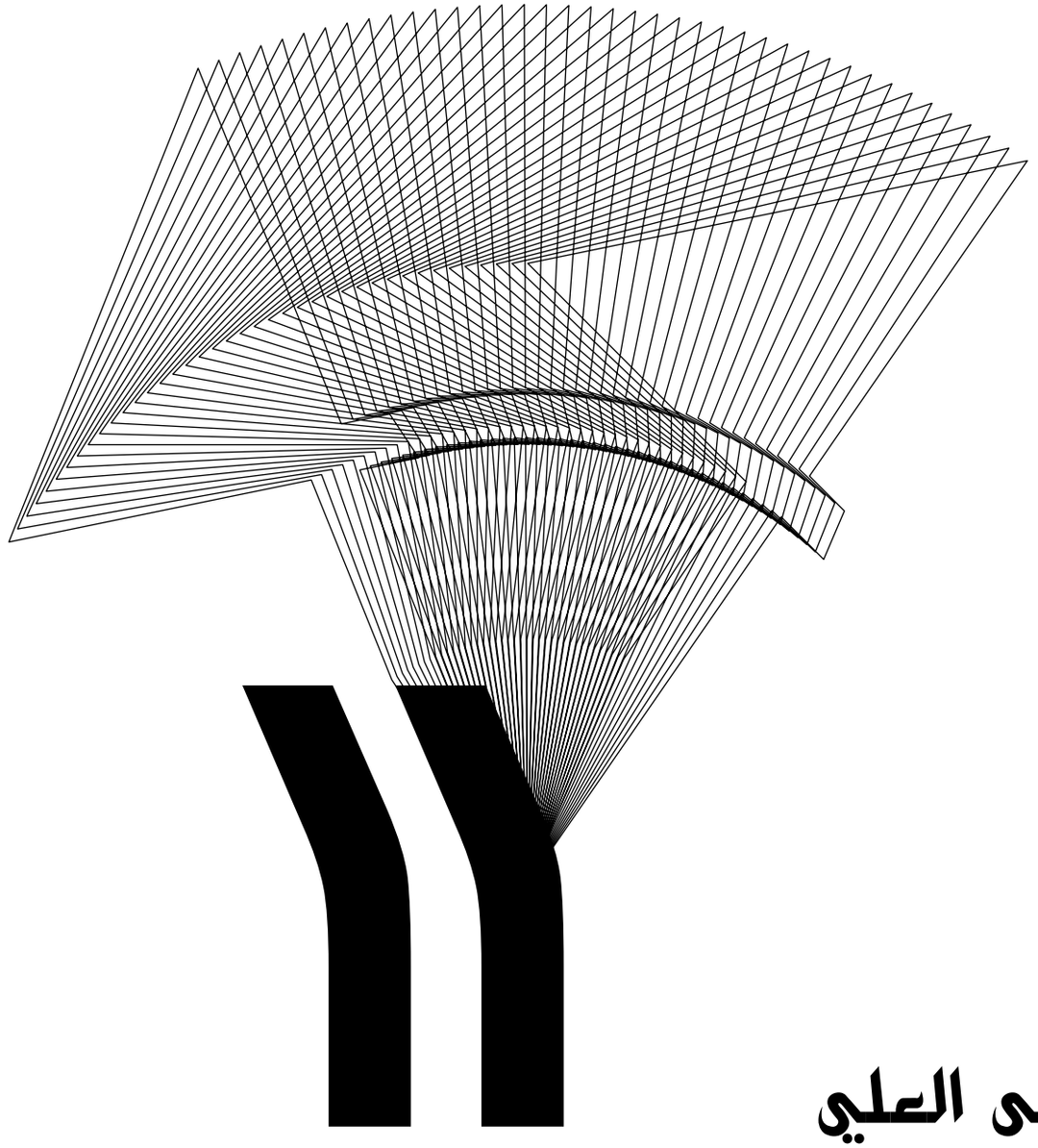

ليلى العلي

مقابلة أجرتها فاطمة الموسوي وسينتيا عيسى

مقابلة مع ليلى العلي، ناشطة نسوية فلسطينية

فاطمة الموسوي: بداية رح أبدأ بسؤال، وضعته سينتيا، عن كيف نشأت النجدة الاجتماعية؟ وكيف تطورت عبر السنوات؟

ليلى العلي: فكرة النجدة إجت من خلفية يسارية، وعشان هيك من البداية كان التركيز على النساء المعيلات لأسرهن، اللي فقدوا أزواجهن بالحرب وصاروا معيلات. فالشغل بدأ مع النساء المعيلات من أجل تمكينهن إقتصاديًا (قبل كان يُطلق عليه اسم دعم اقتصادي)، حتى يقدروا يتأقلموا مع كل المسؤوليات اللي أضيفت على كاهلهن بسبب الحرب والتهجير. وكان في ضرورة بأن تنفتح حضانة وروضة لأطفال النساء اللي عم يشتغلوا بهاد المشروع الاقتصادي. ومع السنين، تبين إنو في حاجات أكتر طبعًا. كان في ضرورة بأن نفكّر بتمكين إقتصادي أوسع، يعني تأطير المشروع، فصار أوسع، وارتبط بالتأهيل المهني مثلًا، يعني مراكز للتدريب المهني بتعلّم الفتيات والنساء مهنة، ويأمنوا شغل بعدها ويروحوا على سوق العمل.

ترافق مع هذا التمكين مشاريع الإغاثة الدائمة والمستمرة بسبب الحروب-- يعني بشكل دائم من ال١٩٧٦حتى ال١٩٨٢ لم تتوقف أبدا مشاريع الإغاثة بأشكالها المختلفة، للنساء وللفلسطينيين بالمخيمات كمان. المحطّة الفارقة كانت أعتقد بال١٩٨٢ بحياة النجدة، ويمكن بحياة كل المنظمات الغير حكومية اللي إشتغلوا بلبنان، لأنه كان في ضرورة لتوسيع نطاق التدخلات، بسبب الإجتياح، وكل ما استتبع ذلك من مزيد من الضغوط على حقوق النساء: ضغط الإحتلال، صعوبة الحركة، التهجير الإضافي، تدمير بعض المخيمات بكاملها، أو بشكل جزئي، وتهجير واسع لمجتمع مخيّمي بكامله. وصار في ضرورة لتدخلات أوسع، وهذا اللي صار. بين ال١٩٨٢ وال١٩٩٠ إتّسعت البرامج، بما فيها برامج الإغاثة، لأنه بين ال١٩٨٤ وبين ال١٩٩٠ كان كمان في حروب على المخيمات، ودمار هائل، وتهجير. فصار في برامج إغاثة أوسع، وبرنامج التدريب المهني امتدّ على كل الأراضي اللبنانية. افتتحنا روضات للنساء اللي بيستفيدوا من مشاريعنا الإقتصادية كلها، من أجل تأمين أماكن آمنة لأطفالهن.

مع منتصف التسعينات، بلّش يتفكر بالقضايا اللي إلها علاقة بحقوق النساء على شكل أوسع، وبلّشنا مع جامعة كولومبيا أول إشي مشروع تجريبي pilot project، بعدين كبر. كان له علاقة بالعنف الأسري، واللي على ضوئه، بعد دراسة إستطلاعية مع النساء بالمخيمات، بلّشنا بمركز استشارات ببيروت، بعدين امتدّ لصيدا، ومن بعدها راح على كل المناطق، وهلق صار برنامج ما عادش مشروع - صار إسمه Women's Rights program. بنهاية التسعينات، بلّشنا بدعم نفسي اجتماعي psycho-social support، إضافة طبعًا لمحو الأميّة للفتيات والنساء. ما كان سهل الدخول بهيدا المجال لأنه حتى المؤسسات الدولية كانت تقول «هاد مش مشاريع إغاثة». بس نحن كنا مصرين إنها مشاريع لازم تفوت بالإغاثة بمجتمعات عم تتعرض لحروب وإعتداءات، وضغوطات إقتصادية وبعدها حرب ال ٢٠٠٦ الخ... وكنا مركزين بالفترة الأولى بالجنوب وبالبداوي.

بمنتصف التسعينات، كمان لازم أقول، النقلة النوعية كانت التعاطي بشكل مباشر بقضايا المناصرة لحقوق اللاجئات واللاجئين الفلسطينيين/ات بلبنان، ما كان سهل كمان، إن على المستوى الفلسطيني الداخلي أو على المستوى اللبناني. لأنه على المستوى الفلسطيني كان في فكرة بتقول إنو أي تعاطي مع حقوق الإنسان أو المرأة أو الطفل بلبنان، هاد بدخلنا على نقاش طويل عريض له علاقة بالتوطين، ونحن كنا مصرّين على إنه هاد ما إله علاقة بالتوطين، عم نحكي عن حقوق إنسانية واجتماعية، مش عم نحكي عن حقوق مدنية. بالتالي حق العودة مُصان، وما في ضرورة لنفوت بقضايا إلها علاقة بالنقاش اللي بتم استغلاله بأشكال مختلفة. بالنصف الثاني من ال١٩٩٤، بلّشنا بحملة مناصرة إلها علاقة بحقوق

الإنسان، خاصة الحق في العمل للفلسطينيين بلبنان. ومن بداية التسعينات حتى الآن عم نحاول قدر الإمكان نشتغل joint advocacy مناصرة مشتركة بقضايا حقوق المرأة وحقوق الطفل، اللي كسر بعض المحرّمات والشغل على المجالات المنهجية اللي إلها علاقة بالمرأة والطفل دون موارية وبشكل مباشر، لأنه قبل هيك كان في تنميط -إلا باستثناءات محددة- يعني قليل المنظمات اللبنانية اللي كانت فعلًا مناصرة لحقوق النساء الفلسطينيات. كانت الRDFL من أبرز المؤسسات اللي كان موقفهن واضح وصلب مع المرأة الفلسطينية في لبنان، أو بالضفة، أو بغزة، وين ما كان، ومع الحقوق الشاملة للنساء بدون تجزئة. هني الوحيدين اللي كان موقفهن هالقد واضح وصريح.

سينتيا عيسى: عندي سؤال بيتعلّق بفكرة دمج حقوق المرأة الفلسطينية بخطاب حقوق المرأة اللبنانية، أو حقوق النساء بشكل عام. هل كانت بس نوع من دمج بحقوق المرأة اللبنانية، أو كان في نوع من التغيير؟ يعني كيف بدنا نحكي عن حقوق المرأة ونغيرها إنطلاقًا من التجربة الفلسطينية؟

ل.ع.: بلّش الموضوع مع حملة «جنسيتي»، سنة ١٩٩٩ بالرغم من حساسية الموضوع وقتها، لأن البعض بيعتبره توطين كمان. بلّش من هونيك، باعتبارنا جزء من التحالف لحملة «جنسيتي» مع الCRTDA. بس بعدين فكّرنا بالموضوع إنه لازم يكون أوسع من هيك، أولًا لأن المرأة الفلسطينية بتتعرّض لـ٣ مستويات من التمييز بلبنان: بتتعرّض لتمييز باعتبارها لاجئة، وتمييز باعتبارها فاقدة للهوية، وبتتعرّض لتمييز بناء على النوع الاجتماعي، وهاد اللي بيجمعها مع المرأة اللبنانية، يعني التمييز المبني على النوع الإجتماعي هو اللي بيجمعها مع المرأة اللبنانية. فبقول بعد ما بلّش هاد التنسيق، وكنّا مشاركين فاعلين بالحملة بالفترة الأولى، ناقشنا الموضوع داخليًا. وأدركنا ان الموضوع أوسع من هيك بكثير، وفي ضرورة إنه ندخل عليه، ندخل على موضوع التمييز ضد اللاجئة أينما كان، ونشوف وين التقاطعات، اللي في إمكانية نشتغل مع بعض، مع النساء اللبنانيات، أو الجمعيات اللي بيشتغلوا على قضايا حقوق النساء اللبنانيات، عشان هيك كانت البوابة الأوسع، يعني المدخل الكبير بالنسبة لإلنا، موضوع المواثيق الدولية اللي إلها علاقة بحقوق النساء، واللي لبنان ملتزم فيها، واللي ما بتحكي عن مواطنات، بتحكي عن مقيمات.

فهيك كان التطور إذا بدّك. هلق هاد ما وقّف ولا للحظة النشاطات التضامنية العامة، يعني يوم المرأة منحتفل فيه سوا مثًلا، نشاطات مشتركة بتكون، أو نشاطات بالمخيمات. صيدا، لازم أقول، كانت من أوائل المناطق اللي المنظمات فيها كانت مفتوحة على المؤسسات العاملة بالوسط الفلسطيني بغض النظر عن البرنامج اللي بتشتغل عليه. يعني المنصات تبع صيدا من أول ما تأسّس، كان بضم كل الجمعيات اللي بتشتغل بالوسطين الفلسطيني واللبناني.

س.ع.: يعني كان في إمكانيات أكثر بصيدا؟

ل.ع.: كان في مش بس إمكانيات، كان الموقف والمفهوم أو الرؤية اللي إلها علاقة بالعلاقة مع المنظمات غير الحكومية والفلسطينيين، بشكل عام، كانت مختلفة، أكثر قربًا، وبتعتبر إنه في ضيم واحد. بعرفش إذا لأنها منطقة فقيرة، والفقر بتعاني منه النساء، وكمان بيعاني منه الشعبين، الفلسطيني واللبناني بالمنطقة، يعني منطقة محرومة كانت زي ما بتعرفوا...

ف.م.: يمكن كمان المنظمات غير الحكوميّة اللبنانية بصيدا قلال، وأغلبهن مرتكزين ببيروت؟

ل.ع.: كانوا، مظبوط قلال. يعني لما بلّشنا النجدة بال٧٦ كنّا من أوائل الجمعيات اللي سُجِّلوا بلبنان على فكرة، والعاملين بالوسط الفلسطيني، من أوائل الجمعيات. ومن أوائل الجمعيات النسوية كمان اللي بلّشت شغل دغري على قضايا حقوق النساء. بوقتها كان عدد الجمعيات كتير قلال، كانوا سابقينا كاريتاس يمكن، بعدين نشأت مؤسسة عامل. ود. كامل مهنا أخذ فكرة المنظمات الغير حكوميّة من النجدة، لأنه واحد من مؤسسي النجدة.

ومؤتمر بكين على المستوى اللبناني كمان عمل نقلة، لأنه وقتها شعرت النسويات مش بس بلبنان، بل بالعالم كله، قديه مهم إنه ينشغل بشكل مركّز على برامج إلها علاقة بحقوق النساء. ومن أجل تحقيق إنجازات بهي الحقوق، لازم يكون في عمل جماعي من جهة، ولازم يكون في شبكات تضامن من جهة أخرى. وإلّا رح يكون صعب كثير نحقق إنجازات، عشان هيك بلّشت الشبكات تظهر، مش بس بلبنان، بالمنطقة وبكل العالم

س.ع.: حضرتك قلتِ أن بكين كانت يمكن مش نقطة فصل، بس كانت نقطة انطلاق، لحتى يصير في نوع من التشبيك بين النساء، وما بعرف إذا إستعملتوا كلمة نسويات ولا لأ؟

ل.ع.: مظبوط، مبلا، مبلا

س.ع.: إستعملتوا كلمة نسويات؟

ل.ع.: مظبوط، من وقتها بلش ينحكى عن النسوية، بعد بكين، في لبنان على الأقل.

س.ع.: ممكن تعطينا لمحة سريعة؟ أنا بهمني أعرف، و يمكن للنسويات اللي من جيلي، أو حتى اللي أصغر، إذا بدهن يرجعوا يفَعلوا هيدي الشبكات بالوقت اللازم، ضروري نعطي لمحة عن شو كانت هيدي الشبكات؟ كيف عنجد صار في شغل، وكيف صار في علاقات؟

ل.ع.: شوفي، من تقريبًا منتصف أو نهاية الستّينات، لحد مؤتمر بكين، كان الإطار النسوي، أو النسائي (لحد هلق بسموه نسائي، ما بسموه نسوي) العالمي هو الإتحاد النسائي العالمي، اللي بضم النسويات المنتميات لأحزاب اشتراكية وتقدمية ويسارية، أو اللي مرتبطين بحركات تحرّر بهيداك الوقت. فكان الإطار الوحيد النسائي اللي بيدمج القضايا الوطنية العامة، مع قضايا التضامن النسوي الدولي. يعني ما كان يشتغل على قضايا حقوق النساء، كان أكثر إطار تضامني نسائي، في حال تعرّضت النساء أو أي دولة لاعتداء، كنتي تشوفي هيدا التضامن الدولي إذا بدّك. في بكين كان الإتحاد النسائي العالمي موجود، بس بعده على الأقل رح إحكي عن لبنان والمنطقة، الشي اللي منسميه المشرق-المغرب، صار في تفكير بأنّه في ضرورة لأن تنعمل شبكة إقليمية يكون عنوانها واضح، تكون علمانية طبعًا، دفاعًا عن الحقوق المتساوية بين النساء والرجال، واللي هيّ شبكة عايشة.

شبكة عايشة هي أول شبكة بالمنطقة لم تنشأ بناء على مشروع مموّل، لأنه كل الشبكات اللي بعدين إجت وراها أنشأت من قبل مانحين ومشاريع. هي الشبكة الوحيدة اللي لم تنشأ بناءً على تمويل ومشروع، والشبكة الوحيدة اللي عنوانها زي ما حكيت كان كثير واضح، يعني الهدف إلغاء كل أشكال العنف والتمييز ضد النساء، والمساواة التامة بين النساء والرجال، وهيّ إجت مباشرة بعد بكين. من لبنان كان في جمعيتين فقط عضوات ومؤسسات بعايشة، اللي هنّي النجدة والRDFL، ما كان في حدا غيرنا، لأنو بهداك الوقت ما كان في ولا جمعية نسائية، بإستثناء -بعدين طبعًا- الهيئة اللبنانية لمناهضة العنف ضد المرأة، اللي بعدين إنضموا لعايشة. ورح إحكي تجربة مش إيجابية هلّق، عن التنافس غير المبدئي أحيانًا، أنا بدي أسميه هذا التفكير البطريركي اللي منعيشه كلنا وأحيانا منمارسه بما فيهن النسويات، بخلينا نشتغل بتزاحم وتنافس غير مبدئي. فشكّلنا كعايشة «محكمة النساء العربيات»، وكمان كانت أول محكمة نسوية عربيّة، بتحاكم المُعتَدين والمُعنِّفين، وكنا نجيب شهادات حية من كل المنطقة العربية لنساء تعرضوا للعنف. هذا التنافس أخذ محكمة النساء لمحل ثاني، لكن كل فكرة المحاكمة بلّشت من عايشة.

س.ع.: ممكن تقوليلنا أكثر كيف كان العمل؟ كيف يعني يكون في محكمة نسوية عربية؟ عم جرب إفهم، عم جرب إتخايل شو يعني؟

ل.ع.: منشكّل قضاة، طبعًا من النسويات، وبيجوا النساء اللي بدهن يشهدوا، من المنطقة العربية كلها. عملنا أكثر من محكمة عربية، وموثقين بملفات عايشة، وحدة منهن كانت بلبنان، وكانت كثير مهمة، أخذت كثير ضجة إعلامية وقتها. كنا نجيب نساء تعرضوا للعنف، بيدلوا بشهاداتهن قدام المحكمة، وطبعًا بكون في جمهور، المحلفين، وبعد كل شهادة، بيتداول القضاة، وبيصدروا قرار. فهي أكثر محكمة رمزية، عم نحاكم المعتدين على حقوق النساء بغض النظر مين يكونوا، جهّة أو فرد أو غيره.

ف.م.: مقررات هيدي المحكمة لوين كانت تروح؟ أو كيف كانت تُستخدم للضغط على الرأي العام من جهة، والمؤسسات الرسمية من جهة أخرى؟

ل.ع.: عايشة كان دايمًا عندها تصاريح وبيانات ومذكرات، كانت تعمّم على كل صانعي القرار، حكومات، وزارات، سفارات، دايمًا، بعد كل إشي بتعمله بكل المناسبات. شغلة ثانية حابة أقولها إنه أوّل من أدخل موضوع العنف ضد النساء للمنطقة العربية بشكل عام، خاصة بموضوع تطوير المهارات، ومراكز الإستماع، كمان جاء عبر عايشة، لأن عايشة كان عندها أعضاء من المغرب العربي، خاصة من المغرب وتونس، والمغرب كان سابق تونس بموضوع العنف ضد النساء، وقضايا الخدمات والإستشارات اللي إلها علاقة بالنساء المُعنفات. وكنّا نحن أول من عمل تدريب بلبنان، كعايشة، حول موضوع الإستماع ومهارات تقديم الخدمات للنساء المعنفات.

ف.م.: فالمحكمة رمزية، قيمتها معنوية، منطلقة من المحاكمات التي لا تحصل حقيقة في القضاء؟

ل.ع.: رمزية، مظبوط. رح قلك شغلة ثانية كمان، بالمنطقة، أوّل برلمان نسوي إنعمل، وأوّل حدا فكّر بدستور حسّاس للنوع الاجتماعي كانوا الفلسطينيات، بعد أوسلو مباشرة. كان عم يتناقش مسودة دستور فلسطيني، النسويات بفلسطين، خاصة عضوات عايشة، أخذوا المبادرة وشكّلوا برلمان نسوي، حطّوا كل النسويات فيه، وجابوا كل الأحزاب السياسية، ممثلين عنهن، حتى يناقشوا دستور حسّاس للنوع الإجتماعي وبيضمن حقوق النساء.

س.ع.: وين فيني إحضرهن هيدول المحاكم؟

ل.ع.: مش موثقين فيديو، مش مصورين، لأنه بوقتها ما كنّا نستخدم الفيديو، وما كنّا نستخدم حتى التسجيل، يمكن يكون في توثيق كتابة بس مش تصوير، إلا إذا في بتونس، هناك آخر محكمة صارت وحصل توثيق. وهذه المحاكمات انعملت قبل في تونس، وانعملت ب كوبا كمان بمنتصف التسعينيات، بفاعليّة كان إلها علاقة بالعاملات على فكرة.

ف.م.: أستاذة ليلى، بما أنك أشرتِ أنه بعد أوسلو عملتوا هيدي النشاطات، وتزايد هالنوع من النشاطات، ليش؟ شو كان تأثير أوسلو على المرأة الفلسطينية تحديدًا؟

ل.ع.: بكين كان بال٩٥’، يعني بعد أوسلو كمان.

ف.م.: نعم، بس أوسلو كانت مفصلية بالصراع العربي الإسرائيلي وبأوضاع الفلسطينيين

ل.ع.: هلق أنا عندي رأي بأوسلو، أوسلو يعني رجعنا ١٠٠ سنة لورا

ف.م.: أيه طبعًا أنا كمان هيك رأيي، بس شو كان أثره؟

ل.ع.: أوسلو فوّت السلطة على الداخل، وكان عم بحولها إلى سلطة مدنية، اللي لازم تدقق بالقوانين المحلية، اللي بتتعاطى مع حياة الناس والسكان، فكان عم ينحكى عن دستور مثلًا، كان عم ينحكى عن قانون الأسرة، عن قانون طفل، كان في فرصة بأن تتناقش كل هذه القضايا، هاد عم بحكي بالضفة وبغزة. في لبنان، طبعًا نحنا الوضع عنّا مختلف، لأن نحنا ما بيشملنا الشي اللي له علاقة بالسلطة، أكثر إلنا علاقة مع المنظمة، فاللي كنا عم ندفع بإتجاهه هو موضوع التمثيل السياسي للفلسطينيات باللجان الشعبية مثلًا، لأنه ما في تمثيل كان بقضايا الحكم المحلّي، موضوع خلق آليات محلية للحماية من العنف مثلًا، موضوع المشاركة السياسية للنساء بمنظمة التحرير، وموضوع الكوتا، وغيره، يعني هالقضايا اللي نحن كنا منركّز عليها بلبنان أكثر.

ف.م.: وهيدا الشي كان بالتوازي مع بكين؟

ل.ع.: مظبوط

ف.م.: بما إنو الحركة النسوية الفلسطينية بلبنان نشأت تحت وطأة وضرورة التحرّر من تبعات الإحتلال الإسرائيلي، وأيضًا بذات الوقت تحت ضغوط اللجوء وأوضاع الفلسطينيين بلبنان، هيدا الشي أعطاها أطر معينة وخصوصية، وحتمًا وضع عقبات كبيرة أمام المرأة الفلسطينية بلبنان وعملها النضالي سواء بمسألة التحرر أو مواجهة الإحتلال والإستبداد السياسي والعسكري والوجودي، ومن جهة أخرى بمواجهة الإستبداد العائلي والإجتماعي الذكوري. كيف بتحطّي هذه الخصوصية أو بتعطيها قالب معين؟

ل.ع.: شوفي، بلبنان، الفلسطينيات كانوا مشاركات دايمًا بكل القضايا النضالية اللي إلها علاقة بالمشروع الوطني الفلسطيني وحماية المخيمات، وكانوا بارزات على المستويين، إما بالعمل العسكري المباشر، أو بالعمل الإجتماعي اللي بأمّن صمود الناس ويعزّز صمودهن. في هذه الثقافة الوطنية العامة اللي إلها علاقة بالدفاع عن المشروع الوطني الفلسطيني والانخراط بالنضال الوطني، هذا من جهة، بس هي المشاركة ما تطوّرت حتى تعزز موقع المرأة بمواقع صنع القرار، عم بحكي لا على مستوى الأحزاب، ولا على مستوى منظمة التحرير، إلا مع بعض الاستثناءات، يعني فتح حدّث ولا حرج، إشكالية جدية، بعد شوي مثل حماس بموضوع التمثيل النسوي. بتلاقي طبعًا التمثيل النسائي أحسن عند الأحزاب اليسارية. وطبعًا بالمقابل كان وما زال موجود الإتحاد العام للمرأة الفلسطينية اللي هو إطار بضم كل الأطر النسوية المرتبطة بالأحزاب، ومشكلة الإتحاد إنه ما اشتغل على قضايا حقوق المرأة اللاجئة، كان أكثر بيشتغل على قضايا وطنية عامة، وعلى مشاريع بديرها، منها روضات مثلًا. المشكلة كانت كيف بتجمعي بين موضوع حقوق النساء، وبين موضوع النضال الوطني، وكيف تقدري تسوقي وتحشدي للفكرة، وعلى قاعدة مش إنه في أولوية تأتي قبل الأخرى، على قاعدة أن هيدول الموضوعين لازم يمشوا بالتوازي مع بعض. فإذا بدّك مشاركة فاعلة للنساء بالنضال الوطني، في ضرورة إنك تمنحيها حقها على الأقل بحرية الحركة للمشاركة السياسي، وهي نصف المجتمع الفلسطيني، أكثر شوي نحن من النصف. واللي بدّو يعمل عملية تحرّر وطني، بدو يفعّل كل المجتمع الفلسطيني، مش نصفه فاعل ونصفه مش فاعل. فكان في نقاش، ولحد هلق يعني، مش كله يحلو له أنك تشتغلي بقضايا حقوق المرأة، بالمخيمات والتجمعات، وبقولولك «من وين جاييتنا بهي الفكرة؟»

س.ع.: تعقيبًا، كان بدّي أسأل كيف حضرتكن بالنجدة، أو حتى كنسويات ومنظمات نسوية فلسطينية، كيف قاربتوا النضال التحرّري والنضال ضد الذكورية والعنف، شو اللغة اللي إستعملتوها للإصرار مثلا على إنو «نحن نسوان ونحن كمان فلسطينيين وفلسطينيات؟»

ل.ع.: عنّا ما كان ممكن تتعاطي مع الموضوع إلا بطريقة غير مباشرة، مثلًا ما كان ممكن تحكي عن العنف ضد النساء أول ما بلّشنا نشتغل على الموضوع. كان لازم نبلّش بشي سميناه العنف الأسري، حتى لو كان المستهدف وكل المضمون إله علاقة بالعنف ضد النساء. كل اللي كنّا منعمله كان عنف ضد المرأة، بس بين قوسين، والعنوان العام للبرنامج كان العنف الأسري، شوي شوي قاربنا الموضوع للمجتمع الفلسطيني، هلق منحكي عن البرنامج، برنامج حقوق النساء، أو النساء والفتيات، يعني هلّق عنوانه صار كثير واضح، بس بعد ما كنا أمّنا الحاضنة الإجتماعية اللي بتتقبل هاد الموضوع. ما

بيعني إنو ما عم نتعرض أحيانًا لشوية ومناوشات، من نمط لمّا بتحكي عن التحرّش الجنسي، أو العنف الجنسي ضد النساء، بيطلع مناوشات أحيانًا، أو لما بتحكي عن إنك مؤسسة نسوية علمانية، «شو علمانية يعني، إنتو كفرة!» بس بتقدري تحكي بشكل عام، يعني هلق نحن معروفين مؤسسة نسوية علمانية بتشتغل بالمجتمع الفلسطيني بشكل عادي، بس هذا مرق بمراحل.

س.ع.: سؤالي هلق بدي راجع فيه سياسات النسيان اللي صارت بلبنان بعد الحرب الأهلية، مثلا من خلال قانون العفو العام، وإعادة إعمار بيروت. وفي لبنانيين ولبنانيات كمان فضّلوا إنهم يتناسوا، أو ما كان عندهم غير حل. بذات الوقت، فرق قادتها النساء مثل Act for the Disappeared إشتغلوا ضد سياسة التناسي لأسباب واضحة. بالإطار اللي كنتي بتنشطي فيه، شو كان موقعك وموقع الفلسطينيين والفلسطينيات بمحيطك خلال هيدا النسيان، وموقع النسويات والناس اللي بتشتغلي معهم عمل سياسي؟ هل النسيان كسياسة أو كممارسة يومية كانت موجودة بالخطاب أو السياق تبع عملكن السياسي أو سعيتم لمقاومتها؟

ل.ع.: عم تحكي عن الحرب الأهلية إنتِ صح؟

ف.م.: وتحديدًا كمان على المجازر اللي صارت بحق المخيمات، هل اندرجت نوعًا ما بسياق النسيان؟

ل.ع.: أقلك، عند الفلسطينية، في شي مختلف عفكرة، نحنا عنا ذاكرة شفوية منقولة من جيل لجيل، يمكن إلها علاقة بالإحتلال والتهجير، يعني ما بتلاقي بيت فلسطيني ما بينقل الذاكرة -كل الذاكرة— بما فيها اللي إلها علاقة بالحروب والاضطهاد والخ من جيل لجيل. مثلا إمّي لحد هلق بتحكي عن إيام المكتب الثاني وكيف كانوا يتعاطوا معانا، وكيف كانوا يمارسوا العنف علينا، وبتعطيني أمثلة، كيف كان تاع المكتب الثاني بأي وقت بحقله يدقّ على الباب حتى لو كان أبوي سهران هو وإخواته، ويقلهن «بدي أفوت أسهر معاكو»، كيف كان يضربوهن ظبط لأنه عم يشطفوا البيت ونزلت مي بالطريق، وعم بحكي بالمخيمات، هذا غير طبعًا موضوع التهجير تبع الـ٤٨، الشي اللي إله علاقة بالقرى والمدن وإلخ. فالفلسطينيين معروفين بالشغل على هي الذاكرة المنقولة اللي بتنحمّل من جيل لجيل. مش الهدف منها تغذية الأحقاد، وإنما الهدف منها التأكيد على الحقوق، بالنسبة لإلنا هيك، إنو هذا حق لازم ناخذه، هذا ظلم نحن تعرضنا لإله، لازم نتعلم منه، حتى ما نتعرض لهذا الظلم مرة ثانية. ويمكن عشان هيك، بالسنوات الأخيرة مثلًا، الفلسطينيين ما بيتدخلوا ولا بأي شي إله علاقة بالصراع اللبناني الداخلي، بالرغم من إنه صار في حروب عليهن، حرب المخيمات مثلًا، بس ما بيدخلوا نهائيًا بهذا الموضوع، تعلّموا من التجربة، أن هذا إشي داخلي لبناني ما منقرب عليه. بالمقابل، لما بيحكوا عن موضوع سيادة الدولة على المخيمات، ما منسلّم بالموضوع بسهولة، منقول «بدكن سيادة؟ بالتأكيد يعني، هذا حق الدولة اللبنانية، بس قبل ما تحكوا عن السيادة، إحكوا عن كل الحقوق للاجئين الفلسطينيين، الحق بالحماية، الحق بالحقوق الإنسانية والإجتماعية، والحق بالسيادة». بس مش إنه تبلشولنا بالحق بالسيادة وما تعطونا حقوقنا الثانية. مقاربتنا مختلفة، مش مثل اللبنانيين.

ف.م.: ببداية حديثك ذكرتِ أن النجدة كانت عم تتعاطى مع الشقّ الاقتصادي على أنه هو شق أساسي جدًا لأنه يساهم بتمكين المرأة وتقويتها وإعطائها جزء كبير من استقلاليتها. فترة التسعينات التي تلت الحرب الأهلية شهدت توحّش رأس مالي إستمرّ لحد اليوم، واليوم عم نشهد تبعاته بشكل واضح. كيف بتعتقدي كان إلها أثر على وضع النساء بلبنان، وتحديدا وضع النساء الفلسطينيات؟ وكيف النجدة قدرت تتصدّى للموضوع وتدرجه بالأجندة الخاصة بتعاطيكن مع الواقع الاقتصادي الراهن في البلد؟

ل.ع.: شوفي، في أوجه عنف متشابهة بتتمارس على النساء بسوق العمل، والحرمان واحد من الحقوق الإجتماعية، اللي مرتبطة بالحقوق الإقتصادية. في فترة عملنا حملة مشتركة بالمناسبة، مع الأرضية المشتركة حول الحقوق الإقتصادية والإجتماعية للنساء في لبنان، لأنه بغض النظر عن منع الفلسطينيات من الوصول للعمل، بس وقتها قلنا أن أوجه العنف واحد، الأجور حتى لو تفاوتت بين المرأة اللبنانية والفلسطينية، يبقى بشكل عام في إستغلال للمرأة العاملة إن كانت لبنانية أو فلسطينية، بيتقاضوا رواتب أقل من الرجال بغالبيتهن العظمى، هيدا واحد. النقطة الثانية، النساء تتعرّض لكل أنواع التحرش. ثلاثة، ما في ضمانات إجتماعية مرتبطة فيهن، بما فيها موضوع إجازة الأمومة وكل ما هو مرتبط فيها، يعني تأمين حضانات وإلخ. هلق، عند المرأة الفلسطينية يزداد العنف، يعني بصير الراتب حتى لو كان للمرأة اللبنانية أقل من الرجل، بصير عند المرأة الفلسطينية كمان أقل من المرأة اللبنانية. التمييز اللي بتتعرضله مش بس مبني على النوع

الإجتماعي، بتتعرض كمان لتمييز له علاقة بالوضع القانوني تاعها، تمييز مضاعف لأنها لاجئة، مثلًا ممكن قدرتها على الوصول إلى مكان العمل أصعب بكثير من المرأة اللبنانية.
هلق النجدة وسّعت كل برامج التدريب المهني عندها من جهة، طوّرت مضمون دورات التأهيل المهني، وخلقت آليات تمكّن الخريجات من الوصول للعمل. وبنفس الوقت كانت تشتغل على توعية أهالي الطلاب. كان في بعض السنوات عدد الخريجين عنا ما بقل عن ٦٠٠ فتاة وامرأة من مراكز التدريب المهني، وكانت نسب التشغيل عنّا بتتراوح بين ٤٠-٦٠٪ من الخريجات، والخريجين طبعًا. هلق الوضع مختلف، الوضع أصعب بكثير، بس عم بحكي بفترة التسعينات شو كانت الآليات والمقاربات بالتعاطي مع الموضوع.

ف.م.: سؤالي الأخير لحضرتك هو، هل إنتِ اليوم، كناشطة نسوية بلبنان، متفائلة أكثر أم كنتِ في التسعينيات متفائلة أكثر؟

ل.ع.: أنا هلق متفائلة أكثر، لأنه واضح أنه في تطوّر بالخطاب النسوي اللبناني بشكل عام، وفي نسويات شابات اللي فعلاً بيآمنوا بعالمية حقوق النساء في لبنان بغض النظر عن جنسيتهن. في إدماج لقضايا حقوق النساء بكل التحركات والحركات المطلبية، في إنجازات إنعملت، يمكن ما كثير تكون مهمة، بس ببلد فيه هالقد نظام طائفي، وما في نظام طائفي ما فيه عنف ضد النساء، وعم تتحقّق هالشغلات خطوة ورا خطوة، هذا إشي بيدعي للتفاؤل، صراحة.

س.ع.: أكثرية هالحركات ما بعرف إذا منظمة بالطرق اللي إنتوا كنتوا منظمين فيها من قبل...

ل.ع.: لأ، مش منظمة مثل ما كانت منظمة قبل، معك حق. بس رح يجي وقت رح تشعر هالحركات أنه في ضرورة لأن تتنظم، ولأن تكون متضامنة مع بعضها البعض، حتى لو كانت كل مجموعة بتشتغل على فكرة مختلفة، بس في ضرورة لأنها تتضامن مع بعضها البعض إذا بدها تحقق إنجازات، رح يوصلوا لهون، أنا متأكدة. التغيير دايمًا بدّو وقت، مش سهل خاصة إنه أولًا عم تلامسي موضوع بيتعلّق بكل النظام بالبلد، عم تحكي عن حقوق النساء، عن تغيير بكل المنظومة القانونية والدستورية بالبلد، وتغيير بالمفاهيم. الموضوع هالقد صعب، لأنه فايت بكل إشي قانوني وسياسي بالبلد وكمان لأنه ما بتقدري تعملي إنجازات بدون حركة ضاغطة. لكن بدي أنهي بالقول أن تجربة النسويات بلبنان بالتسعينات تجربة مهمة، ولو ما بلّشت بالتسعينات بالتأكيد ما وصلنا لهلق وما شفنا بعض الإنجازات والتقدّم. بس اللي بكمّل المسار دايمًا وبطوّره وبيغنيه وبتقدّم أكثر بإنجاز الحقوق أكيد جيلكن مش جيلنا، عشان هيك، يعني شو بدي أقلكن، كل التحية لإلكن. المسار صعب، بس في أمل.

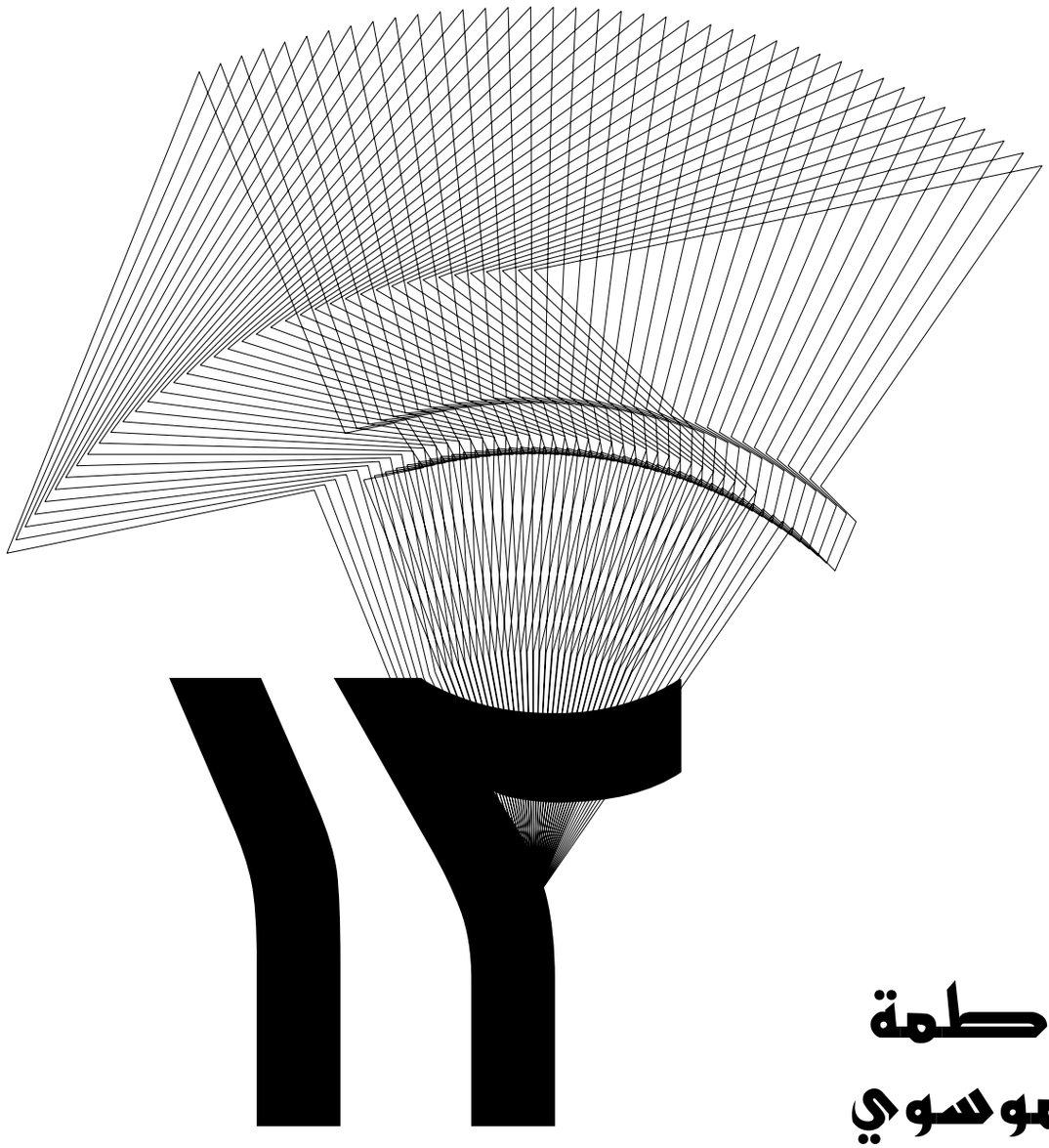

فاطمة الموسوي

باحثة في قضايا الجندر والنساء وممارسة في مجال الصحة والسياسات العامة، مقيمة في بيروت.
تشغل حاليًا منصب منسق برنامج «الجهات الفاعلة في المجتمع المدني وصنع السياسات في العالم العربي» والباحثة الرئيسة في معهد عصام فارس للسياسات العامة والشؤون الدولية في الجامعة الأمريكية في بيروت. حاصلة على درجة الماجستير في الصحة العامة من كلية العلوم الصحية في الجامعة الأمريكية في بيروت. مهتمة بالبحث والكتابة عن سياسات النوع الاجتماعي، والمشاركة الاقتصادية للنساء، والتاريخ النسوي اللبناني والعربي، وتأثير المجموعات والحركات الاجتماعية والانتفاضات على السياسات والتغيير السياسي.

أن نروي تسعينيّات لبنان بلسان النِسويات

وجوه، وشخوص، وحكايات، وقصص روتها نسويات، عاصرن المرحلة، وصنعنها، وأثّرن وتأثّرن فيها

مثّلت التسعينيّات منعطَفًا حقيقيًّا في تاريخ لبنان، ولحظةً مطوَّلة للارتباك الجماعيّ، والسياسيّ، والاقتصاديّ، إذ بدا الانقسام الذي عقب الحرب الأهلية عصيًّا على المُجاوَزة. ولأنَّ التسعينيَّات لم تُعنَ فقط بالخروج من أتون الحرب، بل أيضًا بدخول لبنان إلى عولمة فكرية واقتصادية ونسوية، وبالتّغيّر في سياق الاحتجاجات، فقد حملت معها إعادة بناء للحركات المدنية النسائية والنسوية، ضمن تحولات اجتماعية وسياسية كبرى. ولأننا معنيَّاتٌ بفهمٍ أعمق للتجربة النسوية الممتدة خلال ذاك العقد، أعددنا هذه المراجَعة التي استندت إلى مقابلات معمَّقة مع الكثيرات من النسويات اللبنانيات والفلسطينيات، نذكر منهنَّ لينا أبو حبيب وعزيزة الخالدي وزويا روحانا وإقبال دوغان وكارولين سكَّر وليلى العلي وبتول يحفوفي وليلى مروّة وجمانة مرعي ورانيا إبراهيم ومنى واكد وسهام أنطون وزينب شمس وحُسن عبود.[١] استندت المراجَعة إلى محاكاة ذاكرة النسويات اللواتي تحدثن من صميم تجربتهنّ عن اليوم، وعن التسعينيّات، وعن أفكارهن التي أضحت إنجازاتٍ، وخيباتٍ، أو ربما مجرد أمنياتٍ مؤجَّلة. تقدِّم هذه المراجَعة بعضًا من سرد هؤلاء النسويات عن التسعينيّات في أوجهها السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنقابية، وعن أثرها في نضالهنَّ، وما ولَّدته من تحديات. وننقل بعد ذلكَ ما ذكرنه عن سمات العمل النسويّ بعد انتهاء الحرب، وعن قضية العنف التي برزت ضمن الخطابين الحقوقيّ والاجتماعيّ، مُبرزينَ أيضًا حكاياتهنَّ عن التحضير لمؤتمَر بكين الذي كان العلامة الفارقة الأبرز في إعادة تكوين أسس الحركة، وعن أثره العميق في حيواتهنَّ وحيوات النساء الأخرَيات. كما تشمل المراجَعة العلاقة بين النسويات اللبنانيات والفلسطينيات في حينها، والعلاقة بين مكوِّنات الحركة النسوية ككلّ، وَالدَّور غير المروي للنساء في مواجَهة الاحتلال الإسرائيلي، ومحاولاتهنّ للوصول إلى أطر صنع القرار. كما نتطرق إلى جملة من القضايا التي غابت عن العمل النسوي آنذاك، منها التحول الذي اعترى شكل العمل النسوي ليتحوَّل إلى عمل منظماتي، بالإضافةِ إلى العديد من المفاصل الفكرية، والثقافية، والمفاهيمية المرافِقة للمرحلة.

في البداية، لا بد من إدراك مكانة التسعينيات في بناء الذاكرة النسوية، وأهمية التّطرُّق إليها بعدسة النسويات؛ فقد كانت فترة انتقالية، بدأت بتوقيع اتفاق الطائف وإيقاف الاقتتال، ما عنى للمكوِّنات الأهلية في لبنان إمكانية إعادة إحياء الحركة الاجتماعية، والبدء من حيث تجمدت عند مفاصل الحرب. كما أنها احتوت متَّسَعًا لتلازُم مسارات الحركة النسائية اللبنانية مع التغيرات الكبرى التي طرأت على الحركة النسوية العالمية، وعلى حركة حقوق الإنسان التي تبلورت من خلال الاتفاقيات المرجعية. وبعدما خفت عملها واتخذ بُعدًا إغاثيًّا خلال الحرب الأهلية، أدَّتِ الحركة النسائية في التسعينيات دورًا هامًّا مع الحركة المطلبية، لتحقيقِ سلم أهلي دائم، مُنطَلِقَةً من جديد بأساليب غير تقليدية مختلفة مِنْ سابق نشاطاتها، بطروحاتها الحقوقية، وأساليبها في التعبير وفي حشد الرأي العام المُسانِد لها. كما أنها كانت فترة مفصلية لانطلاق مؤسَّسات نسوية، تستند إلى مقارَبات المساواة التامة بين الجنسين، وتتسم بالتطور الهائل في الخطاب، وببداية العمل الجاد على تبنّي قضايا تعنى بالعنف، وبمنظومة قوانين الأحوال الشخصية في ظل حكم الطوائف، وبالحقوق الشخصية وقانون العقوبات، وصولًا إلى بدء التطرق إلى الهُوِيَّات الجندرية والجنسانية، مع تبنّي خطاب نسويّ تقدُّميّ بعد مؤتمَر بكين، وأخيرًا قضايا العامِلات المهاجِرات. أما فعل الكتابة عن النسويات فيصبح ضروريًّا، لا سيَّما عندما يغفلن عن أثر نضالاتهنَّ؛ فهنَّ حاربن كثيرًا، بالوسائل شتّى، مِنْ دون الالتفات أحيانًا إلى عمق ذلك الأثر في بناء مسار نسوي، يسعى إلى استعادة الحقوق، وتراكُم الوعي والمعرفة.

١. هي مقابَلات أجريناها عبر تطبيقَيْ زوم وواتساب، بين شهرَي تشرين الثاني ٢٠٢٠، وكانون الثاني ٢٠٢١.

عقد من الانتكاسات للحركة النقابية

تكمن أهمية البحث في النسوية في التسعينيّات، في تلازمُها مع الانحدار الحاد للمسار النقابيّ، ضمن تغيُّر خرائط الاحتجاجات التي تصدَّرت مشهد الشارع اللبناني، إبَّان التصادمات السياسية بعد انتهاء الحرب الأهلية. وقد تنوَّع الإطار المطلبي في لبنان في فترة التسعينيّات، بين مطالب اقتصادية عمالية تتحدى التلاعب النقدي بالليرة وتدنّي القدرة الشرائية للمواطنين، ومطالب تؤازر قضايا إقليمية كمواقف تأييد العراق في حرب الخليج، ومُساندَة الشعب الفلسطيني في انتفاضته ضد الاحتلال الاسرائيليّ، وتعارض في المُقابِل الوجود العسكري السوري في لبنان. وَتشير مراجَعة حديثة إلى أنَّ ٣٤٪ من التظاهرات كانت معنية بقضايا اجتماعية، وَللقضايا النسائية حيز بارز فيها.[٢] لكن على الرّغم من ذلك كُلِّه، كانت الحركة النقابية في سقوط مدوٍّ مرتبط بإرادة سياسية، للحد من أيّ حراك عمالي يعارض حكم الطوائف والتوجه النيوليبرالي الفج للسلطة السياسية. وكان للحكومات التي تناوبت على الأخذ بزمام الأمور دورٌ في محاصَرة النقابات والاتحادات، إذ تراجع دور الاتحاد العمالي العام، وأُلقِيَ رئيسه الياس بو رزق في السجن. تقول سهام أنطون الناشطة النقابية، وأستاذة التعليم الثانويّ القادمة من منطقة رأس بعلبك إنَّ «ما تعرَّضت له النقابات في تلك الفترة كان عملية اغتيال منظَّمة من قبل السلطة السياسية، بدعم من النظامين الأمنيين اللبناني والسوري». وتضيف سهام «كمستقلِّين، ويسار، وحركة نقابية حرة غير ممسوكة، استطعنا أن نقوم بتحركات مؤثِّرة في أوائل التسعينيّات، ولكن كان ذلك آخِر تحرك كبير على مستوى تحركات الاتحاد العمالي العام، ومن ثم ظَهَرَتِ النقابات الوهمية وعمليات الترهيب والترغيب، وصولًا إلى الانهيار الكامل للنقابات، واستيلاء أحزاب السلطة عليها». ولكن في الوقت الذي كانت فيه الحركة النقابية في تراجع، كانت الحركة النسائية وحركة المعلِّمين والمعلِّمات في تقدم، والتقاء، وتطوير، وتحديث. والحقيقة أنَّ حركة المعلِّمين آزرَتْ الحركة النسوية دَومًا، في أكثر من صعيد، لأنَّ الجسم التعليمي في التسعينيّات، تشكَّل أكثره من النساء. وتذكر سهام في هذا السياق أنَّ إجازة الأمومة كانت نتاج نضالات هيئات التعليم النقابية، لا الحركة النسائية بشكل مباشر. أما رابطة التعليم الثانوي والتي شكَّلتِ «الحصن الأخير للعمل النقابي الحر»، في رأي سهام، فعملت من أجلِ تحقيقِ المساواة في الأجور والتقديمات الاجتماعية بين الرجال والنساء، وفي هذا الصّددِ، كانت وداد شختورة الناشطة النسوية اللبنانية البارزة تزور مختلف المناطق، وتؤازر ذلك الحراك المطلبي.

وَمع انتقالنا إلى شَرْحِ بعض المفاهيم، نشير إلى أنَّ مُصطلَحَيِ «النسوية» و «النسائية» يردان بشكل متواتر في النص، مِنْ دون أن يرمزا إلى المعنى نفسه؛ فالنسائية - حسب الناشطات والباحثات اللواتي استمعنا إليهنّ - ترمز إلى التحرك الذي تقوده نساء، وَيستهدف بعض قضاياهنَّ، أو يتسم بالنشاط الرعائي. أما النسوية، فهْي العمل والنضال من أجل تحقيقِ المساواة بين الجنسين، والاعتقاد الراسخ أنَّ انعدام المساواة متجذر في البنى الهيكلية للمجتمع والنظام السياسي ومؤسساته، ولا يتبلور إلا بمواجَهة هذه البنى، والممارَسات مِنْ دون مساوَمة، ما يعني تبنِّي قضايا النساء كافة في وجه السرديات والممارَسات الذكورية والسلطوية. كما تحاكي النسوية القهر والتهميش اللذين تتعرض لهما النساء، على أسس تُعرف اليوم بأنها «تقاطعية». تتحدث بتول يحفوفي الأستاذة الجامعية، والباحثة الفلسفية، والناشطة النسوية عن الاصطلاح في التسعينيّات، وتعزو استخدام «النسائية» إلى أنَّ مفهوم «النسوية» كان غامضًا، وغالبًا ما فُسّر بأنه العداء للرجال، وربما يعود ذلك إلى إظهار بعض التيارات النسوية الأوروبية كراهية تجاه الرجل، وهو ما لا ينطبق على لبنان؛ فحسبَ رأيها، لم تتطرف النسوية اللبنانية في التسعينيّات، ولم تذهب بعيدًا براديكاليتها، ولم تكن يومًا لفظية عنفية كما كانت في مصر. وبالعودة إلى حوار أجريناه مع لينا أبو حبيب الناشطة والباحثة النسوية، والمديرة الحالية لمعهد الأصفري، وجمانة مرعي الناشطة النسوية ومديرة المعهد العربي لحقوق الإنسان، فإن النسويات يَقمن بفرز ثنائية بين مواقف نسوية جذرية، وأخرى مهادِنة أو متواطئة، وذلك لتكوين او ترسيخ جينيولوجيا للنسوية الشابة اليوم، والتي تحمل خطابًا أكثر شمولية وتحرُّرًا. وبالتالي، يقوم هذا الاتجاه النسوي اليوم على نضالاتٍ في التسعينيات فتحت المجال لهذا الخطاب.

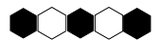

٢. دراسة أعدَّتها الأستاذة المساعِدة في الجامعة الأميركية في بيروت ريما ماجد، حول الحراكات ما بعد الحرب الأهلية، ونُشِرَتْ عبر مركز الدراسات اللبنانية في https://lebanesestudies.com/research-programs/social-movement 2020.

إدراكات المرحلة، والانتقال إلى الوعي

تستمد التسعينيَّات أهميتها من كونها كانت حرجة في مسار بناء الوعي المطلبي والسلمي، ومن كونها كانت أيضًا انتقالية في ترسيخ المفاهيم حول حقوق النساء. وتلفت إقبال دوغان المحامية، والناشطة، ورئيسة المجلس النسائي اللبناني النظر إلى أهمية الوعي الذي خُلِقَ كإنجاز في حَدِّ ذاته، وإلى أنَّ التمسُّك به كان ضروريًّا، حتى لو لم تحصل تغييرات كبرى، إذ شكَّلت تلك المرحلة، في رأيها، مخاضًا نسويًّا لمرحلة مفصلية، مُؤكِّدَةً أنَّ التسعينيَّات كانت جزءًا من مسار طويل من العمل التراكمي. وتتذكر عزيزة الخالدي الناشطة، والباحثة، والنسوية فترة التسعينيّات وأثرها في شخصيتها، قائلةً إنّها كانت في أوائل مراحل الوعي النسوي، ولكنها كانت ممتلئة بالأفكار وأتت تلك السنوات ليبدأ التزاوج بين فكرها وممارَستِها العملية: «بنيت وعيي، وشخصيتي النسوية، وتحولتُ أنا التي كنت ناشطة فباحثة إلى نسوية...هذا ما حملته لي تلك الفترة، لقد صقلت وعيي وإدراكي لقضايا النساء». وتضيف أنَّ فترة التسعينيَّات كانت أيضًا وليدة زمن بعيد شكَّل مفهوم الرائدات: «ما رأيناه في التسعينيّات، وما نراه في كلّ مرة، هو رأس جبل الجليد، بينما الجبل هو كلّ العمل الذي سبق». وبالنسبة إلى الوعي النسوي، تضيف عزيزة أنَّ النسويات اجتزن الذعر الداخلي الناتج عن المخلفات النفسية والعاطفية للحرب والاقتتال، والذي طالهنَّ بشكل شخصي، وطبع مصائرهنَّ وقراراتهنَّ. في الحقيقة، كادَ هذا الذُّعرُ يخنق النَّفَس النسوي، ويقضي على مفهوم الوكالة الذاتية لدى المرأة كإنسانة مستقلة وقادرة. وتشاركها حُسن عبود الباحثة، والمحاضرة، والناقدة الأدبية، والعضو في تجمُّع الباحثات اللبنانيات هذه النظرة، فتقول: «لا أحد يعرف فعلًا ماذا أخذت منّا هذه الحرب حتى اضطررنا إلى مُغادَرة بلدنا؛ كانت الحرب قاسية؛ وكانتِ التسعينيّات هي الفرصة لإعادة بناء النفس، فكنت حينها أحاول بناء نفسي من جديد».

أمَّا كارولين سكّر الناشطة النسوية، ونائبة رئيسة التجمع النسائي الديمقراطي اللبناني، فتقول إنَّ لبنان لم يكن قد نهض بقوة في ذلك الحين، ولكنها كانت فترة انتقالية ترتكز إلى مُحاوَلة بناء مؤسَّسات الدولة وإعادة هيكلة التشريعات، وإنَّ الطابع الطاغي على الحركة آنذاك كان نسائيًّا ولكن ليس نسويًّا؛ فالثورة على المفاهيم الذكورية في داخل الحركة المطلبية لدى النساء لم تكن بالقوة التي شهدناها لاحقًا؛ «كان فيه عمل متنور، ومتطور، وطامح إلى التّغير الجذري عند بعضِهنَّ، ولكنَّ هذا الوعي لم يكن موجودًا عند الجميع، لا سيَّما أنَّ بعض الجمعيات لم يَكُنْ مُستقِلًّا عن الأحزاب أو الطوائف». ولكنها تتحدث أيضًا عن أهمية الانتقال الذي حصل من العمل النسائي الإغاثي وتقديم المُساعَدات، إلى العمل الحقوقيّ بعد اتفاقية السيداو[٣] التي صادق عليها لبنان في العام ١٩٩٦. وتؤكِّد زويا روحانا الناشطة النسوية، والمديرة المؤسِّسة لجمعية «كفى عنف واستغلال» أنَّ الانتقال من الإغاثة إلى العمل الحقوقي والمناصَرة، كان بفعل النضج التكويني للحركة، والتفاعل مع العمل النسوي الخارجي، والإنجازات التي حصلت في بلاد مُجاوِرة.

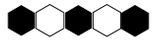

وفي الحديث عن إدراكات التسعينيّات، نذكر رائداتٍ أثَّرن في تطور الأدوات والوجوه النسوية، مِنْ أبرزهنّ وداد شختورة الحاضرة في وجدان النسويات جميعًا، إذ لم تخلُ مقابَلة من ذكر اسمها بحبّ.[٤] وَتشير ليلى مروّة الناشطة النسوية، ورئيسة التجمع النسائي الديمقراطي اللبنانيّ إلى أنَّ وداد ناضلت خمسين عامًا مع منظَّمة العمل الشيوعي، ونقابة المعلِّمين، والحركة النسائية بشكل تطوعي، وإلى أنها كانت شخصية مهنية إلى أَبعَدِ الحدود، كما أنها كانت ذات فكر حداثوي. وهناكَ شهادات كثيرة رُويت عن أثر وداد ومسيرتها:

«من زمان كتير، من طفولتي وداد كانت مثال لإلي وهي من الناس اللي أثروا فيي كتير»- جمانة مرعي.
«وداد كانت صديقة وكانت نسوية صادقة وكانت مناضلة صاحبة رؤية، متقدمة في طرحها وسابقة لعصرها»
- لينا أبو حبيب.

٣. اتفاقية السيداو: اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد النساء، وهي الاتفاقية التي صادق عليها لبنان في العام ١٩٩٦ مع التحفظ على بنود "رأت الدولة أنها تمس تركيبة النظام اللبناني" كالحق في الجنسية، ومنظومة الأحوال الشخصية، والاتفاقية التي تسميها الحركة النسوية بأنها المرجعية القانونية لها، والّتي غالبًا ما استُخدِمَتْ كوسيلة للضغط. هذا رابط الاتفاقية من موقع راصد حقوق النساء في الأمم المتحدة https://www.un.org/womenwatch/daw/cedaw/text/0360793A.pdf.

٤. الشهادات مستمَدَّة من فيلم "مسيرة نضال" لحياة مرشاد عن وداد شختورة، بالإضافة إلى مجمَل المقابَلات التي أجريناها، حيث ورد اسم وداد كعلامة نسوية فارقة، بكثير من التقدير والصدق.

«كانت تفرض كلمتها على المموِّلين وما كانت تساوم. كانت نسوية حقيقية، وأنا انخرطت بالعمل النسوي بسببها» – كارولين سكّر.
عن حادثة ستذكر لاحقًا، «وداد فتحت الباب لما سمعتهم عم يهددوني وما سكتتلهم وطالبت بفتح تحقيق بالموضوع» – سهام أنطون.

كان لمسار وداد المعاكس للطوائفية وشخصيتها البعيدة مِنَ التمثل بالنخبوية الاجتماعية أو السياسية، أثرٌ حقيقيٌّ في جعلها نموذجًا طبع المسار النسائي في التسعينيّات، وعلق في ذاكرة نسوياته؛ فوداد التي استمعت إلى مطالبهنَّ، وألهمتهنَّ، وقادت التّظاهُرات التي مشينَ فيها، وذهبت إلى بكين بخطاب تحرري بارز، بدأت نضالها قبل ذلك بكثير، لكنها، ولأنها تمثّل في كينونتها وخطابها نقيضًا لإرث الحرب الأهلية كُلِّهِ، كانت ملاذًا ونموذجًا للكثيرات. جمعت وداد شختورة ثلاثة أبعاد في شخصيتها: النسوية المناضلة من أجل حقوق النساء، والنقابية في المجال التعليمي، والمناضلة اليسارية السياسية، وهي انتماءات لمؤسَّسات شهدت لحظات مفصلية في التسعينيّات. كما كان للور مغيزل نصيب من الذكر، لما تحمله من مخزون حقوقي مؤثر، حيثُ أسَّست مع زوجها جوزيف مغيزل بعد انسحابهما من حزب الكتائب وقبيل الحرب الأهلية الحزب الديمقراطي، وهو حزب وسطي رافض للعنف. كانت لور ساعية نحو اللاعنف، ورأب السِّلم الأهلي المتصدع، ولكنها تبقى شخصية إشكالية في الذاكرة النسوية بسبب مقارَباتها التقليدية لبعض القضايا، كالعنف ضد النساء، وهو الموقف الذي تحفَّظت عن إبدائِهِ في مؤتمَر بكين. وفيه وردت شهادات النسويات وذكرياتهنَّ، بالإضافةِ إلى أسماء ناشطات ومناضِلات لا بدّ من ذكرهنَّ، من أمثال لِيندا مطر، وأمان شعراني، وهند عطوي (توفيت في سنةِ ٢٠١٧)، ونورما ملحم، ومارسيل عبد الصمد (التي رحلت في أوائل سنة ٢٠٢٠)، وفهمية شرف الدين، وعزّة مروّة (رحلت في سنة ٢٠١٨)، وغيرهنَّ.

شهادات فكرية ومعرفية

على المستوى الفكري، تتوالى الأمثلة من التسعينيات، لتظهر انخراط الكثيرات من الباحثات، والمعلمات، والناشطات الاجتماعيات في عملية بناء المعرفة النسوية، والمعرفة من أجل النساء والمجتمَع ككلّ. تتحدث حُسن عبّود عن النشاط المعرفي النسائي آنذاك، وعن تطور الخطاب في الرواية النسائية، وعن تجربة الباحثات اللبنانيات اللواتي اجتمعنَ وتعاونَّ تحت مُسمَّى «نساء من أجل البحث العلمي» لحماية عملهنَّ البحثي، ونقلن تجربتهنَّ في مقال اسمه «الصبر في التكوّن» الذي صدر في الكتاب الأول من إصدارات «تجمُّع الباحثات اللبنانيات» في منتصف التسعينيّات. تذكر حُسن عبود أيضًا أنها شاركت مع باحثات لبنانيات كمنى فياض، ونهوند القادري، وفاديا حطيط، وغيرهنَّ في مؤتمَر «مئة عام على تحرير المرأة العربية» في القاهرة، في العام ١٩٩٩، وهو مؤتمَر نظّمه المجلس الثقافي الأعلى للاحتفال بمرور مئة عام على صدور كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة». كان الهدف من هذا المؤتمر إحياء أطر النهضة النسوية واسترجاعها خلال قرن من الزمن، من خلال طروحات مُعَاصِرة، كما أنه كان ملتقى جَمعهنَّ مع أكثر من مئة باحثة نسوية عربية، ما شكل تَظاهَرة نسوية عربية آنذاكَ. وَكان الالتفاف البحثي الذي أخذ مجراه في تلك الفترة، يهدف إلى دعم الباحثات، لا سيّما الناشئات منهنَّ، وإلى رفع قضايا النساء علنًا في إطار تعزيز خطاب نسوي.

أمَّا سهام أنطون، فتتطرَّقُ إلى المناهج اللبنانية التي عُدِّلَتْ في سنة ١٩٩٧، وتقول إنها كانت سيئة على المستوى الجندري، رغم أنها حاولت إبراز الأدوار الاجتماعية بطريقة مختلفة؛ ففيما كانت في السابق تُصوِّر المرأة على أنها تُمارِسُ الأعمال المنزلية، في حين أنَّ الرجل يقرأ الجريدة، عُدِّلت الصورة لتنقل المرأة وهي تقرأ لأطفالها... ولكن على المستويين اللغوي والمفاهيمي، بقيت المناهج ذكورية بامتياز، وهو أمر ما زال حتى اليوم يحتاج إلى تضافُر جهود الحركة النسوية من أجل إصلاحه. كما تذكر زينب شمس المدرِّسة المتقاعدة، والناشطة الاجتماعية والسياسية أنها تمكنت في التسعينيَّات، بمؤازَرة الكثيرات من زميلاتها المعلِّمات في منطقة الهرمل المهمَّشة تاريخيًّا، من إنشاء مكتبة كبيرة، من خلال التواصل مع بعض الجمعيَّات المعنيّة بنشر الثقافة خلال زيارة البيوت للحصول على كتب. تتذكر زينب أثر المكتبة في تشكيل مرجعية فكرية وثقافية مهمة لسكان المنطقة. وعلى الرّغم من أنَّ الباحث والناقد المغربيّ سعيد يقطين يقول إنَّ التسعينيّات شكَّلت فورة الكتابات النسوية في مجالَي الرواية والنقد في العالم العربيِّ، غيرَ أنَّ بتول يحفوفي تُشيرُ إلى أنَّ السرد النسوي في الكتابة والنقد في لبنان، جاء لاحقًا.

ما بعد الحرب: مصالَحة لم تتمّ...

«التقوا النساء عند المتحف بالمكان اللي كان فيه متاريس بالسابق، كانت لحظة مهمة»– كارولين سكّر.

احتدم الاقتتال الأهلي بفعل التنازعَين الطائفيّ والسياسيّ، وكانت النساء أبرز ضحاياه في أثناء الحرب وبعدها. وقد أخذت الحركة النسائية في لبنان على عاتقها لملمة شتات نفسها أوَّلًا، ومن ثمّ الاشتراك في خلق فرص - ولو صغيرة – للمصالَحة، وحتّى لَوْ كانت تلك المحاوَلات قد بدأت منذ أيام الحرب. لكنّ المصالَحة الوطنية الشاملة لم تتمّ، والعدالة الانتقالية لم تتحقَّقْ، وعملية إعادة الإعمار جاءت مجحِفة. على النقيض، حملت التسعينيّات أمراء الحرب الأهلية إلى الواجهة، ومكّنتهم من تسلُّم مقاليد الحكم. وفي الوقت الذي انتهجت فيه دولة ما بعد الحرب الأهلية سياسات النسيان أو التناسي، وهيَ نهج تبناه بعض الناشطات النسائيات أيضًا من أجل البدء من جديد، ومُجاوَزة المآسي والكرب الّتي تُعيقُ لمّ شمل الحركة النسائية. إذًا، سعت الحركة النسائية نحو الالتقاء، والتحدّث، والمصالَحة.

تتذكّر بتول: «لما التقيت بلور مغيزل، استغربت كيف قطعت عبر متاريس الحرب وعبر المتحف لتحكي عن التلاقي والسلام... صدقيني النساء بلبنان ولا مرة كانوا دعاة أو أداة للحروب، بل هني كانوا عم يسعوا للمّ الشمل».

عاد المجلس النسائي اللبناني وتوحَّدَ، لكنَّ الاندماج كان تحديًا صعبًا وشائكًا، لأنَّ المنظَّمات النسوية الخارقة للطوائف والمناطق تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة، كما تقول جمانة مرعي. وتضيف جمانة: «السؤال الذي يجب أن تطرحه الحركة على هذه المرحلة من التاريخ وعلى نفسها، في ما يشبه مراجَعة ذاتية هو «إلى أي مدى أتمَّ بعض الجمعيات مراجعاته للحرب الأهلية؟». ولا شكَّ في أنَّ الحرب خلَفَتْ شُروخًا بين جزء من الحركة النسائية والحركة النسائية الفلسطينية، وبين مكوِّنات الحركة النسائية اللبنانية نفسِها.

حسب عزيزة الخالدي، «أثَّرتِ الحرب الأهلية في الإدراكات عند الحركتين النسائيتين اللبنانية والفلسطينية، كان فيه خوف في المجتمَع الفلسطيني، خوف من الإرث السياسي القتالي، وشعور ما بالخطر».

وتشير الناشطة النسوية، والسياسية، ومديرة النجدة الاجتماعية في لبنان ليلى العلي إلى أنها «لاحظت أنو بلبنان صار فيه فرق بين القضية الفلسطينية وبين الفلسطينيين بالمخيَّمات، فاللبنانيون يتعاطفون مع القضية الفلسطينية في الداخل الفلسطيني إزاء العدوان الإسرائيليّ، لكنهم لا يبدون المؤازرة ذاتها عندما يتعلق الأمر باللاجئين الفلسطينيين في المخيَّمات الموجودة في لبنان»، وهو بشكل ما نتيجة للشرخ الذي أفرزه الاقتتال الداخلي والسرديات العنصرية التي تَبِعَتْهُ. أما الإنماء غير المتوازن الذي عَقَبَ الحرب، فعمّق التهميش، وأعاق تضافُر النسيج النسوي؛ لم يظهرْ هذا الإنماء غير المتوازن بين العاصمة والمدن الأخرى والأرياف فقط، بل تجلّى أيضًا في منع إنماء المخيَّمات، ضمن سياسات لا تزال موجودة حتى اليوم. وبعد الحرب الأهلية، كان الانقسام الهُوياتي جليًّا، إذْ تقوقعَ الناس، ومن بينهم بعض الناشطات في الشأن النسائي، حَيثُ لم تكن الحركة بأكملها مجاوِزةً طوائفها وإشكاليات الحرب الأهلية؛ فالخطاب الفئوي استمرَّ بعد انتهاء الاقتتال. وهنا، يَظهَرُ الاختلاف بين المقارَبات الحقوقية والمقارَبات الطوائفية المتمسِّكة بمنظومة الأحوال الشخصية التي استمرَّت في أخذ مجراها، حتى ضمن الجو النسائي؛ فالحركة لم تكن متضامنة، ولا موحَّدة، ولم تجمعها رؤية واحدة، ويرتبطُ هذا بإرث الحرب من جهة، وبخضوع بعض الحركات النسائية أمام المنظومة الطائفية التي حكمت لبنان.

«كنا كلنا بمسيرة بالتسعينيَّات ورفعنا مطلب قانون مدني الأحوال الشخصية، قامت تفرقت التّظاهُرة وبعض الجمعيات النسائية أصدروا بيان رفضوا من خلاله اللي انقال ونفوا علاقتهم بالمسيرة»، كما أعلنت ليلى مروّة. أما عزيزة، فقالت: «كانوا عم يتجاهلوا أنو قوانين الأحوال الشخصية عم تخلي النساء أعناقها مغلولة».

اختراق النقابات والبلديات!

تلازمت مسألة الكوتا مع الخطاب النسائي لمعظم الهيئات والجمعيات النسائية في التسعينيات، واحتلّتْ حيِّزًا في الاستماع الرسميّ، لا سيَّما أنها لا تتعارض مباشَرةً مع أركان نظام ما بعد الحرب الأهلية، كمنظومة الأحوال الشخصية اللصيقة بحكم الطوائف. وعلى الرّغم من ذلك، لم تفضِ تلك المساعي إلى أيّ نتيجة تُذكَر. وفي الحقيقة، ليس من المجدي الغوص في أثر الحركة النسائية في تمكين

التمثيل السياسي للنساء، من خلال الانتخابات النيابية التي عقبتِ الحرب، لأنها كانت، وما زالت تُعَدُّ حيِّزًا لتمثيل نساء من أطر عائلية، وسياسية، ومناطقية، ضمن تصوُّرات الأحزاب التي كوَّنتْ أجنداتها بعيدًا مِنْ هموم النساء، لا بل على حساب أي افتراض للعدالة، والمساواة، والحماية الجندرية. لكنَّ التسعينيَّات حملت محاولات جادة في اتجاه خرق النساء المنظومات النقابية ومنظومة البلديات، من خلال الترشح للعضوية، لا سيّما في مناطق شهدت سيطرة واضحة للأحزاب الدينية القوية والنافذة، والتي كانت ترفض رفضًا قاطعًا ترشيح النساء على لوائحِها. ولأنَّ مَشهَدًا كهذا، لا يُمكنُ فصله عن أيّ سياق نسويّ، تظهرُ مُحاوَلاتٌ جديرةٌ بِالذِّكرِ، كتلك التي قامت بها زينب شمس في سنة ١٩٩٨، في أول انتخابات بلدية أجريت منذ ٣٥ عامًا. ترشَّحت زينب لمقعد العضوية البلدية في بعلبك الهرمل، في لائحة واجهت لائحة مؤلَّفة من تحالف أحزاب السلطة وأحزاب دينية، وَمدعومة منه، وخلت من ترشيح أيّ امرأة. خسرت زينب يومها، لكنها تصف خسارتها بالمشرِّفة، لأنها ترشحت على الرّغمِ من التحريض ضدها والهجوم عليها كونها امرأة تجرأت وترشحت، ولأنّها أيضًا جمعت عددًا لا يستهان به من الأصوات، رغم التصويب المعنوي الذي لحق بها.

في العام ١٩٩٧، وفي أثناء التحضير للانتخابات البلدية، أطلقت الجمعية اللبنانية من أجل دِمقراطية الانتخابات حملة «بلدي بلدتي بلديتي»، وهي حملة نشطت في أكثر من مكان في لبنان، وقد انخرط فيها جزءٌ كبيرٌ من الحركة النسائية بقوة وفعالية، فضمَّتْ طلابًا ونشطاء وكتابًا وحقوقيين نشطوا في كل أنحاء لبنان، في محاوَلة لثني سلطة الأحزاب عن الاستحواذ على البلديات، مثلما استحوذت في سنتي ١٩٩٢ و١٩٩٦ على البرلمان. وفي التسعينيَّات، عادت نقابة المعلِّمين إلى التوحّد بعدما تفرَّقَتْ خلال الحرب الأهلية، حاملةً الدعم المباشر وغير المباشر للحراك النسوي، لا سيَّما في مسائل الأجور، والإجازات، والتعويضات. خاضت سهام أنطون الانتخابات النقابية في البقاع، وخرقت اللائحة المؤلَّفة من أحزاب السلطة والمدعومة منها، ضمن مجموعة تشكلت بأسلوب عفوي، ومن هناك تطور عملها، وتواصلت مع وداد شختورة التي كانت في المجلس المركزي لنقابة المعلِّمين. تقول سهام:

«كنت إشكيلها الواقع النقابي السّيّئ وكانت تدعمني...مرة ربحوا الأحزاب الدينية كل المقاعد وأنا الوحيدة اللي اخترقت من خارجهم وكان بدهم يطبقوا معايير إسلامية من خلال البدء بالبيانات النقابية بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم»، فأنا اعترضت وقلت أنو هيدا تسييس للعمل النقابي رغم أنه كان على شكل ديني، وصار إشكال وتطاولوا عليي. وعندما وصلنا إلى نقابة المعلِّمين من أجل التحقيق في حادثة التطاول رفعوا صوتهم عليّي من جديد بلهجة فيها تحدي وتهديد، ولكن وداد شختورة تصدت لهم وعملت منها مشكلة كبيرة...كنت ببداية مشواري، كان عمري ٢٣ سنة وبوقتها، وهونيك تعرفت على الوجه النسوي لوداد شختورة...».

تتحدث جمانة مرعي عن الثورة الداخلية التي أشعَلَهَا بعض النساء على الممارَسات المتسلطة للرجال في داخل الأحزاب اليسارية في التسعينيّات، وتقر بأنّ النسوية أجندة غير مرغوب فيها، حتى في بعض أحزاب اليسار المناضِلة من أجل قضايا وطنية. والحقيقة أنَّ النّساء أخطأنَ في تقبُّلِ أخطاء الرجال، من أجل إعلاء مصلحة الحزب العليا. وتعزو بتول يحفوفي ذلك الاصطدام الذي وصل إلى حَدِّ استغلال النساء الحزبيات إلى الثقافة الذكورية العميقة واللاواعية للمجتمَع اللبناني، وتقول إنَّ الانتهاكات انطلقت من تشرُّب الرجال، بمختلف أيديولوجياتهم، هذه الثقافة، لا من طبيعة الأحزاب أو معتقَداتها.

نساء في وجه الاحتلال الإسرائيلي: لا راويات ولا مرويات

«ان صمود وتصدي النساء للاحتلال الإسرائيلي هو حراك نسوي مخفي وغير مرئي ونضالات النساء مش بس لم تسجّل كنضال نسوي بل أيضًا لم تذكر في تاريخ مواجهة إسرائيل من الأصل. بعرف شهيدة من بلدة شحور كانت إعلامية واستشهدت على الخطوط الأمامية، ما بتنذكر نهائيًّا، اسمها كان «نِعَم» ولكن ما خبرونا اسم العيلة... وبيذكروا العوائل طيب من هني العوائل؟ هن النساء، هن اللواتي قدن العائلات وتصدين ولكن النساء لا يعترفن بإنجازاتهنَّ لا داخل العائلة ولا أثناء الحرب»- عزيزة الخالدي

خلال التسعينيَّات، كانت إسرائيل لا تزال تحتل الجنوب، وقد قاومتها نساء لبنان كما قاومها الرجال على اختلاف الخلفيات العقائدية. لكن يُلاحظ، في الخطاب الذي يتطرّق إلى الاحتلال، تغييبٌ لدور اللبنانيات والفلسطينيات مع أنهنَّ قاومن إسرائيل بشكل

مباشر، من خلال جبهة المقاوَمة الوطنية اللبنانية، وجبهة التحرير الفلسطينية، وفصائل أخرى. كما أنَّ نساء الأحياء الشعبية قاومنها بشكل تلقائي من خلال رمي الزيت المغلي على الجنود الإسرائيليين، وهي قصة ترويها النسويات عن نساء قرى الجنوب المحتلّ. كما هناك غياب لسرد النساء، إذ لا يوجد تأريخ بمنظور وبعدسة نسويَّين لتصدي النساء للاحتلال الإسرائيلي.

«النساء بلبنان دائمًا ما بيحكوا شو عملوا ولا شو قدموا...دائمًا بتمرق نضالاتهن وتضحياتهن بصمت وهيدا بينطلي على الكثير من الدول العربية اللي شهدت حركات تحرُّر. شوفي الثورة اليمنية اللي المرأة كانت أساس فيها، وين المرأة اليوم؟»- ليلى مروّة.

وللنسويات مآخذ على الأحزاب السياسية اليسارية بالتحديد، لأنها أحزاب انخرطت النساء في مساقها النضالي، لكنها لم تعترف بدورهنّ السياسيّ والنضاليّ. وتشير جمانة مرعي إلى أنه بعد توقف الميليشيات، لم يعمل أحد على إعادة تأهيل النساء المقاتِلات، فتُركن لمواجهة وصمة اجتماعية كمقاتِلات سابقات. وتتطرق لينا أبو حبيب إلى قصص المعتقَلات، فتذكر أنه بمعزل عن سهى بشارة، لا تُذكَر المعتقَلات، فتذوب قصصهنَّ، مع أنها يجب أن تروى، وأن تُتناقل، وأن يعرف الجميع ما تعرَّضنَ إليه هناك.

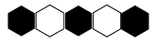

في المخيَّمات الفلسطينية: وعي مبكر للقضايا والأساليب

«من منتصف السبعينات شفت اتجاه لصالح الالتفات لحقوق النساء بالمخيمات، طبعًا هيدا ما كان قرار سياسي لكن نتيجة عمل واعٍ ومركّز لنساء المخيمات ... بلشوا برياض الأطفال منذ السبعينات وكانوا مستمرين خلال التسعينات وهذا نتيجة فهم ووعي نسوي ونتيجة فهم لأهمية دور المرأة في العمل ولأنهم أدركوا أن عمل المرأة مرتبط بهذا الأمر»- عزيزة الخالدي

كانت المخيَّمات الفلسطينية في بيروت، والجنوب، والشمال، وبعلبك على تماس مع نشاط نسائي، وفي كثير من الأحيان نسوي منظَّم يتقاطع مع إرث المخيَّمات النضالي (أو ينبثق منه)، ونابع من الحاجة الملحة إلى النُّهوض بواقع نساء يعانين الظلم مضاعَفًا.

كانت الحركة النسائية في المخيَّمات الفلسطينية حاضرة في أطر نضالية سبّاقة في كثير من معالم التعاطي مع قضايا نسوية، كقضية العنف ضد النساء على سبيل المثال؛ ففي الوقت الذي كان فيه بعض الجمعيات اللبنانية يُقارب الموضوع من خلال تقديم الاستشارات والاستماع إلى الشكاوى من خلال الخطوط الساخنة، ذهبت الحركة النسوية في المخيَّمات إلى التحرّي والكشف المبكر. وتشير رانيا إبراهيم الناشطة في جمعية «تضامن» إلى أنَّ وعي الحركة النسوية في المخيَّمات مسألة التحرّش الجنسي منذ التسعينيّات، تمَّ الحديث عنهُ سابِقًا ضمن الحراك اللبناني. الواقع أنَّ المجتمَع النسوي الفلسطيني خَبَرَ التهميش المزمن وَالنضال السياسي القديم، وكانت له خبرة أعمق وأكبر في العمل المنظَّم، ما ساهم في تجذير الحركة، وأدى إلى نضوج النشاط النسوي فيه. وتشير ليلى العلي إلى أنّ الفلسطينيّات كُنَّ أوائل من أسّسنَ البرلمان النسوي، بالإضافةِ إلى دستور حساس اجتماعيًّا، خصوصًا عضوات شبكة «عايشة» التي تطور عملها بعد بكين، كجزء من نضال عالمي لا يمكن تجزئته. ويرتبطُ هذا النضوج بالضرورة بالعمل مع الناس، وهو ملتصِق بالقواعد الشعبية، ولكنّه مفتقَد لدى الحركة النسائية اللبنانية، حيثُ لا يوجد التصاق كبير وواسع مع الأرياف، والقرى، والأحياء، والقواعد. وتضيف عزيزة: «الالتصاق جاء نتيجة للانغلاق...يمكن لأن المجتمَع اللبناني مفتوح والمخيَّمات مغلَقة، ما أثَّر ايجابًا على المؤسَّسات الفلسطينية».

وفي المخيَّمات الفلسطينية، تُديرُ المنظَّماتِ الفاعلةَ ناشطاتٌ من داخل المجتمَعات المحليّة، ضمن حركة تغييرية نسوية فاعلة، ولكن لأنهنّ يفتقدن الإطار النظري، لا يسمِّين أنفسهنّ نسويات في أغلب الأحيان. تقول منى واكد الناشطة في النجدة الاجتماعية في صيدا إنَّ المؤسَّسات النسائية الفلسطينية واعية أهمية التضامن النسوي، مُضيفةً أنَّ التلاقي بين اللبنانيات والفلسطينيات، والجمعيات حصل ولكنه كان محدودًا جدًّا. ومن الأمثلة الأبرز عن هذا التلاقي، قرار التجمع النسائي الديمقراطي في العمل النسوي اللصيق

بالمخيَّمات وفي داخلها، والّذي يتبنّى الحركة النسوية الفلسطينية.[٥] فالانفتاح على المجتمَع الفلسطيني كان أساسيًّا في أجندة فئة قليلة من الجمعيات اللبنانية الّتي لم تكن مواقفها واضحة وصلبة دومًا، في معزل عن التجمع النسائي الديمقراطي.

وتشير ليلى العلي إلى أنَّ الاتحاد النسائي اللبناني لم يعمل على حقوق النساء اللاجئات، ولكن مع الوقت وبعد بكين تحديدًا، ومع تعمُّق القهر الفلسطيني في لبنان، بدأ التلاقح الثقافي للنساء الفلسطينيات مع النساء اللبنانيات حتى اللواتي لديهنَّ خلفيات يمينية أحيانًا، فهنَّ كنَّ يعملنَ على حملات مشترَكة على الرّغم من بقاء الخطاب العنصريّ من قبل بعض الجمعيات اللبنانية أو معظمها (ولكن بشكل أقل). وقد عملت الحركة النسائية الفلسطينية على إدخال المفاهيم والمصطلَحات النسوية بشكل تدريجي لئلا تتسبب في صدمة، لا سيَّما مع تبنّي الخطاب العلماني، وتبنّي خطاب مناهَضة العنف ضد المرأة، حتى أنَّ كلمة نسوية صارت مقبولة ومتداوَلة. كما تتطرق ليلى العلي إلى المشارَكة الدائمة للفلسطينيات في لبنان، في كلّ القضايا النضالية المتعلقة بالمشروع الوطني الفلسطيني وحماية المخيَّمات، حَيثُ برزن في العمل العسكريّ المباشر والعمل الاجتماعيّ. لكنَّ هذه المشارَكة لم تتطور، ولم تساعد النساء على تَبَوُّؤ مراكز في صناعة القرار، لا على مستوى الأحزاب، ولا على مستوى منظَّمة التحرير الفلسطينية.

مؤتمر بكين: مفترق في الحكاية وبدايات أخرى

«كان لمؤتمر بكين أثر دراماتيكي إيجابي هائل على تحول وإعادة هيكلة الحركة النسوية في لبنانكما أنه فتح سبل التواصل مع النسوية العالمية، طور أدوات المناصرة وساعد النساء في لبنان على تعلم كثيرٍ من الأمور التي لم نكن نعرفها»
– لينا أبو حبيب

في أيلول من العام ١٩٩٥، عقدت الأمم المتحدة في بكين المؤتمر العالمي الرابع للمرأة، وهناك حضرت وفود مثلت الحكومات، والحركات المستقلة، والمجتمَع المدنيّ. وفي نهاية المؤتمر اعتمدت وفود الحكومات من ١٨٩ دولة بالإجماع، إعلان عمل بكين ومنهاجه. شكَّل هذا الإعلان التزامًا سياسيًّا للحكومات المشارِكة «من أجل النهوض بأهداف المساواة، والتنمية، والسلام لجميع النساء في كلّ مكان، ولضمان التنفيذ الكامل للحقوق الإنسانية للنساء والفتيات».[٦] وكان مؤتمَر بكين حدثًا مفصليًّا في داخل عقد التسعينيّات المفصلي في حد ذاته، ولذلك كان التحضير له كبيرًا وتراكُميًّا، واستمر لمدة عامين، تخللهما كثيرٌ من الاجتماعات وورشات العمل في العديد من المناطق اللبنانية، على صعيد الجمعيات والناشطات المستقلات.

ومن النسويات اللواتي استمعنا إليهنّ وكنّ في بكين، نذكر لينا أبو حبيب، وزويا روحانا، وليلى العلي، بينما تتحدث كلّ من كارولين سكر، وليلى مروة، وجمانة مرعي، وبتول يحفوفي، وحُسن عبود، وعزيزة الخالدي عن أثر المؤتمَر فيهنّ وفي الحركة، بشغف كبير.

تقول زويا روحانا: «المؤتمَر كان مهمًّا لوضع مناخ ملائم لزيادة الوعي». وتركّز جمانة على ما أعطى المؤتمَر للنسوية، فتقول: «كان تجذيرًا لمفهوم حقوق الإنسان في القضايا النسوية.» أما ليلى، فترى أنَّ «بكين كانت نقطة انطلاق، وبعدها بدأت الشبكات تبيِّن مش بس بلبنان ولكن أيضًا في كلّ العالم». وتُبرِز كارولين أهمية الالتقاء مع نسويّات من مختلف المجتمَعات والتوجهات، والتّعلُّم منهنَّ، فتلاحظ أنه «عندما تلتقي النسويات معًا، يكون ذلك مُلهمًا، على الرّغم من اختلاف الأفكار».

٥. تتذكر جمانة مرعي انخراطها النسوي التام في المخيَّمات، والذي جاء بتوازٍ مع قرار التجمع النسائي الديمقراطي اللبناني الدائم، بالعمل والتعاون مع الحركة النسائية في المخيَّمات. تقول إنها كانت مرتبطة ناشطيًّا، واجتماعيًّا، وعاطفيًّا بالمخيَّمات الفلسطينية، وعملت بشكلٍ مطوَّلٍ وعميقٍ على التلاقي مع الحراك النسوي الفلسطيني، من خلال التدريبات والنشاطات الحقوقية، وتبنت صوت المخيَّمات وقضاياها.

٦. رابط لإعلان عمل بكين ومنهاجه https://www.un.org/womenwatch/daw/beijing/pdf/BDPfA%20A.pdf.

أمّا بعضٌ ممَّن لم يشارك في المؤتمَر، فشارك في منتدى عمّان، وهو لقاء تحضيريّ تنظيميّ إقليميّ، شكَّل أكبر ورشة عمل نسائية عربية على الإطلاق، وضمَّ أكثر من ألف ناشطة، مُتحدِّثًا عنِ البنود شتّى المزمع التّطرُّق إليها، ومناقشتها، والتحضير لها، قبل ذهاب الوفود إلى بكين. وخلال التحضير للمؤتمَر، شُكِّلَ وفد أهلي يضمّ النقابات، والمنظَّمات الحقوقية للمجتمَع المدني، ومنظَّمات من داخل المجلس النسائي اللبناني ومن خارجه، فتمثَّل لبنان من خلال وفدين، الأوّل رسمي والثّاني مستقل. وعلى قدر ما شكَّل المؤتمَر فرصة لنقل واقع النساء في لبنان، كان من اللّافت في أصداء الوفد اللبناني في بكين تبايُن الرؤى؛ فبعضُهُمْ تحدث عن العنف الذي يصل إلى مستوى القتل، بينما اعترضت أصوات أخرى بشدة، وقالت إنَّ النساء اللبنانيات متقدِّمات في أوضاعهنّ وحقوقهنّ على الكثيرات من النساء العربيات. كان جليًّا أنّ المؤتمَر أفضى إلى بداية مشوار من الفرز في الحركة، لا يزال مستمرًّا حتى الآن، حسب ما ذكرت جمانة مرعي. وَبعد المؤتمَر، تشكلت الهيئة الوطنية للمرأة واللجنة الأهلية لمتابَعة قضايا المرأة، كما تمَّ تبني فكرة إدماج الجندر في عمل المنظَّمات والوزارات، كخطوة نحو تجذير الأجندة النسوية في العمل المؤسَّساتيّ. على مدار سنوات مضتْ، كانت قضايا النساء في حضور متزايد في مختلف المجالات، واتّجَهَ كثيرٌ من الوزارات إلى التشارك مع المنظَّمات النسوية في خطوة اتسمت في كثيرٍ من الأحيان باستغلال الدعم الظاهري للقضية النسوية، بهدف الحصول على التمويل الدولي المخصَّص لهذه القضايا، أو من أجل كسب تأييد شرائح من الناس، على الرّغم من أنَّ بعض المحاوَلات هدف إلى توسيع آفاق المطالَبة، والوعي، والمعرفة. تتحدث النسويات بشغف عن بكين، وعن أثره العميق في انعطاف الحركة النسائية إلى مكامن حقوقيتها. وفيما يصفه بعضهم بالمرحلة الانتقالية، يقول آخرون إنَّهُ كان الخطوة المؤسِّسة والتكوينية.

تقول بتول: «حضور المؤتمرات السابقة كان في العادة وقفًا على مَنْ هُنّ نخبة النخبة من النساء أو الرجال والخطط، العناوين والمفاهيم التي كانت تصدر لم تكن تنشر بشكل واسع، لكن مؤتمر بكين أفرز عناصر أكثر اتساعًا وصارت مراكز الشؤون الاجتماعية تحاكي هذه القضايا لذلك نرى أنه انطلاقة أوسع وأنه وضوح للخطاب. كما صار بإمكاننا أن نتحدث عن المساواة وعن الحقوق المدنية وعن الزواج المدني وعن كل المفاهيم التي كانت تذكر بِحذر شديد... هذا المؤتمَر أعطانا صوتًا، أعطانا زخمًا في التعبير كل المبادرات النسوية في لبنان تدعّمت كثيرا في مؤتمر بكين وفي الوقت نفسه كان هناك تشكل وعي جديد نشأ حول قضايا [جديدة] من خلال التفاعل مع المجتمع النسوي العالمي».

وتشير كل من ليلى العلي ولينا أبو حبيب إلى أنَّ بكين كان المنطلق نحو مفهوم «النسوية» والتشبيك في لبنان. وتضيف ليلى مروّة أنه بعد بكين، صار بالإمكان وصف الحركة بالنسوية، بينما كان الوصف قبل ذلك أقرب إلى «نسائية»، لأنَّ المقارَبات التي انطلقت منها القضايا باتت حقوقية، مستندة إلى منهاج بكين ومفهوم المساواة، وبعيدة مِنَ المساوَمة، وغير مقتصِرة على الرعائية. كما باتت قضايا جوهرية تعني النساء قابلة للطرح، بعدما كانتِ الكثيرات من الناشطات يتجنبن خوضَها، كالعنف على سبيل المثال، ومن أهمّ أشكاله العنف الجنسي.

ناشطات في حالة إنكار... عن العنف أحدثكم

تشرح ليلى مروّة أنه بعد بكين صارت موضوعات العنف، والاغتصاب الزوجي، و»جرائم الشرف» مطروحة على الطاولة بشكل واضح مِنْ دون موارَبة، وهي مفاهيم كان طرحها خجولًا أو مغيَّبًا قبل ذلك، وهو ما تؤكده زويا روحانا وإقبال دوغان أيضًا. وَمن حضرن بكين، يستذكرنَ أنَّ شخصيات نسائية بارزة ممَّن مثلن لبنان في المؤتمَر، رفضن فكرة أنَّ العنف موجود أساسًا في المجتمَع اللبناني. تلك كانت مفارَقة ساهمت في إبراز الاختلافات الأيديولوجية الواسعة بين مكوِّنات الحركة النسائية في لبنان، وفي «غربلة» وجوهها وأفكارها كما يقلنَ.

وتستشهد بتول يحفوفي بذكرياتها: «بأوّل التسعينات، لما كنا نعمل محاضرة عن العنف كانوا يقولوا أنو عم نتدخل بين المرأة وزوجها ولكن بعد بكين صرنا نتحدث دون أن نجابه بالرفض بل في أحيان كثيرة صاروا يسمعونا كما كان هناك سهولة للتواصل بين بيروت وباقي المناطق مما سهل من نشر الأفكار حول العنف بكل لبنان. وأنا لا أقول هنا أن كل النساء تبنت هذه الأفكار لكن اللغة النسوية انتشرت ووجدت المعرفة حول العنف والحق بمناهضته طريقها إلى القرى».

وتستعيد ليلى العلي ظروف إنشاء شبكة «عايشة»، أوَّل شبكة إقليمية علمانية تعنى بالمساواة بين النساء والرجال في المنطقة العربية. أُسِّسَتْ بعد بكين، وهدفت إلى مناهَضة العنف ضد النساء، ولم تنشأ على أساس التمويل (ضمت عايشة النجدة، والتجمع النسائي الديمقراطي اللبناني، ولاحقًا الهيئة الوطنية لمناهَضة العنف النساء من لبنان). أسست «عايشة» محكمة النساء العربيات التي تحاكم المعتدين والمعنِّفين، واستقدمت شهادات حية من مختلف البلاد العربية لنساء تعرَّضن للعنف، وهي محاكَمات صورية قضاتها من النسويات، تنصف المعنَّفات في ظل غياب أيّ محاكَمات عادلة في الفضاء الحقيقي للقضاء، وفي ظل منظومة الأحوال الشخصية التي تحاصر أيّ محاوَلة لمواجَهة للعنف.

تقول ليلى العلي: «ما فيه نظام طائفي، ما فيه عنف ضد المرأة». أما لينا، فترى أنَّ تجربة المحاكَمات النسائية كانت مُدهِشة، لأنها فتحت موضوع العنف ضد النساء علنًا، ونقلته إلى الحيِّز العام لتُشكِّل وعيًا حياله.

قضايا غابت عن الخطاب النسائي

هناكَ قضايا عديدة يتمّ الحديث عنها اليوم، غابت عن الخطاب النسائي في التسعينيّات، كالحقوق الكويرية، وحقوق العاملات المهاجِرات العاملات في المؤسَّسات والبيوت، والوعي بالسياسات النقدية والاقتصادية. والمسألة الكويرية، وإن كانت نسوية متجذرة في الخطاب الجندري العالمي ومنطلِقة من إشكالية الحق الشخصي والقرار المتعلق بالجسد والهُوية الجنسانية، غيرَ أنّها غابت عن الخطاب النسائي في لبنان لأسباب كثيرة، إذ إنّ جزءًا كبيرًا من الحركة النسائية قرَّر التماشي مع الواقع اللبناني التقليدي، وغضّ النظر عمَّا من الممكن أن يثير حفيظة المجتمَع، والسلطة، والدين، فرفض خوض هذه المسألة، لا سيّما أنّ تقليدية الحركة النسائية نفسها بمعتقَداتها المختلفة غذّت هذا التهميش أحيانًا. تقول لينا أبو حبيب إنَّ الحركة، في هيكليتها التقاطعية، لم تكن قد تبلورت كما نراها اليوم، كما أنَّ الاستيعاب المفاهيميّ للثنائيات الجندرية كان في حاجةٍ إلى فهم أوسع من أجل صقله، مُشيرةً أيضًا إلى أنَّ جزءًا كبيرًا من النسائيات اللواتي عاصرَتهنَّ لم يكتفِ بعدم الاصطدام فحسب، بل لم يكن في الأصل مقتنِعًا بهذه الحقوق، وبضرورة النضال من أجلها. أما ليلى مروّة، فتشير إلى أنَّ الحركة كانت تقليدية إلى حَدٍّ كبير، ما أدّى إلى تراجُع هذه القضايا عن ساحة الجدل بين الناشطات والمجتمَع، أو مع المشرِّعين. لم تكن تلكَ الحركة تقليدية فحسب، بل كانت ناشئة من الحرب، وتعطي اهتمامها الأكبر لهموم أخرى، ما حدد أولوياتها، وخلق تجزيئًا للقضايا. كما أنَّ طغيان النضال الوطني على الخطاب النسوي أخّر امتلاك الحركة النسائية خطابًا جذريًّا، من هنا، احتاجت وقتًا لامتلاك هذه اللغة والممارَسات. وفي الحقيقة، حُصِرَ جزءٌ كبيرٌ من النضال النسائيّ في الحقوق السياسية للنساء، لأنها لا تمس الطوائف ولا التابوهات الاجتماعية، فمُيّع كثيرٌ من القضايا الجندرية الأساسية، وتراجع لصالح خطابات مهادِنة.

«الحديث عن الحركة الكويرية هو جزء من مسار نضوج الحركة النسوية والحركة النسائية كانت غير مكتملة وعم تِحبي وعم تحكي بالمسائل الأساسية رغم أنها عارفة بالحركة الكويرية ولكن حاطتها عالرف»- عزيزة الخالدي.

تجدر الإشارة أيضًا إلى أنَّ تلازُم المسار اللبنانيّ مع العالميّ، وضعَ هذه القضايا بشكل أكبر على الخارطة، لأن تبنّيها جاء لاحقًا من خلال الاتفاقيات الدولية والاهتمام العالميّ، ولأنّ جيلًا جديدًا انبثق ليناضل من أجل هذه القضايا. نذكرُ أيضًا أنَّ العديد من الأشخاص حاولوا التحدّث حينها عن الجنسانية، لكنهم قوبلوا بالقمع، ومع ذلك، فإنَّ كثيرينَ وكثيراتٍ من الناشطين والناشطات، سعوا/ينَ إلى إيجادِ مساحات آمنة تؤسِّس لخطابات بديلة، لا سيَّما أنَّ التمويل الموجه للمسألة الكويرية لم يبدأ في التسعينيّات.

في التسعينيات، رافق الانتفاخ الاقتصاديّ تثبيت سعر الصرف، ما مكّن معظم الأسر اللبنانية من استقدام عاملات أجنبيات. ومع إيجاد نظام الكفالة، نشأت أرضية واسعة لانتهاك حقوقهنّ الاقتصادية والإنسانية، حسب زويا روحانا. وتشير لينا إلى أنَّ المشكلة تكمن في غياب نسويات اقتصاديات، ليس فقط في لبنان إنما أيضًا في المنطقة العربية، ما انعكس على تغييب كثيرٍ من المفاهيم المتعلقة بالحقوق الاقتصادية للنساء، وعلى وعي آثارها، قبل أن تتجلى نتائجها. وتضيف لينا أنَّ الحديث عن العمل الرعائيّ المَجّانيّ والذي يُعَدُّ من أوجه الانتهاك الاقتصاديّ للنساء، بدأ عالميًّا منذ الثمانينيّات، لكنه صار متداوَلًا في لبنان والمنطقة منذ خمس سنوات فقط.

وعلى الرّغم من أنّ هذا العقد شهد على عملية كبيرة لاستقدام العاملات الأجنبيات للعمل في لبنان، إلا أنّ الحديث عَنْ حقوق العاملات الأجنبيات والانتهاكات التي تعرَّضن لها كان خجولًا للغاية، إذ كانت النساء يُستقدمنَ ضمن آليات أبعد ما تكون عن أيّ احترام للحقوق الإنسانية والمواثيق الدولية، من بلاد آسيوية وأفريقية للعمل مقابل أجور زهيدة وظروف عمل غير منصفة في أغلب الأحيان، تحت مظلة ما يعرف بنظام الكفالة. وكانَ التعاطي الإيجابيّ مع العاملات المهاجِرات غالبًا ما يأتي من منطلَق إنساني، بعيدًا مِنْ أيّ مقارَبة حقوقية وتغييرية وتنموية ومستدامة. لَكِنَّ هذه المَسائل لَمْ تَجِدْ إطارها الذي تتقولب فيه، إذْ إنَّ الحركة النسوية نفسَها لم تكن مُهيكَلة، وكان لا بد من إيجاد هيكلة نسوية جذرية تتبنى هذه القضايا.

ومن الأوجه الأخرى للقضايا التي غابت عن أجندة الحركة النسائية، يأتي الوعي بالسياسات النقدية والاقتصادية، على الرّغم من ارتباك المشهد الاقتصادي في التسعينيّات واتجاهاته إلى أطوار نيوليبرالية شديدة كدولرة الاقتصاد، وتثبيت سعر الصرف، والمديونية، والخصخصة، وتراكُم الفوائد، وانحسار الوصُول إلى الخدمات والأملاك العامة، تزامُنًا مع خنق النقابات وابتزاز القضايا العمالية؛ فالتحرك النسائي في هذا الاتجاه كان هزيلًا وخجولًا، وهذا ما تقرّ به الأصوات النسوية التي استمعنا إليها. والحقيقة أنّ النساء كنَّ أبرز من دفع ثمن المشهد الاقتصادي، وكان ذلك من خلال استغلالهنّ بأشكال مختلِفة في عمالة غير مهيكلة كانت في ازدياد، وأجور زهيدة، وتوظيفات غير ثابتة من دون ضمانات اجتماعية، أو عبر إيجاد علاجات غير ناجعة لأحوالهنّ المادية المتراجِعة؛ فقد أراد بعض المنظَّمات العالمية من خلال شركاء محليين أن ينهض بأحوال النساء، فأوقعهنَّ في فخ القروض الصغيرة التي كرَّستهنَّ في أدوار نمطية، كتصفيف الشَّعر، والخياطة، وغيرها، مِنْ دون إيجاد أيّ حيِّز أو مفهوم تنموي أو مستدام. أمَّا أثر الخصخصة، فقد جاء قاسيًا على النساء، لأنهنَّ كنَّ أوائِل المصروفات، كما صرن مجبَرات على القبول بأجور أقل، كمساوَمة للبقاء في الوظيفة.

والحقيقة أنَّ مستوى معرفة الجمعيات النسائية والنسوية اللبنانية بالأوضاع والحقوق الاقتصادية للنساء متفاوت، لكنَّ مستوى تصدِّيها لها كان مُتدنِّيًا جِدًّا في التسعينيّات، وما زالَ كذلكَ حتّى اليوم، على الرّغمِ من أنَّ المنظَّمات الفلسطينية النسوية وعت التقاطعات الموجودة بين الحقوق الاقتصادية والمدنية وتحرُّر النساء، وربطتها بالسياسات الاقتصادية، وتبنت كثيرًا من الممارَسات والمشاريع القائمة على هذا الأساس. وتعود أسباب هذه المفارَقة في الوعي إلى الخصوصية الناشطية، والتصاق صنع القرار بالقواعد الشعبية في المخيَّمات.

وتقول بتول يحفوفي: «الكثيرٌ من الجمعيات غير مطلعة على هذه المسائل ولا تطّلع على مؤتمرات كدافوس إذ أن أغلبها رعائية اجتماعية لا تقترب من سياقات الأحوال الشخصية والاقتصاد تجنُّبًا للاصطدام مع السُّلطة. ونشر هذه المعارف ضعيف على المستوى العام. وبالرغم من المحاوَلات الطفيفة للمجلس النسائي للتحدث في هذا الموضوع، لا تزال الأرضية غير مسهلة ولا مرنة».

يشير الواقعُ أيضًا إلى أنَّ النساء كنَّ مهتمات بالغلاء المعيشيّ، لكن في إطار شخصي، وتزامن ذلك مع نقص إلى انعدام في التنسيق بين منظَّمات تعنى بالحقوق الاقتصادية والجمعيات النسائية. تروي إحدى الناشطات أنها قد طلبت مرة من أحد الخبراء الاقتصاديين في أثناء التسعينيّات أن يلقي محاضَرة حول الأوضاع الاقتصادية أمام مجموعة من النساء، فرفض وأجابَ ضاحِكًا: «لا، ما تدخلوني مع النسوان» غامزًا، وملمِّحًا إلى أنَّ الاقتصاد ليس موضوعًا نسائيًّا أو نسويًّا، ليُناقَشَ مع النساء. والجدير ذِكرُهُ أنه في العام ١٩٩٤، أسّست إقبال دوغان بالتعاون مع نساء عاملات في مجالات مختلفة وناشطات نسائيات «رابطة المرأة العاملة» التي ساهمت «في تعديل قانون العمل، وتحقيق المساواة بين الجنسين في أماكن العمل، ومنْع طرد المرأة الحامل من وظيفتها، وزيادة فترة إجازة الأمومة، والموافَقة على استفادة الأطفال من الضمان الاجتماعيّ، في حال كانت الأم وحدها المضمونة».[٧]

٧. من مقابَلة أُجْرِيَتْ مع إقبال دوغان، ومن مقال لـ «ربى أبو عمو» عن نشاط إقبال دوغان في الشأن العمالي في موقع "العربي الجديد" الإخباريّ. الرابط: https://www.alaraby.co.uk/إقبال-دوغان-في-شارع-اللبنانيات

في رحاب الجمعيات

«من أجل تقديم خدمات لكثيرٍ من القضايا، كان لا بد من أنو يكون أشخاص عم يعملوا بدوام كامل، وبالتالي كان بدهم معاشات، وكان لا بد من تبني مشاريع والدخول في هذا السياق»- زويا روحانا

كان لمؤتمَر بكين أثر في أجندة المموِّلين العالميِّين، وكان لا بد لتوصياته من أن تصبح الخطوط العريضة للمشاريع والتحركات النسوية حول العالم، فأفضت مرحلة ما بعد بكين إلى حصول تحوُّل تنظيمي أدى إلى نشوء جمعيات صغيرة ومتوسطة بدلًا مِنَ المنظَّمات الكبيرة والهيئات، ما يصطلح على أنه «الأنجزة» «NGOization» أي تغليب العمل الهيكلي والممأسس بشكل عام ضمن نطاق الجمعيات، وهو مفهوم أشارت إليه إصلاح جاد في وصفها الحركة النسائية العربية،[٨] وأشارت إليه داليا متري في وصف الواقع اللبناني بشكل خاص.[٩] وحسب جمانة مرعي «هناك فرق بين المنظمة وبين الجمعية إذ عادة ما تكون المنظمات قائمات على العضوية ولكن اليوم هناك جمعيات فيها ١٠ – ١٥ موظفة على أكثر تقدير وهنا لا نتحدث عن متطوعات أو عضوات بل عن موظفات».

والجديرُ ذكرُهُ أنَّ معظم الناشطات اللواتي تحدثن عن هذا التحول، أبدينَ شيئًا من الحسرة على مفهوم التطوع الذي اندثر في رأيهنَّ. ولكن بشيء من الواقعية، تحدثنَ عن ظروف المرحلة التي حتَّمت هذا النوع من التحوُّل، وعن ضرورة التفرُّغ لمُمارَسة مهام أساسية، ما يستلزم مبدأ التوظيف، وبالتالي التمويل بغيةَ الاستمرار وتلبية الاحتياجات.

وحسب جمانة مرعي، «ليس بالإمكان القول بأنه تحول سلبي ولكن الالتزام النضالي والقدرة على الحشد والاستقطاب خفتوا لصالح تطبيق المشاريع كما أن التمويل غرَّ كثيرين وصارت كل جمعية معنية بإنجاح عملها وصار فيه منافسة للحصول على التمويل».

أما عزيزة فتلفت النظرإلى أن « الوصول إلى الموارد يتحكم بالقدرة على إطلاق الصوت. أصبحت الحركة أكثر تخصُّصًا واستجابةً، وهو أمر إيجابي ولكن نعم صار فيه تنافس وتزاحم وتراشق في بعض الأماكن وهذه مؤسسات يجدر بها أن تكون طليعية ويجدر بخطابها أن يكون أكثر تشابُكًا على الرغم من المنافسة واختلاف الآراء».

وتشير كارولين سكّر إلى أنَّ الأسلوب المتّبَع في الجمعيات أعطى مساحة أكبر للأصوات الشابة، والقرارات الجماعية، وتبادل الأفكار ولكنه في الوقت نَفسِهِ سلب شيئًا من النَّفَس النضالي المبني على الشغف بالقضايا والالتزام بها بسبب العقيدة النسوية: «بالسابق، كان الصوت النسويَ أَعلى من صوت المموِّل، هلق خفتت وطأة الهرمية ولكن فقدت الحركة كتير من معالم الشغف والتطوع» .

٨. إصلاح جاد، "تحوُّل الحركة النسائية إلى طابع المنظَّمات غير الحكومية في العالَم العربيّ" (بالإنكليزية)، نشرة مركز دراسات التنمية IDS Bulletin، المجلَّد ٣٥، العدد ٤، ٢٠٠٤، ص. ٣٤-٤٢.

٩. داليا متري، " من الفضاء العام إلى المكاتب: تحوُّل الحركات النسائية في لبنان إلى طابع المنظَّمات غير الحكومية، وأثره على تعبئة النساء وتحقيق التغيير الاجتماعيّ. Civil Society Knowledge Centre, Lebanon Support٢٠١٥

النسوية في لبنان في التسعينيّات: مفارَقات مؤسِّسة وتحوُّلية

كانت التسعينيّات مفصلية، ولكن غير مكتمِلة في مخاض إعادة ولادة الحراك النسوي وتأسيسه بمعناه الحقيقيّ، وكان بالإمكان أخذها لتكون لحظية وانفعالية، أو العمل لتكون واعية، ومستدامة، ومشتبكة، ومتنبهة، وقد ذهبت في الاتجاهين معًا وإن بنسب متفاوِتة. لكنَّ ذلك لا ينفي الجهود الهائلة التي وضعتها الحركة النسائية لتصحيح المسار الحقوقي للنساء، والتي أثبتت نسويتها في مفاصل قانونية ومعيشية عديدة. تتسرب من سرديات النسويات حول التسعينيّات معالم تكوين أو تأكيد ذاتي وأيديولوجي؛ فهذه مرحلة أَثَّرَت في تمسكّهن بالقضايا التي آمنّ بها، أو نبّهت وعيهنّ لما لم يكن بدهيًا. وربما يُمكنُ وصف تسعينيّاتهنّ بأنها مرحلة الاصطدام والنشوء؛ فالنسويات اللواتي اصطدمن بالإرث الرديء للحرب، وبمنظومة القوانين، وبالواقع المطلبي المتردي، وبالنقابات المسيَّسة، وبالأحزاب الذكورية المتسلطة، وببعض التَّخاذُل في أوساطهنَّ، عملن على تأسيس نهضة ذاتية تستلهم ملامحها من تلاقي نسويات العالَم، واحتياجاتهنّ، وتجاربهنّ، وبشكل أساسي من إصرارهنّ على نفض ذاكرتهنّ المتألِّمة من العنف والصراع.

أخيرًا، أن تحلمي في لبنان وتعملي فيه من أجل أوضاع أكثر عدالة، أو من أجل مساواة تنصف واقعك كامرأة، وكناشطة ونسوية ليس بالأمر السهل، لا اليوم والاقتصاد منهار والبلد واقع في الهاوية، ولا في التسعينيّات عندما كان البلد يلملم نفسه بعد حرب دمّرت الأفكار والمؤسَّسات، والقيم الإنسانية والحقوقية قبل أن تدمِّر الحجر. ولمَّا كان السؤال الأخير الذي طرحناهُ على النسويات اللواتي قابلناهنَّ هو عمَّا إذا كنَّ أكثر تفاؤُلًا اليوم أم في التسعينيّات، حمل بعض الإجابات نفَسًا إيجابيًا عميقًا، ولكنَّ خلاصتهنَّ الأبرز أشارت إلى أنَّ التفاؤُل اليوم للحركة النسوية أكبر، لكنه أقل بكثير للبلد، وتساءلن بعدها عن السبيل للتفاؤل. والحركة النسوية تؤدِّي من جديد، اليَومَ، دورها الإغاثي الشبيه بدورها خلال الحرب، بعيدًا مِنْ كلّ قفزاتها وإنجازاتها الحقوقية التي انتزعتها بالقوة والألم، من نظام طائفي، وفاسد، ومتخلِّ عن دوره...

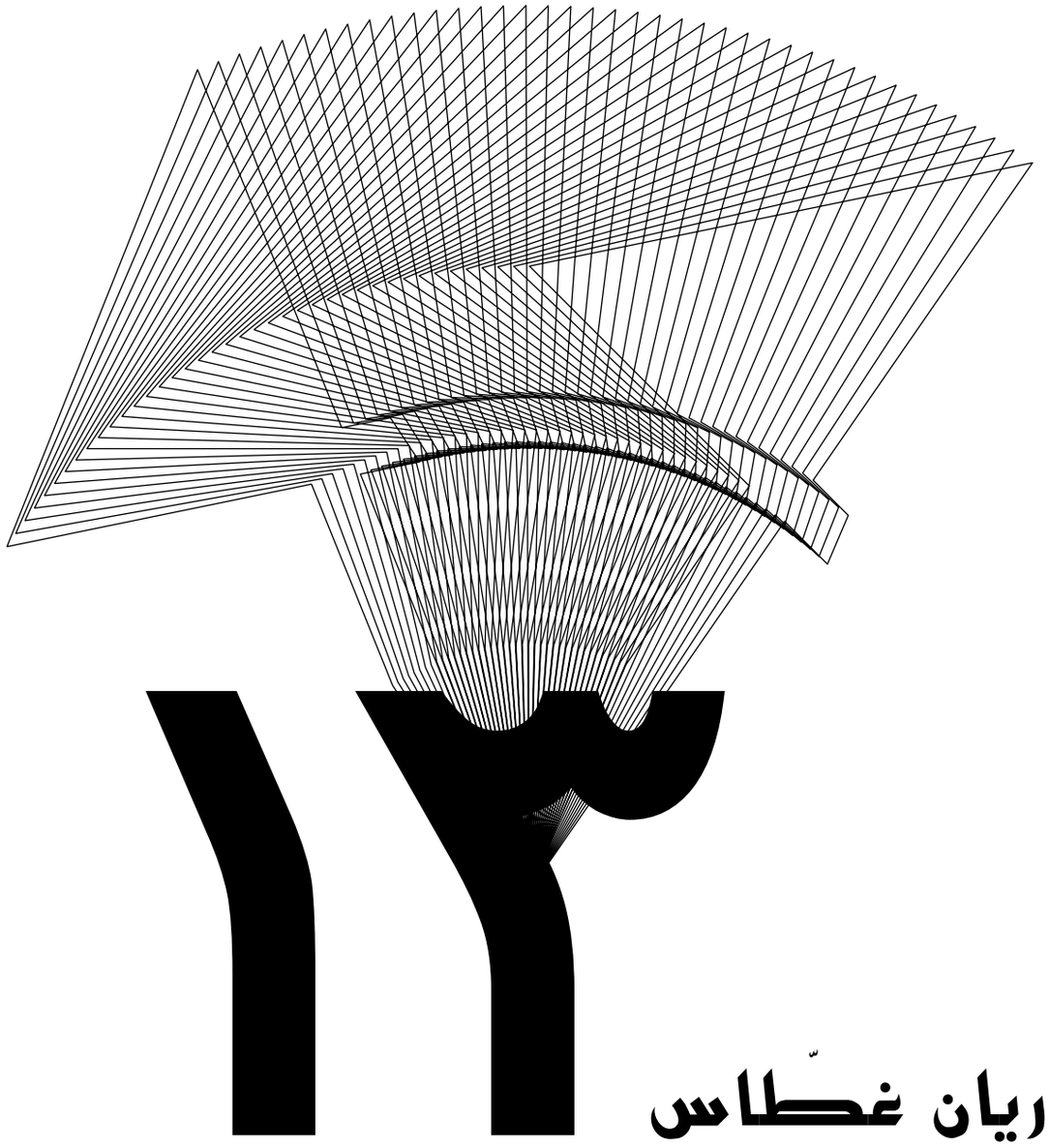

ماريان غطّاس

ناشطة نسوية، تنشط في قضايا العدالة الاجتماعية وحماية تراث بيروت المعماريّ. وتعمل حاليًا على استكمال دراستها العليا في الاقتصاد حول أمولة الاقتصاد اللبناني وتأثيراته في انعدام المساواة في لبنان

سيرورات التهميش في التسعينيات: الإنتاج الثقافي والتجارب المعاشة قبل الحركات الكويرية في لبنان[١]

شكّلت حقبة التسعينيات في لبنان تحديات كثيرة للمثليات والأفراد الترانس؛[٢] فمرحلة انتهاء إطلاق النار، أو ما سُمِّيَ السِّلم الأهليّ، لم تُنتِج فقط فترةَ هدوء أمني وشيئًا من الاستقرار للمقيمين في لبنان، إذْ وضعَ إعلان السِّلم الأهلي، بتنفيذٍ من الجيش السوري في بيروت، وباتفاقٍ بينَ الدول العربية والغربية وبمبارَكتها، استتبابَ الأمن كأولوية قصوى، حيثُ تُرجِمَ عبر تضييق القبضة الأمنية. تجلّى هذا التضييق في كثيرٍ من الأحيان في انتشار الحواجز الأمنيّة في الأراضي اللبنانية كافّة، وكان أيّ تمظهُر للتعبير غير النمطي بالمعنى الجندري يضع صاحبه أو صاحبته في خطرٍ، سواء من ناحية التوقيف والاستجواب، أَمِ المضايَقات والتحرُّش من قبل القوى الأمنية.

رافقتْ هذا الترهيب الأمني أيضًا حملاتٌ إعلاميةٌ تُدين الخارجين عن الأنماط الجندرية، وتسخرُ منهم، وتُعاقِبُهُمْ، آخذةً في كثيرٍ من الأحيان منحى الفكاهة أو الإثارة الفضائحية، ومقالات «عِلم النفس» التي تزوّر الحقائق، ما ولّد كثيرًا من المغالَطات والعدائية في المجتمع تجاه المثليات/ين، والأشخاص الترانس، وغيرهم/هنّ. تحوّلت هذه المغالَطات في أوقاتٍ كثيرةٍ إلى ريبة أخبار «عبدة الشياطين» التي غزت الشاشات اللبنانية، وأخبار مداهَمات لحفلات «فاحشة». كان لهذا الواقع الأمني بعد الحرب آثار عدّة على المثليات والترانس، فقد حدَّ من حرية تنقلهنَّ، ومن فرص التقائِهنَّ بمثليات وبأشخاص ترانس أخريات، بسبب الشعور الدائم بخطر التعرّض للمضايَقات. وقَدِ ازداد منسوب الخوف نتيجة هذا العداء، وعزَّز لديهنَّ الشعور بالعزلة والغربة.

تستكشف هذه الورقة هذا السياق المعادي للمثليّة والهُويات الجندرية والجنسانية غير النمطية، خصوصًا في المجالَين الإعلاميّ والثقافيّ، حيث شهدت التسعينيات تحوُّلًا بارزًا في كيفية تمثيل الهُويَّات والتجارب غير النمطية أو غير السائدة، رافقته رقابةٌ على إنتاجاتٍ ثقافيةٍ تتناول هذه الموضوعات بمقارَبة أكثر واقعيّة، وَمُنِعَ عَرضُها. أعرض في هذه الدراسة الفيلم الوثائقيّ «سينما الفؤاد» الذي أخرجه محمد سويد، والفيلم الروائيّ «متحضِّرات» من إنتاج رندا شهّال الصبّاغ وإخراجها. وإن كان هناك شيء واحد مشترك بين هذين الإنتاجين - فيلم وثائقي وآخَر روائي، فهو أنهما لا يستخدمان الإثارة لتصوير النساء المثليات، والعابرات، والهُويَّات الجندرية غير النمطية، بل على العكس، فَهُنَّ يظهرن في هذه الأفلام على أنهنّ يعشن حياتهنّ بانفتاح، ويواجهن التحديات والظروف نفسها، والواقع ذاته، مثل أيّ شخص آخَر.

أما الحركة النسائية في تلك الفترة، فقد جارت الإعلام في معظم الأحيان في نظرتها الدونية إلى الجنسانية والهُويَّات الجندرية غير النمطية، مع وجود بعض الناشطات/ين والحقوقيات/ين اللّواتي/الَّذينَ أصرَرنَ/أصرّوا على مقارَبة أشمل للموضوعات. وتنتهي هذه الورقة في أواخر التسعينيات وأوائل الألفية الجديدة، مع ظهور الإنترنت وبداية خلق مساحات اجتماعية صغيرة ومجموعات حقوقية محدودة، أدّت إلى تلاقي المثليات، لتكون إحدى بدايات أو نقاط انطلاق حركات مجتمَع الميم في لبنان.

---

١. قامت ماريان بإجراء كل المقابلات وجمع كل المعلومات والرجوع إلى المصادر المتعلّقة بهذه الورقة. أما النسخة النهائية لهذه الورقة فقد جاءت نتيجة جهد مشترك وورشات كتابيّة جماعية بين ماريان وصفاء وديمة من فريق التحرير.

٢. مع العلم أنَّ هذه المصطلَحات لم تكن معتمَدة في التسعينيات؛ فمصطلحَات «المثلي» و «العبور الجنسي/ الجندري» أتت لاحقًا بعد نموّ الحركات التي تعمل على الحقوق والحريات الجندرية والجنسانية في لبنان. أستعمل في هذه الورقة مصطلَحَات مثل «مجتمَع الميم» و «الهُويات الجندرية والجنسانية غير النمطي» و «الكويريّة» كمفاهيم تشمل المثليات، وثنائيات الميل الجنسيّ، والعابرات، وذوي/ذوات الهُويات الجنسية غير النمطية، كما أستعمل "المثليات والأشخاص الترانس".

تقوم هذه الدراسة على مقابَلات أجريتُها مع ٧ ناشطات وناشطين، بالإضافة إلى نساء مثليات من خارج المجموعات والدوائر الناشطة. علاوةً على ذَلِكَ، أجريتُ مقابَلتين مع المُخرِج محمد سويد خلال شتاء ٢٠٢٠-٢٠٢١، وأعدُّ هذا المقال الخطوة الأولى في بحث أطول عن تاريخ الأشخاص المثليات/يين والترانس في لبنان، مع العلم بكلّ مُحاوَلات التهميش والإسكات والنفي والمحو الّتي تعرضت لها الحيوات غير النمطية.

أهمية الإنتاج الثقافي

من بين النتائج الأقلّ تداوُلًا التي ترتّبت عن اتفاق الطائف، كانت إعادة تنظيم الإعلام في لبنان.[٣] وفي هذا الإطار، تمّ «إضفاء الشرعية على محطات الإذاعة والتلفزيون القائمة بحكم الأمر الواقع». كانتِ الفصائل المتحارِبة قد أنشأت محطاتٍ تلفزيونيةً مقرصنة خاصة بها، في منتصف الثمانينيات، ثم أتى الاعتراف القانونيّ بهذه المحطات في أوائل التسعينيّات. مهّد هذا التكريس الطريق لانتشار المحطات التلفزيونية، حيث سارع العديد من السياسيين ورجال الأعمال إلى إنشاءِ محطاتهم، لإثبات «حقّهم» في الحصول على ترخيص تلفزيونيّ.[٤]

أرسى هذا الواقع الجديد التنافسية في الوسط الإعلامي، والتي كسرت احتكار تلفزيون لبنان،[٥] وأصبحت الأولوية للربح ولاستقطاب المُشاهِدين على حساب المحتوى. أما القيِّمُونَ على تلفزيون لبنان في تلك الفترة، فكانوا لا يزالون مهتمِّين بالمحتوى، ويطلبون التعمّق، والنزاهة الفنية في معالَجة القضايا الاجتماعية بتعقيداتها.[٦] أمّا التمويل والمَوارِد فكانا مُتاحَين بشكل أوسع في وسائل الإعلام التي أَسَستها الميليشيات التي تنافست بدَورها فيما بينها، من خلال البرامج القائمة على إثارة المسائل الاجتماعية بشكل مسطَح وترفيهيّ.

في التسعينيات، اتجهت البرامج المتلفَزة إلى معالَجة قضايا حسّاسة اجتماعيًّا، ولكن على قاعدة «الرأي، والرأي الآخَر»، كأسلوبٍ جديدٍ كان قد بدأه حينها الإعلاميّ زياد نجيم، حسب سويد.[٧] كان الموضوع نفسه يتعرّضُ لِلمَنعِ، إذا عُولِجَ وقُدّم من خلال فيلم روائي أو وثائقي، أمّا إذا قُدِّمَ من خلال برنامج إذاعيّ أو تلفزيونيّ، فكان يسمح به بحكم أنه يتقيّد بشروط معيَّنة في عرض المسائل، كشرط استقبال «كلّ الآراء». وبذلك، يُمسي صَوت صاحب القضية غيرَ مسموع، بل تحيط به أصوات كثيرة، خصوصًا أنّ «الرأي» تحدّده أصلًا سياسة المحطة.[٨]

وفي هذا الإطار، تحوّل تمثيل الأشخاص المثليات/يّين والترانس إلى حلقات متلفَزة تنقل آراء رجال الدِّين وعلماء النفس، حيث ت/يظهر «المنحرِفات/ون» خلف الستار بأصواتهنّ/م المشوَّهة، ما زاد غربة المثليات/يّين والعابرات/ين؛ فوسائل الإعلام هي خاصة بالمجتمَع الذي تعمل فيه، ولا يمكن أن يكون لها هُويّة أو تأثيرات في خارج الحالات الملموسة التي تعمل فيها القوى المختلفة.[٩]

على هذا النحو، اتّجهت المنتَجات الثقافية إلى تصوير «الانحراف» كسلعة ترفيهية خلال التسعينيات، وكان تأثير هذا المنعطَف ذا شقّين: من ناحية، غذّت هذه الإثارة الرأي العام الإقصائي والعدائي تجاه «الانحراف» الجنسيّ، ومن ناحية أخرى، ساهم في ترسيخ صورة نمطية عن «الانحراف» و«الشذوذ» والخروج عن المعايير والضوابط.

٣. نصت المادة في اتّفاق الطائف على "إعادة تنظيم جميع وسائل الإعلام في ظل القانون وفي إطار الحرية المسؤولة بما يخدم التوجهات الوفائية وإنهاء حالة الحرب."

٤. Nabil Dajani, "The Changing Scene of Lebanese Television", 2001, https://www.arabmediasociety.com/the-changing-scene-of-lebanese-television/

٥. كان تلفزيون لبنان قد انقسم خلال الحرب إلى القناة السابعة التي بثت من المنطقة الغربية والقناة التاسعة الناطقة باسم المنطقة الشرقية.

٦. مقابلة مع محمد سويد، ٢٠٢١.

٧. انظر ايضًا:

Sara Mourad, "The Boundaries of the Public: Mediating Sex in Postwar Lebanon". Publicly Accessible Penn Dissertations (2016). https://repository.upenn.edu/edissertations/1905

٨. مقابلة مع محمد سويد، ٢٠٢١.

٩. نبيل ديجاني، المرجع السابق.

وقد أدَّتِ الرقابة دورًا مُهِمًّا في هذا التحوّل، إذْ سُمِحَ بعرض البرامج المثيرة للجدل ورُوِّج لها، في حين فُرضت الرقابة على المحتوى الذي يعالج هذه القضايا بطريقة مختلفة، مثل «سينما الفؤاد» وفيلم «متحضّرات». وفي هذا الصّدد، يقول سويد عن منع عرض «سينما الفؤاد»: «ما تحمّلوا. ما كان ممكن يسمحوا فيه، لأن إذا خرج الفيلم من التلفزيون وتمّ عرضه، عندها يصبح مسألة رأي عام».[١٠]

انتشرت في تلك الفترة وحتى العام ١٩٩٨ المطبوعات الجنسية القديمة، أذكر من بينها: ««صون العدالة».. أسبوعيّة جريئة توجيهيّة.. ثورة الحقّ على الفساد! «ثمّ «الوجه الآخَر»» ... أسبوعيّة جريئة.. (فقط)!» وهناك «الخطّ الأحمر».. أسبوعيّة شاملة. هذه «المطبوعات الفضائحيّة» وصفتها صحيفة الحياة ب «الجنسيّة» و«الوطنية» و «الرائجة فوق العادة»؛ فمجلة «صون العدالة» على سبيل المثال، الصادرة عن مخابرات الجيش، حملت عناوين مثل: «حفلات زواج بين الجنس... ونفس الجنس» و «ضبط مغامَرات جنسية غير شكل» و «توقيف فتيات بتهمة تعاطي الدعارة».[١١] وكانت الصور الجنسية المُهينة للنساء والمثليات التي تُظهِرها المجلة أكثر من تلك التي تُظهِر المثليين؛ فمشكلة الدولة لا تكمن بالفعل الجنسي فقط بل بالتعبير الجنسي كذلك، إذ إنَّما تقمعه هو التعبير الهُوياتيّ، خصوصًا حينَ يتّخذ شكلًا يخرج عن القواعد الجندرية، وتحديدًا ما هو مؤنّث أو أنثوي.

أدّت الرقابة على المنتَجات الثقافية المذكورة أعلاه إلى محو أيّ أثر للصور الواقعيّة عن المثليات وعابرات الجنس، والّتي حاولتِ الظُّهورَ من الذاكرة الجماعية. كما منعت الرقابة النساء والفتيات المثليات وعابرات الجنس من الشعور بأنهنّ موجودات وممثّلات، ولو في عدد قليل من المنتَجات الثقافية الشعبية. ساهم تهميش الجنسانيات والأنواع الاجتماعية غير المعيارية، كافّة، في تفاقُم إحساسهنّ بالعزلة، حَيثُ رأين أنفسهنّ فقط من خلال التصورات في العروض التلفزيونية السائدة والتي لا تأخذ مخاوفهنّ أو أمنهنّ بعين الاعتبار.

لذلك، أدّى هذا الواقع إلى حجب قصص المثليات والنساء الترانس وتمثيلهنّ، تاركًا بذلك انطباعًا مفادُهُ أنهنّ من دون تاريخ أو وجود يُذكَران.

إنتاجات ثقافية عن مجتمَع الميم في التسعينيات:

تميّزت التسعينيات في لبنان بغياب—أو بتغييب— ممنهَج للإنتاج والعمل الثقافيَّينِ اللبنانيَّينِ حول المثلية والتصورات المتعلقة بها؛ فبسبب الرقابة، حُظِرَ العديد من الأعمال الثقافية التي قد تمثّل الهُويَّات المثلية أو العابرة جندريًّا، بشكل مختلف مِنَ السائد في وسائل الإعلام. أركّز هنا، على وجه الخصوص، على فيلم محمد سويد الوثائقيّ «سينما الفؤاد» وعلى فيلم رندا شهال الصَّبّاغ «متحضِّرات»، اللَّذَينِ حُظِرَا في التسعينيات.

سينما الفؤاد

سينما الفؤاد (١٩٩٤) وثائقي أخرجه محمد سويد، يصوّر حياة أوسكار، وهي امرأة ترانس قدمت من سوريا إلى لبنان خلال الثمانينيَّات هرَبًا من عنف عائلتها. يعرض الفيلم مقابَلةً مع أوسكار لمدة أربعين دقيقة، وقد صُوِّرَ—حسب سويد_ بموارد محدودة لم تتعدَّ كاميرا VHS واحدة وطاقمَ تصويرٍ من شخصين. والفيلم هو جزء من سلسلة من ثلاث عشرة حلقة من إنتاج تلفزيون لبنان بعنوان «أنا لك على طول»، وهدفه تصوير أشخاص مهتمِّين ومهتمات بالسينما. تذكر أوسكار في الوثائقيّ أنَّ المرّة الأولى الّتي شاهدَتْ فيها فيلمًا كانت في سوريا، تحديدًا في سينما اسمها الفؤاد، وتتحدث بشغف عن حبها للفن، ومنه استوحى المُخرِج اسم الفيلم.

١٠. مقابلة مع محمد سويد، ٢٠٢١.

١١. جريدة الحياة "المطبوعات الجنسيّة "تتسلّل" إلى أرصفة بيروت... ضمن "ظرف مختوم"، ٢٠٠٨، https://www.lebanonfiles.com/news/92094/

كان لقاء أوسكار في البلدة القديمة في بيروت (وسط البلد) محض صدفة، كما يتذكر سويد، فيقولُ: «كنا نصوّر وصادف أننا في البلدة القديمة، وذهبنا لأخذ قسط من الراحة، وجلسنا في مقهى كان جزءًا من نزُل. كان هناك كثيرٌ من النزل الصغيرة التاريخية القديمة في بيروت. وهناك ظهرت هذه الشخصية فجأةً من العدم، حيث كانت تعمل نادلة في المقهى».[١٢]

ما بدأ كمصادَفة أصبح عملية إشراك في حد ذاته. كانت اللغة أساسية للدخول في الحديث مع أوسكار عن قصتها، فقد طلبت من سويد أن يخاطبها بضمير المؤنّث، وفي المقابل حرص هُوَ أيضًا على راحتها وأمنها لمشارَكة تفاصيل حياتها؛ فقد كان لأوسكار تجربة سيئة مع الإعلاميين قبل بضع سنوات، حيثُ قُبِضَ عليها مرّة مع آخرين/أخريات ووُضِعَتْ في حبيش، حيث أجبروهم/هنّ على خلع ملابسهم/هنّ، وصوّرت وسائل الإعلام وجوههم/هنّ. نتيجة لذلك، لم يكن لديها ثقة بالإعلام أو بكيفيّة تصويرها مِنْ قِبَلِ سويد. قبل التصوير، جلس سويد وأوسكار أسبوعين تقريبًا، يتحدثان عن حياتهما، ويناقشانها. يقولُ سويد: «كان التعرّف إلى بعضنا البعض وكسب ثقة بعضنا البعض عامِلينِ أساسِيَّينِ في صنع هذا المشروع». [١٣]

يُشيرُ سويد أيضًا إلى أنه لم يكن لديه نيّة تصوير فيلم عن هذا الموضوع أو عن حياة أوسكار قبل أن تخبره عن نفسها، فيقُولُ: «لأكون صريحًا لم أكن حتى على اطّلاع على قضايا الهُويّات الجندرية غير النمطية»، ولكنَّ شغف أوسكار في الحديث عن نفسها وحياتها كما أهمية قضية «الحق في الهوية» بالنسبة إليه، كانا حافِزَين للدخول في المشروع.[١٤]

كانت أوسكار شريكة في عملية تنفيذ الفيلم؛ ففي خلال نقاشاتهما، وضعت مع سويد رؤيتها لمَشاهد الرقص، والجلي، والتقطيع، والتحضير في المطبخ، كما مَشاهد وضع الماكياج وإزالته للدخول إلى المنزل وللخروج مِنْهُ. أراد سويد إظهار جوانب حياتها اليومية المختلفة كما تعيشها فعلًا، لذلك ترك لها حرية اقتراح المَشاهد. والجدير ذكره أنَّ محمد سويد كان قلقًا قبل التصوير من إزعاجها، وكان متردِّدًا قبل طرح بعض الأسئلة عليها، لأنه يدرك كم كانت حياتها صعبة، ولكِنَّ أوسكار–كما يقول- أظهرت في المقابل شخصية جريئة، وصريحة، وشجاعة من ناحية مشاركة تجربتها، بشكلٍ لم يتوقّعهُ أبدًا.

يُظهِر الوثائقي كيف تضع أوسكار الماكياج في أثناء وجودها في المنزل، وكيفيّة تحرُّكها في مساحتها الخاصة، حيث تكون مرتاحة في التعبير عن ذاتها، ثم كيفيّة إزالتها الماكياج في عملية طويلة قبل الخروج لأنها غير مقبولة في خارج حدود المنزل، أي في المجال العام حيث يتوجب عليها أن تكون «خالد الكردي».

ينتهي الوثائقي بقراءة أوسكار لرسالة تتوجّه فيها إلى حبيبها المُسافِر في سويسرا، وكانَ هذا المشهد الوحيد الخارج عن يوميات أوسكار المعتادة، والذي اتُّفِقَ عليه؛ فحسبَ سويد، كتبت أوسكار الرسالة بنفسها، ولم يتدخل في أيّ جزء منها، إلا أنه طلب منها إضافة «أنا لك على طول» في نهايتها لتتماشى مع العنوان العريض للسلسلة.

فَقَدَ سويد الاتصال بأوسكار بعد تصوير الفيلم. لم يكن يعرف إلّا عنوان منزلها، ولم يكن التواصل سهلًا في تلك الفترة من أوائل التسعينيات قبل انتشار الهواتف. في الحقيقة، تدمّر منزل أوسكار في حملة إعادة الإعمار التي اجتاحت بيروت بعد الحرب، وعلى الأرجح أنها انتقلت إلى مكان آخَر، كما يظنُّ المُخرِج.

تكمن أهمية الفيلم في أنه يُظهِر الحياة اليومية والواقعية لامرأة عابرة في بيروت خلال الحرب وبعدها. ولا تنحصر هُويّة أوسكار في عبورها الجنسيّ، بل تظهر في الفيلم بأبعادها المختلِفة كامرأة هاربة من بلدها وعائلتها، وبحاجة إلى المال لإجراء العملية، وكمُحارِبة شاركت في معارك الحرب اللبنانيّة، كما تظهر كحبيبة في علاقتها مع شريكها، وكإنسانة لها طموح، وشغف، واهتمامات. إذًا، لا يختصر الفيلم أوسكار ببُعد واحد، بل يعرض حياتها بتقاطعاتها المتعدِّدة.

كان يُفترَض أن يُعرَض الفيلم على تلفزيون لبنان، ولكن على الرَّغم من موافَقة رئيس مجلس إدارة التلفزيون في حينها، فؤاد نعيم، على عرضه، نتيجة إعجابه به، إلَّا أن رقابة الأمن العام (التي كان لها فرع في داخل محطة التلفزيون، كما يخبرني سويد) رفضت السماح بعرضه. كانت تلك التجربة الأولى لسويد مع المنع، وقد عُرِضَ فيلمه بعدها في مهرجانات عديدة، في خارج لبنان.

١٢. مقابلة مع محمد سويد، ٢٠٢١.

١٣. مقابلة مع محمد سويد، ٢٠٢١.

١٤. المصدر السابق.

بيدَ أنَّ واقع الحال أراد لأوسكار أن تعيش من خلال هذا الفيلم؛ فقصّتها عاشت من خلاله، وعاش الفيلم من خلالها؛ هي الحلقة العاشرة من السلسلة والوحيدة التي لم تخرج إلى الشاشات اللبنانية، لكنَّها عُرِضَت في مهرجانات، في خارج لبنان، وهي الحلقة التي طبعت السلسلة ككلّ، كما أعطت اسمها للمهرجان السينمائي الأول من نوعه في لبنان في سنة ٢٠١٩، والذي خُصِّصَ لعرض تجارب مجتمَع الميم ونضالاته. في الواقِع، قد سُمِّيَ المهرجان «سينما الفؤاد» تيمُّنًا بالفيلم نفسه، كأول الأفلام التي أُنتِجت عن موضوع الهُويّة الجندرية في لبنان.

متحضِّرات

«لم يمت أيّ قط في أثناء تصوير هذا الفيلم، لم يتعرّض أيّ قط لإساءة معامَلة، لكنَّ ٢٧٠ ألف قتيل سقطوا خلال الحرب في لبنان»— عبارة تظهر على الشاشة في بداية فيلم «متحضِّرات».

وفي سنة ١٩٩٩، أنتجت رندا الشهّال صبّاغ فيلمها «متحضِّرات» Civilisées الذي يُظهِر «منحرِفي/ات» المجتمَع الذين/اللواتي تخلى عنهم/هنّ مُجتمعهم/هنّ خلال الحرب الأهلية في لبنان. يعرض الفيلم بطريقة ضمنية تقاطعات العرق، والطبقة، والدِّين، والهُويّات الجندرية، من خلال تصوير مثليات وعاملات مهاجِرات من سريلانكا والفيليبين، كما يطرحُ وقائع حياتهنَّ وتضامنهنَّ مع بعضهنّ، وما يعشنه خلال هذه الحرب. وفي الوقت نفسِهِ، تتقاطع حياتهنَّ مع حياة لبنانيين يشاركون في الحرب، وآخَرين شاهِدين عليها من طبقات اجتماعية مختلفة.

يصوّر «متحضِّرات» امرأتين مصريتين مثليتين، هما ثنائي، تعيشان حياتهما اليومية في أثناء الحرب، وتتشاركان مبنًى مع عاملات جنس وعاملات مهاجرات يعشن في منازل، إما هجرها سكانها اللبنانيون هربًا من القتال، أمّ أنَّهُمْ يعودون إليها في زيارات خاطفة من سفراتهم إلى بلدان أكثر أمانًا. تظهر روابط التضامن والمساعَدة المتبادَلة والدعم بين هؤلاء النساء المختلفات، في حين يتقاتلُ اللبنانيون ويقتلون بعضهم مِنْ دون أي هدف واضح؛ فمن «دلالات» الفيلم أنَّ المهمَّشات/ين أكثر تحضُّرًا وعقلانية من الذين تحاربوا لأكثر من خمس عشرة سنة.

الفيلم هو قصة بناية في بيروت، من بين القاطنين فيها نجاة (نونا) وسعاد (سوزا) اللّتانِ تعيشانِ حياة يومية «طبيعية»، وتمارسان الخياطة، ويعرفهما جيِّدًا أفراد الميليشيات حول المبنى، وتمضيان وقتهما على الشرفة، تستمعان إلى الأغاني المصرية، وتتكلمان مع الناس في الحي. نراهما على الشرفة تتحسّسان بعضهما بطريقة تشير إلى رغبة كُلٍّ منهما في الأخرى. ويوضح لنا الفيلم أنَّ جميع سكان البناية والمسلَّحين حولها يعرفون بعلاقتهما؛ ففي أحد المَشاهِد يقول أحد المسلَّحين (مازحًا) إنَّ الواحدة تلحس مهبل الأُخرى.

تتكلَم المرأتانِ على رغبتهما في العودة إلى بلدهما، مصر، لكنَّ جوازات سفرهما منتهية الصلاحية، والسفارة لا تعمل على تجديدها. تدّخر نجاة الأموال من أجل العودة إلى مصر، لكن يحصل أن تموت إحدى العاملات المهاجرات (راشيكا) وهي زميلة لجارة نجاة، مالي، فتمنحُ نجاة مالي مدخراتها كلّها، من أجل شراء تذكرة العودة إلى بلدها بعد وفاة راشيكا. لم تُصَوِّرْ نجاة وَسعاد بعدسة مختلفة كونهما مثليتين، أو بأنهما تعرضتا لعنفٍ أو خوف بسبب ذلك، على العكس كانتا جزءًا من الواقع العام، من البناية والحي.

وفي مشهد آخَر عن التضامن، تتعاون العاملتان الفلبينيتان معًا لمواجَهة «الجنون» اليومي لصاحبة العمل البرجوازية قليلة الصبر. كذلك، عندما تسأل إحدى الشخصيات عن ماريكا، عاملة الجنس (بإشارةٍ إلى «منزل الدعارة» الذي طبع تاريخ شارع المتنبي قديمًا)،[١٥] يردُّ البوّاب بأنها في الطابق الثالث حيث تعمل، وهذا يعني أنَّ الجميع يَمْنْفي ذلك شباب الميليشيا الّذين يحرسون المبنى على دراية جيدة بحياة جميع سكان المنزل، وبأعمالِهِمْ/هنّ.

١٥. روزيت فاضل، " "ماريكا" أشهر بائعات الهوى في شارع المتنبي: "بترونة " تحولت إلى مجدلية!"، ٢٠١٧، https://www.annahar.com/arabic/article/624398-ماريكا-أشهر-بائعات-الهوى-في-شارع-المتنبي-بترونة-تحولت-إلى-مجدلية.

عُرِضَ الفيلم بكامله في مهرجان بيروت السينمائي الدولي، كما في مهرجان البندقية في العام ١٩٩٩. ولكنَّ رقابة الأمن العام في لبنان لم توافق على توزيعه وعرضه في الصالات، وأرادت اقتطاع أكثر من أربعين دقيقة منه، لأنه يعكسُ صورة سيئة عن لبنان، بالإضافة إلى تضمُّنه تعليقات عُدَّت جارحة للأديان ولرموزها، فرفضَتِ الشهّال عرض النسخة المقتطَعة. عُرِضَ الفيلم بعدها في نيويورك في سنة (٢٠٠٠)، وفي جنيف في سنة (٢٠٠٢). وفي سنة ٢٠١٨، نُظِّمَ في بيروت مهرجان لاستعادة أفلام رندة الشهّال، وعُرِضَ خلاله فيلم «متحضِّرات». وَقَدْ جعلَتْ عائلة الشهّال العديد من أفلام المخرِجة مُتاحَةً (أونلاين)، ومنها فيلم «متحضِّرات» الّذي أصبحتْ مُشاهدتُهُ مُمكنةً اليوم عبر الموقع الخاص بها.

غياب الخِطاب المِثليّ عن الحركة النسوية

بالتوازي مع الرقابة على الإنتاج الثقافيّ ومع التغيرات التي طرأت على الجو الإعلاميّ، كان الخطاب الداعم للمثلية والعبور الجندري مغيَّبًا بشكلٍ طاغٍ في الحركة النسوية في التسعينيات. وفي «الحوار النسوي العابر للأجيال» الذي نظَّمته ورشة المعارف خلال مسار التحضير لإصدارة «تسعينيات نسوية»، تذكر إحدى النسويات أنَّ جمعيّة «حرّيات خاصّة» طرحت في المؤتمر الأوَّل لها حول «الكرامة الإنسانية في قانون العقوبات» في أيار ٢٠٠٣، أهمية العمل من أجل تغيير المواد القانونية التي تجرّم المثلية الجنسية في لبنان، وأنَّ اقتراح المحامي نزار صاغية يومذاك قوبل بالرفض من الحركة النسائية.

انخرط صاغية في العمل مع مجموعة من الناشطات/ين والحقوقيات/ين، وأنشأنَ/وا «حريات خاصة». يقول صاغية إنَّ قضايا المثليين والمثليات والأشخاص ذوي الهُويَّات غير النمطية، كانت مغيَّبة من الخطاب العام، وفي حال تُطُرِّقَ إليها كان ذلك يأتي في إطار نظرة دونية. وقد تحوَّلَ الحديث عن هذه الموضوعات والنّقاش فيها إلى بُعدِهما «السياسيّ» مع بداية القرن الواحد والعشرين، كما ذكر الذين حاورتهم كلّهم حول هذا الموضوع.

أمَّا فيما يتعلّقُ بالحركة النسوية، فتقول الناشطة عزيزة الخالدي لفاطمة الموسوي خلال بحث الأخيرة في الحركة النسوية خلال التسعينيات (فصل ١٢ من هذا الكتاب) إنَّ «الحديث عن الحركة الكويرية هو جزء من مسار نضوج الحركة النسوية، وهي حركة غير مُكتمِلة. عم تحبي وعم تحكي بالمسائل الأساسية رغم أنها عارفة بالحركة الكويرية، وحاطّتها عالرّفّ.»

وحسب بعض المتحاوِرات اللواتي قابلتهنَّ، إنَّ الجوّ من فورة الإعلام، والقنوات، وقضية الكوين بوت،[١٦] والتضييق الأمني، أدّى إلى بروز حريات خاصة في سنة ٢٠٠٢، استمرّت حتّى سنة ٢٠٠٤,[١٧] كانت القضايا المطروحة في البلد كثيرة، ولكن كلّ واحدة منها تُعالَج بطريقة منفصِلة عن الأُخرى. وبالنسبة إلى مؤسِّسي/ات «حريات خاصة»، كان هناك عامل يجمع بينَ هذه القضايا، وهو «إرادة السلطة في التّدخُّل في الحيز الخاص»، ومحاوَلة إخضاعه. جاء تشكيل «حريّات خاصة» كنقد للحركة النسائية لتهميشها قضية العاملات المهاجِرات، ولغضها النظر عن قضايا المثليات والمثليين، والعابرين والعابرات. وفي هذا الصّدد، يقولُ صاغية: «ما بقا فيكم تتبرّوا وتقولوا ما خصنا فيهم»؛ فبينما انهمكتِ الحركة النسائية في اتّفاقيّة سيداو وفي العمل على تطبيق بنودها في التسعينيات، اعتمدت «حرّيات خاصة» رؤية أكثر شمولًا واتّساعًا، تحاول الربط بين القضايا؛ فالحرص على المُوازَنة بين قضيّتين محوريّتين اجتمع على أساسهما مؤسِّسُو «حُرِّيات خاصة» (قضيّتَيِ المثليين، والعاملات المنزليات) كان أساسيًّا لتحديد مسار عمل المجموعة.[١٨]

١٦. قضية حصلت في مصر في العام ٢٠٠١، حيث احتُجِز اثنانِ وخمسُونَ مثليًّا في الملهى الليلي العائم "ناريمان بوت" أو "كوين بوت"، وقُدِّموا للمُحاكَمة أمام محكمة أمن الدولة.

١٧. Ghassan Makarem, "The Story of Helem," Journal of Middle East Women's Studies, 7, no.3 (2011). https://doi.org/10.2979/jmiddeastwomstud.7.3.98.

١٨. مقابلة مع صاغية، ٢٠٢٠.

العزل وبعض بدايات التَّقابُل

إنَّ العزل من الحيِّز العام عزّزه عزلٌ آخَر على المستوى الخاص، وتحديدًا على مستوى العائلة والضغوط التي مارستها العائلات تجاه النساء المثليات. تقول إحدى الناشطات: «عندما يعرف الأهل أنّ ابنهم مثلي، يشحطونه من البيت. وعندما يعرفون أنّ ابنتهم مثلية، بتنزرب».[١٩] لذلكَ، يتجلّى قمْع النساء في كثيرٍ من الأحيان في حجزهنّ في داخل المنزل، حيث يعجزنَ عَنِ الخروج والتواصل مع العالَم الخارجيّ. اضطُرَّت المثليات إلى التخفّي عن العائلة خوفًا من أيّ ردود فعل يمكن أن تكون أكثر عُنفًا من تلكَ التي تُمارَس في الفضاء العام، ناهيك عن أنَّ الحرب الأهلية بقيتْ في ذلكَ الوقتِ حاضرةً، بما نتج عنها من آثار نفسية سلبيّة في داخل العائلة.

امتدّت حلقات العزل المترابِطة إلى النساء أنفسهنّ ومع أنفسهنَّ، لأنَّ الحاجة الدائمة إلى التخفّي، وغياب الأمان في داخل العائلة وفي الفضاء العامّ، ومنعْ أيّ نوع من التصورات الإيجابية عن حيوات المثليات والأشخاص الترانس في المنتَجات الثقافية، كلّها أسباب أثّرت في نظرة الأشخاص المثليات والترانس إلى أنفسهنّ. إنَّ هذه العزلة، خصوصًا مع تأخُّر وصول الإنترنت إلى لبنان وكلفته العالية لاحقًا، أعاقت بشكل كبير تكوين صِلات المعرفة، وتأسيس العلاقات بين أفراد مجتمَع الميم، فحدّ ذلك من إدراك المثليّات أنهنَّ لسنَ الوحيدات اللّواتي يختبِرنَ ما يعشنه، كما تعزّز الشعور بالوحدة وبالعزلة، وساد الإحساس بأنَّ يوميات الخوف والتخفّي وعدم الأمان هي فردية لا يعيشها أحد آخَرَ، حسبَ ما ذكرتِ المُتحاورات اللواتي قابلتهنَّ. إذًا، شَكَّلَ الجوَّانِ العامّ والخاصّ حواجز كبيرة، أعاقَتْ تكوين سرديات وتصوُّرات مشترَكة وجماعية بين المثليات. لكن مع حلول أواخر التسعينيات، كان قد بدأ عدد قليل من الشابات المثليات بالتلاقي.

شكّل النصف الثاني من التسعينيات فترة مختلفة قليلًا مِنَ النصف الأوّل لهذا العقد، إذ إنَّ التغيّرات التي طرأت على لبنان ابتداءً من العام ١٩٩٥ مثل الإعلان عن خطة إعادة الإعمار، والسير بسياسة اقتصادية ستحدد توجُّه البلد الاقتصادي وستُرَكِّزُهُ، ودخول محطات الكابل إلى التلفزيون، والوصول إلى الإنترنت، ساهمتْ في بروز تحوُّلات في مساحات التواصل والتلاقي لأشخاصٍ من هُويَّات غير نمطية.

أحدثَ دخول الإنترنت إلى لبنان في العام ١٩٩٦ نقلة نوعيّة في العلاقات، حيث شكّل مساحة للتلاقي بين الأشخاص غير النمطيين/ات؛ كان الإنترنت جسر عبور هؤلاء من عزل المجال العامّ وعزلة الكتمان والتخفّي، نحو مواقف أُخرى جعلت منهم/نَّ شركاء وشريكاتٍ في التضامن، ولاحقًا في التنظيم، في أوائل العام ٢٠٠٠.

وبالإستناد إلى شهادات الأشخاص اللواتي قابلتهنَّ، يمكن تحديد مساحات ثلاث شكّلت مفارَقة على أصعدة عديدة لهنَّ، وهي: المساحة الافتراضية من خلال غُرَفِ الدردشة، ومساحات اللقاء شخصِيًّا، وأخيرًا العلاقة والتواصل مع المغتربات/ين من مجتمَع الميم. عَمِلَتْ هذه المساحات بالتوازي على ربط المجموعة الأوسع لمجتمَع الميم ببعضها، فتشابكت فيما بينها، وسمحت بمقابَلة أشخاص آخَرين/أُخرَيات لم يكونوا/يَكُنَّ بالضرورة موجودين/ات في جميع هذه المساحات.

في بادئ الأمر، أتاح برنامج mIRC التراسل الفوري أو الدردشة في أواخر التسعينيات، فسهّل التعارف وفتح فرصًا للنقاشات. تضمّنت منصّة mIRC (أم.آي.آر.سي) مجموعات افتراضية وغُرَفًا للدردشة. وكانتْ «غاي ليبانون» من أبرز الصفحات الافتراضيّة، وعُرفت بالصفحة الرَّئيسة التي كانت تمرّ من خلالها الأخبار والإعلانات، مثل خبر إعلان عن حلقة حول المثلية ستبثّها محطّة Radio One في تمام الساعة الثامنة لَيلًا، أو عن حفلة ستقام في نادي «أسيد» الليلي، أو الحديث عن زينا في مسلسَل Xena: Warrior Princess الشهير، أو عن ألين ديجنرس في برنامجها. إذًا، أتاح التلفزيون الكبليّ لمجموعة أكبر من الأفراد مُشاهَدة مسلسَلات تضمُّ شخصياتٍ مثليةً.[٢٠]

١٩. مقابلة خاصة مع ثرية، ٢٠٢١.

٢٠. مقابلة خاصة مع ثرية، ٢٠٢١.

وعنِ النقاشات في داخل الغرف الخاصة بالمجموعة الافتراضية، تسرد لي ثريّة أنها كانت تُيَسَّرُ بأسلوب يدلّ على وعي أهمية أمان الأفراد في هذه المساحات، إذْ كانتِ المجموعة تضع قواعد التواصل فيما بينها، وكان لمُيسِّري الغرف الحقّ في إخراج أيّ شخص عِدائيّ من الغُرَف الافتراضية.[٢١] أمّا التواصل، فكان يتمّ إمّا من خلال النقاشات العديدة التي كانت تحصل غالبًا على الصفحة الرّئيسة، أو من خلال التعارف في الغرف الذي كان يُفضي أحيانًا إلى الالتقاء شخصِيًّا. وَقَدِ احتفظ أغلب المُشارِكين/ات بأسماء مستعارة أو «nicknames» على هذه الصفحات.

وفي حين كان عدد الأشخاص الفاعلين/ات في غرفة «غاي ليبانون» يقارب الثلاثين إلى الأربعين شخصًا، كان التفاعل في غرفة «لازبانون» Lesbanon أقلّ بكثير، لا بل كانَ «خجولًا» على حَدِّ تعبير من قابلتهنّ، حيثُ ضمت أربع أو خمس مثليّات في أحسن الأحوال. أثّر هذا العدد في طبيعة الأحاديث، فأخذت طابعًا حميميًّا. لكن في الوقت نفسه، ولّدت محدودية عدد الأشخاص في «لازبانون» شعورًا بعدم الأمان، من هنا لجأت الكثيرات منهنّ إلى اعتماد أسماء مستعارة مختلفة في لازبانون مِنَ التي اعتدنها في «غاي لابانون»، وذلك لتصعيب إمكانية التعرّف إليهنّ.

وَلَّدَ مجال التواصل مع أخريات شعورًا بالحماسة يقابل العزلة والوحدة؛ فشعور العزلة والوحدة قابله شعورٌ بالانتعاش لفكرة التواصل مع أخريات، ولمجرَّد أنّهن موجودات في مساحة تستوعبهنّ وتشاطرهنّ الاهتمامات، ويتشابَكْنَ من خلالها في الهواجس والتساؤلات، خصوصًا لإمكانية التعرُّف إلى «الحب» ومقابَلة إحداهُنَّ.

من ناحية أُخرى، أتاحت غرف التلاقي الافتراضي في بعض الأحيان الإلتقاء شخصيًّا، من خلال الاجتماعات الّتي كانَتْ تتمُّ في شيخ منقوش، أو دانكن دونات في «داون تاون»، أو في زلقا. تصف لي مُحاوِرتي حادثةً، حيث اضطُرت إدارة أحد فروع الدانكن إلى إلصاق بيان مفاده أنّ هذا المكان مخصَّص للعائلات، وأيّ تصرُّف مُخِلّ سيؤدي إلى طرد الأفراد. «كان اللقاء خلال النهار له تحدّياته، لأنَّ أشكالنا كانت غريبة، خصوصًا عندما كنّا نجتمع جميعنا. كنّا نلتقي كثيرًا في هذا المقهى، ورغم أنه كان لدينا رفقاء/رفيقات يعملون/نَ فيه، إلّا أنّنا علمنا أنَّ إدارة الفرع تلقّت كَثيرًا من الشكاوى بشأننا. قرّرنا الالتقاء خلال النهار رغم تحدّياته، إذْ فضّلته على اللقاء خلال الليل، لأنّهُ لم يكن من السّهلِ على النّساء التّنقُّل خلاله.»[٢٢]

كانتِ النساء قلّة في هذه المساحات، كما في المساحات الافتراضية؛ فالإنترنت لم يكن قد انتشر بعد، ولم يكن في متناوَل الجميع، خصوصا أنّه كان متاحًا للطبقات الميسورة بسبب كلفته العالية. كما أنَّ أغلبية التشات وغالبية ما يقال فيها كانت باللغة الانكليزية، وبالتالي لم يكن الإنترنت متاحًا من حيث اللغة المستخَدَمة.[٢٣]

وعلى نحو اللقاءات الافتراضيّة، تمّت اللقاءات الشخصية عُمُومًا، من خلال الاحتفاظ بالأسماء المستعارة التي اختلقنها افتراضيًّا، ما خلق هامشًا من الحرية والأمان، خصوصًا بالنسبة إلى الأحاديث التي تُطُرِّقَ إليها، فبدأ المثليُّونَ والمثليّات تدريجًا بالتعرّف إلى بعضهم/نّ، حيث نقلوا/نَ الخبر شفهيًّا: «حدا يجيب حدا». [٢٤] في الواقع، إنَّ جميع مَنْ قابلتهنّ شدَّدْنَ على أهمية تدابير الحماية والأمان التي كانت دائمًا تأتي في الحسبان، انطلاقًا مِنَ التخوّف من أنّ «أي حدا ممكن أن يكون أي حدا.»
أمّا النقاشات خلال هذه الاجتماعات فتطرّقت إلى المَوضوعات شتّى، من الحديث عن الجنسانية إلى الحديث عن العائلات، ولو إلى حدّ معيَّن. كما تناقل المجتمِعون/ات أخبار الأشخاص الذين/اللواتي قُبِضَ عليهم/نَّ. وَقَدْ شكّلت هذه المساحة نوعًا من الدعم، مثل أن يفتح بعضهم/نّ بيته/ا لشخص آخَر قد طردته/ا عائلته/ا مِنَ المَنزِلِ.

٢١. مقابلة خاصة مع سلام.
٢٢. المصدر السابق.
٢٣. مقابلة خاصة مع ثرية، ٢٠٢١.
٢٤. مقابلة خاصة مع سلام.

بالإضافة إلى ذَلِكَ، ظَهَرَتْ مساحات شبه عامّة، مثل نادي «كلوب فري» الّذي أدّى دورًا كبيرًا من ناحية توسيع دائرة مجتمَع الميم، حيث تضمَّنَتِ اللقاءات مُشاهَدة فيلمٍ أو حلقات قراءة لكتب، كان المغترِبون/ات من المثليّين/ات قد شاركوها معهن/م. وأتى المغتربون/ات بدبابيس pins وأكسسوارات عليها قوس قزح، فأصبحتِ الشعارَ أوِ الإشارةَ التي يتعرّفون/فْنَ من خلالها إلى بعضهم/نَّ. كما أتاح لقاء المغتربين/ات والمثليين/ات والنقاشات التي كانت تحصل معهم/نَّ، بالإضافة إلى المواد التي أتوا/أتينَ بها، الفرص لهم/نّ للتعلّم، ولإيضاح بعض المفاهيم، وكثيرٍمن المغالَطات المتعلّقة بالمثلية؛ تقول إحدى اللواتي قابلتهنَّ إنها كانت تعتقد أنَّ المثلية لها علاقة بِـ»البيدوفيليا». إذًا، «إنَّ لقاء المغترِبينَ أعطانا احتمالاتٍ جديدةً، وأحلامًا لحياة مختلفة عَن التهميش والعدائية اللّذَينِ كنّا نصطدم بهما هنا في لبنان».[٢٥]

في وجه هذه العوائق والجوّ الحافل بالتحدّيات لجنسانيّتهنّ/م، ظهر أوّل النقاشات التي تناولت إمكانية الانخراط السّياسيّ، مِنْ ناحية الدفاع عن الحقوق والحرّيات. فضّل بعض المجتمعين/ات الإبقاء على اللقاءات الاجتماعيّة، بينما اتجه بَعضُهُم الآخَر نحو الانتقال إلى اجتماعات ذات طابع سياسيّ أكثر، وكان هذا في أوائل الـ٢٠٠٠. وفي السنين التي عقبتِ الاجتماعات في سنَتَي الـ ٢٠٠١ و٢٠٠٢ والجهود فيهما، تأسّست جمعية «حريّات خاصّة» في العام ٢٠٠٢، وانبثقت عنها لاحقًا جمعية «حلم» في العام ٢٠٠٤، التي أتت نتيجةً للجهود المُتراكِمة على فترة امتدّت حوالي العقد تقريبًا.[٢٦]

الخاتمة

بالطبع، ليست هذه نقطة البداية للكثيرات من المثليات والأشخاص الترانس في لبنان، في داخل العاصمة نفسها وفي خارجها؛ فقد عاشت كلّ مثلية أو ترانس في التسعينيات وفي أوائل الألفيات مثليتها أو «كويريتها» بطرق مختلفة. ما زال هناك عدد كبير من القصص الّتي لم تخرج إلى العلن، وقد حاولَتْ هذه الدراسة فتح طريق نحو المزيد منها، عن تمثيل المثليات والنساء الترانس في التسعينيات في الإعلام والإنتاجات الثقافية، وعن كيفيّة محاولتهنّ إيجاد فرص للنّجاة، ولكسر العزلة والعنف.

إن الممارسات القائمة على التهميش لا تخص فقط سنوات التسعينيات، فالتهميش أقدم من هذا العقد. إلّا أنّه اتّخذ خلال هذا العقد أشكالًا معيّنة تمظهرت بسيرورات مختلفة تابعتْ اثنتين منها في هذه الورقة، واحدة على مستوى الإنتاج الثقافي والثانية على مستوى التجارب المعاشة. على مستوى التمثيل الثقافي للأشخاص غير النمطيات/ين كان هذا نتاج سيرورات إقتصادية وسياسية، حيث أدّت الرقابة في فترة ما بعد الحرب إلى تهميش ومنع التمثيلات والانتاجات الثقافية الكويرية المختلفة عن السائد - كتجارب سينما الفؤاد ومتحضّرات- كما أدّت خصخصة الإعلام إلى إظهار إثاريّة (sensationalism) جديدة للتمثيل الكويري- كحال برامج زياد نجيم. أمّا على مستوى التجارب المعاشة، فتمثّل التهميش بالعزل من الحيّز العام وكان هذا دافعًا لخلق مساحات خاصة كغرف الدردشة على الانترنت أو حلقات اللقاء المغلقة التي أفضت نهاية العقد إلى التشبيك وبروز أولى أشكال التنظيم حول قضايا مجتمع الميم.

٢٥. المصدر السابق.
٢٦. مقابلة خاصة مع ثرية، ٢٠٢١.

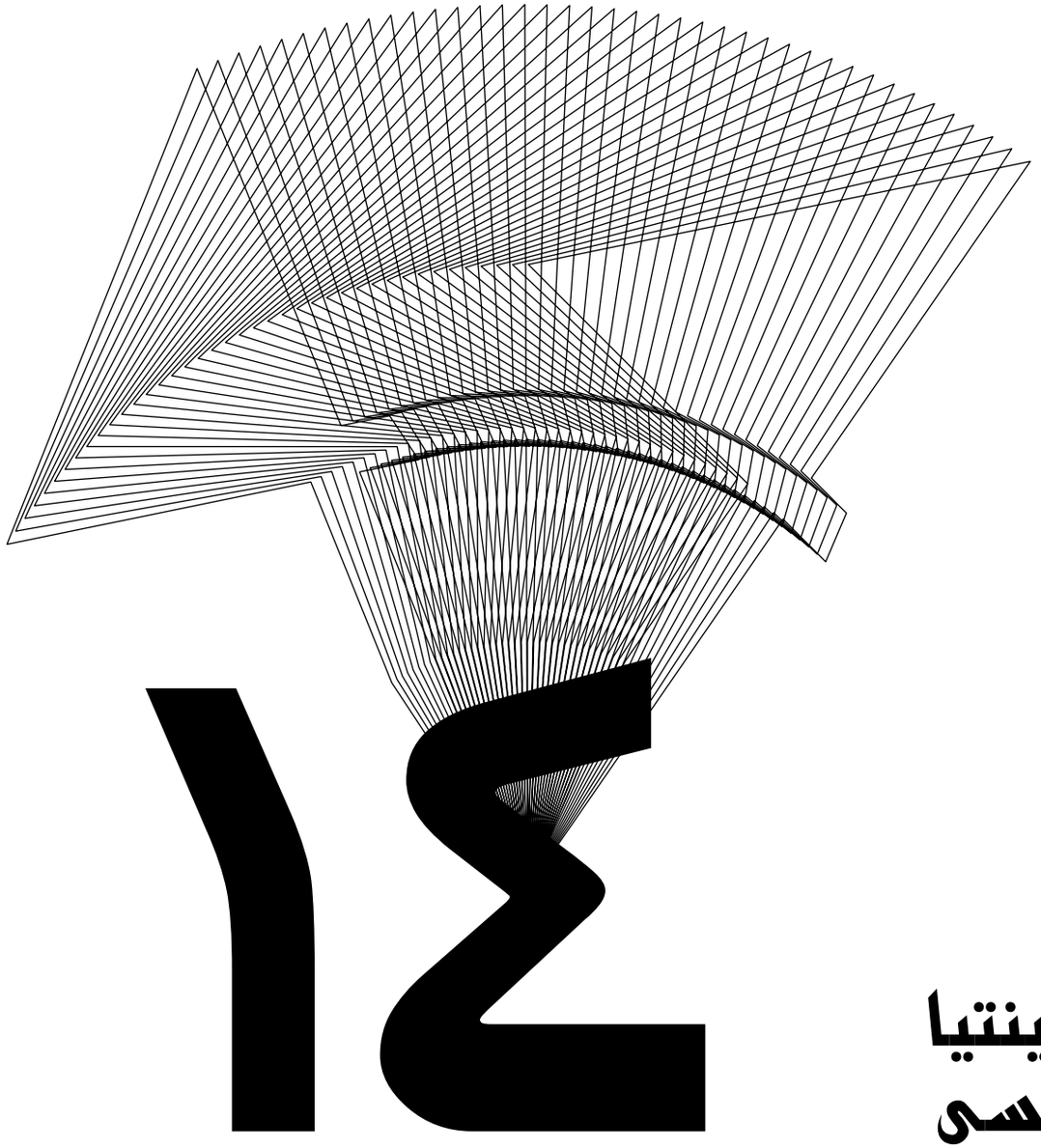

سينتيا عيسى

كاتبة نسوية، وباحثة، وأستاذة. تتناول أعمالها الفن والسياسة، والعمل والهجرة، والبيئة والبُنيَتَين التحتية والرأسمالية، والنظرية النسوية. طالبة دكتوراه في الدراسات البصريّة في جامعة كاليفورنيا (سانتا كروز)، ومُحرِّرة في موقع «مصدر عام»، وهو مشروع صحافي مستقلّ، يصدر من بيروت، قائم على العمل الجماعيّ. تدرّبت كمؤرِّخة فنية في جامعة تورنتو، وأعطت محاضَراتٍ في تاريخ الفن والعمارة في الجامعة اللبنانية الأميركية، وطوّرتْها. شاركت أيضًا في تنظيم إضراب طلاب وطالبات الدكتوراة من أجل ظروف عمل أفضل، في جامعة كاليفورنيا (سانتا كروز) في العام ٢٠٢٠.

التنظيم من أجل البقاء: ثلاث عاملات مهاجِرات يتذكّرن التسعينيات

ليس من السهل الكتابة عن تاريخ تنظيم المهاجِرات العاملات في المنازل في لبنان خلال التسعينيات،[١] نظرًا إلى عدم اكتمال «أرشيف» هذا النضال وصعوبة الوصول إليه، والذي يُعَدُّ مصدرًا مهمًّا للكتابة التاريخية التي قد تضيء على لحظات جذرية من الماضي لدعم النضالات التي تتقاطع معها في الحاضر.[٢] مع ذلك، وبما أن أنَّ الأرشيف وحده لا يستطيع ادعاء معرفة التاريخ إلّا بشكل مجزّأ، لا سيّما بعد فترة طويلة من اختفاء المناضِلات، فإنهن حاضرات بيننا من خلال الإرث الذي تركنه.

مالِيني (مالا) كانداراشيجي من سريلانكا، هي العاملة الأولى التي ترد قصّتها في هذا النص، وقد وصلت إلى لبنان خلال الحرب الأهلية. عملت في الخدمة المنزلية خلال التسعينيات، ونظّمت المجتمَع السريلانكي المقيم في محيط ضهر الصوان حول نشاطات المساعَدة المُتبادَلة. إلى ذلك، أجبرت الظروف المادية الصعبة جيما جوستو على مغادَرة منزلها في الفلبين والهجرة إلى لبنان في مرحلة ما بعد الحرب. وعلى مدى السّنوات السبع عشرة التالية، نشطت هذه المعلِّمة الرائدة والناشطة المجتمَعية في إعادة المهاجِرات العامِلات في المنازل إلى بلادهنّ، وفي النضال دفاعًا عنهنّ، وهو ما أحدث تحوّلًا مع الوقت في الحركة النسوية المحلّية. في نهاية الألفية الثانية، تخلّت المبشِّرة إيمي رزاناجاي عن حياتها المُترَفة في مدغشقر وأتت إلى لبنان للعمل في المنازل، لكنّها كرّست مواردها ونظّمت من خلال الكنيسة عمليّاتِ إعادة العاملات المدغشقريات في المنازل اللواتي يتعرّضن للاستغلال وسوء المعامَلة إلى بلادهنَّ. بمعزل عن تنوُّع استراتيجيّاتهنَّ، كانت أولئكَ النساء صانعاتٍ بارزاتٍ لتاريخ التنظيم في ذلك العقد، لذلك يغوص هذا الفصل في قصصهنَّ الأوّلية القيِّمة.

١. أود أن أشكر ماليني كانداراشيجي، وجيما جوستو، وإيمي رازاناجاي، وفرح سلكا، ولينا أبو حبيب، وسارة ونسا على الحوارات، وعلى مشاركتهنّ إيّاي في فِكَرِهِنَّ القيّمة، وكذلك لارا بيطار على قراءة مسوّدات عدّة من هذا المقال والتفكير معي، وماريان غطّاس لإجرائها مقابَلة مع ماليني كانداراشيجي، وديمة قائدبيه على مرافَقتي في مراحل إعداد المقال كلّها، وصفاء ط. وزينب الديراني على دعمهما التحريري.

٢. لا تزال جيما جوستو تحتفظ ببعض الصور من ذلك العقد في منزلها في الفلبين. أمّا إيمي رزاناجاي فربّما احتفظت ببعض "الملفات" مع صديقة لها على الرَّغم من أنها كانت تمزّق الوثائق كلّها بعد إغلاق كلّ قضية وإعادة العاملة المتضرّرة أو التي لم يدفع أجرها إلى بلادها، وقالت لي إنّها عَجِزَتْ عَنِ استئجار مساحة لتخزين آلاف المستنَدات التي جمعتها عبر السنين. ووفقًا للينا أبو حبيب، منسِّقة البرنامج القطري السابق في أوكسفام، فقد أتلفت المنظّمة الملفات التي ربّما كانت مفيدة عندما أغلقت مكتبها في بيروت في العام ١٩٩٩. وفي حين يمكن البحث عن هذا التاريخ من خلال وثائق مُتفرقة، إلّا أنَّ الأزمات التي لا تعد ولا تحصى، وليس أقلّها الوباء الذي يعانيه أولئك الذين يعيشون في لبنان وأماكن أخرى، تؤدّي بالضرورة إلى تأجيل مثل هذا البحث إلى وقت غير مُحدَّد في المستقبَل.

ساعدني كلٌّ من ديمة قائدبيه الباحثة النسوية وإحدى مؤسّسات «ورشة المعارف»، وفرح سلكا الناشطة النسوية ومُنظِّمة «حركة مناهَضة العنصرية» ومديرتها، ولارا بيطار الناشطة الإعلامية ورئيسة تحرير «مصدر عام»، في تحديد الوجوه الأولى والمُبكرة لأطول حركة مُستمرّة لتحرير المهاجِرات العاملات في المنازل، وأوسعها.[٣] من خلال مسار البحث والمقابَلات المُختلِفة التي أجريتُها، أدركتُ أنَّ هذا الجزء من الكتابة التاريخية سوف يفوّت، على الأرجح، وجهات نظر بطلات أُخريات مهمّات في هذا النضال، إنّما غير معروفات؛ ففي حين شاركَتْ كانداراشيجي وجوستو ورازاناجاي في التنظيم النسوي واسع النطاق في لبنان، بقيت مناضِلات أخريات في الحركة النسوية المحلّية مجهولاتٍ، وبالتالي غائبات في بحثنا. وجّهت أولئكَ «الجنديات» المجهولات الأعمال اليومية المُهمّة وغير المرئية في مجتمَعات المهاجِرات المتدفِّقات إلى لبنان بشكل منتظم، وكان عملهنَّ ضروريًّا للحركة النسوية، طالما أنها موجودة. أمّا الغائبات كلّيًا فهنّ اللواتي ربّما تكون أعمالهنّ مخفية أو مشترَكة، وهي سمة سائدة في كثيرٍ من تنظيمات العمل على مستوى العالَم، على الرّغم من أنّ عدم عرض قصصهنّ الافتراضية هو إغفال مؤسِف، نظرًا إلى التحوّل الذي قد يضفيه على هذا السرد التاريخي، مُسهِمًا في توسيعه نحو شبكة أكبر من الفاعلات، وفي تنظيمه بشكلٍ أكثر جماعية في المساحات والإمكانيّات التي تبدو الآن أنها من صُنْعِ بطلة واحدة. أخيرًا، هناك كثيرات ممن غادرننا، وبالتالي لا يمكن مقابلتهنّ بسبب المرض أو الشيخوخة، والهشاشة أو المسافة، أو ربّما عدن إلى ديارهنّ أو رُحِّلن، أو لم يتمكّنَّ من تأمين كفيل بموجب نظام الكفالة. بالإضافة إلى عامل الوقت وبُعْد المسافة الجغرافية، شكّل عدم تناسق الشرعية وعدم توازن السلطة بين العاملات وأرباب عملهنَّ قيودًا غير مرئية، وإنّما ملموسة، حدّت جزئيًّا من عرض القصص كُلِّها، وحدّدت من يمكن ذكره في هذا الفصل.

تأتي الرواية التاريخية نتيجة سلسلة من المحادَثات مع كانداراشيجي وجوستو ورزاناجاي، والكثيرات من النسويات اللبنانيات، بمن فيهنّ فرح سلكا، ولينا أبو حبيب الناشطة النسوية منذ التسعينيات؛ ولم يكن الهدف وضع نظرية أو فرضية، إنّما التقاط ما شاركنه وعرضه بشكل متماسك. وبالنسبة إلى منهجيّة السرد، وضعت الاقتباسات بحرفيّتها كلّما كان الأمر مُمكنًا، أي عندما كانت التعابير واضحة وتردُّ بشكل مباشر على استفساراتي. وبما أنَّ هذه المحادَثات تعتمد على ذكرياتٍ تعود، في بعض الأحيان، إلى نحو ٣٨ عامًا، على القارئ النظر إلى التفاصيل الزمنية الواردة كتقديرات عامّة، خصوصًا أنَّ تذكّر الماضي كان عبارة عن عملية تتكشّف على مدار ساعات عدّة وبشكل متقطّع، حيث اعترضت الأحداث الثانوية بعض الأجزاء الرئيسة في هذا المقال. من هنا، جمعت الاقتباسات من أجزاء مُتفرّقة من المحادَثة عند اللزوم لتقديم صورة مُجمّعة في سياق مُعيّن، وحاولت قدر المُستطاع عكْس هذه التقطّعات عبر وضع علامات الحذف بين العبارات المُفكّكة، وَلَكِنَّ العوائق اللغوية حالَتْ دون الوصول إلى فهم مؤكّد لمعاني بعض الكلمات المذكورة، لا سيّما في سردية كانداراشيجي، إذِ اضطررت أحيانًا إلى ملء الفراغات مع الحرص على الحفاظ على السياق الأصلي في حدّه الأدنى. وهنا، لا بدّ من الإشارة إلى أنني أجريتُ المقابَلات مع كُلٍّ من جوستو ورزاناجاي وسلكا وأبو حبيب، وسجّلت أحاديثهنّ وفرَّغْتُها، فيما ساعدت لارا بيطار في تدوين رواية كانداراشيجي، التي أجريت معها محادَثة لاحقة لمزيد من التوضيح. وبالتالي، فإني أتحمّل وحدي مسؤولية أيّ خطأ قد يرد هنا. أخيرًا، أودُّ التعبير عن امتناني للناشطة النسوية ماريان غطّاس التي قدّمت مساهَمة لا تُقدَّر بثمن في هذا المقال، بإجرائها المقابَلة مع كانداراشيجي. في الواقع، ساهم تسجيل الاجتماع الذي استمرّ ثماني ساعات بين المرأتين في كانون الأوّل/ ديسمبر من العام الماضي، وتخلّله شُرب العديد من أكواب الشاي في تعاونية ضمّة، في إطلاق مشروعي الذي يتضمّن مثالًا نادرًا استلهمت منه أفكاري.

١٩٨٥ – ٢٠٠٠: «اجتمعنا معًا لأننا بحاجة إلى بعضنا البعض» – مالِيني كانداراشيجي

باعتبارها شاهدة على التحوُّلَين الاجتماعي والحضري في ضهر الصوان، حيث عاشت خطوط الحياة المجتمَعية لنحو ٣٨ عامًا وساهمتْ في صُنعها. تُعدُّ قصّة كانداراشيجي نقطة انطلاق مثيرة للاهتمام، كونها تقدِّم لمحة فريدة عن فترة الثمانينيات الّتي تُعَدُّ بِدَورها مسارًا غير متقطّع مع التسعينيات. تصوِّر قصّتها حياة تُنسَج باستمرار في حياة الآخرين، إذ تصف تعرّضها للمَخاطر والظروف السياسية والاقتصادية للحرب الأهلية من موقعها كمهاجِرة تعمل في الخدمة المنزلية، وتتحدّث عَنْ قساوة مالك مكتب التوظيف المتورِّط في الاتجار بالبشر والذي سرقها، بالإضافة إلى الكفيل الّذي أدّى أحيانًا دَور الحليف. تشكِّل الروايات القصيرة عن حياة الملاجئ، وتنظيم مجموعات المساعَدة المُتبادَلة لدعم المجتمَع السريلانكي في الصعاب، ومن ثمّ الاحتفال في التسعينيات، جوهر هذا القسم من المقال. سوف أبدأ بإيجاز كيفية وصولها إلى لبنان، وتجربتها مع الكفيل الأول ومكتب التوظيف، كوسيلة لشرح بعض العقبات التي واجهتها في مسارها إلى التنظيم.

٣. من بين اللواتي وصلن إلى لبنان أو كنَّ ناشطاتٍ فيه، في فترة الثمانينيات والتسعينيات، نذكر كلًّا من روز ماهي، وتانيا أوشاني، والأخت أنجيلا في مأوى لاكسيثا في الدورة، بالإضافة إلى الأب ماك ديرموت والأخ سليم اللَّذَينِ دعما المهاجِرات العاملات في الخدمة المنزلية في التسعينيات.

تبرز سمات الاتجار بالبشر انطلاقًا من أنَّ كانداراشيجي كانت تجهلُ أنها ذاهبة للعمل في لبنان عندما غادرت سريلانكا في أيار/ مايو من العام ١٩٨٣. أخبرها مكتب التوظيف أنها ذاهبة إلى قبرص، وهو ما تؤكّده بطاقة سفرها. عند وصولها إلى الجزيرة، بقيت مع رفاق السفر في ميناء بحري قبل أن تُبلَّغ في اليوم التالي عَنْ نقلها إلى لبنان، وجهتها الأخيرة، بوساطة قارب. بعد يومين من وصولها إلى لبنان، أخذتها كفيلتها من مكتب التوظيف إلى منزل في ضهر الصوان، حيث عملت لمدة ١٨ شهرًا.[٤]

مع استمرار لهيب الحرب، أصبح التنقّل خطيرًا، وتدهوَرَ الوضع الماليّ لكفيلتها الأولى تدريجًا، حيث أُبلِغت كانداراشيجي وجوبَ اختصار رسائلها إلى أهلها بصفحة واحدة شهريًّا، بهدف الحدّ من التنقّل وتخفيض تكلفة البريد، كذلك لم يُسمح لها بإرسال التحويلات المالية إلّا كلّ ثلاثة أشهر للأسباب نفسها.[٥] وعندما تدهوَرَ سعر صرف العملة، توقّفت الكفيلة عن دفع أجرها على الرّغم من مناشَدات كانداراشيجي الكثيرة، إذ تحجّجت الأولى بأنَّ لديها أطفالًا عليها تعليمهم، من دون أن تدرك أنَّ كانداراشيجي أمٌّ أيضًا، وقد أُجبِرت على الانفصال عن أطفالها لتوفير احتياجاتهم بشكل أفضل. لاحقًا، وفي أحد الأيام، أضربت كانداراشيجي، رافضةً العمل من دون أجْر، وسجنت نفسها في الغرفة لبضعة أيام.[٦] وبعد وصولها إلى طريق مسدود، ذهبت مع كفيلتها إلى مكتب التوظيف لإنهاء العقد. هناك حصل صاحب المكتب على سعر تذكرة العودة إلى سريلانكا من الكفيلة، ومن ثمّ ضرب كانداراشيجي وجرّدها من مدّخراتها كلّها، واحتفظ بسعر التذكرة، وطردها.

مع ذلك، لا تتذكّر كانداراشيجي كفيلتها الأولى بطريقة كارثية للغاية، إذْ تروي أنها علّمتها كلّ شيء عن التدبير المنزلي، وهو ما لم تتعلّمه في سريلانكا كونها أمضت أيامها في إدارة مكتبة تمتلكها مع شقيقها، وفي تكليف عمّال منزليين بأجر. إلى ذلك، وفيما تركها مكتب التوظيف لتتدبّر أمرها في خضمّ الحرب، كانت كانداراشيجي قد اكتسبت سمعة جيّدة بوصفها عاملة مُجتهدة، وأحبّتها إحدى السيّدات المقيمات في ضهر الصوان حيث أرسلت لها سيّارة أجرة لإعادتها، وقدّمت لها مأوى مُوَقَّتًا في منزلها. في وقت لاحق من الثمانينيات، أصبحت هذه السيّدة كفيلتها الجديدة حتّى العام ٢٠١٢، ما شكّل ظرفًا ملائمًا لمستقبَل كانداراشيجي في العمل التنظيمي.

ومن خلال جَمْعِ تفاصيل مختلفة من روايتها، يتضح أنَّ القدرة على التنظيم في الثمانينيات، وفي التسعينيات بشكل أكبر، اعتمدت جزئيًّا على الحظ، أي «صدفة» العثور على كفيل مُحترَم وفقًا لسلكا. في الواقع، يؤطِّر نظام الكفالة العلاقة بين الكفيل والعامل من خلال قوانين أصبحت بشكل متزايد محور الإصلاح التنظيمي منذ العام ٢٠٠٩، خصوصًا أنَّ الكفالة لطالما شكّلت مساحة اجتماعية غامضة تحكم حياة العاملات في المنازل؛ تشير كانداراشيجي، على سبيل المثال، إلى أنه لم يُسمح لها بمغادَرة المنزل أيام الأحد عندما كانت تعمل لدى كفيلتها الأولى، وغالبًا ما كانت تشاهد الناس يمرّون من نافذة غرفة نومها. وَيُعَدُّ احتجازها أيام الأحد، وتقليص تواصلها مع أسرتها، وحرمانها من أجرها، من الارتكابات المُمكنة والشائعة في نظام الكفالة، وبالتالي لم يكن التنظيم مُمكنًا في ظل علاقة مماثلة.

عمليًّا، من خلال حرمانها من وقت فراغها واحتجازها وأسرِها، وهي إجراءات مسموحة، وربما سائدة أيضًا، بموجب نظام الكفالة، وقفت الكفيلة عائقًا أمام أيّ تنظيم مُحتمَل في الأشهر الثّمانية عشر الأولى لها في لبنان. وَقَدْ برزت أيضًا حالات حجز الأجور في ظل هذا النظام، ما ضاعف استحالة التنظيم، باعتبار أنَّ موضوع الأجور الّذي سأتطرّقُ إليهِ في جزءٍ لاحقٍ مِنْ هذا المقالِ، كان ضرورِيًّا للمساعَدة المُتبادَلة، ولبناء المجتَمَع.

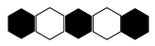

٤. للاطلاع على قصّة وصولها إلى لبنان كاملة وتجربة العيش مع هذا الكفيل، يمكن العودة إلى : مالا، "الهجرة إلى الحرب الأهلية اللبنانية"، كحل: مجّلة الجسد والجندر، ٢ (٢٠١٦): ١٣٢-١٣٤. (تم الدخول إلى الرابط في ١٣ شباط/ فبراير ٢٠٢١: https://kohljournal.press/migrating-to-civil-war).

٥. بسبب ضياع رسائلها أو تأخّر وصول البريد، ظنت عائلتها أنها قتلت في الحرب. نتيجة لذلك، يبدو أنّ والدها ماتَ بذبحة قلبية، وهو ما أخفته عنها العائلة إلى حين سفرها إلى سريلانكا، بعد إعادة فتح المطار في سنوات الحرب الأخيرة. تتذكّر تكلفة سفرها العالية. ومثل العديد ممن نجوا من الحرب، تشرح كيف كان عليها أن تدفع لكلّ حزب أو طرف تحكّم بمراحل مختلفة من سفرتها: "ميشال عون أخذ مال الإقامة، وحزب الله أيضًا في المطار [عند الرحيل]... فيما أخذ سمير جعجع مالي في مرفإ جونية [عند عودتي]".

٦. مالا، "الهجرة".

تغيّرت هذه الحال الصعبة عند عودتها من مكتب التوظيف إلى ضهر الصوان، حيث عملت في فيلا قاضٍ ومدّعي عام عسكري نافذ، غادر المنطقة لاحقًا مع اشتداد تهديدات الحرب ومحاوَلات الاغتيال، مانِحًا كانداراشيجي جُزءًا مِنَ المَنزِل، حيث تعيش حتّى اليَوم. قبل مغادَرته، كانت تطهو، وتنظّم حفلات عشاء في الفيلا لـ»مئات الضيوف»، وكذلك عملت «على الساعة» لدى عائلات أُخرى في القرية؛ عملت كانداراشيجي وفقًا لـ «ساعة القصف» من دون تحديد ساعات للعمل، وذلك بعدما أصبحت مسؤولة أكثر عن وقتها. كما اعتادت وجميع سكّان المنطقة الاستماع إلى إعلان عبر الراديو لمعرفة الوقت المُحتمَل لمغادَرة الملجإ، وللذهاب إلى المنازل وشراء البقالة. لذلك، لم يكن هناك إمكانية للعمل إلّا في ساعات النهار التي يتوقّف فيها القصف، وهو ما ترك لها وقتًا كافيًا لتكوين روابط اجتماعية في داخل مجتمَع ضهر الصوان الأوسع.

عندما يشتدُّ القصف، كان الجميع، «كلّ البيوت يعني»، يختبئ في ملجإ تحت الأرض. كان الناس في ذلك الوقت «يعتنون ببعضهم البعض»، ويهتمون بالمرضى، ويعدّون «الخبز على الفحم لأنه لم يكن هناك غاز أو كهرباء». وهذا هو الوقت الذي أثبتت فيه كانداراشيجي وجودها وأقامت شبكات تواصل، لا سيّما مع القرويين اللبنانيين. وكونها كانت تعمل في منزل قاضٍ عسكري، غالبًا ما كان الجيش يحضر كمّيات كبيرة من الطعام إلى الفيلا، «طنجرة، صنية كبيرة»، وقد اعتادت أن تأخذها إلى الملجإ لإطعام من يبقى هناك ليلًا. قالت: «كانوا يحبّونني جميعًا. ينادونني ريّس مالا» لأنها كانت تعمل في «بيت الريّس». وغالبًا ما كان طبيب القرية يجلب الطحينة إلى الملجإ لتقاسُم الطعام معًا. تعبّر مالا عن نهاية الحياة المجتمَعية في القرية بعد انتهاء الحرب وبدء عملية التّنمية بالقول: «كان الجميع يعتنون ببعضهم... أكلنا معًا. كانت القرية بأكملها معًا. الآن لا أحد يقول مرحبًا للآخَر، لأنه [يوجد] بناء [بعد] بناء».

في أواخر الثمانينيات، قابلت عاملات منازل سريلانكيات من المنطقة المحيطة، وَقَدِ اعتَدْنَ شراء البقالة أيام الأحد من سوبر ماركت «فريد» في ضهر الصوان، والذهاب إلى منزل كانداراشيجي، حيث يطبخن ويأكلن معًا. تزامن ذَلِكَ مع تعلُّم كانداراشيجي العمل الاجتماعي، إذ كانت تجمع التبرّعات وتساعد امرأة لبنانية تُدعى فيرا في تنظيم نشاطات محلّية صغيرة للفقراء في مدرسة بيزانسون. وفي العام ١٩٨٨، دفعها حدثٌ مأسويٌّ إلى استخدام هذه التجربة للتنظيم مع مجتمعها؛ ففي أحد أيام تلك السنة، تعرّضت سيّدتان سريلانكيتان لحادث سيّارة في أنطلياس، حَيثُ أدخلت واحدة منهما إلى المستشفى، فيما ماتت الأخرى متأثّرة بجراحها. تقول كانداراشيجي إنَّ العادةَ كانتْ تقتضي شهريًّا ذهاب شخصين من أفراد المجتمَع السريلانكي ممَّن لديهم وثائق قانونية إلى الدورة لشراء المواد الغذائية الأساسية لجميع أعضاء المجتمَع، مثل الأرزّ، والأسماك، والفلفل الحارّ، ومسحوق الكاري. في الواقع، كانت السيّدتان في طريقهما إلى الدورة لشراء السمك عندما وقع الحادث.

واستجابةً لنداء كانداراشيجي للحصول على الدعم، اجتمع «لبنانيون، وهنود، وفلبينيون» في ضهر الصوان وضواحيها، وجمعوا الأموال لتغطية فواتير المستشفى وتكاليف الدفن. وبمساعَدة الأب سليم، أحضروا الجثة إلى الكنيسة، حيث صلّى عليها قبل دفنها. على الرَّغم من هذا الدعم المجتمَعيّ، نَجِدُ أنَّ الدفن المسيحيّ كانَ مختلفًا مِنَ الطقوس المتَّبعة في سريلانكا، حيث حرمت السيّدة بشكل مؤلم من تأبينها وفقًا لطقوسها، إِذْ أوضحت كانداراشيجي أنهم في سريلانكا «يجلبون الجثة إلى المنزل حيث تحنّط بزيت جوز الهند، وتزيّن قبل دعوة أفراد المجتمَع» لرؤية الميت وتوديعه. نتيجة ذلك، شعرت كانداراشيجي، التي حزنت عليها لحصولها على هذا الدفن المُسَرَّع، بالحاجة إلى تنظيم الجالية السريلانكية والدعوة إلى تأسيس سفارة سريلانكا في لبنان، بِعَدِّهَا «موطِنًا للمجتمَع السريلانكي»، يمكن من خلالها البقاء على قربٍ من ثقافتهم الأصلية. وبعد عشر سنوات، في العام ١٩٩٨، قطفت هي ورفاقها ثمار جهودهم بإنشاء السفارة السريلانكية.

في غضون ذلك، أسّست كانداراشيجي ورفاقها منظّمات مختلفة للمساعَدة المُتبادَلة، وأصبحت ناشطة في ضهر الصوان وضواحيها في التسعينيات. أولى تلك المنظّمات كانت Solemar Young Club، الذي تأسّس في العام ١٩٨٩، بعد فترة وجيزة من وفاة المرأة ووقوع حادث عنيف آخر طُبِع في وجدان كانداراشيجي ومجتمَعها.

أخبرتني أنهم أطلقوا اسم Solemar Young Club تيمُّنًا بمقتل جنود لبنانيين أو مقاتلي ميليشيات كانوا يتمركزون في المنطقة - على الأرجح – في كمين نصبه الجيش السوري.[٧] اجتمع أعضاء النادي وعرضوا جهودهم لإصلاح المنازل بعد القصف، وجمعوا الأموال لدعم بعضهم خلال المرض وظروف الحياة الصعبة الأخرى. ومع نهاية الحرب، خفّت الحركة قليلًا، إنّما ليس بشكل كامل، قبل أن يعاودوا التوسّع في نشاطهم تدريجًا، حَيْثُ حقّقوا أرباحًا من خلال «تنظيف المنازل، والطّهو، وبيع الكعك والزهور». استُخدم بعض هذه الأموال في تنظيم المناسَبات الاجتماعية في قاعة استأجروها بالقرب من مستديرة الدّوّار، حيث أقاموا حفلات عشاء ورقص، ونظّموا ليالِيَ لمُشاهَدة الأفلام، ولإقامة التجمّعات في عيد الحب. ولكن، عندما فشلوا في استخدام ملعب مدرسة محلّية، استأجروا ملعبًا في بعبدا أو المكلّس مقابل ١٠ دولارات على الفرد. وفي أيّام العطلة، كان الرجال يلعبون الكريكيت والنساء ELLE، وهي لعبة مضرب وكرة سريلانكية، وفي بعض الأحيان، كان ينضمّ إليهم سريلانكيون آخَرون من أنطلياس، والدورة، والحازمية للّعب معًا. بعد سنوات، اختلف أعضاء Solemar Young Club حول الشؤون المالية، وفي ديناميكيّة قد تكون مُرتبطة بالجندر وأثّرت في صنع القرار في داخل المنظّمة؛ ففي إحدى الحالات، قرّر أحد أعضاء النادي منفرِدًا أن يستخدم كلّ الأموال الموجودة في الصندوق، وقيمتها ١٨٠٠ دولار، لتغطية تكاليف دخول رجل سريلانكي من عائلة ميسورة إلى المستشفى، من دون أن يترك شيئًا لأفراد المجتمَع الآخرين الذين يحتاجون إلى الدَّعْمِ أيضًا. همّش هذا العضو، وهو رجل، العضوين الآخَرَين في الهيئة التنفيذية ومنهما مالا مديرة النادي،[٨] وتجاوزهما في عملية اتخاذ القرار. نتيجة لذلك، ركّزت بعض النساء، بمن فيهنَّ كانداراشيجي طاقاتهنّ على بعضهنّ، من خلال منظّمة نسائية أطلقن عليها اسم Women Power، جَمَعَتِ الأموال لأعضائها، والتزمت بمبادئ المُساعَدة المُتبادَلة. تقول كانداراشيجي إنَّ نقاط التفتيش السورية المُنتشرة بشكل دائم حدّت من تحركاتهنَّ، لذلك، أعطت أولئِكَ النساء الأولوية لرعاية بعضهنَّ خلال تلك الفترة، خصوصًا عند المرض، وكذلك كُنَّ يقظاتٍ للأضرار التي يمكن أن يتعرّضن لها على أساس الجنس، والعرق، والطبقة، والوضع غير القانوني، وهي الفروق التي ميّزت تجربتهنَّ؛ على سبيل المثال، إذا اضطرت إحدى العضوات إلى السفر، تتنظّم الأخرَيات لمرافَقتها إلى المطار، وللتأكّد من وصولها بأمان. إذًا، أصبح هذا الشكل من التنظيم الذي تتّحد فيه النساء معًا لحماية بعضهنَّ، هو القاعدة، لا سيّما بعد تعرُّض إحداهنَّ للسرقة من سائق تاكسي في طريقها إلى المطار في إحدى ليالي العام ١٩٩٨.[٩] ساهمت هذه التدخلات في مُساعَدة النساء على الخروج من البيئات السامّة وظروف الحياة الخطيرة، كما ساهم الوعي الذي تراكم نتيجتها، في التأسيس لتنظيم جيما جوستو في التسعينيات.

٧. أخبرتني كانداراشيجي أنَّ الاسم اختير لإحياء ذكرى ١٥ شابًا لبنانيًا ماتوا أو أصيبوا خلال كمين نصبه الجيش السوري في العام ١٩٨٨، وهو حدث صادم شهدته قبل مشارَكتها في جهود الإنقاذ والتنظيف. مع ذلك، لم أجد أيّ آثار لـ Solemar في المنطقة، ولم تستطع كانداراشيجي إخباري بكيفية تهجئة اسم المنظّمة. لكن وفقًا للبحث الذي أجريته، قد يكون "سوليمار" هو نفسه "شاليمار"، وَهُوَ حَيٌّ راقٍ في بعبدات، حيث كان يتمركز الحزب القومي السوري الاجتماعي، ثمّ أصبح مركزًا لكلّ من القوات اللبنانية والجيش والكتائب في أوقات مختلفة من الحرب. ربّما وقع الحادث بين العامين ١٩٨٨-١٩٨٩ (في سياق "حرب التحرير" التي شنّها عون) أو في العام ١٩٩٠ (عندما اجتاح الجيش السوري المنطقة في طريقه لاقتحام قصر بعبدا في نهاية الحرب).

٨. تألفت الهيئة التنفيذية للنادي من رئيس(ة) ومدير(ة) وسكريتر(ة).

٩. يُجَاوِزُ العمل التنظيمي لكانداراشيجي هذه الرواية الموجَزة بكثير. في العام ٢٠٠٥، على سبيل المثال، أسّست جمعية المرأة السريلانكية Sri Lankan Women Society التي مكّنت ميزانيتها التشغيلية من توزيع الأموال على مجتمَع أوسع في بيروت، كما أطلقت مدرسة الأحد في العام نفسه لتعليم الأطفال السريلانكيين اللغة الأم، والأدب، والشِّعر، والتاريخ، والجغرافيا، والرياضيات، وهو مشروع استمرّ حتّى العام ٢٠١٣. وفي القرن الحادي والعشرين، نظّمت صلوات بوذية في السفارة، ومن ثمّ نسوية. عملت أيضًا مع العديد من المنظّمات غير الحكومية مثل إنسان وكفى، وشاركت في تأسيس التحالف من أجل عاملات المنازل المهاجِرات، وقادت التدريبات في مراكز مجتمَعات المهاجرين، وغيرها. ولا تزال حتّى اليوم مُنظَّمة ناشطة.

١٩٩٥ – ٢٠٠٠: نضال جيما جوستو مُتعدّد الجبهات

نشأت جيما جوستو، الناشطة القديمة والمعلّمة والمُنظِّمة، في عائلة مؤلَّفة من خمسة أشقاء وشقيقات، تعمل في الزراعة في إيلوكوس سور في جزيرة لوزون. خلال مرحلة الشباب، كانت في كلّ سبت تحرث الأرض مع والدها الذي تتذكّره باعتزاز. في الواقع، حفرت تلك الأوقات التي قضتها معه فيها، وأثّرت بعمق في وعيها السياسيّ. قالت لي: «أعتقد أنني أخذت قلبي وعقلي من والدي. يعتقد أنَّ الجميع متساوون، وقد نشأت مع هذه الفكرة ومارستُها». ومنذ ذلك الحين، عملت مع أعضاء المجتمَع «الأقل امتيازًا»، ورافقتهم إلى قاعة البلدية «للكفاح من أجل حقوقهم» بشكل أفضل. في وقت لاحق، أسّست الحضانة الأولى في قريتها لدعم الأمّهات الشابّات، وساعدت الشباب المحرومين في تمويل تعليمهم من مؤسَّسات مختلفة.

مع ذلك، لم تكن الحياة الرعوية رومانسية كما قد تبدو، إذْ تقول: «من الصعب جدًّا أن يكون المرء مُزارِعًا، لأنه لن يستطيع أن يكسب كفافه يوميًّا. لدينا موسم مُمطر، وبعده يمكنك الحصول على الأرزّ في غضون أربعة أشهر... تكدحين، وتحرثين الأرض، ولا يتمّ تعويضك إلّا عند الحصاد». بالنسبة إلى العديد من العائلات المُزارِعَة، كانت اللهفة لعبور البحار ثمنَ الخبز والتعليم،[١٠] اعتقادًا بأنّ «التعليم أمرٌ لا بدّ منه في الفلبين من أجل الحصول على حياة أفضل». غادرت والدتها إلى لبنان في الثمانينيات للعمل في الخدمة المنزلية، ولإدخال أطفالها إلى المدرسة ثمّ الجامعة، ما سمح لجوستو بإكمال دراستها والحصول على إجازة في التربية، لكنَّ تعليمها وتدريبها لم يُتيحَا لها الحصول إلّا على راتب هزيل، ما أجبرها على زيادة دخلها من خلال بيع مستحضَرات التجميل وعلب الطعام، ومع ذلك بقي غير كافٍ أيضًا. تقول جوستو: «اعتقدت أنَّ الهجرة سوف تساعدنا ماديًّا. لقد فكّرتُ في أطفالي». وبعد فترة من إنهاء شقيقتها دراستها الجامعية، كان عليها تحمُّل ألم انفصال جديد، وهذه المرّة عن أطفالها.

اتبعت جوستو خطى والدتها، وسافرت للعمل في لبنان بعد الحرب في العام ١٩٩٣. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لمقابَلة المرأة التي ستصبح كفيلتها لمدّة ١٧ عامًا. وعندما سألتها لاحقًا خلال المقابَلة عمّن تعدّهُ داعمًا أو حليفًا لها في لبنان، ردّت جوستو بأنَّ كفيلتها الأولى هي «الداعم الأول لي... لأنها كانت تدعمني ماديًّا، وتسمح لي باستخدام الخطّ الهاتفي الأرضي، والخروج بعد الظُّهر لمقابَلة شخص ما أو إنقاذه». وعلى الرّغم من أنها أحبّت ربّة عملها، لكنّها لم تكن راضية، ولطالما أرادت العودة إلى بلادها، إذْ قالت: «بعد مرور عامين على العقد، لم أكن أعرف أحدًا... ولم أكن سعيدة بسبب الروتين اليومي للعمل المنزلي، بعدما كنت ناشطة منذ شبابي». عاشت جوستو تمزّقًا داخليًّا بسبب الحاجة الاقتصادية من جهة، ورغبتها في الانخراط في عمل رعاية هادف وتنظيم مجتمعيّ في بلادها من جهة أُخرى، لكنّها في النهاية اختارت البقاء في لبنان، وكانت هذه بداية فصل جديد وطويل في حياتها، حيث عاشت من روح الرفقة، ودخلت في تعاون استراتيجيّ وعاجل، ونظّمت النضال على جبهات مُتعدّدة - ولو أنها لم تخلُ من الاضطرابات - في داخل المجتمَع الفلبيني وفي خارجه، وبين المهاجِرات العاملات في المنازل، وضمن الحركة النسوية الأوسع في لبنان.

تقول جوستو: «نظّمتُ مجتمَعي الفلبيني» في النصف الثاني من التسعينيات؛ لقد أسّسَتْ جمعية المجتمَع الفلبيني في العام ١٩٩٦ مع الأصدقاء الذين شاركوها شغفها واهتماماتها، وأصبحت الكنيسة والسفارة والمنازل اليومية وتوسُّع النطاق الجغرافيّ لعاملات المنازل المُهاجِرات نقاطًا أساسية للتعبئة، انطلقت بدايةً من أنطلياس. تضيف جوستو: «عندما كنّا نعيش بالقرب من الكسليك، كنت أذهب إلى كنيسة مار الياس في أنطلياس، وبعد ذلك عندما انتقل ربّ عملي إلى الأشرفية، صرت أقصد الكنيسة المعمدانية في شارع المكحول، حيث التقيت برفاق آخرين مثل إيمي».[١١] كانت الكنيسة مكان التقاء الفلبينيين والفلبينيات للمرّة الأولى، حيث تبادلوا أرقام هواتف الخطوط الأرضية، وحدَّدوا مواعيد للتحدّث عند غياب الكفيل عَنِ المَنزل، وأقاموا الصداقات، وشاركوا قصصًا عن سوء المُعامَلة، والأسر، والجوع، وحجز الأجور - إمّا شخصيًّا، أَمْ من خلال تناقُل القصص - وضافروا قواهم. وبعد القداس الصباحي يوم الأحد في أنطلياس، كانوا يحملون أحيانًا سلال الأكل ويصعدون إلى تلٍّ، سمّوه ترالالا، بات مُخصَّصًا لنزهاتهم المُنتظِمة.

١٠. تستكشف شبه السيرة الذاتية للروائي والشاعر الفلبيني كارلوس بولوسان "أميركا في القلب" (١٩٤٦)، من بين أمور أخرى، طرد العائلات المُزارِعَة الفلبينية، وتجريدها من ملكيّاتها تدريجًا، والعِرق، والعمل، والهجرة، وتجربة العزلة والاغتراب في سياق الإمبريالية الأميركية في القرن العشرين.

١١. قصّة إيمي تعقب قصّة جيما.

في هذه السياقات، علمت من مواطنيها أنَّ موظّفي السفارة «متعجرفون» و«لم يعاملوهم/هنّ جيّدًا». في العام ١٩٩٦، بدأت في خدمة مجتمَعها، بِعَدِّها مُحرِّكة للمجتمَع الفلبيني، وهي وسيلة وظّفتها لتحسين استجابة السفارة لاحتياجات العمّال الفلبينيين المهاجرين. في الواقع، كمّل هذا العمل ما كانت تُمارِسُهُ في قريتها، لكي يتمكّن الأفراد «الأقل امتيازًا» من الدفاع عن أنفسهم بشكل أفضل في قاعة البلدية؛ ففي دورها الجديد، أرشدت الجميع حول كيفية التعامل مع الموظّفين والسؤال عن أسمائهم دائمًا. وبما أنهم يعلمون أنَّ الحكومة الفلبينية سوف تتعامل مع الشكاوى بجدّية، لم يكن أمام الموظّفين خيار سوى أداء واجبات عملهم، خصوصًا بعدما قدّمت جوستو شكوى إلى الحكومة لاستبدال أحد السفراء الإشكاليين، ونجحت في تحقيقِ ذَلِكَ. لَقَدِ استغلّت جوستو موقعها الجديد لخلْق ظروف لازمة للتعاون مع السفارة، حتّى تتمكّن من دعم عاملات المَنازل بشكل أفضل، وإعادتهنَّ إلى بلادهنَّ عند الضرورة.

في ذلك الوقت، كانت سفارة الفلبين من أكثر السفارات نشاطًا في لبنان، حيث تفاوضت مع الأمن العام والكفلاء لتحصيل الرواتب غير المدفوعة، ولإنهاء مُعامَلات العودة. مع ذلك، لم تكن السفارة سوى نقطة النهاية في عملية طويلة ومحفوفة بالمَخاطر، تحمّلت أعباءها شبكة غير مرئية من المنظِّمين الذين تقاسموا المَوارد التي حصلوا عليها بشقّ الأنفس، وتعاوَنوا معًا بالسرّ «لإنقاذ» بعضهم؛ ويوضح المقتطَف الآتي، على سبيل المثال، كيف يتحرّكون عندما تعلم جوستو بوجود امرأة يرفض كفيلها إطعامها و/ أو تحتاج إلى الهروب:

نزهة على تل ترالالا، ١٩٩٣، انطلياس، من أرشيف جيما جوستو

«كنا نذهب ونجمع السردين والبيض المسلوق، وأيّ شيء لدينا، ونخبرها [المرأة المحرومة من الأكل] من خلال صديقة صديقة صديقتها – حَيثُ كانتِ الأخبار تنتقلُ عبر شبكة - أننا سنضع الطعام في سلّة [في يوم ووقت مُتفق عليهما]. عادةً، تكون على الشرفة إلى جوار نافذة غرفة نومها، لأنّ غرفة الخادمة تكون إلى جوار المطبخ، فتسحب الحبل وتأخذ ما في السلة، أو تخبرها بأن تذهب إلى المصعد وتنتظر طعامها هناك. تنظّمنا على هذا النحو، وكنّا نكتب رسالة ونضعها في سلّة الطعام مع تعليمات حول كيفية الوصول إلى الملجإ في السفارة. كنّا نقول لها ما يجب عليها فعله، فيما أحجز لها سيارة أجرة تنتظرها لتقلّها إلى الملجإ، ومن ثمّ أحثّها على الإدلاء بشهادتها حول ما فعله الكفيل لكي تسجّلها السفارة... كان عليّ التضحية بـ ١٠ دولارات من أجل التاكسي. أعدُّ وجودي مع عائلة جيّدة نعمة لي ... كنا نصدر أيضًا نشرة إخبارية شهرية للمجتمَع الفلبيني. أخذت نسخة لصديقتي لتعرف ما يحدث فعلًا، وما هي حقوق العمّال المهاجرين ضدّ الاتجار بالبشر... في بعض الأحيان، عندما لا يكون لإحدى صديقاتنا ربّ عمل أو في حال كان مسافرًا، كنت أفاوض لإبقاء عاملة بحاجة إلى الهَرَبِ لديها: «هل يمكنك إبقاؤُها لديك لمدّة ليلتين حتى أتمكّن من اصطحابها إلى السفارة؟». كنّا نترك العاملة في المنزل المُتاح، ونُخفيها عن أنظار ربّ العمل الذي سوف يبلّغ الشرطة والقوى الأمنية حتمًا عَنْ هروبها. كما استخدمنا منازل وغُرَفًا تستأجر باليوم. لقد نظّمنا ترتيبًا يسمح لها بالبقاء هناك، حتى نتمكّن من نقلها إلى السفارة.

فضلًا عن تدخُّلها لتحسين استجابة السفارة، وجهود الترحيل التعاونية المحفوفة بالمَخاطر التي قادتها، كانت جوستو قلقة من المشكلات الأخرى بين الرجال والنساء في المجتمَع الفلبيني: الحفلات المُفرطة في المراقص، والمُقامَرة المتفشية في المنازل اليومية،[١٢] وقد كانت عبارة عن غرف ومنازل ومبانٍ شاغرة، أبرزها مبنى شاهين في أنطلياس، وَقَدْ حقّقت أرباحًا كبيرة للبنانيين الذين يديرونها. استأجر عمّال مهاجرون من الفلبين ومصر وغيرهما من البلدان غرفًا هناك، وغطّوا الإيجار الشهري البالغ ١٥٠ دولارًا جماعيًّا (والذي ارتفع تدريجًا إلى ٥٠٠ دولار شهريًّا) لقضاء بعض الوقت معًا كلّ أحد. تتذكّر جوستو أنه بعد قداس الأحد في الكنيسة، كان كثيرون يتجمّعون في ذلك المنزل ويلعبون ١٤ (لعبة ورق) «مقلِّدين كفلاءَهم»، أو يُقامِرون بأموالهم، وَيخسرون نحو ٢٥٪ من أجورهم الشهرية في يوم واحد. ولمعالَجة هذه القضايا، وربّما في محاوَلة للتخفيف من شعور الغربة، والبُعد المؤلم مِنَ الأحبّاء، وظروف المَعيشة والعمل الصعبة، شاركَتْ جوستو في تأسيس PhilBall في العام ٢٠٠٠، وهي منظّمة رياضية ترأستها لمدّة عشر سنوات، نظّمت دوريًّا صيفيًّا في كرة السلّة للرجال وكرة الطائرة للسيّدات.[١٣] وقد تواصلت مع شركة I-Remit لخدمات تحويل الأموال لرعاية الدوري ونجحت في ذلك، حيث جمعت ٢٠ ألف دولار سنويًّا لتسديد إيجارات الملعب ورواتب الحكّام. ومن خلال PhilBall وحَّدَتْ جوستو المجتمَع الفلبيني، بإحساس مُتجدّد بوجود هدف ما.

في العقدين التاليين، التقت جوستو «برفيقات مُلهِمات» من سريلانكا، والنيبال، وساحل العاج، ومدغشقر، والكاميرون، وسيراليون، وبعدد قليل من «النسويات الصادقات» من لبنان، ووسّعت نطاق تنظيمها ليشمل من هُنَّ من خارج مجتمَعها المباشر. وفي العام ٢٠١٧، رُحِّلت بحكم الأمر الواقع من لبنان عندما كان الأمن العام يطارد مركز مجتمَع المهاجرين، ويقمع المنظِّمين البارزين ضمن مجتمَع عاملات المنازل المهاجِرات، إذْ برز المنحى التحوّلي والمُتمكّن للمُنظّمات مثل جوستو والنيبالية سوجانا رانا، وهو ما دفع الدولة إلى التّكشيرِ عن أنيابها، وإطلاق سلسلة من عمليات الترحيل في صفوفهنَّ. إلى ذلك، تكيّفت جوستو مع الوضع بعد فترة وجيزة من مسيرة يوم العمّال في العام نفسه، حَيثُ شاركت في قيادتها بِعَدِّهَا عُضوةً في مركز مجتمَع المهاجرين، على الرغم من الثمن الذي دفعته لهذا الظهور العلني. سألتها في معرض الحديث إن كانت مستمرّةً في تنظيم حركات مماثلة حتّى اليوم، فأجابت بأنها لا تزال ناشطة مع التحالف من أجل المهاجِرات العاملات في المنازل من منزلها في إيلوكوس سور، وأنهت حديثنا بهذه المَلحُوظة:

«عندما يسري النشاط في عروقكِ لا يمكنكِ التوقّف... حاليًّا أنظّم النساء والأمهات الشابّات في مركز الرعاية النهاري الذي أسّسته. لقد أُغلِق عندما كنت مهاجِرة، وحزنت لذلك؛ لقد أسّسته من عَرَقي ودمي ... الآن أعطي جلسات للأمّهات الشابّات اللواتي يأتين ثلاث مرّات في الأسبوع. أيضًا أربّي حفيدتي وهذا ما يهمّ. هذا ما أفعله هنا بالإضافة إلى الزراعة، إذ أدير مزرعة صغيرة».

١٩٩٨-٢٠٠١: العودة إلى الوطن، والعمل التبشيري في قصّة إيمي رازاناجاي

عاشت إيمي رزاناجاي حياة ناشطة في مدغشقر خلال التسعينيات؛ ففي الوقت الّذي كان فيه الوضع السياسيّ صعبًا في بلادها، أسّست شركتها الخاصّة لشراء السلع والخدمات غير المتوافِرة في السوق المحلّية. كما أتاح لها مزيجٌ من المهارات الشخصية والطبع، مثل سهولة الاتصال، والشخصية القويّة، وروح المُبادَرة والمُغامَرة، السفر إلى موريشيوس، ولاريونيون، وكينيا، وغيرها من الأماكن لتسهيل استيراد الإمدادات الأساسية وقطع غيار السيّارات للوزارات، بالإضافةِ إلى مصفّفي الشعر، ومنظِّمي حفلات الزفاف، وغيرهم من العملاء. إلى جانب مهنتها، كانت إيمي ناشطة أيضًا في الكنيسة، حيث تدعم الأشخاص المحتاجين من خلال تقديم المشورة وتوفير مأوى موقَّت لَهُمْ في منزلها. في أحد أيام شباط/ فبراير ١٩٩٨، طلبت امرأة مشورتها، وسألتها في أثناء الحديث إذا كانت ترغب في العمل في الخارج. تقول إيمي إنها لم تتردّد ولم تطرح أيّ سؤال لأنّ «شعورًا» ما قَدْ خالجها، فوافقت على الفور. في اليوم التالي، ذهبت وأصدرت جوازَ سفرٍ عاجلًا، نظرًا إلى صِلاتها بوزارات مختلِفة... وانتظرَتْ.

١٢. لم يكن الاعتبار أخلاقيًّا؛ فلطالما اعتادت جوستو أن تسأل الآخرين: ماذا سترسلون إلى عائلتكم؟".

١٣. جيما، "الطريق إلى الانشقاق"، كحل: مجلّة لأبحاث الجسد والجندر، ٢ (٢٠١٦): ١٣٥-١٣٩، (تمّ الدخول في ١٣ شباط/ فبراير ٢٠١٢١ عبر الرابط الآتي: (https://kohljournal.press/the-road-to-dissent.

في نيسان/ أبريل، اتصلت بها المرأة نفسها وقالت لها، «هل أنتِ مستعدّة؟ سوف تسافرين بعد غد». عندما أجابتها بأنها مريضة، ردّت عليها قائلة: «الناس يدفعون الكثير من المال». في اليوم التالي، ذهبتْ رازاناجاي لرؤية المرأة التي أعطتها عقدًا ينصّ على «١٢٥ دولارًا شهريًّا ... عاملة في الخدمة المنزلية ... لبنان»؛ فوجدت أنَّ الدخل ضئيل للغاية، وأنها لا تعرف شيئًا عن لبنان، ولا عن الخدمة المنزلية، لكنّها لم تعترض. قبل وقت قصير من مغادَرتها، التقت برجل على علاقة بمكتب التوظيف، كان يعرف لبنان جيّدًا وما فيه، ولكنّه حاول إعطاءها صورة جميلة عنه. تقول: «في قلبي، لم أكن أهتم. مهما كان يحضّر لكِ الله، فهو يعرف كيف يحميكِ». لا تزال تُشارِك هذه القصّة حتّى الآن مع النساء اللواتي يأتين إليها في اللحظات الحرجة للحصول على المشورة. إلى ذلك، وبسبب قلقها على والدتها، أخبرت العائلة بأنها سوف تعمل في التبشير مع الكنيسة، من دون إعلامها بِالمكان، إلى أن استقرّت. ونظرًا إلى أنَّ مشكلات المهاجِرات العاملات في المنازل لا تتوقّف، فإنها لن ترى شقيقتها وشقيقها مرّة أخرى كونهما توفيا في غيابها، ولن ترى سوى والدتها المريضة إلّا بعد ١٤ عامًا.

عندما وصلت إلى منزل كفيلها في الأشرفية، قالت: «لم تقل لي سيّدة المنزل صباح الخير! كيف يمكنكِ العيش مع شخص لا يسلّم عليك؟» اصطُحِبت إلى غرفتها الصغيرة الخالية من النوافذ، والتي تعلّمت التكيّف معها من دون أن تحبّها. في الأيام التالية، تسلّحت رازاناجاي بإيمانها ومهاراتها وسماتها الشخصية لتخريب ديناميكيّة القوّة التي يضفيها الطابع المؤسّسي لنظام الكفالة، والتي أدّاها كفيلها:

تلقيت تعليمات بعدم تنظيف قاعة الاستقبال إلّا مرّة واحدة شهريًّا. لكنّني تدخّلت في كلّ شيء: الستائر، والخزائن القديمة، والأواني الصدئة. لقد نظّفت كلّ شيء. حتّى الشرفة أصبحت غرفة معيشة صغيرة، بعدما كانت عديمة الفائدة. تغيّرت الحياة في الشقّة وسرعان ما بدأت ربّة المنزل في استقبال الضيوف على الشرفة للعب الورق. لقد أثّرتُ فيها... لم أشعر بأنني عبدة يقولون لي ما عليّ فعله. بدلًا من ذلك، غَيَّرْتُ المنزل. أصلحته؛ لقد توليت مسؤوليّته، وكانت تلك نعمة. لديّ شغف في التنظيف والترتيب، وكلّ ذلك. أَصرَرتُ على الخروج يوم الأحد... في البداية، لاحظت كفيلتي أنني أعود إلى المنزل ظُهرًا، ثم أصبحت أعود عند الساعة الواحدة بعدَ الظُّهر، وهكذا دواليك؛ لذلك، أصبحت تنظّف الطاولة ولا تنتظرني. لقد كانت شاهدة على ما فعلته.

سرعان ما قابلت رازاناجاي جارتها، وهي عاملة منزلية فلبينية، أصبحت في ما بعد «مساعِدتها»، وبدأتا تذهبان معًا إلى الكنيسة، التي تُعدُّ نقطة محورية في هذه القصة.[١٤] في البداية، كان سائق الكفيل يقلّهما إلى هناك، وهو ما أزعجها، مُعَلِّلَةً السّببَ بِقَولِهَا: «لأني كُنتُ أريد أن أكون حرّة». ثمّ باتت تذهب إلى الكنيسة بسيّارة أجرة، وتمكّنت من التعامل مع السائقين الذين لا يعيدون إليها المال المتبّقي مِنَ الحساب. وفي أحد الأيام، التقت بسائق تاكسي أراد دعم عملها في الكنيسة، فكان يقلّها إلى الحمرا رافضًا أخذ أيّ مقابل. ومنذ تموز/ يوليو ١٩٩٨، كانت تذهب إلى الكنيسة المعمدانية الأولى في شارع المكحول للمشارَكة في القداس الصباحي عند الساعة ١١، وتقابل النساء اللواتي يأتين للمساعَدة.

انتشر عملها التنظيمي في كنيسة رأس بيروت الإنجيلية في العام نفسه، كما فتح «زميل» سوري يعمل في إدارة أجهزة الصوت غرفته لها، لتتمكّن من لقاء النساء، الواحدة تلو الأخرى بعد القداس الصباحي، وقدّم لهنَّ الطعام، وَقَدِ استمرّ الأمر حتّى بعد زواج «الرفيق» السوري ومغادَرته، حيثُ استمرَّ الناطور الليبيري في فتْح المكان لها لمواصَلة عملها. تقول: «لقد أصبحَتْ هذه الغرفة مهمّة»، لأنها كانت تمكّنها من لقاء النساء والاستماع إليهنَّ، قبل أن يجلبن نساء أخريات، تَدريجًا.

«تعلّمت كيف أساعد الآخرين من خلال تجربتي. القصص التي سمعتها كنت أعرفها، لذلك شعرت بها. بين العامين ١٩٩٨-٢٠٠١ [نهاية تاريخ العقد] كنت مُقيّدة. في تلك الفترة، مارسْتُ العمل [الإرشادي] نفسه الذي كُنتُ أُمارِسُهُ في مدغشقر لمُساعَدة الناس؛ لكن براتب مختلف وبظروف مختلفة... في المنزل، كنت أستمع إلى الراديو وأسجّل الأناشيد الدينية على شرائط كاسيت، وأعطيها للفتيات ... هدَّأتهنَّ، لمعرفتي أنَّ التسامح والتواصل بشكل جيّد مهمّان جدًّا... وبفضل مساعدتي، درَّبْنا الفتياتِ على كيفية التواصل... التواصل هدية من الله خصوصًا لحلّ النزاعات. وهو ما ساعدني لاحقًا في التوسّط مع المنظّمات غير الحكومية والسلطات».

١٤. لم تستجب لطلب إجراء مقابَلَة معها، لذلك سوف أترك هُويَّتها مخفية.

في العام التالي، انضمّت إلى مجموعة الكنيسة الإفريقية، التي كانت تجتمع في شارع جان دارك على مسافة قريبة من الكنيسة. شكّل المؤمنون النيجيريون والكاميرونيون غالبية المصلّين مع قسّ سوداني كان يدرس في مدرسة اللاهوت في الشرق الأدنى، وقد أصبح لاحقًا صديقها. من خلال علاقة الزمالة، التقت رازاناجاي بأوّل امرأة مدغشقرية في العام ٢٠٠٠، والتي ربطتها بالمجتمَع المدغشقري الأوسع من عاملات المنازل، وكانت إحداهنّ عاملة جنس. اعتقدت رازاناجاي أنّ لقاءها «مهمّة من الله»، فأصبحت تذهب إلى شقّتها التي تتشاركها مع عاملات جنس أخريات في الأشرفية، لتلاوة صلاة الصباح كلّ أحد قبل الذهاب إلى الحمرا. من الواضح، إذًا، أنّ رازاناجاي رأت نفسها كمبشِّرة، وربّما وجدت أولئِكَ النساء العزاء في الدِّين من خلالها.

استفادت رازاناجاي من الشبكات المُتقارِبة التي دخلت إليها وشكّلتها بين العامين ١٩٩٨ و٢٠٠١ عندما كانت خاضعة لنظام كفالة، وكرّست مهاراتها ومواردها لإعادة النساء اللواتي تعرّضن للاستغلال والإيذاء، مُشيرةً إلى إنّ «التنظيم ضروري للمغادَرة». سَعَتِ العديد من النساء اللواتي قابلتهنّ إلى الحصول على خبرتها، ووثقن بها، وأخبرنها قصصهنّ، وعندها بدأت في جمع شهاداتهنّ. بالإضافةِ إلى ذَلِكَ، وضعها الأب سليم في تواصل مع «كاريتاس» والمحامي رولان طوق الذي كان يدافع عن عاملات المنازل المهاجِرات في نهاية العقد. وعلى الرّغم من أنها مُنِعَتْ مِنَ استقبال الضيوف في منزل كفيلها، إلّا أنها قابلت النساء اللواتي طلبن مساعَدتها في الردهة، وكانت تستخدم الخطّ الأرضي الخاص بالكفيل للتواصل معهنّ. في ذلك الوقت، كان «الهاتف لا يتوقّف عن الرنين». استمعت باهتمام إلى روايات عاملات المنازل، وأحيانًا سمعتها أكثر من مرّة، لا سيّما عند سرد «مُخطّطات الخداع التي تمارسها مكاتب التوظيف، أو منعهنّ من الأكل من قِبَلِ الكفلاء، وحجز رواتبهنّ، ومنعهنّ من التواصل مع عائلاتهنّ، وأحيانًا اغتصابهنّ». كانت رازاناجاي تجمع أسماء الكفلاء، وتنسخ المستنَدات التي يمكن أن تحصل عليها في المكتبة المسيحية في الحمرا، وتكتب نصوصًا تصف التفاصيل المروِّعة لكلّ قصّة. وبمجرّد اكتمال الملفّ، كانت تذهب إلى عيادة الأمراض الجلدية الخاصّة بكفيلها لإرسال المستنَدات عبر الفاكس إلى القنصلية المحلّية ووزارتَي العمل والشؤون الخارجية في مدغشقر وكاريتاس. إذًا، هكذا كانت الطريقة التي نظّمت بها عودة الكثيرات إلى بلادهنّ في مطلع الألفية الثّالِثَة.

مع ذلك، أعربت عن أنّ نظام الكفالة كان في النهاية شكلًا من أشكال السجن، الذي حدّ من مسؤوليّاتها التبشيرية وتسهيل عمليّات العودة إلى الوطن، على الرّغم من أنها كانت قادرة على التفاوض على بعض الشروط مع كفيلها.

«كنت أرسل ٥٠٠ دولار إلى العائلة كلّ أربعة أشهر، لذلك كان الأمر يستحقّ العناء. كتبت لعائلتي الرسائل وبعثتها بالبريد، واستخدمت بطاقة اتصال للتواصل معها. أحيانًا، لم أكن أملك المال الكافي للتنقّل، لكنّني تمكّنت من إدارة أوضاعي. ومع نهاية عقد العمل (في العام ٢٠٠١)، طلبوا مني [أي الكفلاء] البقاء، ولكنّني لم أرغب في ذلك كوني أشعر بالضيق وضعف الحيلة في هذا المكان، لم يسمح لي بستقبال أي شخص في المنزل، لذا كنت أتدخل لمساعدة [الأخريات] أيام الآحاد. كان الرجل يعلم أنني مُلتزِمة مع الكنيسة. لقد أخبرتهم [أي الكفلاء] عدم رغبتي في تجديد العقد لأنّ لديّ التزاماتٍ أُخرى، لكنّهم رفضوا رغبتي في البقاء مع غيرهم».

منذ العام ٢٠٠١، وسّعت دعوتها التبشيرية، وجهود الإعادة إلى الوطن، ومناصَرة عاملات المنازل المهاجِرات، فوفّرت ملاجئ متواضعة وموقّتة للنساء الهاربات من كفلائهنّ، وساعدت في إعادة العاملات إلى بلادهنّ هربًا من الحرب في العام ٢٠٠٦. لا تزال رازاناجاي مُنخرِطةً في العمل مع كاريتاس، ومراكز مجتمَع المهاجرين، وتزور بانتظام عاملات المنازل المهاجِرات في مراكز الاحتجاز. ذلك كُلُّهُ أصبح مُمكنًا «عندما أصبحت حرّة». في الختام، كرّرت رازاناجاي اعتقادها أنّ قدومها إلى لبنان «كان بمشيئة من الله وليس صدفة»، قائِلَةً: «كانت إرادته أن أواصل ما بدأته في مدغشقر، فهو يعرف لماذا وأين هناك حاجة إليّ».

يبدو أنّ هذه الاعتقادات الدِّينية تفسّر جزئيًا سبب عدم تَعَامُل النسويات في التسعينيات بشكل هادف مع عاملات المنازل المهاجِرات، اللواتي أظهرن قيامهنّ بعمل جيّد لبعضهنّ، وبمفردهنّ. وَالجدير بالملاحَظة أيضًا هو ابتعاد النسويات اللبنانيات والعربيّات الناشطات في ذلك العقد نتيجة العنصرية. في الواقع، فهمتُ أنّ الطريق إلى حركة مناهَضة العنصرية كان شاقًّا وطويلًا، وامتد نحو عقدين، وفي بعض الأحيان تخلّله غدر وخيانات بسبب وجود «حشرات» و «ثعابين» في الزاويا.

عوائق في طريق التضامن النسوي

«في التسعينيات، لم أعرف ناشطة أو نسوية لبنانية واحدة. [...] كان ذلك في أواخر العام ٢٠٠٠ عندما قابلت لبنانيات يُطلقن على أنفسهنّ لقب نسويات، وناشطات، ومناضِلات في سبيل حقوق الإنسان. لكنّه مجرّد استعراض؛ ليست جميعهنّ صادقات. في كلّ غابة هناك حشرة وهناك ثعبان» - جيما جوستو.

في ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢٠، نظّمت ورشة المعارف «اللقاء الافتراضي بين الأجيال: النسوية والتسعينيات في لبنان»، حيث وضعت النسويات اللبنانيات والفلسطينيات الناشطات منذ التسعينيات في محادَثة مع النسويات الشابّات الناشطات في لبنان اليوم. وعلى الرّغم من عدم وجود أيّ مشارَكة من عاملات المنازل المهاجِرات والمُنظّمات منهنّ، بيدَ أنّهُ كان من المُمكن التعرّف إلى الطرق التي اسُتبعدت فيها عاملات المنازل المهاجِرات مِنْ فئة «النساء»، سواء في الحركات «النسائية» أم «النسوية» في التسعينيات.[١٥] أشارَتْ لينا أبو حبيب، رئيسة مجلس إدارة مجموعة الأبحاث والتدريب للعمل التنموي، من خلال تجربتها، إلى أنّ المؤتمَر العالميَّ للنساء، والمعروف أيضًا باسم مؤتمَر بكين، كان «ملاذًا نسويًّا» في العام ١٩٩٥، حيث شاركت فيه عاملات مهاجِرات ولاجئات، علمًا أنّ كثيراتٍ منهنّ شاركن للمرّة الأولى في مؤتمَر دولي، إنّما ليس من لبنان. وأضافت أنّ جزءًا من نتائج بكين تمثّل في «مأسسة تعميم المنظار الجندري ليصبح جزءًا من القطاع العام»، وهو جهد قادته الحركة النسائية، وتُوِّج بتأسيس الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية في العام ١٩٩٨. [١٦]

منذ تأسيسها، كانت تسمية اللجنة وهيكلها الحاكم مثالَينِ على سياسات الدولة الإقصائية. لا يقتصر ذلك على استخدام مصطلَح «المرأة» في اسم الهيئة كمفهوم فردي قائم على الأنوثة، بل أيضًا من خلال الإصرار على صفة «اللبنانية» تعبيرًا عن فكر إثني-قومي للمرأة التي قد تُمنح امتياز الإدماج. وَقَدْ علمْتُ من أبو حبيب أنّ مُحادثةً جرت بين اللجنة والنسويات ردًّا على اختيار الاسم والعمل الذي مارسَتْهُ هذه اللجنة. لقد جادلت النسويات لاستبدال مصطلَح «اللبنانية» بـ «في لبنان»، بما يسمح بشمول المقيمات غير اللبنانيات أيضًا والدفاع عنهن. لكنهنّ لم ينجحن، على الأرجح بسبب الارتباط بمفاهيم عرقية عَنِ المواطَنة، والمشاعر الراسخة المُعادية للفلسطينيين التي تجدّدت في سياق الحرب الأهلية. ولا داعي للقول إنّ المهاجِرات العاملات في المنازل كُنّ أبعد ما يكون مِنْ أيّ اعتبار أو اهتمام، ليس فقط بسبب غيابهنّ عن طاولة المُفاوَضات. في الواقع، كان ذلك أحد أعراض العنصرية العميقة التي تجلّت في عدم الرغبة في الاعتراف بإنسانية أولَئِكَ النساء، فضلًا عن عَدِّهِنّ مجرّد «سلع عمل» على حدّ تعبير نفرتي تادیار، التي أنهكها العملان الجسديّ والجنسيّ.[١٧] لكن لا ينبغي ارتكاب خطأ الاعتقاد بأنّ العنصرية في ذلك الوقت كانت محصورة بالدولة ومنظّماتها، إذ كان اليسار مُتواطئًا بالقدر نفسه من خلال الخطاب العنصري لبعض أعضائه وعضواته الناشطين/ات في المنظّمات النسائية التابعة للحزب الشيوعي.[١٨] والجديرُ ذِكرُهُ أنّ المنظّمات غير الحكومية المُختلفة التي كانت تعمل في مجال الدفاع عن النساء في التسعينيات، تجاهلت أيضًا، إلى حدّ كبير، نضال عاملات المنازل المهاجِرات، كما سخّفتِ الكثيرات من موظّفاتها هذا النضال، وألقينَ اللوم على الناجيات بسبب العنف الذي تعرّضن له.[١٩]

١٥. على سبيل المثال، تشرح جمانة مرعي، مديرة المعهد العربي لحقوق الإنسان في لبنان، ظُهُور "حركة نسائية" بعد اتفاق الطائف، ركّزت على "الإنسانية والإنقاذ"، ولكنها لم ترقَ إلى مستوى تنظيم يدافع عن "المساواة الكلّية"، وهو ما تعدُّهُ سمة مميّزة للحركة النسوية. تستند مرعي إلى ثنائيات متعارضة؛ كانت "الحركة النسائية" بقيادة "تقليديين/تقليديّات"، واستثمرت في المؤسّسات الدِّينية ومؤسّسات الدولة، بينما كانت الحركة "النسوية" الناشئة أكثر علمانية وقائمة على المجتمَع المدنيّ، وباتت رؤاهم/هُنّ المتباينة مصدر توتُّر في مؤتمَر بكين. تجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ "الرجال" و"النساء" كانا فئتَينِ أساسيّتينِ في ذلك الوقت، بينما كانت تُعَدُّ النسوية، ولا تزال، من قِبَلِ الكثيرات من النسويات في لبنان حركةً من أجل المساواة، لا حركة تسعى إلى إلغاء عدم التناسق البنيوي المُرتبط بالتكوينات والموروثات العنصرية والعسكرية والاستعمارية، والمتغايرة الأبوية والسياسية والاقتصادية.

١٦. نصّ المرسوم العام على أن ترأسها السيّدة الأولى، وأن تضمّ بين أعضائها النائبات والوزيرات حُكمًا. وقد وصفت أبو حبيب اللجنة بأنها "صورة مصغَّرة عن النظام". https://nclw.gov.lb/nclw-law/.

١٧. نفرتي تادیار، "الهيئات المحلّية في الفلبين"، Sojourn: مجلّة للقضايا الاجتماعية في جنوب شرق آسيا ١٢، رقم ٢ (١٩٩٧): ٩١-١٥٣. وهو ما أناقشه بالتفصيل في: سينتيا عيسي، "إصلاح نظام الكفالة ترقيع ليبرالي: العمالة المُهاجِرة والنضال في سبيل التحرّر" مصدر عام، ٧ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٢٠. https://thepublicsource.org/kafala-reform-liberal-veneer-migrant-workers.

١٨. أشارت إحدى الناشطات النسويات اللواتي قابلتهنّ، وفضلت عدم الكشف عن اسمها، إلى فشل اليسار في هذا الصدد.

١٩. "من التصريحات النموذجية [للنساء العاملات في المنظّمات غير الحكومية في أواخر التسعينيات] نذكر: "لقد جئن إلى هنا بملء إرادتهنّ"، "كان بإمكانهنّ الموت جوعًا في بلدانهنّ"، "يسرقن الوظائف من اللبنانيين"، "يشتكين كثيرًا وناكرات للمعروف، يستحقِقْنَ كلّ شيء"، "لصّات وكاذبات ولا أستطيع أن أصدّق أنهنّ يتعرّضن للضرب والاغتصاب من أرباب العمل". لينا أبو حبيب، "استغلال وإيذاء عاملات المنازل من سريلانكا في لبنان"، النوع الاجتماعي والتنمية ٦ رقم ١ (١٩٩٨): ٥٦.

قادت قلّة من اللبنانيين واللبنانيات - الذين لم يضعوا شارة النسوية على عملهم/ن ولم يربطوها بهُويتهم/ن - «مبادراتٍ شخصيةً» لإعادة النساء المُعتدى عليهنَّ بمساعَدة كاريتاس ولاكسيثا؛ و «لاكسيثا» هو ملجإ نهاري لعاملات المَنازل المهاجِرات في الدورة، تديره راهبة سريلانكية اسمها الأخت أنجيلا.[٢٠] وعلى الرّغم مِنْ أَنَّ جهود الإنقاذ التي تميّزت بطابع دينيّ قد ردعت بعض النسويات اللبنانيات اللواتي يعتقدنَ أنَّ «التنظيم الدِّيني» يقف بطبيعته «ضدّ التنظيم»، وأنَّ «الإرث التبشيريّ ليس [جزءًا من مشروع] نسوي»،[٢١] غَيَر أنَّ إحدى النسويات اعترفت بأنهنَّ «اكتشفن بعد فوات الأوان وجود الموارد اللازمة لإجراء الاتصالات»، مُضيفَةً: «ولكن كان هناك ما يمنع انخراطنا، إلى جانب جهود العودة إلى الوطن الفردية التي كُنّا نَجهَلُ آثارها بعيدة المدى».[٢٢] بالتأكيد، مَعَ مرور الوقت، تكشف التجارب والأخطاء الكثير ممّا يُمكنُ قوله عن تعلُّم سياسة التنظيم ومُمارسَتها. مع ذلك، إنّ صدّ الباب والعجز عَنِ الاستماع إلى ما قالته عاملات المنازل المهاجِرات وإلى رغباتهنَّ، يقفانِ عقبة في طريق التضامن النسوي.

في الختام، كشفت كانداراشيجي وجوستو ورازاناجاي كيفية اهتمام عاملات المنازل المهاجِرات ببعضهن، بلا كلل، وبموارد قليلة في التسعينيات، حيث نظّمن مجتمعاتهنّ بناءً على تجاربهنّ الظرفية المُرتبطة بنظام الكفالة، وهو فراغ قانوني غير مُنظَّم يسمح بالانتهاكات، وبأفظع حالات انعدام توازُن السلطة. أمّا ما يضع هذا النضال الطويل على المحكّ، فهو الاعتراف بأنَّ تنظيم عاملات المنازل المهاجِرات لم يكن أبدًا مكوِّنًا إضافيًّا للنسوية المحلّية والمنظَّمات غير الحكومية «للعمل عليها»،[٢٣] وإنّما قوّة كان لا بدّ أن تُحدِثَ تغييرًا جذريًا في الحركة النسوية المحلّية، وأن تنقلها إلى ما هو أبعد من تحقيق المساواة، إلى نقد بنيوي أوسع يبدأ من الطابع العنصري والجندري للعمل في الاقتصاد السياسي المحلّي والعالمي.[٢٤]

٢٠. وفقًا لنسوية لبنانية فضّلت عدم الكشف عن هُويتها، احتكر بعض الوجوه هذه القضية، وهو ما أبعد الأخريات ممن يصنفن بأنهن نسويات مستقيلات من النضال. كانت تلك "الحارسات" بمَنزلة "وصيات" أو "حاميات" الأخت أنجيلا. تشير القراءة السخيّة لهذه الأحداث إلى الرغبة في حماية أولئك النساء من رمزية نهاية ذلك العقد، عندما أصبح من الممكن التعرّف إلى عاملات المنازل المهاجِرات على رادارات حقوق الإنسان التابعة للمنظَّمات غير الحكومية. لكن في الواقع، كان نهج الحراسة شكلًا آخَر من أشكال العنصرية المتجذّرة في اعتقاد أنَّ عاملات المنازل المهاجِرات لا يمتلكن القوّة، ما يُعَدُّ مغالطة تاريخية خطيرة كما يتبيّن في هذا الفصل. إذًا، هناك حاجة إلى مزيد من البحث، لفهم ما حدث بالفعل في سياق الديناميكيات المذكورة بإيجاز هنا.

٢١. بالاستناد إلى محادَثة مع نسوية لبنانية، فضّلت عدم الكشف عن هُويَّتها.

٢٢. المرجع نفسه.

٢٣. تميّز سلكا أيضًا بين "العمل من أجل" و"العمل مع" عند شرح الاختلاف بين مقارَبات مراكز مجتمَعات المهاجِرين وحركة مناهَضة العنصرية، وبين نهج عمل المنظَّمات غير الحكومية.

٢٤. لمزيد من القراءات يمكن الإطلاع على: سمية قسامالي، "عوالم حياة العمال المهاجِرين في بيروت" (أطروحة دكتوراه، جامعة كولومبيا، ٢٠١٦)؛ أمريتا باندي، "من حديث البلاكين والصلاة العملية إلى المنظّمات غير القانونية: عاملات المنازل المهاجِرات والمقاومات الوسطية في لبنان". النوع الاجتماعي والمجتمَع ٢٦ (٢٠١٢): ٣٨٢-٤٠٥؛ ديمة قائدبية، "نظرية البناء عبر النضالات: الفكر النسوي الكويريّ من لبنان"، (أطروحة دكتوراة جامعة ولاية أوهايو ، ٢٠١٤)؛ راي جريديني، "في ظلال الحياة الأسرية: نحو تاريخ الخدمة المَنزلية في لبنان"، مجلة دراسات نساء الشرق الأوسط ٥ (٢٠٠٩): ٧٤-١٠١.

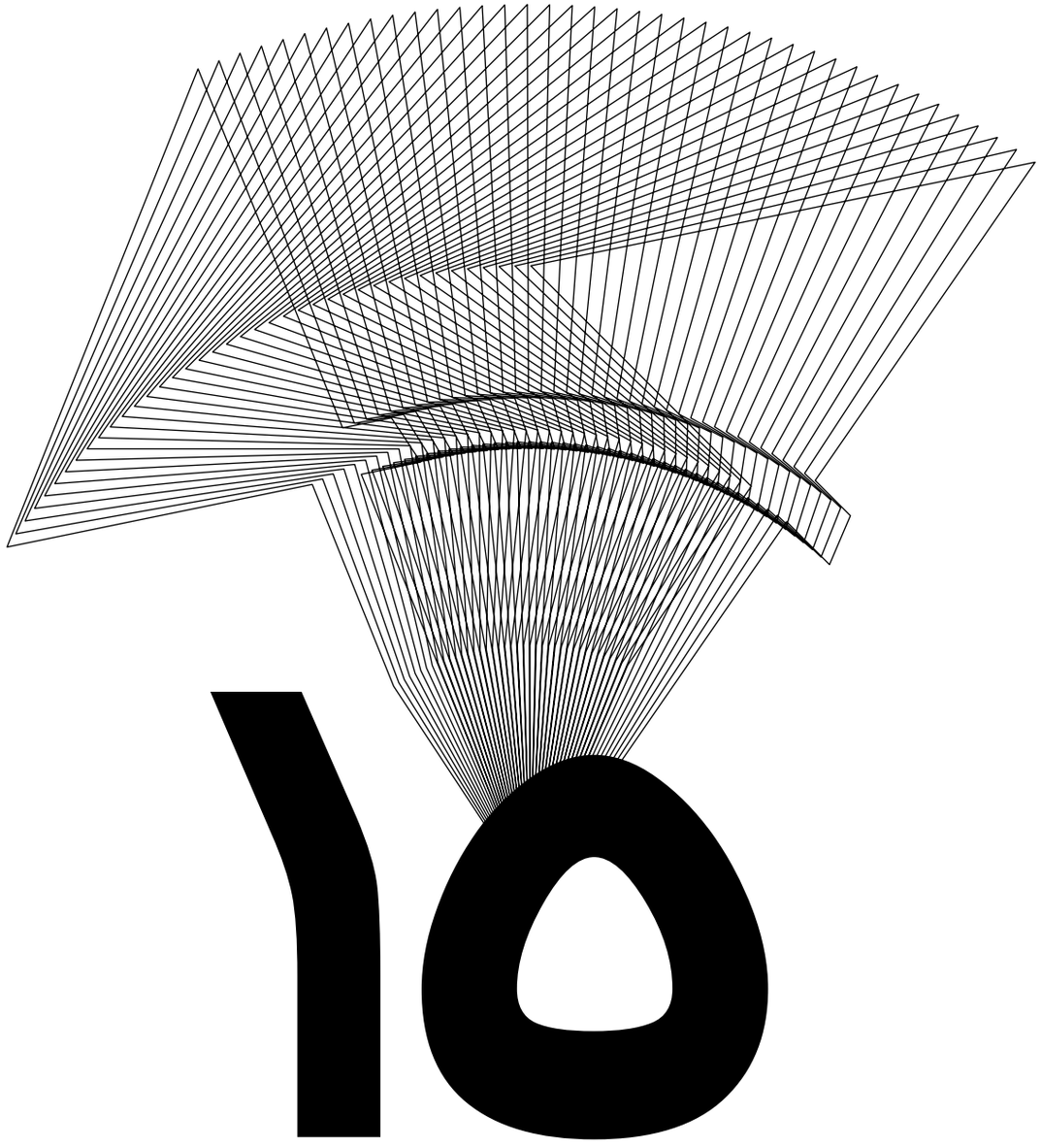

تجربة: ميريام صفير

أنا إنسانة ما بحبّ الظّلم أبدًا، ومنّي متسامحة أبدًا مع كلّ شي فيه ظُلم؛ بعرّف عن حالي كمان، وفخورة بأنّي حدا كتير أخلاقي، بحبّ هالشّغلة اللّي تعلّمتها من عيلتي. وكمانَ كتير فخورة أني جيت من عيلة أمومية. ستّي كان إلها كتير مكانة، ما كانت تقليدية أبدًا، مع إنّو هيّي ما كانت مدركة هيدا الشي، ولا بتصوّر حالها بهالأسلوب، بس هي كانت تعرف شو بدّها بالظبط، وكانت قيادية بتصرّفاتها وبشكل طبيعي. مثلًا ستّي كانت تروح عالحقلة، تلمّ زيتون مع الرّجال. كانت تسوق من عمر كتير صغير. كان عندها رأي بكل شي تقريبًا. ببيتا كانت تتشارك مع جدي بكل القرارات، وكانت فارضة شخصيتها. وهيك كلنا لحقنا خطاها.

أنا ربيت بضيعة مسيحيّة محافظة، كان في كتير آراء بسمعها، ما تغيّرت عندي إلّا وقت اللّي نزلت على بيروت، وفتت عالجامعة الأميركية ببيروت وتعرّفت على غير ناس، وأفكار كتير مختلفة. خبّروني ببيئتي إنّو ما لازم اتجوّز غير مسيحي، وما لازم إنغرم بحدا من غير ديني. عملت العكس تمامًا وتجوّزت إنسان مش من ديني. كمانَ الأشخاص اللي من جيلي ما حدا منهم نزل عبيروت عالجامعة، وقتها كلّهن راحوا عالجامعة اللبنانية الأميركية بجبيل، إلّا أنا، ما كنت إقبل إلّا إتعلم ببيروت. حتّى وقت صار إنفجار الكولدج هول (College Hall) بالجامعة كنت أوّل فصل، أوّل شهر لإلي، قالولي أهلي إنّو لازم إرجع عالشّمال، وأكيد ما قبلت، قلتلّهن مشّ راجعة عمحلّ، باقية، وضلّيت إترجّاهن لقبلوا. كانت أوّل مرّة بحياتي بنزل بعيش ببيروت، ولحالي، بتذكّر إنّو كان كتير شي بيزعّل اللّي صار، التّلاميذ كانوا كتير زعلانين وحسب ما بتذكر، مات شخص، الناطور يمكن. ونحنا بالسكن إنكسر كلّ القزاز تبعنا وانجرحنا بس بعدها دغري صار في حكي كيف نرجع نعمّر.

كان عنّا جار بوجّ بيتنا يضرب مرته، وأنا كنت دايمًا بدّي أعمل مشكل معه، وما يخلّوني، يقولولي إسكتي. كنت بعرف إنّه لازم صلّح الشي يللي جوا، الشي يللي حاملته معي، لأنّو مشّ مظبوط. أهلي ما كانوا ناس متعصّبين، بسّ كانوا ناس بحبّوا العلب اللّي بيجرّبوا يحطّونا فيها، مثلًا المسيحيّة لازم يتجوّزوا بسّ مسيحيّة، وبفسّرولك ليه نحنا هيك لازم نعمل، لأنّو الطّلاق أهين عند الإسلام، وبلكي تجوّز عليّي، عندهن حججهن، هيّي حجج بتزبط عالمنطق تبعهن بس يللي ما كان يزبط معي. وأنا كتير جرّبت لأتخلص من الأفكار اللي كانت سائدة بمحيطي متل القضايا اللي بتتعلق بالعاملات الأجنبيات واللاجئين الفلسطينيين والإسلام وغيرها. نسبة لَلبيئة المحافظة اللي جيت منّا، بحسّ إنّي كتير اشتغلت عحالي وقدرت فكّك الأفكار اللي انزرعت فيي وطلعت منها. بنبسط إنّو هيكِ صار، بشكل تدريجي. كلّ فترة كان عندي شي إشتغل عليه لحسّن حالي، وبعدني. بعد عندي كتير قصص منّي منيحة فيها بعتقد. بحسّ كلّنا بحالة محاولة لنصير أشخاص أفضل عالقليلة وهيدا اللّي بهمّني.

الجامعة الأميركية:

مسكن الطالبات اللّي أنا كنت فيه، كان قبلها بيت لعاملات جنس، وكان أوّل سنة وقتها بالـ٩١ بيغيّروه، وبيصير مسكن للطالبات، بس حطّولنا كلّ اللّي إشتغلوا بالبيت قبل مسؤولين عنّا، كان شي مخيف. وما بنسى الشخص اللي كان يدير كلّ شي قبل، كان اسمو سليم. والنّاس اللّي كانوا يشتغلوا فيه، بقيوا يشتغلوا، اللّي بينظف هوي ومرتو. والصّبايا يللي كانوا يشتغلوا فيه من قبل كانوا أوقات يجوا بالليل يدقّوا عباب المسكن، ويبكوا، يقولوله «الله لا يوفّقك يا سليم». ونحنا عشنا بهيدا المحلّ، هلق لما بفكر فيها، ما بعرف إذا كانوا أهلي يعرفوا هالوضع، وكمان للصراحة ما كان شي سهل، كان traumatizing إلى حد ما.

وبعد حادثة انفجار الكولدج هول، سكّروا المدخل الرئيسي للجامعة، فصرنا نفوت من المداخل التانية. وفي كم حادث صاروا بسبب تسكير المدخل الرئيسي. كان في زلمة، مش من زمان مات، اسمه علي، كان مشرّد، وكان شي جديد عَإيّامنا، كان يوقف دايمًا حد بوابة Penrose، محل ما كان في سينما بتحطّ أفلام بورنو. بتذكّر إنّو مرّة حملني بإيدي، وصار يقلّي سكس ودعارة وبورنو، وكتير خفت. وكمان كانوا الحراس يحسّوا كأن بحقلّهن يسايرونا زيادة، بطريقة الحكي معنا وأوقات بنظراتن.

جغرافيا المنطقة:

المنطقة وقتها كانت كتير غير، ما كان في غير Uncle Sam وLe Sam، وتحت مسكن الطالبات كان في أبو ناجي، ومحل ما في ماكدونالدز هلّق، كان مسكّر، ما كان في شي، بعدينَ فتحوا ماكدونالدز وصاروا النّاس يوقفوا بالصّف. وبعدين نحنا وعم نتخرّج صار في مطعم اسمه Texas Lone Star. ومحل ما هلّق حاليًا في Paul، كان في محلّ إسمه Yum Yum. كنا ننزّله سلّة، ويعبّيلنا غراض فيها. والأفران الوطنيّة، كانوا كمانَ يودّولنا مناقيش بالسّلّة. كانت هيديك الأيّام كتير حلوة، ما كان في خدمة الديليفري متل اليوم. إجمالًا عأيامنا الكافيات كانت أكتر للمظاهر، أو كانت للناس الأكبر سنًّا، مش لإلنا نحنا تلاميذ الجامعات. كان في كافيه إسمها «مسك وعنبر» كتير حلوة بالحمرا، وطبعًا كان في سقراط، وبعده. أنا كنت حب روح عالمحلات إذا أكلهن طيب، أو عندهن بوظة أو تحلاية طيبة. كنت حب روح على محل اسمه بيسترو، قريب من برج الغزال، من وقت للتاني، مع أصحاب الشغل لأن كان عنده أكل طيب، بس ما كان في كافيهات كتير متل هلق نقضي وقت فيها. بتذكّر كنّا نروح كتير عسيتي كافيه، كانت حد مكتب المعهد، محل ما هلّق صار بنك بيروت. وبعدنا لهلّق بس بدنا ندل منقول محل ما كان السيتي كافيه، هونيك.

كنت حب مكتبة «سفينة نوح»، كان عندها قسم للأولاد، وكانت تعمل حلقات حواريّة، وكان عندها كتب حلوة. كمان كان في مكتبة حدّ الجفينور، نسيت شو إسمها، كانت دايمًا تجيب كتب حلوة. طبعًا غير أنطوان ونوفل.
كنت عايشة بهيكل سنتر، هلّق إسمه أورينت كوين، أطلع مشي عشغلي بالجامعة. بعدين عشت فوق Nougattini وطقوش بشارع جان دارك، كنت حبّ محل ما كنت عايشة. بعد ما تجوّزت بالـ٢٠٠٠، نقلت تعيش بتلّة الخيّاط، وضليت على سنتين لاقيها موحشة لأن كانت كتير فاضية وأنا كنت ما أعرف سوق. قبل كنت كلّ شي أعمله مشي. صرت إترجّاه لجوزي لننقل عالحمرا ولهلق بعدني مستعدة أعمل أي شي لأرجع عيش بالحمرا، مثلًا بشارع المقدسي أو جان دارك.

أوّل مرّة تعرّفت عالسّت أنيسة النجار كان وقتا رحت على بيتها لأعمل معها مقابلة. كانت عايشة هيي والسّت سلوى أختها، ببيت قرميد قديم، حدّ مستشفى خالدي. كانت أنيسة تجيب هولِ التّنك تبع الحليب وتزرع فيهن. بيتها كان كلّه خضار، كتير كانت تهتم بالزريعة، وكنت دايمًا إتمنّى إنّو يا ريتني أنا محلّ أنيسة، أو عايشة مع أنيسة بهيدا البيت، قدّ ما كنت حبّه. للأسف الشّديد انباع البيت، وصار في بناية كتير كبيرة محلّو. ووقت اللي باعوه، نقلِت أنيسة عَبيت بوجّ الطّايفة الدّرزيّة، بس ضلّيتني استفقد لهيداك البيت، لأنو ولا بيت كان بجمال هيداك البيت.

الحياة اليومية والثقافية:

لمّا جيت عالجامعة بأول التسعينات، كلّ شي كان عن الحرب، مثلًا المسرحيّات اللّي كنّا نحضرها، لروجيه عسّاف، وحنان حج علي بمسرح بيروت. وحدة من الأنشطة اللّي عملناها بالجامعة مكان شغلي، إنو جبنا معالج نفسي من أميركا ليحكي عن الحرب، وجبنا كمان حدا يحكي عن مضادات الإكتئاب، وكيف النّاس لازم توقّفها.

عمل روجيه عساف مسرحيّة وقتها كان بعده مسرح بيروت مكسّر، كانت كتير حلوة، حكى فيها عن الوضع والحرب، وفي كمان مسرحيّة كتير حلوة، عملها هو ومرته، اسمها «مذكرات أيّوب». ومسرحية «الخادمتان» كانت كتير حلوة، مثّلت فيها رينيه الديك. ومسرحية «طقوس التحوّلات» لسعدالله ونّوس، بمسرح المدينة. كتير كان في مهرجانات أفلام انعملوا بوقتها، كان في أفلام كتير حلوين كمان، عن الحرب أو بتحكي عن شي بالحرب، في شي كمان لجوسلين صعب إذا منّي مغلّطة.

الرحلة مع المعهد والرائدة:

بعد ما تخرّجت بصيف الـ٩٤، عرفت إنّو في شي إسمه Institute for Women's Studies، ما كنت صدّق في شي هيك بلبنان. كنت دقلّهن، ما حدا يردّ، فرحت لعندهن. وجولیندا أبو نصر، المؤسِسة، يللي بعدين صارت مديرتي، كانت كتير صارمة. طلعت، كان في باب بتفتحيه، ومعلّق عليه جرس لَيعرفوا إذا إجا حدا، وهيّي بيتها كان فوق المعهد، فكانت دايمًا موجودة. قلتلهن بدّي شوف جولیندا أبو نصر، قالولي «إنتِ مين؟»، قلتلّهن أنا تلميذة، قال «شو بدِّك فيها؟»، قلتلّهن بدّي إسئلها عن تدريب أو شغل. تضحّكوا عليّي كلّ الموجودين، لاقوني كتير سخيفة. قالولي هيّي بالغدا، قعدت وضلّيتني ناطرة، نطرت شي ساعة، أو ساعة وشويّ، بعدين، نازلة جولیندا من بيتها، بتفتح الباب وهيك الجرس عم بيدقّ، وبتتطلّع فيني إنّو «مين هاي؟»، حدا بيفوت لعندها بيقلّها عني، بتقوم بتقلّي «تفضّلي فوتي». قالتلي «نعم، شو بدِّك؟ شو في؟»، قلتلّها أنا بدّي إشتغل معكن، ببلاش إذا بدّكن، بعدني مخرّجة، وما بدّي قضّي الصّيفيّة ما عم بعمل شي. قالتلي «أوكيه، بتجي بتشتغلي عنّا».

كانوا بالأول الموظفين أكترهن يعطوني مهام سخيفة: «جيبيلنا هاي أو انسخيلنا ورقة.» في فترة، صار عندهن مشروع، بدّهن يحصوا عدد التّلاميذ الصبيان والبنات بالجامعة، صاروا يودّوني عمكتب التسجيل، إقعد انقل وعِد الأسماء، فبا كانوا آخديني عمحمل الجد. ضلّت جولیندا تسلّمني قصص بايخة بس بدّا دقّة، لتشوف إذا رح ضلّ أو لأ، وأنا قرّرت إنّو بدّي ضلّ، قام قالتلي «بما إنّك إنتِ جدّية، حنعملّك عقد، رح ندفعلك ٥٠٠$، عَـ٣ أشهر».

بنفس الوقت، كانت ناديا الشّيخ بالجامعة الأميركية، عمّ تجرّب تعمل فهرس عن كلّ شي بلبنان خصّه بالجندر، وما بعرف مين عطاها إسمي إنّو أعملّها البحث. كان لازم روح عالجامعة اللبنانيّة ووثّق الكتب المنشورة. فَاشتغلت مع ناديا، وإشتغلت بالمعهد بنفس الوقت. بالمعهد، قالولي إنّو بدّك تشتغلي مع حدا إسمها رندا أبو الحسن، هيّي كانت المحررة تبع الرّائدة، وبلّشت شغل معهن، كنت كتير مبسوطة بشو عم بعمل. لما بلّشت، عطيوني مكتب أقعد برّا، عالاستقبال، حد الجّرس. بعدين، وقت اللّي كان صرلي سنة، صرت أتشارك غرفة المكتب مع رندا لأنّو أنا مساعدتها، كنت محررة مساعدة. رندا صارت تخبّرني عن الرّائدة، وشو بيعملوا، وتقلّي شو عم بيصير، تعطيني مهام. وكان قريبًا بدّه يصير مؤتمر Beijing، بالـ٩٥، فكان كلّه تحضير للمؤتمر، وأنا قاعدة بالمكتب، وعم بتعلّم. أكيد جولیندا راحت عبكين وقتها، ويمكن رندا كمان راحت. فبالرائدة، بلّشت بالأول أعمل المقابلات بعدينَ ترقيت لحتى صرت مديرة التحرير. وبعد ما راحت رندا، عطيوني مكتب رندا. وبتذكّر مكتبي، بـShannon Hall، كتير كنت حبّه، ضلّ مكتبي لسنين، بعدينَ نقلونا للأسف، طلّعونا لبرّات الجامعة، كتير زعلت. كنّا قاعدين ببناية قديمة كتير حلوة ، كلّها عقد.

بالتحضير لمؤتمر بكين عملوا كذا لقاء واجتماع، وكانت المنظمات عمتعرض بشو بدها تطالب. بعرف إنّو سيلفانا اللقيس وقتها راحت، لينا أبو حبيب كمان. كانوا الجمعيات يختلفوا عَكذا شغلة، ما كانوا يتّفقوا عصيغة، وشو بدّهن يعملوا. كان في ناس تقليدية ومحافظة بالمجلس النسائي مثلًا، وكان في ناس من خارج المجلس النسائي، متل لينا أبو حبيب اللي كانت تشتغل على قضايا النساء وكانت متقدّمة أكتر. فالدينامية ما كانت سهلة ليقرروا عتعريفات المفاهيم وكيف يحكوا عنها. في مواضيع ما كانت تنذكر متل الإجهاض، الجنسانية، الهويات الجنسية. كان في نظرة دونية للناس يللي بتتعاطى، وطبعًا طريقة بشعة بالتعاطي مع موضوع العاملات الأجنبيات.

أنا كانوا يحطّوني لآخذ ملاحظات، كنت حاسة واو أنا موجودة معهن. كنت كتير مبسوطة إنّه بعرف قصص، غيري مش سامع فيهن. وكان في الوفد الرّسميّ، ووفد الجمعيات غير الحكومية. وأنا كنت مبسوطة إنّه نحنا مشّ مع اللّي رايحين وفد رسمي.
أوّل شي بسّ قالولي سيداو، كنت فكّر سيدا، قول شو خصّ السّيدا؟ بعدينَ عرفت إنّو هيدي اتفاقية للقضاء على كافة أشكال التمييز ضد النساء. وقت قريتها، حسيت في كتير أشيا مهمة عم بتعلّمها، عرفت مثلًا انو المرأة اللّي كانت عم تنضرب، مثل جارتنا، كان عالشي يُعتبر شأن عائلي وما لازم الشرطة تتدخل. وتعلّمت يكون عندي حجج لقضايا من خلال تجربتي مع هولِ النّساء، تعلّمت شو يعني تشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية وان هيدي منها جزء من ثقافة، هيدا عنف. لهلّق بشوف إنّو كتير مهم نحكي عن الجندر والحقوق الجندرية. بس كمان النضال بلش مع النساء تحديدًا ودايمًا رح يكمل مع النساء ولهيك كتير بهمني شخصيًّا اشتغل مع نساء. صحيح مشاركة الرجال مهمة بس العمل مع النساء أهم.

وبتذكّر بوقتا انو صار في كتير مؤتمرات ومنن واحد عملتو سعاد جوزف، ونجلا حمادة، وجين مقدسي عن قضايا الجندر ومن الموضوعات يللي تناقشت وأخدت كتير وقت واهتمام كانت كيفية استخدام «نساء» و «جندر». وكان في لغط ونقاش على كيف منترجم Gender للعربي وهل منستعمل مصطلح نوع إجتماعيّ أو جندر. كانت بهيديك الفترة المصطلحات والمفاهيم عم تتقرّر، وكتير جمعيات ومنظمات عم تتكون ومن الجمعيات اللي طلعوا وقتا تجمّع الباحثات، والهيئة اللبنانية لمناهضة العنف ضد المرأة. وقتها كمانَ طلعت الهيئة اللبنانية لمناهضة العنف ضد المرأة، كان في زويا جريديني روحانا فيها. بتذكّر عملوا شي إسمه محكمة النّساء، جابوا نساء من بلدان كتيرة، منّهن وحدة جزائريّة، خبّرتنا إنّها ضلّت تضرب زوجها بالكرسي لقتلته وفاتت عالحبس، لأنّوا كان يضربها ويعنّفها كلّ الوقت. وكان في وحدة من موريتانيا، حكيت شهادة عن الـgavage، بالعربي يعني التعليف، وكيف كانوا يضلوا يطعموها، ليسمنوها. وجابوا وحدة من فلسطين، حكيت عن الإحتلال، وشو صار فيهن تحت الإحتلال. كتير كانت حلوة محكمة النّساء. كمان غطيناها بالرّائدة. كانت المحكمة بشكل مؤتمر بأوتيل بسّ إنّو كان في مساحة آمنة للنساء ليحكوا. وكانت من أولى المرّات اللي بينحكى فيها عن العنف ضد النساء. وأنا لأول مرّة بكلّ حياتي بسمع عن شي إسمه تعليف، أو بتعرّف عوحدة قاتلة زوجها.

اشتغلت سنة بالمعهد وقلتلّها لَجوليندا «بدّي سافر أعمل دراسات جندرية» ووافقت. كان عندي شغل للرائدة، أخذته معي وقتها، ضلّيتني عم بشتغل معهن من هونيك، اعمل مقابلات واكتب. رحت عملت Masters، غبت بآخر الـ٩٥’، ورجعت بالـ٩٧ لعند جوليندا. قلتلّها إنّو بدّي إرجع إشتغل معك، قالتلي «أكيد»، وأصرّت إنّي علّم صفّ. أنا ما كنت بوقتها معلمة بحياتي وكنت خايفة علّم، قلتلها ما بعرف علمه، قالتلي مبلى بتعرفي تعلّميه، وحتعلّميه. كانت تجبرنا نعمل قصص، وكانت كتير قاسية بنقدها. بس رجعت اعطيت الصف وضلّيت عم علمه عشرين سنة تقريبًا. كنت حب علّم وكنت جرّب أعطي تلاميذي مقالات تأطيرية، وكل ما يصير تعديلات بالقوانين والوضع بالعالم العربي زيدها عالمادة، كنت كمان جرّب حضّرهن أفلام. بعدينَ وقت ترقّيت بالجامعة، وبلّشوا يعملولي مشاكل إنّو أنا موظفة، ما فيني علّم، وما عاد عندي وقت، صرت كتير بسافر، حسّيت حالي ما بقى عم بعمل شغل منيح كمعلمة، انبسطت إنّو إجت من الجامعة، وهيك قرّرت ما بقى بدّي علّم.

لما صرت مديرة تحرير صرت أنا آخد المجلة عالمطبعة، واكتب الخطوط العريضة عن شو بدّها تكون، وأعمل الدعوة للمقترحات. كنّا نطلب من النّاس يكتبوا، وندفعلهن مقابل وقت اللي كانت الجامعة تسمحلنا. كنت أكتب كتير بس ما حط اسمي، حتى كنت زبّط التصميم قبل التحرير والتدقيق. وأوقات كان يزمط أغلاط.

مرّة إجت الملكة رانيا زارتنا بالمكتب، وكان عنّا قسم بالمجلة عن آخر الأخبار والإصدارات، فمرتين كتبت ueen رانيا، بدال queen، وكتير انزعج إنّو هيك أغلاط تزمط. أنا كنت أعمل كلّ شي بالمجلّة لأنو الأموال المرصودة كانت محدودة.

الرائدة كانت تنطبع بِبير حسن، بمطبعة إسمها تكنو برس TechnoPress. بلّشت المجلّة ككتيّب وعإيّام رندا، قرّرنا إنّو نعمل ملفات منحكي فيها عن مواضيع محددة. أول ملف كان عن العنف القائم على النوع الإجتماعي بعد مؤتمر بكين ووقتها كانوا يسموه عنف أسري، وبعدين صارت الأعداد إلها مواضيع. وبعد فترة، صار في إقتراح أنه نصير نحط مقالات أكاديمية ولقينا أنه كتير صعب، وهيك قرّرنا تبطّل الأعداد مرتبطة بمواضيع محددة. الرائدة كتير تغير شكلها وأنواع المقالات فيها بس أحلى شي بقي، انو فيها دايمًا هالمزيج من أوراق أكاديمية وشهادات ومقالات رأي وتقارير عن المؤتمرات والنشاطات. أنا بلاقي القيمة تبع الرّائدة، انه عم نجرّب قدّ ما فينا نضلّ نوثّق كلّ شي عم بيصير، لنتذكّر كل حقبة زمنية شو صار فيها. بالـ ٩٢ إنعمل مؤتمر عن البيئة، أصدرنا كتاب عنه، وبنفس الوقت عملنا عدد بالرائدة عنه. في عددين كانوا عن الحرب، واحد منّهن إنعمل عن ما بعد الحرب بلبنان، والعدد التاني كان اسمه النساء والحرب، إنحكى فيها عن النّساء اللّي حاربوا، مش بس بلبنان لكن بالدول العربيّة كمان. عملنا كذا مقال عن رينيه الديك، وكيف إنّها أوّل وحدة اشتغلت موديل عارية، لينا أبيض كاتبة شي كتير حلو عنها. منى كنيعو عملتلنا عدد عن النساء بالفن، عن صباح، فيروز، أم كلثوم... وفوّاز طرابلسيّ عملنا معه عدد عن السياسة.

مع السابقات والرائدات:

أنا ما اشتغلت مباشرة مع الست روز غريب للأسف؛ جوليندا كانت دايمًا تزورها، وهيّي تزور جوليندا. كانت عايشة بدير يسوع الملك، وكانت دايمًا، تنقّحلنا نصوص للرائدة. أنا تعرّفت على روز عن جدّ لما طلعنا أنا والسّت أنيسة النّجار نزورها، لأنّه كنا بدنا نخبّرها أنه عم نعمل وثائقي إسمه Women in Time، وبدنا نعمل معها مقابلة. روز كانت امرأة استثنائية، شخصيتها كتير منعزلة، مش دافية متل أنيسة. كانت كتير منيحة ولذيذة، بسّ، كتير مختلفة. طلعنا زرناها بدير يسوع الملك، والسّت أنيسة طلّعتلها كاسيت أغاني، وكتاب محو أميّة العقل. ضلّت روز عم تفتّش بكلّ الأوضة قبل ما نفلّ، بدّها تلاقي شي لتعطيه لأنيسة. نحنا ونازلين بالسّيارة فسّرتلي أنيسة انّو روز ما بتقبل تاخذ شي من حدا بلا ما تعطي بالمقابل. عملنا مقابلة حكيت فيها عن المرأة، آرائها كانوا متحرّرين بالنسبة لوقتها، بس هلّق طبعًا منفكّر غير. روز كانت كتير منفتحة وكتير متطلعة وشاطرة، وغاضبة، وتحبّ الأولاد، وتحبّ تعلّم وتكتب، بس كانت وحيدة.

السّت أنيسة كانت تشتغل كتير مع المرأة الرّيفيّة، وعلى أهميّة المرأة الرّيفيّة إنها تضلّ بالرّيف، وعملت مدارس بالمناطق. أبدًا منّها متعصّبة، وكانت بالمجلس النّسائيّ اللّبنانيّ. كان جوزها فؤاد نجّار وزير البيئة، وأختها سلوى روضة شقير، وإمّهن كانت نسوية. هنّي من النّساء الدّروز القلال اللّي نزلوا درسوا بالجامعة اللبنانية الأميركية والجامعة الأميركية. وبنفس الوقت، ستّ أنيسة وروز غريّب وسلوى نصّار ونجلا عقراوي، راحوا عالعراق، علّموا بدار المعلّمين وقت يللي كانوا نساء عازبات. ضلّيت زورها لأنيسة، لصار عمرا ١٠٢، كنت حسّ إنها صاحبتي، بحياتي ما حسّيت في فرق بالعمر، مع إنّو هي أكبر منّي بخمسين سنة تقريبًا. بسّ كتير بتسلّي ومعطاءة وقريبة عالقلب.

كمان بتذكّر تينا نقّاش ونازك سابا يارد، كانوا أوّل نساء بيحكوا عن العنف ضد النساء واشتغلوا ليجيبوا علم وخبر ليأسسوا جمعية تواجه العنف. تينا كانت كتير صادقة بس طريقتها هجومية؛ كنت كتير حبّها. كانت أول مين طرح موضوع العاملات الأجنبيات والعنف ضد النساء قبل ما أي حدا حكي عن هالموضوع. تينا كانت كتير شغوفة وبلا فلتر، ما بتسكت. أمّا دكتور يارد فكانت رايقة وكانت أستاذة جامعية وبتهتم لقضايا النساء والعنف ضد النساء. فكنت حسّ انّه تينا ودكتور يارد يعملوا التوازن.

وملاحظة أخيرة عن المعهد، نحن عنجدّ كتير اشتغلنا مع نساء ما بتعرف شو يعني feminism وآخر همّها النسوية، متل اللي تدرّبوا معنا ببرامج محو الأميّة والتعلّم ونشاطات مدرّة للدخل، income-generating activities. يعني بتتعلّمي هالشّغلة لتقدري إنتِ تصيري مسؤولة عن حالِك، تشتري غراضك، وما تخلّيه يضربك، أو ما تخلّيه يقشّطك ولادك، أو ما تخلّيه كذا. كانت مواضيع مفيدة، بغض النظر إن كانت نسوية أو لا. ونحنا ما اشتغلنا بسّ على الصعيد الأكاديمي عن هالمواضيع. جوليندا كانت كتير تعمل دراسات ومؤتمرات، وانخرطت بكذا مشروع وبرنامج إلى جانب الرائدة. بسّ بنفس الوقت، هيدا الشّغل عالأرض اللّي خلّاني ابقى وما اترك، لأنّه أنا ما كان فيني اشتغل بسّ تنظير. وهيدا الشي الحلو بالمعهد، هالمزيج بين النظري والعملي، لأن حسيت انه ما بحياتي حيكون عندي هيدا الشّي بغير محلّ.

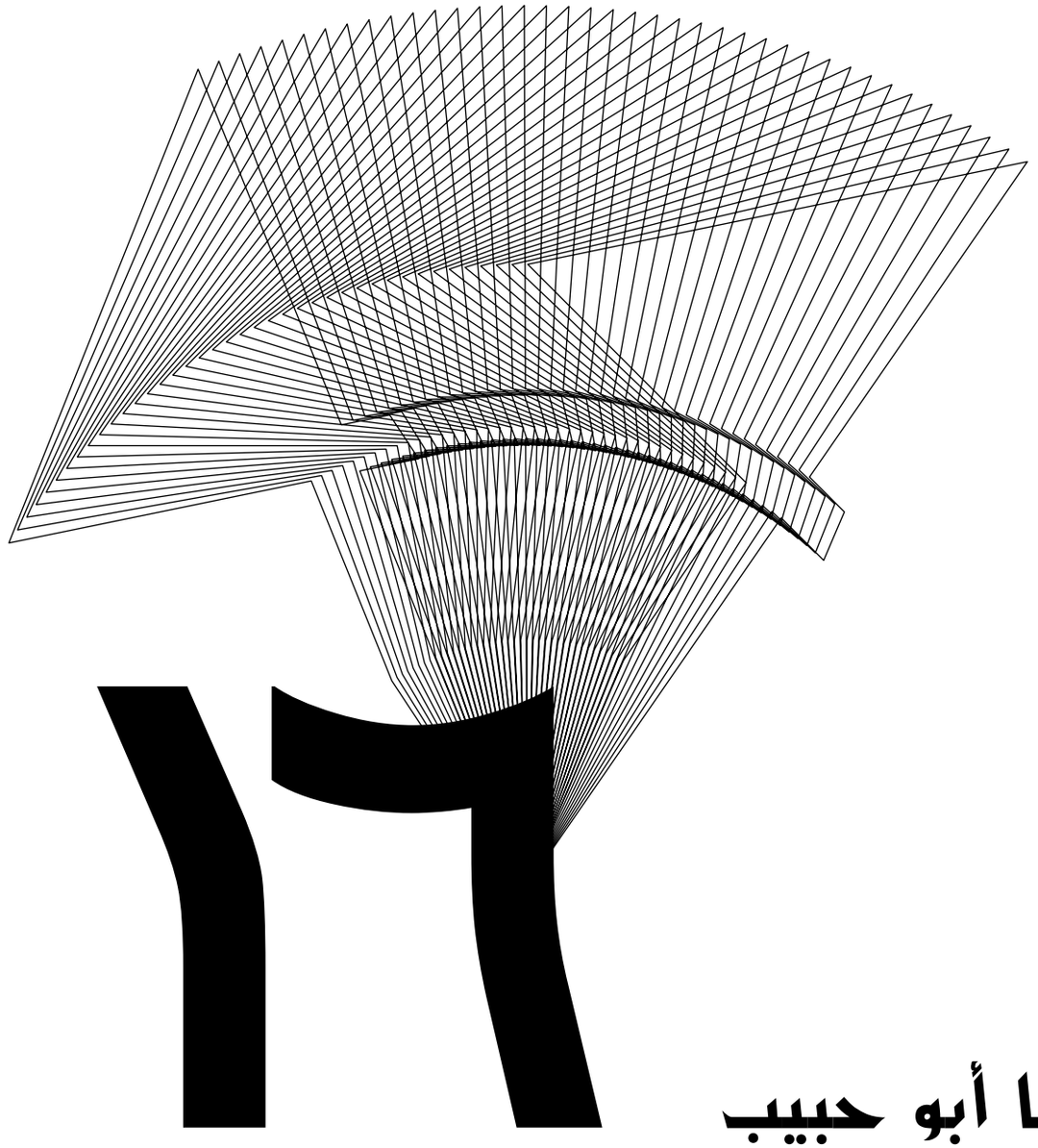

لينا أبو حبيب

ناشطة نسوية منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي. عملت مع مؤسّسات محلّية وإقليمية ودولية عدّة بما فيها أوكسفام - بريطانيا والمعهد الملكي الاستوائي في هولندا. تعطي حاليًا مادة عن النسويات في العالم والحركات التحوّلية في الجامعة الأميركية في بيروت، وتعمل مع معهد الأصفري للمجتمع المدني والمواطنة في الجامعة نفسها. ترأس مجموعة الأبحاث والتدريب للعمل التنموي - CRTDA، وتشغل منصب مستشارة استراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا في الصندوق العالمي للنساء (Global Fund for Women)، وعضوة في مجلس إدارة Gender at Work. كتبت بشكل خاص عن النوع الاجتماعي والإعاقة، وعن النوع الاجتماعي والمواطنة، وعن الحقوق الاقتصادية للنساء، والعمل الرعائي.

الوعي النسوي خلال التسعينيات في لبنان: رحلة اكتشاف وأمل وتحوّلات

المقدمة[١]

هذا المقال عبارة عن انطباعات شخصية حول الحركة النسوية في لبنان خلال التسعينيات، في عقد ما بعد الحرب الذي تميّز بتلاقي العديد من المعالم الرّئيسة المهمّة. في الواقع، شكّلت التسعينيات عقدًا من التغييرات المهمّة في لبنان، إذ بشّرت بنهاية حرب أهلية طويلة ومُدمِّرة، وبفترة من الآمال والشكوك. كانت هذه التغييرات كبيرة، ووحشية في الوقت نفسه، وكان تصوُّر تداعياتها وتأثيراتها على المدى الطويل صعبًا في حينها، وإن تخلّلها بعض التحذيرات المُبكِّرة من الآثار الكارثية المُحتمَلة للقرارات الرّئيسة المُتّخَذة، وبشكل أساسي القرارات المتعلّقة بإعادة الإعمار، وبالبُنيتَينِ المالية والاقتصادية للبلاد.

بدا أنَّ عقد ما بعد الحرب يوفّر مساحة للدور الحاسم الذي أدّاهُ مجتمَع مدني متنوّع، ويعترف بتموضعه الجديد. وقد شمل المجتمَع المدني في تلك المرحلة (ولا يزال) عددًا كبيرًا من المنظَّمات التابعة للسياسيين والأحزاب، فضلًا عمّن يعرّفون عن أنفسهم بأنهم علمانيّون ومستقلّون. ولكن، على الرَّغم من وجود المجتمَع المدني الطائفي ذي الموارد الكبيرة خلال تلك الحقبة، فقد تميّز هذا القطاع بثلاث حركات اجتماعية نشطة، أدَّتِ اثنتان منها على الأقلّ دورًا مهمًّا خلال سنوات الحرب الطويلة، وهي: الحركة النسائية، وحركة الأشخاص ذوو الإعاقة، والحركة البيئية.

سوف أتطرّق في هذا المقال، بشكل خاص، إلى الحركة النسائية (أي المكوَّنة من منظَّمات تقودها نساء، وتعمل على واحدة أو أكثر من القضايا المتعلّقة بالمرأة)، وإلى الحركة النسوية (أي المكوَّنة من مجموعات ذات خطاب نسوي تحويلي واضح)، بعدِّهما من الجهات الفاعلة والمحرِّكات الأساسيّة لهذه القضايا خلال التسعينيات. سينصبّ تركيزي، إذًا، على الطرق التي حدّدت النضالات النسوية، وتأطيرها، ومعالَجتها خلال ذلك العقد المثير للاهتمام، مُحاوِلَةً استكشاف أسباب ظهور المَطالب النسوية الرّئيسة بشكل مكثَّف في تلك الفترة، وكيفيّة ظهورها، لا سيّما المشارَكة السياسية للنساء، والمطالَبة بقانون مدني للأحوال الشخصية قائم على المساواة، وإنهاء العنف ضدّ النساء . ولطالما ظَهَرَ المطلبان الأوّلان على جدول أعمال الحركة النسائية، مع وجود أدبيّات وشهادات، تشير إلى أنهما نوقشا بشكل متقطّع خلال الحرب.

مع ذلك، كانت قضية العنف ضدّ النساء سمة أكيدة من سمات التسعينيات، ومن خلالها أستكشف تأثير نهاية الحرب، والاحتمالات، والفرص الملموسة التي أوجدتها، لا سيّما من حيث الروابط النسوية الإقليمية التي ازدهرت في حينها، وتأسيس الشبكات النسوية العربية المُبكِّرة، بالإضافة إلى تأثير مؤتمَر الأمم المتحدة الرابع المعني بالنساء والمعروف باسم مؤتمَر بكين الذي انعقد في العام ١٩٩٥،[٢] بعد فترة تحضيرية مُكثَّفة ومشاوَرات بين المنظَّمات النسائية والنسوية، في لبنان والمنطقة.

يتضمّن مقالي لمحة موجَزة عمّا نعرفه عن الحركة النسائية قبل الحرب الأهلية وفي أثنائِها (١٩٧٥-١٩٩٠)، في محاوَلةٍ لفهم العوامل والجهات الفاعلة التي شكلت هذه الحركة خلال التسعينيات، ومن ثمّ أتعمّق في التفكير في ذلك العقد، بالاستناد إلى مجموعة من اللقاءات والارتباطات الشخصية، وإلى كتاباتي السابقة، وسجلٍّ من الكتب والمقالات المنشورة في وسائل الإعلام، وكذلك عبر مراجَعة أدبيّات بعض المؤلَّفات الرمادية والمنشورة، بالإضافة إلى البيانات، والشهادات، والروايات التي جُمِعت بين العامين ٢٠١٢ و٢٠١٤.

---

١. شكر خاص لكارلا عقيل التي عملت على المراجع والمصادر لهذه الورقة.

2. "Fourth World Conference on Women, Beijing 1995," United Nations, accessed February 10, 2021, https://www.un.org/womenwatch/daw/beijing/fwcwn.html.

لقد أجريتُ هذه المقابَلات مع نسويات من خمسة بلدان عربية، بما فيها لبنان، كنّ ناشطاتٍ خلال الفترة المُمتدة بين الستينيات والتسعينيات، وذلك عندما كنت طالبة دكتوراه أعمل على بحث، حاول تحليل الحركات النسوية في خمسة بلدان في منطقة الشرق الأوسط، وشمال إفريقيا. لم أستعمل هذه المقابَلات المُفرّغة سابقًا، ولكنّني سأستخدم أوصافًا عن النساء اللواتي أجريتُ المقابَلات معهنّ، بدلًا من ذِكرِ أسمائهنّ الفعلية.

الحركة النسائية في لبنان قبل الحرب: غير مُكتمِلة وانتقائيّة وخجولة

يمكن القول - بكلّ ثقةٍ - إنَّ هناك عددًا قليلًا جدًّا من الكتابات العلمية أو المواد الأرشيفية المناسِبة حول تاريخ الحركات النسائية والنسوية في لبنان، قبل الحرب؛ ولذلك، عند الإشارة إلى هذه الفترة المُحدَّدة في التاريخ، غالبًا ما تستشهد الأدبيّات بسلسلة من التغييرات في نصوص القانون، التي أثّرت بالتأكيد في بعض الجوانب الحياتية لبعض النساء. أستشهد هنا، كمثال، بحقّ المرأة اللبنانية في التصويت (١٩٥٢)، وبحقّ المرأة اللبنانية المسيحية في الميراث المتساوي (١٩٥٩)، بالإضافة إلى بعض الإصلاحات القانونية الطفيفة، التي إن كان لها تأثير في ذلك، فإنّهُ كان متواضعًا في المُساهَمة في تحوّل التجارب الحياتية للنساء والفتيات.[٣] تتميّز هذه الفترة أيضًا بكثيرٍ من الاستشهاد والاقتباس من نساء برزن في مجالات عمل مُحدَّدة، وتركن علامات فردية ودائمة، وهنا أستشهد، على سبيل المثال، بعمل عنبرة سلام الخالدي (١٨٩٧-١٩٨٦) في الترويج لتعليم الفتيات، وأنيسة نجّار (١٩١٣-٢٠١٦) في التأكيد على أهمّية سبل العيش والنشاط الاقتصادي للنساء الريفيّات على وجه التحديد، ومنيرة الصلح (١٩١١-٢٠١٠)، وزلفا شمعون (١٩٠٠-١٩٨٧) في تقديم الخدمات للأطفال المعوقين، ومي عريضة (١٩٢٦-٢٠١٨)، وسلوى روضة (١٩١٦-٢٠١٧) في قيادة الدَّورينِ الثقافي والفني، بالإضافة إلى دور مهنة المحاماة الريادية، ولور مغيزل (١٩٢٩-١٩٩٧) التي استمرّ تأثيرُها في القضايا النسوية طوال الحرب، وحتى وفاتها في العام ١٩٩٧. ليست هذه اللائحة شاملةً، بالطّبع، ولكنّها تسعى إلى تسليط الضوء على الطرق التي أدّتِ النّساءُ مِن خلالِها أدوارًا مهمّة خلال تلك الحقبة، أقلّه عبر إظهار ما أُشِيرَ إليه في معظم الخطابات المحافِظة على أنه «قضية المرأة» ("the woman question").

وفي حين ترك كلٌّ من أولئِكَ النساء علامة فارقة في المجالات التي كانت إمّا غير موجودة أَمْ محصورة بالرجال، بَيدَ أنَّ إرثهنَّ يبقى شخصيًّا، وَينطوي غالِبًا على مصالح فردية، ويتأثّر بأوضاعهنَّ المادية والاجتماعية، وهي عوامل زوّدتهنَّ بالتميّز، و بإمكانيّة الحضور وإسماع أصواتهنَّ في المجال العام.

أخيرًا، شهدت تلك الحقبة إنشاء أولى «المنظّمات النسائية» القائمة حتّى اليوم، وهي رابطة حقوق المرأة اللبنانية (١٩٤٧) التي كانت، وما تزال، تابعة للحزب الشيوعي اللبناني، ومن ثمّ مجلس المرأة اللبنانية (١٩٥٢) الذي شكّل مظلّة للمنظّمات النسائية الخيرية بما فيها الدينية، والمنظّمَات المرتبِطة بالجماعات السياسية.[٤] وَسوف تُجدّد كِلتا المنظّمتين نشاطها في التسعينيات، ومعظمها في خضم الاستعدادات لمؤتمَر بكين في العام ١٩٩٥.

سنوات الحرب الأهلية: الانخراط في أعمال الإغاثة الطارئة، ومحاوَلات صُنع السلام

خلقت سنوات الحرب الأهلية تكيُّفًا مع وضع جديد، يسوده العنف، والانقسامات، وانعدام القانون. وعلى الرَّغم من تلك الفترة المُضطرِبة والمُدمِّرة، كان نشاط المنظّمات النسائية بارزًا إلى حدّ ما؛ ففي وقت مُبكِّر، تشكّل عدد من المنظّمات النسائية الجديدة،

3. Zeina Zaatari, "Women's Rights in the Middle East and North Africa - Lebanon," UNHCR (Freedom House, 2005), https://www.refworld.org/docid/47387b6c2f.htm.

4. "Women's Movements in Lebanon," Civil Society Knowledge Centre, accessed February 10, 2021, https://civilsociety-centre.org/gen/women-movements-timeline/4938#event-_1920s-womens-union-established-in-lebanon-and-syria.

لا سيّما التجمع النسائي الديموقراطي اللبناني (١٩٧٦)،[٥] وجمعية النجدة الفلسطينية (١٩٧٦)،[٦] كما شكّلت الأحزاب السياسية والميليشيات أيضًا أنواعًا مختلفة من «الفروع النسائية» ضمن تنظيماتها، والتي تحوّلت لاحقًا إلى منظّمات مُسجَّلة تُعرَف باسم الجمعية اللبنانية لحقوق الإنسان. وقد شهدت تلك الفترة أيضًا ظهور إحدى أوائل المنظّمات الحقوقية الداعية إلى إنهاء الحرب وإحقاق السلم الأهلي بقيادة لور مغيزل،[٧] التي يمكن أن يُنسب إليها كثيرٌ من الإصلاحات في نصوص القوانين التي أُقرّت قبل الحرب.

وبالنسبة إلى كثيرٍ من هذه المنظّمات، ووفقًا للعديد من الاتصالات والشهادات الشخصيّة التي جمعتها على مرّ السنين، كانت الأولوية قبل أيّ شيء لتلبية الاحتياجات الإنسانية للسكّان المُتضرّرين، خصوصًا النساء. لذلك، فإنَّ المنظّمات التي أُنشِئت بالاستناد إلى اهتمامها بحقوق النساء وانخراطها في هذا النّضال، مثل المنظّمَتَين المذكورتَين أعلاه، رأت نفسها غارقة في أعمال الإغاثة، بما في ذلك توزيع المواد الغذائية والضروريات الأساسية، وتوفير المأوى، والمساهمَة في توليد دخل للنساء على المدى القصير، وتوفير الخدمات الأساسية الأُخرى مثل تعليم الأطفال الصغار، والحصول على الخدمات الصحّية الأساسية.

وعلى الرَّغم من الكتابات الوفيرة التي ميّزت تلك الفترة، وخطّها المؤلِّفون والباحثون المحلّيون والدوليون، لم يُسجَّل سوى القليل من التجارب التي عاشتها النساء خلال الحرب الأهلية اللبنانية الطويلة والوحشية. لذلك، لا نملك سوى القليل من البيانات أو الحسابات التي نعتمد عليها في محاوَلة فهم الطرق التي تغيّرت بها أدوار النساء، خصوصًا مع زيادة عدد المعيلات منهنّ لأسرهنّ، ومعاناة النساء، وتعاملهنّ مع صدمة الحرب، وكيفية تفاوضهنّ مع عائلاتهنّ ومجتمعاتهنّ بشكل عام، وأشكال العنف التي تعرّضن لها في المجالين الخاص والعام. بالتالي، لا تزال التجارب النساء الفعلية المَعيشة خلال الحرب غير مُكتشَفة، باستثناء بعض الشهادات المُتفرّقة لمقاتِلات سابقات في صفوف الميليشيات اليمينية المُتطرّفة (مثل ماري قصيفي، وجوسلين خويري)، بالإضافة إلى قصص النساء المقاتِلات ضمن الفصائل الفلسطينية المُختلفة، وسيرة المقاتِلة والسجينة الشيوعية السابقة سهى بشارة، في حين لم يُتَطَرَّقْ حتّى الآن إلى روايات النساء والفتيات العاديات خلال الحرب، باستثناء مذكّرات «شتات بيروت» لجين سعيد مقدسي الصادرة في العام ١٩٩٠ بعد انتهاء الحرب مباشرَةً،[٨] والتي ربّما تكون إحدى المذكّرات القليلة المكتوبة والمنشورة.

العام ١٩٩٠ وما بعده: التعامل مع مرحلة ما بعد الحرب، تغيير العقلية، وتحديد معنى «التعافي»

لقد اخترت عمدًا استخدام مصطلَح «ما بعد الحرب» بدلًا من السلام. في الواقع، إنَّ الأحداث الأخيرة في العامين ٢٠١٩ و٢٠٢٠، بالإضافة إلى التطوّرات التي شهدناها خلال العقود الثلاثة الماضية التي عقَبت نهاية الحرب الأهلية، تشير بوضوح إلى أنَّ المَدافع هدأت مُوَقَّتًا على الأقلّ، لكنَّ الفترة التي تَبِعَتها، لا يمكن عَدُّها فترة «سلام» على الإطلاق.

ومع انتهاء الحرب رسميًّا في العام ١٩٩٠ وتبنّي اتفاق الطائف، بدأت حقبة جديدة، خصوصًا بالنسبة إلى الجماعاتِ والمنظّمات النسائية. في الواقع، تغيّر العالَم خلال فترة الحرب، عندما اضطرّت النساء والمجموعات إلى المُشارَكَةِ في عمليّات الطوارئ والإغاثة، وكانَ الأهمّ البقاء على قيد الحياة. أمّا في العصر الجديد، فتمّ تجاهُل كُلٍّ من التعافي والتفهّم والتعلّم، لصالح المضي قدمًا، وإعادة الإعمار، والتطلّع إلى المستقبل.

على الرّغم من ذلك، سوف أسلّط الضوء على السمات الرّئيسة للحركة النسوية في التسعينيات. وفي حين قد تكون هذه السمات الخاصّة واقعية، إلّا أنَّ تفسيرها واستخدامها لبناء صورة عن ذلك العقد، هُما أكثر من محاوَلة ذاتية وفردية؛ إنّني أرى هذه اللحظات كتجارب شخصية معاشة، وبالتالي قد تكون الطريقة التي أفسّرها بها حاليًّا مختلفة مِنَ التفسير الذي اعتمدته في ذلك الوقت، لكنّها تستفيد بالتأكيد من الميزة الثمينة للإدراك المتأخّر، ومع ذلك يبقى هذا التفسير شخصيًّا جدًّا.

5. "About Us," Lebanese Women Democratic Gathering, accessed February 10, 2021, https://www.rdflwomen.org/eng/about-us/.

6. "About Us," Palestinian Najdeh Association, accessed February 10, 2021, https://association-najdeh.org/en/about-us/.

7. Zeina Antonios, "International Women's Day: Three Lebanese Pioneers Who Paved the Way," L'Orient Today, March 8, 2019, https://www.lorientlejour.com/article/1160742/international-womens-day-three-lebanese-pionners-who-paved-the-way.html.

8. Jean S. Makdisi, Beirut Fragments: A War Memoir (New York: Persea Books, 1990).

اتفاق الطائف: اتفاق بين الرجال في السلطة

تمّ التوصّل إلى اتفاق الطائف الذي يشار إليه أيضًا بالمصالحَة الوطنية، بعد سلسلة من المفاوَضات بين أمراء الحرب والقادة السياسيين، وتوِّج بتوقيعه في مدينة الطائف في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٩، قبل المصادَقة عليه في البرلمان في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٩،[٩] وعلى الرَّغم من أنَّ قرار مجلس الأمن الدولي ١٣٢٥ لن يرى النور إلّا بعد عشر سنوات، لكنَّ اتفاق الطائف يُعدُّ مثالًا على الغياب التام للنساء عن المناقَشات التي دارت حول نهاية الصراع، وشروط بناء السلام، ومرحلة إعادة الإعمار والتعافي، إذ لم يُعثَر على أيّ جدول أعمال نسوي ونسائي في هذه النقاشات، التي تبيّن أنه لم يكن لها أيّ تأثير في تحسين حياة النساء والفتيات وتجاربهنّ. تفاقم هذا الإغفال الخطير مع صدور قانون العفو اللبناني في العام ١٩٩١ (القانون ٩١/٨٤) الذي برّأ عناصر الميليشيات (الرجال بشكل أساسي) من جرائم الحرب التي ارتكبوها، وقضى بدمجهم ضمن القوّات المُسلحة النظامية في البلاد،[١٠] ما أدّى إلى جَهْل مدى استخدام الميليشيات المُسلّحة للاغتصاب كسلاح حرب خلال تلك الفترة، إذ لا توجد سوى بعض الروايات والشهادات غير المُنتظمة لبعض الناجيات الخائفات من التوسّع في القضية، نظرًا إلى عدم إمكانيّة الوصول إلى أيّ شكل من أشكال العدالة. إلى ذلك، يتبيّن في عدد من الاتصالات الشخصية التي جمعتها أنَّ النساء تحمّلن صدمة الاعتداء الجنسي طوال حياتهنّ، وفي الوقت نفسه كنَّ يخشين وصمة العار، ومن أيّ مُواجَهة عَرضيّة مع مغتصبيهنّ الذين ما زالوا أحرارًا طلقاء بعد استفادتهم من قانون العفو المشؤوم بعد الحرب. في الواقع، كان المطلوب في حينها إغلاق فصل الحرب، وإفقاد الناس ذاكرتهم حتى لو أدّى ذلك إلى عدم الاعتراف بالأشكال المختلفة للعنف الجسدي والجنسي الذي عانته النساء في أجزاء كثيرة من البلاد. وفي الحقيقة، إنّ كمّ الأفواه وصمّ الآذان عن معاناة النساء في أثناء الحرب، ليسا إلّا صدمة سوف نحملها جماعيًّا منذ التسعينيات وحتّى اليوم.

تحوُّل العنف ضدّ النساء إلى قضية عامّة وسياسية

شكّل تأطير خطاب العنف ضدّ النساء بِعَدِّهِ قضية نقاش في المجال العام، وإلقاؤُهُ للمرّة الأولى ربّما، إحدى نقاط التحوّل الرّئيسة في التسعينيات، حيث عُدَّ ذلك اختراقًا مهمًّا ومثيرًا للسخرية في آن معًا، نظرًا إل أَنَّ العنف الَّذِي تعرّضت له النساء خلال الحرب في المجالين الخاص والعام لم يكن موضع نقاش واهتمام. كانت فترة التسعينيات من القرن الماضي مهمّة، لأنها شهدت على تشكيل المنظَّمة النسائية الأولى المعنية بمكافحة العنف ضدّ النساء، وبتجريمه، وهي المجلس اللبناني لمقاوَمة العنف ضدّ المرأة، الذي أنشِئ في العام ١٩٩٦ بعد سنوات عديدة من النشاط العام، والتعبئة، والمشارَكة الإعلامية.[١١] كان ردّ الفعل عنيفًا آنذاك، إذ رفض العديد من شرائح المجتمَع إمكانيّة تحوُّل الموضوع إلى قضية حوار اجتماعيّ، حَيثُ كان يُنظَر إلى العنف المنزلي والاغتصاب الزوجي على أنهما أمرانِ مَحصُورانِ في داخل الحدود المقدّسة للمجال الخاص. وقد تكون النسويات الرائدات مثل زويا روحانا وإقبال دوغان من أوائل من تحدثنَ علنًا عن واجب الدولة في حماية النساء من العنف، لا سيّما في المجال الخاص، والحاجة إلى سنّ قوانين مدنية، وبالتالي تحرير المجال الخاصّ من رقابة القوانين الدينية وإشرافها. في الواقع، استغرق الأمر أكثر من عقدين، بالإضافةِ إلى نضال مستمرّ يعود إلى التسعينيات،[١٢] لصدور قانون لحماية النساء من العنف الأسري الذي تضمّن مع ذلك ثغرات خطيرة (القانون ٢٩٣ في العام ٢٠١٤).

وعلى الرَّغم من النواقص الّتي تعتريه، يشكّل القانون ٢٩٣ انعكاسًا لنشاط نسوي صلب، ومستمرّ، وحازم تبلور وتشكّل في بداية التسعينيات. في الحقيقةِ، إنَّ ما دفع بعض الناشطات النسويات إلى اتخاذ موقف من هذه القضية وتحويلها إلى نضال يطبع حياتهنّ، هو أمر يتطلّب تحقيقًا جادًّا، ويستحقُّهُ. ونشيرُ هنا إلى شهادة إحدى الناشطات النسويات في ذلك العقد، والمتمثِّلة في قَولِها: «لقد علمنا أنّ الجميع تقريبًا سيكون ضدنا... السياسيون، والناس ... ووسائل الإعلام ... حتّى زميلات من الناشطات في مجال حقوق النساء ... لكن كان علينا أن ننكز الشيطان... لأنّ النساء يعانين بشكل يومي... ويجب أن يتوقّف ذلك».

9. Faten Ghosn and Amal Khoury, “Lebanon after the Civil War: Peace or the Illusion of Peace?,” Middle East Journal 65, no. 3 (2011): pp. 381-397, https://doi.org/https://www.jstor.org/stable/23012171.

10. “Lebanon: Human Rights Developments and Violations”, Amnesty International, accessed February 10, 2021, https://www.amnesty.org/download/Documents/164000/mde180191997en.pdf.

11. “About Us,” Lebanese Council to Resist Violence Against Women, accessed February 10, 2021, http://www.lecorvaw.com/index.php/en/about/about-us.

12. “Lebanon: Domestic Violence Law Good, but Incomplete,” Human Rights Watch, accessed February 10, 2021, https://www.hrw.org/news/2014/04/03/lebanon-domestic-violence-law-good-incomplete.

إنَّ التفكير في أسباب وفي كيفية حدوث هذا الاختراق المهمّ في أوائل التسعينيات، والذي حوّل قضية العنف ضدّ النساء إلى المجالين العام والسياسي، يتطلّب تحليلًا مُعمّقًا للتأثير المشترك لكلّ من مؤتمَر بكين في العام ١٩٩٥ (التفاصيل في القسم أدناه)، ونهاية الحرب، وتوافر مساحة للعمل المدني، وفتح العلاقات مع النسويات في أنحاء المنطقة شتّى، وكذلك على الصعيد العالمي.

وفيما نفكّر في النقاشات الدائرة في العام ٢٠٢٠ حول قضايا الاغتصاب الزوجي، والتحرّش الجنسي، والرضا، والعنف ضد العاملات في الجنس، والعاملات المهاجِرات، واللاجئات، والنساء المثليات، ومزدوجات الميل الجنسي، والمغايرات في الهُويَّة الجنسانية، وجميع النساء والفتيات، من المهم أن نتذكّر أن تطوّر هذه المناقَشات ونضجها، لم يكونا مُمكِنَينِ، ربّما، لولا هذه اللحظات التاريخية في أوائل التسعينيات وما بعدها.

تغيير طرق العمل، ووضع جدول أعمال واسع للإصلاح، والتحوّل الديموقراطي

نظرًا إلى ضعفِ أدوارهنّ وتأثيراتهنّ، سواء كمحرِّك أم كمستثير، خلال فترة الحرب، أصبحت الناشطات النسويات والمنظَّمات النسوية في التسعينيات أكثر وضوحًا، وأضحَتْ أصوات أولئك النّاشطات مسموعةً؛ فبالنسبة إلى الكثيرين/ات، بشّرتِ التسعينيات بإقفال النشاطات على خمسة عشر عامًا قضينها في العمل الإغاثي والإنساني. وقد تكون الاستراتيجيّات المُستخدَمة مختلِفة، وغالبًا متناقِضة، لكن مع ذلك حدّدت معظم الناشطات النسويات كُلًّا من الضغط السياسيّ، والانخراط في الحياة السياسية، والتأثير في وسائل الإعلام وتنظيم الحملات، في كونها أكثر أشكال النشاط المُمكن استخدامها فاعليّةً.

بالاستفادة من الإدراك المتأخّر، من السهل انتقاد هذه الأساليب والافتراضات الكامنة وراءها. في الواقع، كما هو الحال مع حركات ذوي الإعاقة والحركات البيئية الناشئة، اختارت معظم الناشطات النسويات الانخراط ضمن أجهزة الدولة، وتحديدًا الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية، للضغط من أجل إقرار إصلاحات قانونية تضع الدولة أمام مسؤوليتها تجاه النساء والفتيات، علمًا أنهنَّ انخرطنَ كنظير لهذا الجهاز العام، ومن موقعهنَّ كصاحبات حقوق شرعيات ينظرن إلى حقوق النساء كجزء لا يتجزأ من الإصلاح والتعافي بعد الحرب. إلى ذلك، أبرزت النسويات مطلبَين يُعَدَّانِ مِنَ السِّماتِ الضّروريّةِ للبنان حديث وعلمانيّ بعد الحرب، وهما: إصلاح قوانين الأحوال الشخصية، ومشارَكة النساء في الحياة السياسية.

وفي محاوَلة لتغطية الطلب على قوانين الأحوال الشخصية المدنية، اختارت فئة من الحركة النسوية تأييد إقرار «الزواج المدني الاختياري»،[١٣] ومناصرته. وعلى الرّغم من تقليل حدّة هذا المطلب، فضلًا عن كونه غير مهمّ ولا معنى له، إلّا أنه أثار غضب المؤسَّسات الدينية التي دعت أتباعها إلى النزول إلى الشوارع دفاعًا عن الدين، ولمناهَضة علمنة المجتمَع. وحتى الآن، لم يقرّ أيّ قانون متكافئ للأحوال الشخصية، لكنّ التعبئة التي خيضَتْ حوله في التسعينيات، قد تكون ما جعلته حتى اليوم مطلبًا رَئيسًا للعديد من المنظَّمات النسوية المستقلّة.

مؤتمر الأمم المتّحدة الرابع المعنيِ بالنساء (بكين ١٩٩٥)

لا يمكن المبالَغة في إعطاء أهمّية للضجيج والإثارة اللذين خلقهُما مؤتمَر الأمم المتّحدة الرابع المعني بالمرأة، وللتأثير المضاعف الذي أحدثه. ومع حلول العام ١٩٩٣، أبدى كلٌّ من الحركة النسائية والدولة اللبنانية مصلحة في المشارَكة الفعّالة، في حدث كان يعد بأن يكون ذا أهمية من حيث الحجم والتأثير. وبعد عملية تنسيق وتشاور طويلة، قُدِّمَ تقرير مشترك بين الدولة والمنظَّمات غير الحكومية إلى مؤتمَر بكين. وعلى الرّغم من كونها حالة غريبة، لكنّ الدولة تفاخرت بها بعدِّها إنجازًا إيجابيًّا. مع ذلك، لم يتكرّر الأمر مرّة أخرى، إذ أظهر الجهاز الرسمي المعني بشؤون المرأة الذي تأسّس بعد مؤتمر بكين (التفاصيل في القسم التالي) ميلًا ورغبة مَحدودَين في الانخراط بشكل هادف في المجتمَع المدني المستقل، وبالتالي، تبني خطاب أقل تحفُّظًا.

13. “Lebanon: Laws Discriminate Against Women,” Human Rights Watch, accessed February 10, 2021, https://www.hrw.org/news/2015/01/19/lebanon-laws-discriminate-against-women.

بالإضافة إلى ذلك، كان الدمج بين المناصب الرسمية ومناصب المجتمَع المدني المُتعلّقة بحقوق النساء حالة شاذّة بالفعل، وعكَس انطباعًا عَنْ غياب منظَّمات نسائية مُستقلّة (غير مرتبِطة بالدولة). لكن مع ذلك، كما أوضحنا سابقًا، كان لمؤتمَر بكين تأثير بعيد المدى ومستمرّ حتّى اليوم.

وفّرتِ النشاطات الحيوية استعدادًا لتنظيم المؤتمَر العام والمؤتمر الإقليمي التحضيري في عمان في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤، وشكّلَتْ فرصة مهمّة للناشطات والجماعات النسوية اللبنانية لبناء روابط مع أخوات من المنطقة، وللتّواصُل مَعَهُنَّ، وهو ما كان شبه مستحيل بالنسبة إليهِنَّ خلال الحرب، وكان محصورًا بالأحزاب السياسية فحسب. في الواقع، ظهرت أساليب عمل جديدة تكمن في إنشاءِ شبكات إقليميةِ نسوية، حيث أدَّتِ المنظَّمات النسوية اللبنانية دورًا مهمًّا في تشكيل رؤيتها ونشاطاتها، وقد تكون من أهمّها محكمة النساء العربية، وهي عبارة عن شبكة من المنظَّمات النسوية العربية (ومعظمها علماني ومستقل) التي تركّز على قضية العنف ضد النساء. نظّمتِ الشبكة عددًا من جلسات الاستماع الّتي تضمّنت شهادات لضحيّات العنف المنزلي ولناجيات منه، أمّا جلسة الاستماع التي نُظِّمت في بيروت قبل ثلاثة أشهر فقط من انعقاد مؤتمَر بكين (حزيران/ يونيو ١٩٩٥)، فقد كانت الأولى من نوعها، وفيها تحدّثت النساء عن تجاربهنَّ الخاصّة في التعايش مع عنف الشريك، فيما انتقد البيان الختامي تقاعُس الدول العربية عن مسؤوليّاتها تجاه النساء، وعدم اتخاذها الإجراءات المناسِبة المتعلّقة بالإصلاحات القانونية والحماية.

على الرّغم من أنّ محكمة النساء العربية لم تعد موجودة، إلّا أنَّ إنشاءَها كجزء من الاستعدادات لمؤتمَر بكين، شكّل نقطة تحوُّل قويّة في جعل العنف ضد النساء قضية رَئيسة، يُفترض بالحركة النسوية معالَجتها. خلق مؤتمَر بكين مساحاتٍ وفرصًا إضافية للتعاون الإقليمي، ولمعالَجة القضايا الحسّاسة المهمّة للحركة النسوية، والتعلّم من الحركة النسوية العالمية، والوصول إلى الموارد، وتجميع البيانات والبحوث والحجج، والتخطيط الاستراتيجي بعد مؤتمَر بكين.[١٤]

الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية، أو بداية مشارَكة الدولة

في العام ١٩٩٨، وضع القانون ٧٢٠ إطارًا لإنشاء الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية؛[١٥] في البداية كان يُنظر إليها على أنها جهاز تابع للدولة، يعمل كحلقة وصل بينها وبينَ المجتمَع المدني، ويعزّز صوت هذا المجتمَع، ويؤثّر في قرارات الدولة لتصبّ في صالح حقوق النساء، ويحرص أيضًا على تنفيذ اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد النساء (سيداو).[١٦] مع ذلك، تحوّلتِ الهيئة بسرعة إلى جهاز آخَر للدولة، يعكس إلى حدّ كبير تكوين النظام السياسيّ، ويهتم بالحفاظ على الوضع الراهن.

فور إنشائها، وما إنِ اتخذت شكلها الحالي بعد مؤتمَر بكين في العام ١٩٩٥، سارعت الهيئة إلى إثبات عدم استعدادها أو رغبتها في خوض المعارك الرئيسة من أجل حقوق النساء في لبنان، حيث ابتعدت استراتيجيًّا مِنْ معالَجة أيٍّ من القضايا الرئيسة التي قد تُحدث فرقًا في حياة النساء، والتي تأطّرت في التسعينيات، أي حول إصلاحات قانون الأحوال الشخصية، ومكافحَة جميع أشكال العنف ضدّ النساء، ورفع التحفّظات شتّى عن اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضدّ النساء.
في العديد من الاجتماعات، أشارت عضوات الهيئة الوطنية لشؤون المرأة، المعيَّنات من رئيسَي الجمهورية والحكومة، بوضوحٍ إلى وجود بعض «القضايا الحسّاسة»؛ على سبيل المثال، خرج إصلاح قوانين الأحوال الشخصية عن نطاق اختصاص الهيئة، حيث لا يمكن مناقَشته إلّا من قبل «الرؤساء الثلاثة» (أي رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ورئيس مجلس النوّاب). لقد استغرق الأمر نحو ثلاثة عقود حتى يتحوّل خطاب الهيئة قليلًا، ليتبنّى بعض القضايا بشكل انتقائي، مثل الإصلاحات الجزئية لقوانين العمل، وقانون العقوبات، والعنف ضد النساء، وزواج القاصرات، وغيرها من المطالب المُحدَّدة التي ما زالت جزئية، في حين تستمرّ الهيئة في ادّعاءِ تحقيق انتصارات وهمية. في الحقيقة، لا يزالُ بعض القضايا مُصنَّفًا ضمن المحرَّمات، مثل حقوق المثليين والمثليات والعابرات والعابرين جنسيًّا، وعلمنة قوانين الأحوال الشخصية، ورفع التحفُّظات عن اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد النساء، والمساواة الكاملة في منح الجنسية.

14. Lina Abou-Habib et al., "Introduction: Gender, Development, and Beijing +25," Gender & Development 28, no. 2 (2020): pp. 223-237, https://doi.org/https://doi.org/10.1080/13552074.2020.1766288.
15. "Law of NCLW," The National Commission for Lebanese Women, accessed February 10, 2021, https://nclw.gov.lb/en/nclw-law/.
16. "Convention on the Elimination of All Forms of Discrimination against Women." OHCHR, accessed February 10, 2021, https://www.ohchr.org/en/professional interest/pages/cedaw.aspx.

ومع بروز الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية واكتسابها موارد كبيرة في التسعينيات، بدأت تظهر أيضًا علامات تذكِّر بحالِ الحركة النسوية في العديد من البلدان المجاوِرة، والتي تتضمّن على سبيل المثال الافتقار إلى الشفافية والمساءَلة تجاه النساء والمنظَّمات النسوية المُستقلّة، والمنافَسة الشديدة للحصول على التمويل من المنظَّمات متعدّدة الأطراف، وثنائية الأطراف، والمنظَّمات الدولية، وأيّ مؤسَّسة مانحة أخرى، والاختيار الانتقائي للقضايا التي يفترض معالَجتها، والتمثيل الرسمي الشامل في المَحافل الدولية، مع تهميش أيّ وجود أو تمثيل أو صوت لمنظَّمات المجتمَع المدنيّ المستقلّة. في الواقع، يمكن القول بثقة تامّة إنّ هذا الوضع لا يزال سائدًا حتى اليوم.

التصديق على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضدّ النساء ١٩٩٧ ... لكن ... مع تحفُّظات كبيرة

صادق مجلس النواب على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضدّ النساء (سيداو، ١٩٧٩) في العام ١٩٩٧،[١٧] لكن إدراكًا لمصَالح المؤسَّسات الدينية والطائفية، أبدى المجلس تحفُّظاتٍ كثيرةً على الاتفاقية، ترتبط بشكل أساسي بقوانين الأحوال الشخصية، والحقّ في منح الجنسية، والحقّ في اختيار اسم العائلة. في ذلكِ الوقت، كان مجلس النوّاب يضمّ امرأة واحدة وهي «نايلة معوَّض» التي عبّرت عن دعمها لحقوق النساء في لبنان، وهي زوجة رئيس الجمهورية السّابِق المُغتال رينيه معوض، والتي أصبحت في ما بعد المرأة الأولى التي تترشّح لرئاسة الجمهورية في العام ٢٠٠٨.

في مؤتمَر لاحق في الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٩٧)، أشارت معوّض إلى أنها أدَّتْ دورًا أساسيًّا في التصديق على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضدّ النساء في مجلس النواب اللبناني، مشبِّهةً أسلوبها بحصان طروادة، ومُشيرةً إلى أنها استخدمت حيلة بالسرّ قضت بتسلّل هذه الاتفاقية إلى جدول أعمال الدورة، من ثمّ التصديق عليها من دون امتلاك زملائها أيّ معرفة معمَّقة حولها. تحدّت إحدى المحاميات النسويات المعروفات في التسعينيات معوّض على الفور، وردّت قائلة: «سيدتي النائبة، كان لدى اليونانيين خطّة عندما اعتمدوا حيلة حصان طروادة... فما كانت خطّتك أنتِ؟ ماذا ستفعلين الآن؟ كيف سوف ترفعين التحفّظات عنها؟ كيف ستجعلين الاتفاقية عملية وذات مغزى بالنسبة إلى النِّساء؟» (مذكّرات شخصية وتسجيلات، ١٩٩٧).

حتى هذا التاريخ، لا تزال التقارير الرسمية التي قدّمتها الحكومات اللبنانية المُتعاقِبة إلى اجتماعات لجنة سيداو الدورية في جنيف بعيدة كثيرًا مِنَ الواقع الذي تعيشه النساء في لبنان، ولكنّها في الوقت نفسه تفتخر بتحقيقها إنجازات وهمية. في الواقع، أتت مساهَمة النسويات في التسعينيات، على الرّغم من التوتّرات والتشرذم، للمطالَبة بالاتفاقية كإطار للمساواة بين الجنسين، وأيضًا بحيّز وصوت كبيرين خلال اجتماعات لجنة سيداو في جنيف، لتقديم سرد مُضاد غالبًا ما يُستخدم كأساس لمساءَلة الدولة اللبنانية، في ما يتعلّق بأدائها في جعل اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد النساء حقيقة واقعة ومنفَّذة.

17. "Submission to the Committee on the Elimination of Discrimination against Women on Lebanon," Human Rights Watch, accessed February 10, 2021, https://www.hrw.org/news/2020/11/04/human-rights-watch-submission-committee-elimination-discrimination-against-women.

تاريخ النساء والنسوية في لبنان: قصة لم تُكتب بعد

قد نحتاج إلى الاستسلام لفكرة صعوبة جمع قصّة الحركة النسائية في لبنان، وتوحيدها، وإعادة بنائِها، هذا إنْ لَمْ يَكُنِ الأمرُ مُستحِيلًا. لا شكّ في أنَّ جزءًا من هذا التاريخ اختفى، وهناك بالفعل ندرة في المواد الأرشيفية الّتي مِنَ الممكن الوصول إليها، فضلًا عن أنَّ معظم الشخصيات الرّئيسة غاب عن عصرنا. من هنا، أعتقد أنَّ التسعينيات ربّما تكون مكانًا جيّدًا، إن لم يكن الأفضل، للبدء بهذه السردية. في الحقيقةِ، لا تزال الكثيرات من الناشطات النسويات اللواتي أطّرن سرديات تلك الفترة غير الاعتيادية ونضالاتها، وصغنها أيضًا، حاضراتٍ، كما ما بَرِحَتِ الكثيرات منهنّ ناشطاتٍ بشكل أم بآخَر. بالإضافة إلى ذلك، وكما حاولتُ أن أوضح في القسم السابق، تميّزت تلك الفترة بحركات تعبئة متنامية، واتصالات إقليمية وعالمية، فضلًا عن ظهور قضايا جديدة مهمّة وطرق عمل حديثة وغير تقليدية. وبالتالي، سوف يكون مثيرًا للاهتمام زيادة البحث والتساؤل والتفكير حول التحوّلات والاختراقات المختلفة التي تحقّقت على الرّغم من عيوب الحركة النسوية في التسعينيات، وذلك بعدما ركّز العديد من الباحثين على الانقسام، والتوتُّر، والمنافَسة في داخل هذه الحركة في تلك الفترة.

الشخصيّ هو سياسيّ

عند كتابة هذا المقال القصير، كنت مُدرِكةً تموضعي الخاص وعلاقاتي الحميمة بهذا العقد المُحدَّد. في الواقع، تمثّل أواخر الثمانينيات تحوُّلًا في مساري المهني من الأوساط الأكاديمية إلى النشاطَين النسويّ والاجتماعيّ. كنت من بين الذين/اللّواتي شهدوا/نَ على عقد ما بعد الحرب، وكانت لديهم/نَّ روابط شخصية قوّية ووثيقة، وتاريخ مع الكثيرات من النسويات في تلك الفترة، وأيضًا من الذين/اللّواتي شاركوا/نَ في العديد من الأحداث التي شكّلت تلك الفترة. أدرك، إذًا، أنَّ الأمر أثّر في تحليلي وسرديتي المُختَصَّينِ بتلك الفترة، وفي الطرق التي أفسِّر بها روايات الآخَرين وكتاباتهم.

في الواقع، ينبع اهتمامي بالمشارَكة في هذا المقال من رغبتي في المساهَمة في إعادة بناء ماضينا النسويَ المُعاصِر، وفهم الترابط المحلّي والإقليمي والعالمي المُعقَّد، والتأمّل في تاريخنا النسوي، ومعالمه الرئيسة، ونقاط التحوّل فيه.
وإذا نظرنا إلى ما عنته الحركة النسوية سابقًا، وإلى ما سوف تعنيه مستقبَلًا، فمن المرجَّح أن تستمرّ في توجيه مسيرتي النسوية في أثناء احتفالي بالتعلّم، والفشل، والإنجازات.

Abou-Habib, Lina, Valeria Esquivel, Anne Marie Goetz, Joanne Sandler, and Caroline Sweetman. “Introduction: Gender, Development, and Beijing +25.” Gender & Development, Beijing +25, 28, no. 2 (2020): 223–37. https://doi.org/https://doi.org/10.1080/13552074.2020.1766288.

Antonios, Zeina. “International Women’s Day: Three Lebanese Pioneers Who Paved the Way.” L’Orient Today, March 8, 2019. https://www.lorientlejour.com/article/1160742/international-womens-day-three-lebanese-pionners-who-paved-the-way.html.

Civil Society Knowledge Centre, “Women’s Movements in Lebanon.” Accessed February 10, 2021, https://civilsociety-centre.org/gen/women-movements-timeline/4938#event-_1920s-womens-union-established-in-lebanon-and-syria.
Human Rights Watch, “Lebanon: Domestic Violence Law Good, but Incomplete.”, Accessed February 10, 2021, https://www.hrw.org/news/2014/04/03/lebanon-domestic-violence-law-good-incomplete.

Human Rights Watch, “Lebanon: Laws Discriminate Against Women. Accessed February 10, 2021, https://www.hrw.org/news/2015/01/19/lebanon-laws-discriminate-against-women.
Human Rights Watch, “Submission to the Committee on the Elimination of Discrimination against Women on Lebanon.” Accessed February 10, 2021, https://www.hrw.org/news/2020/11/04/human-rights-watch-submission-committee-elimination-discrimination-against-women.

Ghosn, Faten, and Amal Khoury. “Lebanon after the Civil War: Peace or the Illusion of Peace?” Middle East Journal 65, no. 3 (2011): 381–97. https://doi.org/https://www.jstor.org/stable/23012171.

Lebanese Council to Resist Violence Against Women, “About Us.” Accessed February 10, 2021, http://www.lecorvaw.com/index.php/en/about/about-us.

Lebanese Women Democratic Gathering, “About Us.”. Accessed February 10, 2021, https://www.rdflwomen.org/eng/about-us/.
Makdisi, Jean S. Beirut Fragments: A War Memoir. New York: Persea Books, 1990.

National Commission for Lebanese Women, “Law of NCLW.” Accessed February 10, 2021, https://nclw.gov.lb/en/nclw-law/.
OHCHR, “Convention on the Elimination of All Forms of Discrimination against Women.” Accessed February 10, 2021, https://www.ohchr.org/en/professional interest/pages/cedaw.aspx.

Palestinian Najdeh Association. “About Us.” Accessed February 10, 2021, https://association-najdeh.org/en/about-us/.
Rep. Lebanon: Human Rights Developments and Violations. Amnesty International, 1997. https://www.amnesty.org/download/Documents/164000/mde180191997en.pdf.

United Nations, “Fourth World Conference on Women, Beijing 1995.” Accessed February 10, 2021, https://www.un.org/womenwatch/daw/beijing/fwcwn.html.

Zaatari, Zeina. “Women’s Rights in the Middle East and North Africa - Lebanon.” UNHCR. Freedom House, 2005. https://www.refworld.org/docid/47387b6c2f.html.

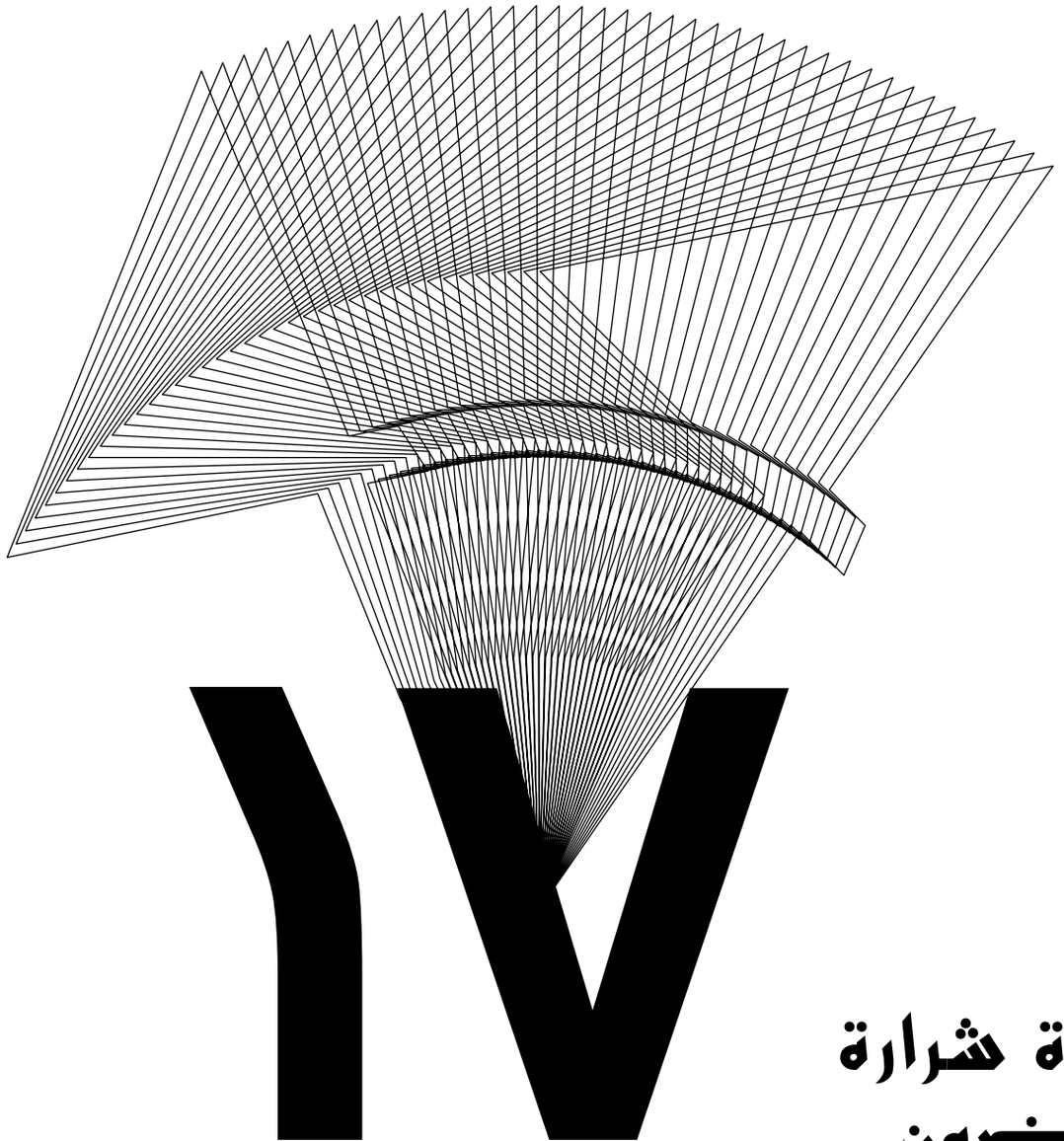

عزّة شرارة بيضون

أستاذة سابقة في الجامعة اللبنانية في قسم علم النفس، عضوة مؤسّسة لجمعيّة «باحثات»، وعضوة سابقة في الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية - لجنة سيداو (٢٠١٣-٢٠١٦). حصل بحثها حول النساء والنوع الاجتماعي خلال الأعوام ٢٠٠١ -٢٠١١ على «شهادة التميّز في البحث العلمي» من المركز الوطني للبحوث العلمية في لبنان. يمكن الاطلاع على كلّ منشوراتها على مدوّنتها الخاصّة عبر الرابط التالي: www.azzachararabaydoun.wordpress.com.

من عزلة الحروب إلى رحاب بيجِنغ (شهادة)

لم أشارك في المؤتمر العالمي الرابع للمرأة (WCW)، المعروف بـ«مؤتمر بيجِنغ» الذي عقد في العام ١٩٩٥. بدا لي، يومها، أنه سيكون «مهرجانًا» خطابيًّا لا مؤتمرًا. وهكذا كان؛ إذ اكتفى ممثّلو رؤساء الدول الذين ترأّسوا لجان المندوبين الرسمية من الدول المشارِكة في «المؤتمر» بإعلان موافقتهم على «منهاج عمل بيجِنغ» الشهير، وتبنّيه. هذا الإعلان كانت قد جرت مناقشة مجالات اهتمامه الاثني عشر[1] وتمّت الموافَقة عليها في الاجتماعات والمنتديات السابقة التي جمعت ممثّلين حكوميين وغير حكوميين، استضافتهم الأمم المتحدة ومنظّماتها، سواء في مقرّها المركزي في نيويورك، أَمْ في مقرّاتها الإقليمية.

لم أشارك في مؤتمر بيجِنغ، لكنني حضرتُ وشاركتُ في أكثر من ورشة عمل، ومنتدى لبناني وعربي، تحضيرًا له. كنتُ أيضًا، وعلى وجه الخصوص، مشارِكةً في المنتدى الّذي استضافته اللّجنة التّحضيريّة لِـ«المؤتمَر» (Prep. Com. II) في آذار ١٩٩٥، في مقرّ الأمم المتحدة – نيويورك، ومراقِبةً وقائعَهُ. وفيه اجتمعت وفود رسمية ومنظّمات غير حكومية من جميع أنحاء العالم، وكان لبنان وبلدان العالم العربي من بينها، لمناقَشة منهاج العمل الّذي كان سيصدر في أيلول، من السّنة نفسها، عَنِ المؤتمَرِ المَذكورِ، ولإعادةِ صياغتِه.

في ما يأتي، ترجمة لنصّ رسالة كتبتُها بالإنكليزية في حزيران/ يونيو من سنة ١٩٩٥، كنتُ قد أرسلتُها إلى واحدة من منسّقي/ات برنامج «مباراة الشرق الأوسط للأبحاث» MERC (مؤسسة فورد – القاهرة) استجابة لطلبها. كانَ برنامج «المباراة...» هذا، الراعي لمشاركتي في المنتديات، وورشات العمل، والمؤتمرات التحضيرية لمؤتمر بيجِنغ. كنتُ واحدة في مجموعة من الباحثات العربيات اللواتي كنَّ قد حصلن على منح بحثية من البرنامج المذكور، بغية إجراء بحث علمي في حقل الدراسات النسائية. وكنّ، في الوقت نفسه، ناشطات في منظّمات نسوية غير حكومية. هذه الرسالة (المحفوظة نسخة ورقية منها لديّ)، تصف انطباعي عن المنتدى التحضيري في نيويورك والمشاعر التي أثارها فيّ.

وتنمّ لهجة الرسالة عن «انبهاري» بما كنتُ غافلة عنه تمامًا؛ أتكلّم على ما حقّقته الحركة النسائية العالمية خلال السّنوات العشرين التي سبقت انعقاد المؤتمر، إذ إنّ خمس عشرة من هذه السنوات كان لبنان وناسه يعيشون فيها حروبًا من كلّ الأصناف. وكان «المجلس النسائي اللبناني» الذي ضمّ أكثر الجمعيات النسائية المحلية، على سبيل المثال، قد جمّد نشاطه في أثنائها تعبيرًا عن الرغبة في تهميش أنفسنا – نحن النساء- عن الحروب الدائرة. هذا التهميش كان، بالضرورة، انقطاعًا عن الحركة النسائية العربية والعالمية. لذلك، فإنّ المشارَكة في التحضير لـ«المؤتمر العالمي الرابع للمرأة» كانت فرصة، حان وقتها، لاستعادة النشاط النسائي والنسوي عندنا؛ كان حضور هذا المؤتمَر فسحة ثمينة لاستئناف ما كان قد انقطع من العمل النسوي من لقاء، وتواصل، وتعاوُن مع نسويات من كلّ أنحاء العالم.

---

١. يضع إعلان عمل بيجِنغ ومنهاجه الذي تمّ تبنيه بالإجماع من قبل ١٨٩ دولة، جدول أعمال لتمكين المرأة. يُعَدُّ وثيقة السياسة العالمية الرّئيسة بشأن المساواة بين الجنسين، ويحدّد الأهداف والإجراءات الاستراتيجية للنهوض بالمرأة وتحقيق المساواة بين الجنسين في اثني عشر مجال اهتمام، هي الآتية: المرأة والفقر، وتعليم المرأة وتدريبها، والمرأة والصحة، والعنف ضد المرأة، والمرأة والنزاعات المسلَّحة، والمرأة والاقتصاد، والمرأة في السلطة وصنع القرار، والآلية المؤسسية للنهوض بالمرأة، وحقوق الإنسان للمرأة، والمرأة والإعلام، والمرأة والبيئة، والطفلة. حضر المؤتمر أكثر من ١٧٠٠٠ مشارِكة ومشارك، بمن في ذلك ٦٠٠٠ مندوب حكومي في المفاوَضات، إلى جانب أكثر من ٤٠٠٠ من ممثلي المنظّمات غير الحكومية المعتمدين، ومجموعة من موظفي الخدمة المدنية الدوليين، ونحو ٤٠٠٠ من ممثلي وسائل الإعلام. انعقد منتدى المنظّمات غير الحكومية الموازي في هوايرو، بالقرب من بكين، واجتذب نحوَ ٣٠ ألف مشارك. يمكن استرجاع المعلومات التفصيلية من: https://www.un.org/womenwatch/daw/beijing/fwcwn.html Beijing_Decerson_and_Platform_for_Action.pdf

في ما يأتي، نصّ الرسالة؛ وقد أجريتُ عليها تعديلات طفيفة، وذيّلتُها ببعض التعليقات لتحديد معاني مفردات، وللتعريف بأشخاص، كانت أسماؤهم معروفة لدى المرسَل إليها، لكن ليست معروفة لدى قارئ(ة) اليوم.

حزيران/ يونيو ١٩٩٥
عزيزتي ليلى[٢]
تحيَّة من بيروت!

رسالتكِ التي أرسلتِها إليَّ في تاريخ ١٦ أيار/ مايو (وتلقّيتُها في ١٦ حزيران / يونيو!) كانت حافزًا لي للتأمّل في مشاركتي في المنتدى الذي نظّمته اللجنة التحضيرية لـ«مؤتمر بيجِنغ» المنعقد في هذا الرَّبيع، في نيويورك. وطلبك فرصة للتعبير عن انطباعي وعن الأفكار والمشاعر التي أطلقتها تلك المشارَكة.

سأعدّد، بادئ ذي بدء، الأنشطة التي شاركتُ فيها خلال الأيام العشرة التي قضيتها في نيويورك، وهي:

- الاجتماع العام لجميع مندوبي المنظّمات غير الحكومية (الجلسة الافتتاحية للمنتدى)،
- نقاش التعديلات المقترَحة من المنظّمات غير الحكومية على مسوّدة برنامج عمل الأمم المتحدة للمؤتمر، القِسمان «ب» و «ج» (مجالا التعليم والصحة)،
- بضعة اجتماعات لـ الكوكس [caucus] الصحي،
- اجتماعان لـ الكوكس العربي،
- بضع ندوات وورشات عمل حول الصحة النفسية والجسدية للمرأة،
- ندوات عن المرأة في كلٍّ من مجالات الإعلام، والدِّين، والروحانيات، والإحصاء، واللوبيينغ [الضغط]
- بالإضافة إلى جلستَين حواريّتَين من تنظيم الـ كوكس العربي، وقد ترأستُ إحداهما.

«لا عودة على بدء»

كانت مشاركتي في الاجتماع التحضيري الموصوف ذات وقع متعدد الأثر؛ فهي حفّزت ذهني وشحذت همّتي، وأعادت «إحياء مشاعري» التي كان الانزواء في الحياة «القليلة» التي يعيشها ناس الحروب قد عمل على تبليدها، وقلّص مجالات اهتمامها، بالإضافة إلى أنّها أتاحت لي أن أشهد على التقدّم الذي أحرزته النساء في جميع أنحاء العالم، والذي كنتُ قد غفلت عنه بسبب العزلة التي فُرضت علينا. كان جليًّا أنّ هؤلاء النساء قد توصّلن إلى شغل حيّز لهنّ في المجال العام، ثابتات فيه، فما عاد ممكنًا إزاحتهنَّ عنه، ولا حصر وجودهنَّ في المجالات الخاصة، وذلك لأنَّ النّساء الحاضِرات، كما أعلنت السيدة سانتياغو[٣] في الجلسة الافتتاحية «لا عودة على بَدْء»، ووفق ما ردّدت ممثّلات المنظّمات غير الحكومية في هذا الاجتماع، قَدْ «أخذن شؤونهنَّ بأيديهنَّ». وما يثيرُ الاهتمامَ أنَّ «شؤونهنَّ» ما عادت تقتصر على تضمينات أدوارهنَّ الاجتماعية المرسومة في النظام الأبوي، بل توسّعت لتشمل قضايا كانت قبل بضعة عقود من اختصاص الرجال حصرًا؛ أتكلّم على النزاعات المسلَّحة، والاقتصاد، والبيئة... على سبيل المثال لا الحصر، إذ بدا لي وأنا أستمع إلى النساء يتكلّمن أنَّهنَّ يحتضنّ العالَم، وناسه كلّهم، بأذرعٍ مفتوحة.

٢. هي ليلى حسيني، مديرة برامج في برنامج مباراة البحوث في الشرق الأوسط MERC، مؤسّسة فورد، القاهرة. وقد طلبت كتابة انطباعاتي الشخصية عن مجريات الاجتماع المذكور.

٣. المديرة التنفيذية الفلبينية لمنتدى المنظّمات غير الحكومية، وهي كانت من المتحدثين الرئيسين في الجلسة الافتتاحية لـ«المنتدى».

روح الاجتماع وأجواؤه

على أنّ ما لفتني، وكان برأيي أكثر أهمية، هو أنّ هؤلاء النساء، ولدى ولوجهنَّ المجالات العامة، احتفظن بانشغالهنَّ بقضايا المجالات الخاصة و«جلبْنها» معهنَّ إلى «العام». ولعلّ البيان الأبرز على ذلك، هو إدراج «العنف ضد المرأة» ضمن «مجالات الاهتمام» الاثنَي عشر الرّئيسة من ورقة عمل المؤتمر. تُضاف إلى ذلك، جملة من القضايا التي تتحدّى الأفكار، والمواقف، والسلوكيات القائمة على الجندر، بالرّغم من كونها شائعة وراسخة، بل مقدَسة في بعض الأحيان.
كانت حلقات النقاش التي عُقدت حول مجالات الاهتمام بمشروع وثيقة بيجِنغ هي الأنشطة التي أعطت الأجواء السائدة نكهتها؛ هذه الحلقات التي اتّخذت أشكالًا متفاوتة من ندوات وورشات عمل وغير ذلك، كانت الأطر التي استعرضت فيها المحاضِرات والمتدخّلات قضايا مجتمعاتهنَّ الأبرز. وبدا أنّ المتحاوِرات، وحين كانت وجهات النظر متباينة، يركّزن على القضايا، لا على الأفراد وانتماءاتهم. وأنا شهدتُ على التعاطف والتسامح بين النساء من مختلف الثقافات، والأعراق، والعقائد. لقد وفّرت المناقشات التي أعقبت العروض فسحة للتبادل، وكانت كشّافة عن أوجه التشابه والاختلافات، وأتاحت الفرصة للحاضرين والمشاركين لتبادل المعلومات، والخبرات، والمنشورات... والوعد بمزيد من التواصل.

نشاطات ومهارات

لم أتابع من كثب مسار عملية اللوبيينغ التي مارسَتها المنظّمات غير الحكومية مع مندوبات الحكومات الرسمية ومندوبيها، بالرغم من أنّ اللوبيينغ هذا هو غرض رئيس من أغراض عقد هذا المنتدى؛ آثرتُ حضور الأنشطة التي تدور حول اهتماماتي البحثية، سواء كان ذلك في الاجتماعات العامة، أم في اجتماعات المجموعات/ الـ كوكس المختلفة. على سبيل المثال، في الاجتماعات العامّة التي ناقشت فيها المنظّمات غير الحكومية مسوّدة برنامج عمل الأمم المتحدة، وتقدِّمت بتعديلات عليها، لاحظتُ، آسفةً، أنّ مندوبي المنظّمات غير الحكومية العربية - بدوا هامشيين، إذ سيطرت الخبيرات من بلدان، من مناطق مختلفة من العالَم، على المناقَشات المذكورة في الموضوعات ذات الصلة بالقسمَين «ب» و «ج» من الوثيقة. هؤلاء قاربْن الموضوعات باحتراف وبجهوزية لافتَين، وَكان واضحًا أنَّهنَّ على دراية بتقنيات اللوبيينغ، وبدت حججهنَّ قائمة على خلفية معرفية ومتابعة لقضايا المرأة في مجتمعاتهنَّ، كما في أنحاء العالم. هؤلاء النساء يُتقنّ اللغة الإنجليزية، ومتمكّنات من مفردات خطاب الأمم المتحدة وعباراته. علاوة على ذلك، بدت لي أنشطة المنظّمات غير الحكومية التي شاركتُ فيها نتاجًا نهائيًّا لسلسلة من الأنشطة التي لم نكن - نحن اللبنانيات - على معرفة بها. ولاحظتُ أيضًا أنّ المنظّمات غير الحكومية في بلدان أخرى قد طوّرت طروحاتها استنادًا إلى نشاطات محدّدة نفّذتها بين القواعد الشعبية في مجتمعاتها، ومن ثمّ نُقِلَتْ نتائجها من جانب القيادات النسائية، بوصفها من انشغالات هذه القاعدة وهمومها، إلى مراتب أعلى من اتّخاذ القرار، لتُصاغ منها استراتيجيات تستحق الضغط على حكومات بلادهنَّ، إن في إطار مجتمعاتهنَّ أم أمام مندوبي هذه الحكومات في اجتماع عالمي.

ما أقوله لا ينال من قيمة مشارَكة المنظّمات اللبنانية (والعربية) في هذا الاجتماع. على العكس من ذلك، كانت هذه المشارَكة كشّافة عن قصورنا، ومناسَبة ثمينة للتعلّم ولحشد التعبئة حول القضايا والاهتمامات التي تطرحها النساء في جميع أنحاء العالم، ويعملنَ على تطويرها، وَيُؤمل أن توفّر لنا هذه المُشاركة الحافز للعمل الجادّ المطلوب على جميع المستويات، لالتقاط ما غاب عنّا، ولِتعويض السنوات التي أضعناها حين كنّا واقعات في أفخاخ حروبنا المتناسلة.

على الصعيد الشخصي، كان لي أن ألاحظ أنَّ نسويّتي (الخاصّة) قد تطوّرت، عبر السنوات، على نحوٍ يشبه بشكل لافت نسوية كثيرات من النساء اللواتي قابلتهنَّ في هذا المنتدى، أفرادًا ومجموعات، ومن مختلف الانتماءات القومية والثقافات الاجتماعية. ومن ذلك أنّ خطاب هؤلاء النساء لم يكن يشوبه «الغضب» الذي حرّك الخطاب النسوي في الستينيات والسبعينيات، بل ساده اتجاه بدا مهمومًا برفاه جميع النساء والرجال، من جميع الأعمار، والأعراق، والمعتقَدات، والتوجّهات الجنسية، المهمَّشين والمهمَّشات منهم بشكل رئيس. كان جليًّا أنّ هؤلاء النساء يناضلن من أجل المساواة، لأنها ضرورة لجعلهنَّ أكثر كفاية في تطوير مجتمعاتهنَّ، ولخلق مساحة أوسع وفرص أفضل لهنَّ ليكنّ ناشطات/ مشارِكات في النضال من أجل إحقاق السلام العالمي. لاحظتُ، أخيرًا، أنّ المطالَبة بـ«المساواة التامة» بين الجنسَين، لأجل «توكيد الذات»، ما عادت بارزة في انشغالات هؤلاء النساء.

تقييم

أتقدّم، أخيرًا، بملحوظة ثانوية حول تعاون أعضاء مجموعة الباحثات العربيات المدعومات من «مباراة البحوث للشرق الأوسط» MERC لأجل حضور الاجتماع التحضيري في نيويورك. إنَّ الاجتماع المذكور سبقه مباشرة، وكما تعرفين، لقاء جمعنا معًا في القاهرة. في هذا اللقاء، أظهرت المجموعة المذكورة قدرة رائعة على التواصل السلس والتبادل المثمر، أفضت إلى تطوير أفكارنا وبلورتها معًا. إنَّ عقد لقاءات يومية مماثلة في نيويورك، لو تمَّ تنظيمها، لكان من شأنه أن يكون فرصة ثمينة للارتقاء بالتجارب الفردية ومعانيها، ولكن لسوء الحظ، هذا لم يحدث. آمل أن تُخلَقَ فسحات شبيهة في أوقات لاحقة.

اسمحي لي، أخيرًا، عزيزتي ليلى أن أعبّر لكِ عن تقديري لحسن إدارتك الأمور في هذا المنتدى. كما أودّ أن أشكر MERC- مؤسَّسة فورد و «تجمُّع الباحثات اللبنانيات»[٤] (الذي كنتُ مبعوثة، ومنى خلف،[٥] في إطاره إلى المنتدى) لإعطائي فرصة فريدة كي أكون شاهدة على مسيرة التحضير للمؤتمر العالمي الرابع للمرأة. كان اشتراكي فيه محرِّكًا لي للتعرّف بالملموس إلى الأبعاد الرَّئيسة التي تحيط بأوضاع النساء وشواغلهنَّ، وجعل اهتماماتي وأنشطتي البحثية في سياق متناغم معها، كما عزّز قناعتي بأنّ إجراء بحوث حول المرأة والجندر - وهو ما أفعله - هو من بعض تعابير نسويّتي، وبأنّ «تجمُّع الباحثات اللبنانيات»، أخيرًا، هو ضرورة موضوعية في العالَم العربي اليوم، ولديه الكثير ليقدّمه في سبيل تطوير البحوث في حقل الدراسات النسوية في مجتمعاتنا.

مع المودّة،
عزة شرارة بيضون

٤. «تجمُّع الباحثات اللبنانيات» هو منظَّمة غير حكومية أنشئت في العام ١٩٩٣. للمزيد يُنظر في الوصلة: http://www.bahithat.org
٥. منى خلف كانت أستاذة مساعِدة في الجامعة اللبنانية الأميركية، وعضوة في «تجمُّع الباحثات اللبنانيات».

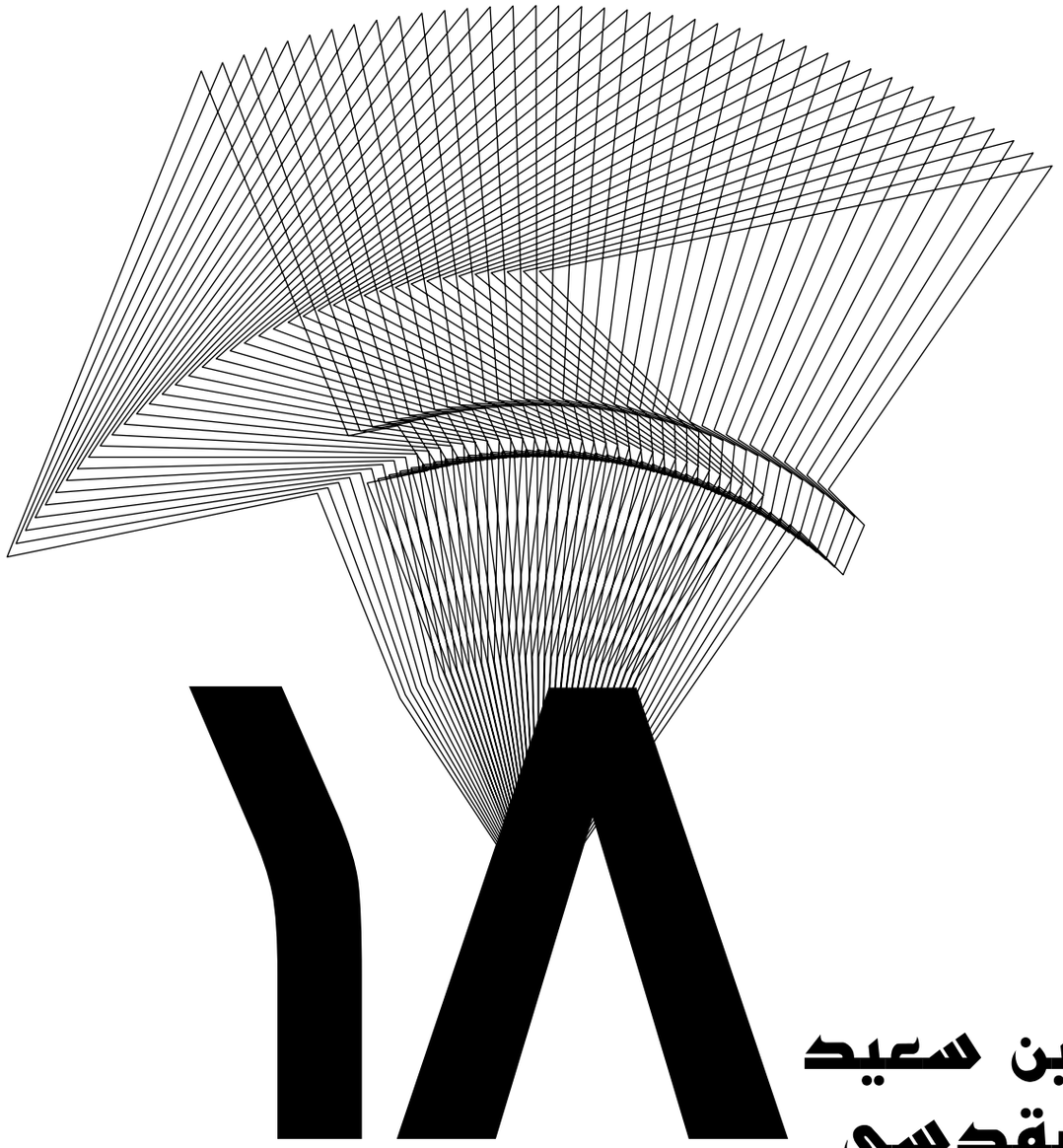

جين سعيد المقدسي

ولدت في القدس ونشأت في القاهرة. مؤلفة كتاب «شتات بيروت: مذكّرات حرب Beirut Fragments: A War Memoir(نيويورك، ١٩٩٠)؛ وكتاب «جدّتي، أمّي وأنا: ثلاثة أجيال من النسوة العربيات Teta, Mother and Me: Three Generations of Arab Women (لندن ٢٠٠٥، نيويورك، ٢٠٠٦).

بعد الحرب الأهلية: الناشطات والنسويات في التسعينيات

على مدار سنوات الحرب الطويلة، والالتحام مع العائلة والجيران بسبب الخوف والإنزعاج اللذين عايشناهما في ملجئنا تحت الأرض في رأس بيروت، لاحظت تحوّلًا طفيفًا في علاقات القوّة بين الأزواج والزوجات.

يبدو أنَّ الرجال يفقدون قوّتهم؛ في بعض الأحيان ينهارون في الملجإ، بينما تعمد نساؤهم إلى مواساتهم وتهدئة الجميع. وَنتيجة الانفصال عن علاقاتهم وروابطهم السابقة مع المصارف، والمحامين، والدولة ومؤسّساتها، وجدوا أنفسهم في فضاء منزلي جديد لم يعرفوا عنه شيئًا، حيثُ أصبح الأزواج أكثر اعتمادًا على زوجاتهم، وبالتالي أضحَتِ النساء أقوى منهم. والأهمّ أنهنَّ أصبحن مدركاتٍ قوّتهن المتزايدة.

أمّا في خارج الملجإ فقد أمستِ العديد من النساء مسؤولاتٍ عن أسرهنَّ بعد هجرة أزواجهن للبحث عن عمل في الخارج، أو بعدما قُتلوا أو اختفوا. لم يكن على أولئك النساء التغلّب على الصعوبات الاقتصادية فحسب، بل بذل جهود بطولية أيضًا لضمان سلامة أطفالهنَّ ورفاههم - وغالبًا أهلهنَّ. وبالتالي أصبحن أقوى كلّما اضطررن إلى تولّي المزيد من المسؤولية، وكلّما اتسعت دائرة مسؤولياتهنَّ. وبما أنَّ احتمال تعرُّض النساء للاعتداء أو الاختطاف على الحواجز هو أقلّ بكثير من الرجال، فقد طوّرنَ القدرة على التحدّث في اللحظات الخطيرة، بعدما كانت أصواتهنَّ غير مسموعة لفترات طويلة قبل الحرب.

أخيرًا، انتهت الحرب، واستُبدِلت بصراعٍ سياسي مستمرّ حتّى اليوم، إذْ كانت الدولة، على الرغم من كونها لا تزال في حالة يُرثى لها، تحاول إعادة تأسيس سلطتها الأبوية. وقدْ تساءلتُ عمّا إذا كانت النساء، بثقتهنَّ الجديدة المُكتسَبة، سيطالبن بمكانة أعلى في المجتمَع الذي يُعاد تشكيله مقارَنةً بالمكانة التي كنَّ عليها في السابق.

لقد كنت نسوية شغوفة لسنوات عديدة، لكن في أثناء الحرب انشغلتُ بالتدريس وبواجباتي العائلية، ما حال دون مشاركتي في المجتمَع المدني. لكن بعد الحرب، بدأت البحث عن مجموعات نسائية، وحضرت اجتماعاتها بحماسةٍ.

في حزيران/يونيو ١٩٩٥، نُظّمت فعالية رائعة، إذِ انعقدت «محكمة النساء» العربية في فندق كارلتون الفاخر المُطلّ على البحر. وفيها، كانت القاضيات اللواتي جلسن على منصّة مرتفعة محاميات معروفاتٍ، من عدة بلدان عربية، وكان الجمهور مكوَّنًا بأغلبه من نساء جلسن صاغياتٍ في أثناء استماعهنَّ إلى الوقائع. وقفت نساءٌ من جميع أنحاء المنطقة، واحدة تلو الأخرى، أمام المحكمة، وتحدَّثنَ عن سوء المعامَلة التي يتعرّضن لها من أزواجهنَّ، أو عائلاتهنَّ، أو السلطات السياسية. كانت الفعالية شأنًا أنثويًّا بالكامل، وكان التضامن النسائي واضحًا، حيث كانت الشهقات الجماعية تتوالى مع سرد بعضٍ من أكثر القصص فظاعة. أتقدم ببعض الأمثلة.

تحدّثت شابّة موريتانية عن إخضاعها لعملية تشويه الأعضاء التناسلية في سنّ السادسة، قبل إرسالها في العاشرة إلى «مزرعة» خاصّة مع فتيات أخريات، حيث جرى تسمينهنَّ - استخدمتْ كلمة «التعليف» - كما لو كانت خروفًا يُعدُّ للذبح. أُطعِمَتْ قسرًا حتّى بلوغها سنّ الثانية عشرة، حين قُدِّمَتْ إلى رَجُلٍ مُسنٍّ بوصفها عروسه الجميلة السمينة. إلى ذلك، تحدّثت مراسِلة مصرية عن امرأة ريفية مُسنّة تعرّضت خلال حياتها الزوجية الطويلة للجلد من زوجها الَّذِي كان يصعد في كلّ ليلة إلى كرسي، لينزل السوط من أعلى

خزانة مرتفعة. وفي إحدى الليالي، عندما كان يهمّ بالصعود، سحبت الكرسي من تحته وضربته حتّى الموت، وها هي الآن تقضي عقوبة السجن مدى الحياة.

أمّا إحدى القصص التي لقيت صدىً خاصًّا لديّ، فسردتها شابّة فلسطينية عاشت مع زوجها ووالدته، وتعرّضت للتعذيب اللفظي الوحشي على أيديهما بشكل مستمرّ، وكذلك للسخرية من طهوها، وللتّحقير بوصفها مرارًا بال«حمارة». وعلى الرغم من أنَّ بعض الحاضرات ضحكن بعد سردها القصّة، إلّا أنني رأيت دموعها، وشعرت بغضبها الشديد، وبالألم في داخلها. إلى ذلك، روت امرأة سودانية، سُجِنت بسبب نشاطها السياسي، الظروف القاسية للحياة الّتي كابدتها في السجن، ومن بينها عدم وجود فوط صحّية جاهزة، حيث كان على السجينات تمزيق ملابسهنَّ لصنع الفوط، ومن ثمّ غسلها، وإعادة استخدامها من امرأة إلى أُخرى.

لقد تركتني هذه الفعالية التي امتدّت على مدار ثلاثة أيام مُحطَّمةً، بسبب عمق المعاناة التي توقّعت أن تؤدّي إلى ظهور عاصفة سياسية. لكنَّني دُهِشت وخاب أملي، لأنَّ المحكمة النسائية لم تترك أيَّ أثر عام، لا سيّما في الخطاب السائد؛ لم أسمع شيئًا عنها في أيٍّ من اجتماعات النساء التي حضرتُها، لدرجة صرت مهووسة بالتساؤل عن سبب غياب أي ردّ فعل بعد عودتي إلى المنزل!

دفعني هذا التّساؤل إلى مواصَلة البحث عن التجمّعات النسائية، آملةً العثور على ما يناسبني، فحضرت دوريًّا اجتماعات «لجنة حقوق المرأة اللبنانية» برئاسة الناشطة الساحرة ليندا مطر، التي انضمّت إلى الحركة النسائية، لا من خلال قراءة النصوص النسوية، وإنّما من خلال تجربتها كعاملة شابّة في مصنع. وكان الهدف الأساسي لمجموعتها تغيير القوانين المُجحِفة في حَقِّ النساء.

بعد حضور العديد من الاجتماعات، بدا لي أنَّ هناك شيئًا ناقصًا، إذ أصبحتُ مقتنعة بأنه لا يمكن تحقيق هذا الهدف من دون إحداث تغيير تحوّلي في حياة النساء، ولهذا كنّا في حاجة إلى نظرة أكثر تعقيدًا، تنغمس في الثقافة، واللغة، والتاريخ.

دعيتُ مرّة إلى الانضمامِ إلى مظاهَرة أمام مبنى البرلمان، خلال مناقَشة النوّاب التغييرات التي اقترحتها مجموعتنا في قوانين العمل. ذهبت إلى وسط المدينة للمشارَكة، متوقِّعَةً العثور على حشد كبير، لكن لم يكن هناك سوى عدد قليل من الناشطات المتفانيات، فيما لم أجد عاملة واحدَة. سألت نفسي، أين عاملات المصانع والمزارعات، والعاملات في المنازل، وحشود النساء المظلومات في المجتمَع ككلّ، لا في القانون فحسب؟

افترضت أنهن دُعُوا إلى المُشارَكةِ في المظاهرة، ولكنّهن تخلّفن خوفًا من فقدان وظائفهن. لكن، أليس هذا ثمنًا ضروريًّا، ويجب دفعه مقابل أيّ تقدّم منشود؟ ألم يكن الثمن نفسه الذي دفعه كثيرون سابقًا ولمرّات عدّة؟ ألم تكن النساء العاملات في المصانع، وعضوات حركة الاقتراع في أوائل القرن العشرين في بريطانيا والولايات المتحدة يتعرّضن للضرب، وحتّى للسّجن؟ انظروا إلى ما تخاطر به النساء المُضرِبات في بنغلادش اليوم، احتجاجًا على وضعهنَّ المُزري في مصانع الملابس التي تشبه مصايد الحريق. انظروا إلى التاريخ الطويل لاحتجاجات النساء في إيرلندا، من أجل الوصول إلى قوانين إجهاض أكثر استنارة، وَرُوا كيف تحدّت النساء والفتيات الفلسطينيات الاحتلال الوحشي. ألا تتعرّض أولئك النساء وكثيرات غيرهنَّ لمخاطر كبيرة؟

لقد طرحتُ هذه الأسئلة في الاجتماع التالي، وَاستمعَتْ إليَّ زميلاتي بأدب، لكنَّ الأمر لم يذهب إلى أبعد من ذلك، وشعرتُ بخيبة أمل من ردّ الفعل؛ فعلى الرّغم من أنَّ القتال ضدّ القوانين المُجحِفة كان جانبًا حاسمًا في تحسين حياة النساء، إلّا أنَّ الهدف الأساسي يجب أن يكون إنشاء حركة جماهيرية لا يمكن لأحد أن يتجاهلها، والتي من دونها لا يمكن إحراز أيّ تغيير جدي.

بدأت أشعر بفجوةٍ –كتبتُ عنها لاحِقًا– أو حتّى باغتراب بين النسويات والناشطات. تُعدُّ النسوية، بطبيعتها، تحليلية، وتدرس العالم، وهياكل قوّته، وثقافته، ومجتمعه بعين نقدية حادّة. أمّا الناشطات، من ناحية أخرى، فلديهنَّ أهداف أكثر عملية، ويملن إلى الحفاظ على علاقات جيّدة مع السُّلطة، لا لأنهنَّ يحببنَ مَنْ فيها أو يوافقن على آرائهم، إنّما لاعتقادهنَّ أنَّ هذا النهج يمكن أن يسهِّل تحقيق أهدافهنَّ. حيثُ إنَّ هاتينِ المجموعتينِ إذا اتّحدتا، وتفاعلتا بشكل مباشر، وصقلتا أفكارهن معًا، يمكنهما تشكيل قوّة هائلة.
بعد سنوات من تلك المُظاهَرة، انضممت إلى مجموعة تضمّ نساء من مختلف الجمعيّات، من ضمنها «لجنة حقوق المرأة اللبنانية»،

بهدف إنشاء شبكة من المنظّمات غير الحكومية، لتعزيز مواقع النساء، عبر توحيد الصفوف والمَطالب. اجتمعتِ المشاركِات بصفتهنَّ الشخصية، وليس بالضرورة بصفتهنَّ ممثّلات رسميات عن المجموعات التي ينتمين إليها. كان من المُفترض الخروج بقائمة من المَطالب المُشترَكة، لكن ثبت أنَّ قول ذلك أسهل من فعله، لأنَّ المجموعات المختلفة، لديها آراء مختلفة جدًّا، وأحيانًا متناقضة بالكامل، حول مجموعة متنوّعة من القضايا، والأمرُ نفسُهُ ينطبقُ على الأفرادِ في كُلٍّ منها؛ فبدلًا من توحيد القوى وتنقيح بعض خلافاتها، نشأ تنافُس مثير للانقسام بين الحاضرات. إضافة إلى الاختلافات الأيديولوجية بينهنَّ، برزت أيضًا صراعات شخصية واضحة.

على سبيل المثال، عندما طُرحت مسألة الاغتصاب، رغِب بعضنا في وضع الاغتصاب الزوجي على جدول الأعمال، لكنّنا تلقينا صفعة على الفور من بعض النساء المحافِظات، كوننا اعتقدنا أنَّ هناك إمكانية قانونية لاتهام رجل متزوّج باغتصاب زوجته! اختلفنا أيضًا على موضوع آخَر يتعلّق بالمطالَبة بالسماح للنساء المتزوِّجات من أجانب بمنح أزواجهنَّ وأطفالهنَّ جنسيّتهنَّ، حيثُ إنَّ معظم عضوات المجموعة أردنَ حصر هذا الحقّ بالأطفال، لكن عندما أصرّ بعضنا على إدراج الزوج الأجنبي، كان الردّ «أنّهم» - أي أعضاء البرلمان - لن «يعطونا» أبدًا مثل هذا الحق. كنت أغلي من الغضب من مجرّد التفكير في وُجُوب تخفيض معايير مطالبنا طواعية، لجعلها أكثر قبولًا من المؤسَّسة الأبوية، أو عدّ الحقوق بمَنزلة هدايا تُمنح لنا. والجدير بالذكر أن حتّى يومنا هذا لم يتغيّر قانون الجنسية.

انضمَمْت إلى العديد من المنظَّمات النسائية الأُخرى المُستعِدَّة لخوض معركة نسوية، من ضمنها «تجمُّع الباحثات اللُّبنانيات» الذي انطلق بشكل غير رسمي خلال الحرب كمنتدى أستاذات جامعيات من كلا جانبي الخطّ الأخضر، بهدف الالتقاء ومناقَشة أعمالهنَّ، قبل أن يحصل على ترخيص رسمي من وزارة الداخلية في العام ١٩٩٢.

تتمثّل الوظيفة الأساسية لهذا التجمع في إفادة الباحثات، عبر توفير مساحة لإنتاجهنَّ المعرفي ولتبادلهنَّ الفكريَّ، حَيثُ تقرأ العضوات أعمال بعضهنَّ، ويعلّقن عليها، ويشاركن معًا في مشاريع بحثية. أنتجتِ المجموعة العديد من الكتب، ونظّمت كثيرًا من المؤتمَرات الدولية الكبرى. لكن تصرّ بعض عضوات الجمعيّة على وجوب عدم عدِّها منظّمة نسوية، على الرّغم من أنَّ معظمنا نسويات بالفعل، ومعظم العمل الذي نمارسُهُ يركّز على النساء.

لم أفهم أبدًا، ولليوم، لماذا تبدو العديد من النساء مُعاديات للنسوية!

كانت التسعينيات فترة صراعين سياسي وعسكري مُكثّفين، وَتخلّلتها اعتداءات إسرائيلية مُتكرّرة، واحتلال عسكري إسرائيلي وحشي للجنوب مفروض منذ العام ١٩٧٨، ومقاوَمة مُسلّحَة انتهت بالتحرير الجنوب في العام ٢٠٠٠. في غضون ذلك، انخرط مؤيّدو رفيق الحريري ذي الثراء الواسِع وَمُعارِضُوهُ، في خلافات سياسية مريرة هيمنت على الخطاب العام. وكانَ الحريري قد أصبحَ رئيسًا للوزراءِ في أواخِرِ العام ١٩٩٢.

كان من المحتَّم في هذا المناخ السياسيّ المشحون أن تنحسر مطالب النساء؛ منذ بداية فترة ما بعد الحرب، كانت مشارَكة النساء في السياسة مطلبًا رئيسًا، وَأصبحتِ الكوتا النسائية في البرلمان محور نقاشات الاجتماعات التي حضرتُها، لكن حتّى الانتخابات الأخيرة في العام ٢٠١٨ لم يكن هناك حماسة شعبيَّةٌ لحصولهنَّ على هذه الكوتا. كما أصبح طلب مشارَكة النساء السياسية أكثر إلحاحًا بعد مؤتمَر بكين في العام ١٩٩٥، وتحديدًا بعد توقيع لبنان على اتّفاقيّة القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو) في العام ١٩٩٧.

سجّل لبنان، مثل العديد من الدول العربية الأخرى، نقاطًا اعتراضية عدّة على مواد الاتفاقية، ما أثار حتمًا معارَضة في الأوساط النسائية. شاركتُ في بعض النقاشات في «لجنة حقوق المرأة اللبنانية»، والتي دارت حول الردّ الرسمي للدولة، حَيثُ أُعلِن عن المواقف المُتفَق عليها في الاجتماعات في سلسلة من المؤتمَرات الصحافية، ولكنّني لا أعلم إذا ضُمِّنت هذه المواقف في تقاريرَ رسميَّةٍ، أو تركت أيّ أثر في النقاشات الوطنية، كوني انسحبت تدريجًا من الاجتماعات.

حضرتُ أيضًا بعض الاجتماعات التحضيرية لمؤتمَر بيجنغ، وَشعرتُ حينها بالغربة بسبب اللغة المُستخدَمة. شعرتُ بأنَّ شغف اللغة النسوية الأصيلة والغضب الذي يكتنزها جرى احتواؤُهما، حيثُ حُوِّلتْ لغةً جامدةً بلا حياة؛ لغةَ منظمة الأمم المتّحدة، والخطاب الخشبي القاسي للدول والحكومات. عندها أدركت أنَّ الأمر لا يعنيني كثيرًا.

عُقِدت اجتماعات إقليمية عدّة في مقرّ «الإسكوا» في بيروت بعد مؤتمَر بيجنغ، وقدّم العديد من ممثّلي الحكومات العربية تقاريرهم عن التقدّم المُحرَز في قضايا صحّة النساء، وتعليمهن، وتمثيلهن السياسي. كان من المتوقَّع أن يمنحوا أنفسهم درجاتٍ عاليةً من التقدير، ما دفعني إلى التّساؤُلِ عمّا إذا كانوا يعتقدون أنَّ الحركة النسائية الحقيقية يمكن الاستغناء عنها.

شعرتُ منذ البداية بأنَّ هدف الحركة النسائية يجب أن يركّز على جذب الجماهير، بغيةَ حشدِ عددٍ كافٍ من النساء، والمتعاطفين من الرجال – لماذا لا؟-- للعمل معًا، لا للتعبير عن المطالب فحسب، وإنّما لتحقيقها. وعندما كانت تغيب التجمّعات، والمظاهَرات، والاعتصامات الجماهيرية، كنت أتساءل عن سبب غيابها وعدم تنظيمها؛ هل لأنَّ النساء لا يرين مشكلة في وضعيتهنَّ إلّا عندما يتأثرن شخصيًّا بواحد أو بآخَر من القوانين الجائرة؟ ألم يكن علينا أن نعمل على خلق شعور قويّ بالتضامن، ينطلق من الاعتراف بأننا معنيات كلّنا بمشكلات بعضنا؟

إنَّ طريقة التفكير هذه مُستمدَّةٌ، بعمق، مِنَ الانتفاضة في الستينيات وأوائل السبعينيات في الولايات المتّحدة، حيث كنت أعيش أنا وعائلتي، إذ إنّني لَمْ أتأثّر بأحداث هذه الفترة الثورية فقط، وإنّما تأثّرتُ بشدّةٍ أيضًا بطرحها، وبخطابها العام. استقطبت حركة الحقوق المدنية للسُّود، والحركة المناهِضة لحرب فيتنام، وبالطبع الحركة النسوية، حشدًا جماهيريًّا، وأنتج كلٌّ منها نصوصًا أثّرت في أعداد هائلة من الناس.

حتى الخلافات في داخل تلك المجموعات ازدادت، بسبب التّفاوُت الحادّ في وتيرة نشرها، وفي وجهات النّظر بينَ أفرادِها؛ كان لتجمُّعات الحقوق المدنية، على سبيل المثال، جدالات مُهمّة حول استخدام العنف. إلى ذلك، قوبلت بعض النصوص النسوية في الستينيات بغضب النساء الأميركيات من السود والسكّان الأصليين اللواتي وجدنها نخبوية، ولا صلة لها إلّا بالطبقة الوسطى البيضاء.

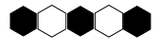

كانت هذه النصوص والنصوص المُضادة درسًا مهمًّا لي، عندما حاولت التفكير في المشكلات التي واجهتُها مع الحركة النسائية في لبنان في التسعينيات، والتي وجدتُها شديدة الترويض، ومحافِظةً على الدّولةِ ومؤسّساتها العنفية، ومراعِيَةً إيّاها.

صُدمت مرّة عندما حضرت اجتماعًا للاحتفال بعيد الاستقلال، دُعِي إليه رئيس الوزراء آنذاك لمخاطَبة الجمهور المؤلَّف بشكل عام من النساء، حيث عُلِّقت لافتة ترحيبية كبيرة به في الشارع الملاصق لمكان الاحتفال. حينها، كرّر رئيس الوزراء في خطابه فكرة قاسم أمين، وهي أنَّ النساء هنَّ «أمّهات الأمّة»، وبالتالي يجب أن يتحرّرن ويتعلّمن من أجل خلق أبناء أكثر استنارة، لخدمة الوطن بشكل أفضل. وقد قُوبلَ خطابه الذي يمجِّد النساء كوسيلة لتحقيق غاية وليس لكونهنَّ غاية بذاتهنَّ، بحفاوة بالغة.

كان ردّ فعلي مُختلفًا تمامًا: لِمَ نحيِّي الدولة الّتي مِنَ المُفترض أن نعارض قوانينها القمعية للنساء؟ ولِمَ نحيِّي ممثّليها الراعين؟ اسمحوا لي أن أقول هنا إنَّهُ ليس لديَّ أيّ رغبة على الإطلاق في التقليل من شجاعة الناشطات اللواتي يعملن بجدّ، ويكرّسن حياتهنَّ لتحسين ظروف النساء، بل على العكس، أكن احترامًا كبيرًا لهنّ ولإنجازاتهنّ، خصوصًا في جهودهنّ الدؤوبة لتحسين القوانين. لكنّني ما زلت مُصرّة على الحاجة إلى نهج أكثر راديكالية وانتشارًا للتحرّر، وإلى إنشاء كتلة حاسمة من النساء اللواتي يمكن أن يشكّلن معارَضة موثوقة، تواجه هياكل السلطة القائمة.

من بين الاتجاهات النسوية التي كان لها تأثير عميق فيَّ، تبرز دراسات نسوية تهدف إلى إنتاج محتوى فكري حول النساء، لإخراجهنَّ من الظلام الذي وُضِعْنَ فيه إلى فضاء معروف ومُعترَف به، بصفتهنَّ كاتبات، ومُفكِّرات، وموسيقيات، وفنانات، وغيرهنّ. ظهرت سير

جديدة لنساء من الماضي، من ضمنهنّ دوقات، وراهبات، وممثّلات، وكاتبات، ومستكشِفات، غنيات وفقيرات، وريفيات ومتمدِّنات. كما برزَتْ كتب عن الولادة، وتطوُّر المجتمَع البرجوازي، والمعنى الاجتماعيّ للأعمال المنزلية. وقد أنتج هذا النوع من البحث فهمًا ثريًّا للاختلافات المتأصِّلة في المعرفة الجماعية عن النساء.

أصبحتُ مُبشِّرة مهووسة بإجراء بحث عن سلفاتنا العربيات؛ لم أكن الوحيدة التي تجهلُ قصصهنَّ، بل يبدو أنَّ معظم أصدقائي وزملائي يعرفون القليل عنهنَّ، وأقصد بذلك المعرفة الحقيقية، لا الأقاويل المتداوَلة. استُخدِمَتْ عبارات «التراث» بشكل دفاعيّ وعلى نطاق واسع، كسهم حادّ في ترسانة الحجج المُحافِظة المُستخدَمة لإسقاط الأفكار، والرؤى، والإصلاحات الجديدة المُتعلِّقة بالمرأة، ومن ضمنها الحفاظ على أُسلوب «الحياة التّقليديّة» للنّساء، والتّمسُّك به، وعدم السّماح لأيّ طرائِق جديدة بتقويضِ ثقافتهنّ.

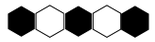

في العام ١٩٩٠ تُوفيت والدتي، فأعاد حزني ذكرياتي عن جدتي التي تحطَّمَ قلبي على وفاتها في العام ١٩٧٣. وَلتهدئة حزني جزئيًّا، بدأت في دراسة مُقارَنة مطوَّلة لحياة والدتي ووالدتها، وتأثيرهما في جيلي.

وما إن وضعْتُ القلم على الورق، اكتشفتُ أنني لا أعرف شيئًا عن حياتهما المُبكرة، لذلكَ، ومن أجل فهمهما بشكل أفضل، قرّرت البحث لا في تفاصيل حياتهما فقط، بل أيضًا في الملابس التي ارتدتاها، والأغاني التي غنّتاها، والمدارس التي تعلّمَتا فيها، والموادّ الّتي درستاها في تلكَ المَدارس، ومعلّميهما، والطبيعة الحميمة لأسرتيهما، ومكانهما في مجتمعهما واقتصاده.

عندما بدأت عملي، وجدتُ أنه لم يكن هناك شيء مكتوب عن النساء العربيات في الماضي القريب، باستثناء سلسلة من العناوين عن «رائدات الحركة النسائية»، ما أكّد لي وجود حاجة إلى دراسة حياة طيف واسع من النساء ومشاركتهنَّ في المجتمَع والحداثة، لا حياة حفنةٍ مِنْ نساء الطّبقةِ العُليا فَقَط.

كان واضحًا غياب اهتمام المؤرِّخين العرب البارزين اللذين استشرتهم بموضوعاتِ النّساء. لذلكَ، اضطررت إلى وضع خطّتي البحثية الخاصّة بالاستناد، بشكل رئيسي، إلى المذكِّرات المكتوبة بناءً على طلبي من والدتي وإخوتها في أثناء مرضها الأخير، بالإضافة إلى المقابَلات، والأقاويل، والرسائل العائلية، والوصفات، والأزياء.

في أثناء عملي، اكتشفت العديد من الأمور التي أدهشتني عن سلفاتي، بسبب تناقضها مع أفكاري المُسبقة؛ وجدتُ، على سبيل المثال، أنَّ جدّة والدتي مريم التي عاشت مئة عام وتوفّيت في الأيام الأولى من القرن العشرين، كانت تُعرف في الجليل بأنّها فارسة. لقد غيّر هذا الاكتشاف رؤيتي عنها تمامًا، وبالتالي، عن نفسي. يمكنني الآن رؤيتها، وهي لا تجلس خاضعة في المنزل، بل وهي تمتطي حصانها، وتطير فوق البراري مع الرجال. عُرِفت «ستي ام شكري»، كما كانت أمي تشير إليها، بشجاعتها أيضًا: فعلمت مثلًا انها إذا رأت حيّة على طريقها ما كانت لتصرخ وتطلب النجدة، بل كانت لتسحق رأس الحيّة بحذائها!

اكتشفت أنَّ والدة أمّي كانت معلِّمة محترِفة، وأنها حصلت على زواج رومانسي للغاية. علمتُ أيضًا أنَّ جدّي الذي كان قسًّا بروتستانتيًّا، اعتاد أن يشارك في الأعمال المنزلية، وكانت إحدى مهامه الروتينية هرس الحمص والكبّة في الجرن الحجري الكبير بمطرقة ثقيلة. كما عرفتُ أنه كان رجلًا طيّبًا يحبّ الحيوانات.

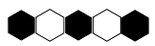

لم يكن جدّاي مطابقَين للصور النمطية عن المرأة العربية الخاضعة والمظلومة، أو الرجل العربي الصارم المُستبدّ، والتي نقلها الرحّالة الغربيون، خصوصًا الكاتبات اللواتي استطعن الدخول إلى منازل الناس العاديين، و«حرم» الأسر الكبيرة. لا يعرف هؤلاء المسافرون

اللغة العربية، لذلك ما كتبوه، لا سيّما المحادَثات والعلاقات الأسرية، كان يعتمد بشكل كبير على خيالهم.
أصبحتُ مُقتنِعةً في أثناء عملي، بأنَّ لدينا كثيرًا من الفروض الواجب إنجازها حول ماضينا؛ فقط إذا فعلنا ذلك، سوف نتمكّن من الحديث عن تاريخنا بيقين، وبثقة أكبر، وفقط إذا عرفنا تاريخنا، سننجحُ في التخطيط لمستقبَلنا.

كان من المفترَض أن يكون هذا المقال سردًا لاستجاباتي الشخصية كنسوية، مع ما كانت تفعله النساء ويقلنَه في الفترة التي تَبِعَتِ الحرب الأهلية مباشرةً. أخشى أن تبدو ردودي سلبية لبعض القرّاء، وفي حال كانت كذلك، فأنا لا أقصدها. عمومًا، مهما تَكُنْ انتقاداتي للحركة النسائية في التسعينيات، فمن الواضح أنها حقّقت إنجازاتٍ أيضًا، إذ لا شكّ في أَنَّ وضع النساء تحسّن خلال العقود الماضية، حتّى لو لم يكن بالقدر الذي نتمنّاه. حاليًّا، هناك جيلٌ جديدٌ من النسويات الشابّات اللَّواتي يتعمّقنَ في تقديم تحليل حديث للمجتمَع، وخلق منصّات جديدة، وسبلٍ حديثة للنقاش، وأشكالٍ أُخرى من الاستقصاء والبحث؛ إنّهنَّ مفكِّراتٌ مستقِلّاتٌ. وعلى الرغم من أنهنَّ قد يختلفن مع بعضهنَّ، لكن لديهنَّ الشجاعة للتمسّك بمعتقداتهنَّ، من دون أي ضغينة شخصية. من هنا، لا يعرفُ إعجابي بتلك الشابّات حدودًا.

كانون الثاني/يناير ٢٠٢١

ISBN 978-9953-0-5459-9

THE KNOWLEDGE WORKSHOP